كتاب الأهالي رقم ٣٨

توني كليف

ترجمة : أروى صالح



نقد الحركة النسوانية*

تقديم : فريدة النقاش



كتاب الأهالي
رقم ٣٨ ديسمبر ١٩٩١

الادارة والتحرير ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت شقة ١٨ القاهرة ج . م . ع
ترسل جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
الاعلانات : يتفق بشـأنها مع الادارة
الاعداد السابقة : توجد نسخ محدودة من الاعداد السابقة من السلسله ترسل لمن يطلبها خارج القاهرة او خارج جمهورية مصر العربية بالبريد المسجل ويحسب سعر الكتاب على اساس ان الجنيه يعادل (دولار) امريكى ويضاف جنيه مصرى داخل مصر على ثمن الكتاب نفقات البريد كما يضاف « دولار » واحد خارجها الى الثمن وتحول اثمان الكتاب بحوالة بريدية باسم الاهالى

كتاب الاهالى سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الاهالى ـ حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ـ مصر

اما وقد صمتت مدافع الامة عن الدفاع .. وحول العدو نيران مدافعه الى جبهة الوعى والانتماء فقد كان لابد وان يصدر كتاب الاهالى ليكون بعض جهدنا المتواضع فى المعركة التى تدور على جبهة العقل ليساهم فى اعادة بناء الجسور المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن والوطن وبين الوطن والامة وبين هؤلاء جميعا والكون الذى نعيش فيه .

ولاننا نعيش فى عصر ثورة الاتصالات الذى يؤدى تدفق معلوماته الى تشوش فى اليقين فان حاجتنا الى العودة للتبشير بالبديهيات واعادة احياء الذاكرة الوطنية لاتقل عن حاجتنا الى التعمق الذى يحيى اليقين لا الذى يشوش عليه .

واذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المساومة والوسطية فان جوهر دور اليسار على صعيد الوعى والانتماء هو الهدم والبناء ذلك ان الامر هنا امر تكوين وتأسيس يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده الى آفاق المستقبل واحلامه .

كتاب الأهالى

ثقافة الهدم والبناء

رئيس التحرير : صلاح عيسى
سكرتير التحرير: د. أحمد الحصرى





تونى كليف

* مفكر إشتراكى وقائد حزب العمال الإشتراكى البريطانى.
* ولد فى عام ١٩١٧ فى فلسطين لأسرة يهودية وشارك منذ سن السادسة عشرة فى الحركة الإشتراكية الفلسطينية، متخذا موقفا معاديا من الصهيونية.
* منذ أواسط الثلاثينات تعاطف مع آراء المعارضة التروتسكية للستالينية.
* فى عام ١٩٤٤ كتب دراسة تحت عنوان: «الإمبريالية فى الشرق الأوسط». وفى عام ١٩٤٥ نشر مقالا بعنوان «الشرق الأوسط عند مفترق الطرق»، بحث فيه أسباب تمسك الإمبريالية بالهيمنة فى هذه المنطقة.
* فى عام ١٩٤٦ وقبل عامين من إعلان الدولة الصهيونية، رحل تونى كليف إلى أوربا ومنذ عام ١٩٥٢ استقر فى بريطانيا.
* فى عام ١٩٥٥ نشر كتابا تحت عنوان «طبيعة روسيا الستالينية» طرح فيه خلافاته مع الحركة التروتسكية حول طبيعة السلطة السوفيتية
* من أعماله الأخرى: - صين ماو - روزا لكسمبورج - الأزمة: عقد إجتماعى أم إشتراكية - تروتسكى (صدر الجزء الثانى منه عام ١٩٩)
* عقب إندلاع الانتفاضة الفلسطينية، شجع تونى كليف زميله فى الحزب «فيل مارشال»، على كتابة كتاب عن الإنتفاضة يبين مواقف حزب العمال الإشتراكى من الصهيونية والإمبريالية وحركة المقاومة الفلسطينية، وقد صدر الكتاب فى عام ١٩٨٩ داعيا الجماهير العربية إلى تحدى الهيمنة الإمبريالية وإسرائيل بوصفها أحد أهم مرتكزاتها

الأهالى

توني كليف

ترجمة : أروى صالح



نقد الحركة النسوانية*

* العنوان الأصلى للكتاب : النضال الطبقى وتحرر المرأة وتم تغييره بمعرفه هيئه التحرير .

تقديم : فريدة النقاش

غلاف : يوسف شاكر

دروس وخبرات لنا

فريدة النقاش

هذا كتاب فى تاريخ النضال النسائى الأوروبى والأمريكى على امتداد قرن أو يزيد، ولكنه أيضا كتاب لنا، لانحن النساء المصريات الطامحات لبناء حركة نسائية اشتراكية قوية وقادرة فقط، وإنما هو لكل الاشتراكيين رجالا ونساء حزبيين ونقابيين مثقفين وعمال، بل لكل المهتمين بقضية المرأة

وتزداد أهمية الكتاب لأن جذور الحركات التى يضيئ لنا عمليات تأسيسها ثم صعودها وانهيارها خاصة فى بداية القرن الماضى كانت قد نشأت فى ظروف ومستوى تطور لمجتمعات تحمل بعض خصائصها سمات مشابهة للمرحلة التى نعيشها نحن الآن، ولما كانت الظروف المتشابهة يمكن أن تخلق سمات متشابهة فأن الخبرة المتراكمة فى هذه البلدان تصبح ذات فائدة

عظيمة لنا.

ويريحنا المؤلف كثيرا إذ يقرر فى بداية كتابه أن نقطة انطلاقه فى تحليل مكانة النساء فى المجتمع هى علاقات الاستغلال الطبقى، ولذا ترتبط الحركة النسائية ارتباطا وثيقا- حتى وهى مستقلة تنظيميا -بالمد والجزر فى الحركة العمالية سواء فى النقابات أو الأحزاب السياسية، وبالأوضاع الاجتماعية الاقتصادية التى كان تدهورها يؤدى بشكل مباشر الى تراجع حركة النساء، وانهيار أوضاعهن.

وتبرز النساء العاملات فى هذا الكتاب شأنهن شأن أى من الجماعات البشرية المضطهدة والتى راودها الحلم على امتداد أربعة قرون منذ نشوء الرأسمالية بعالم تكون فيه الثروة ملكية جماعية، ويتمتع فيه الفرد بحريته، ويتطور فيه الفرد امرأة أو رجلا كانسان متكامل.. مع فارق واحد بين الجماعات المضطهدة الأخرى والنساء هو أنهن غالبا أضعف بسبب الإرث التاريخى والتحيزات التى وضعتهن فى خانة أدنى.

وفى مقدمة الكتاب يكتشف المؤلف أن تحيزات بعض العلماء الرجال ضد المرأة تضرب بجذورها فى القدم، ويفضح- وهو الماركسى- هذه التحيزات بكل نزاهة وقوة، ويبين كيف أن بعض هذه التحيزات قد انحدرت - بالمقلوب- الى تيار رئيس من التيارات الشائعة فى الغرب فى حركة تحرير المرأة وهو الحركة النسوية بشقيها البورجوازى والاشتراكى، ولكنه يبين أيضا كيف أن الاشتراكيين حين نجحوا فى تنظيم النساء وإشراكهن فى النضال الطبقى مع العمال كسبوا قوة إضافية هائلة وكسبت النساء أنفسهن وعيا وخبرة وحقوقا.

والنساء فى الثورة يصلن الى أرقى حالاتهن وتتفتح قدراتهن بلاحدود، وليس هناك شئ كالثورة يدفع بجماهير النساء الى الأمام كما تقول ألكسندرا كولونتاى المناضلة والمفكرة السوفيتية التى شاركت هى نفسها فى ثورتى ١٩٠٥ و١٩١٧، وتضيف:وفى سنة ١٩٠٥ لم يكن هناك ركن فى البلاد إلا ويسمع فيه صوت امرأة

بشكل أو بآخر تتحدث فيه عن نفسها وتطالب بحقوق جديدة» وقد مهدت لهذه الحالة ظروف موضوعية كثيرة. فكان مثلا «الحزب النسائى التقدمى واحدا من تلك الجماعات الروسية الليبرالية التى كانت اصلاحاتها الاجتماعية تمضى الى أبعد كثيرا من مثيلاتها الأوروبيات»

«وخلافا لما حدث فى بريطانيا أو المانيا فتحت أبواب النقابات على اتساعها للنساء منذ البداية فى روسيا..» بل وعندما أندلعت الثورة البلشفية كانت النساء يشكلن نصف قوة العمل تقريبا..

والثورات كما يقول لينين هى «أعياد المقهورين والمستغلين ففى زمنها وحده يتاح لجماهير الشعب أن تطرح نفسها بفاعلية كخالقة لنظام جديد..»

وبطبيعة الحال فحين تصبح النساء قوة فاعلة فى مثل هذه الأعياد فان ثقل الماضى الذى يجثم على كاهلها سرعان مايسقط شرط أن يكون الطابع الشعبى هو الغالب فى الثورة.

وفى الثورة الفرنسية كانت «الخصائص العامة للحركة المنظمة شعبيا للنساء التى جعلتهن ينخرطن بقوة فيها ويبرزن الوجه الشعبى ضد كل من الجيروند والبعاقبة لاتفصح عن مايحلو للنسويين أن يسموه خصائص نسائية خلقية بكسر الخاء، بل انها كانت نموذجا لحركة شعبية عارمة قادتها النساء جماعة..»

وحين تنخرط النساء جماعة فانهن يطبعن المطالب الثورية بطابع حاجا تهن كجزء لايتجزأ من الجماهير العاملة المسحوقة «وعند نساء الطبقة العاملة كانت مشكلات التضخم والبطالة والجوع أكثر الحاحا بكثير من مسائل الطلاق والتعليم والوضع القانونى، ويقول أحد كتاب الثورة الفرنسية:«إن مظاهرة خبز بدون نساء هى تناقض بحد ذاته... كذلك كانت قاعدة نفوذ الأذرع العارية تكمن فى الجمعيات الشعبية التى كانت تضم عددا كبيرا من الجمعيات النسائية...»

ولعلنا سوف نجد خبرة مشابهة لانخراط النساء فى ثورات القرن الماضى فيما حدث فى الجزائر أثناء حرب التحرير حيث نظمت الثورة النساء المقدمات، ثم فى الانتفاضة الفلسطينية حيث تلعب المرأة

دورا أساسيا متزايدا يحتاج الى دراسة

وفى ظل تراجع الثورة أو عدم تضجها السياسى أو خللها التنظيمى تدفع المرأة الثمن مضاعفا، ومع تراجع المد الثورى تتراجع الحركة النسائية .

وفى روسيا حين منيت الطبقة العاملة بسلسلة من الهزائم الفظيعة كان تراجع العاملات أشد من الجميع وبعد هزيمة شعب باريس فى مايو ١٧٩٥ اقترح المؤتمر الوطنى على منع النساء من حضور اجتماعاته، وفى المستقبل سيسمح لهن بالفرجه فقط اذا كن بصحبة رجل يحمل بطاقة مواطن..»

وأول صورة تستدعيها الى الأذهان هذه الواقعة هى صورة المرأة العربية التى تذهب للعمل فى السعودية مصحوبة بمحرم وصورة المرأة السعودية نفسها اذا ماشاءت أن تسافر خارج وطنها للعلاج او الدراسة. .

أما كومبونة باريس فقد سقطت فى واحدة من أغرب مفارقاتها الأ وهى «أن نساء الطبقة العاملة وقد لعبن دورا ضخما فى الثورة لم يحصلن به على مجرد حق الاقتراع»

كانت هزيمة الثورى تعنى هزيمة النساء

ورغم أن تزايد تشغيل النساء واندماجهن فى العملية الانتاجية هو بكل المقاييس عملية تقدمية لصالح تحرير المرأة الا أن هناك حقائق تنفى هذه العملية فى بعض الأحيان إذ يصبح تشغيل النساء وبالا على الطبقة العاملة.

وقد رصد الاقتصاديون المصريون ظاهرة خاصة بعمل المرأة التى زادت نسبتها فى قوة العمل من ٦٪ الى ١١٪ فى سنوات الانفتاح الاقتصادى رغم أن البطالة قد تزايدت فى نفس هذه الفترة تزايدا هائلا، وتبين أن أجور النساء، فى القطاع الخاص حيث لايجرى تطبيق قانون الأجر المتساوى هى أقل كثيرا من أجور الرجال، بالاضافة الى أن العاملات لاينخرطن فى النقابات وهو مايجعلهن فئة ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها وتصبح بذلك مطلوبة لضرب الحركة العمالية.

ويرصد الكتاب هذه الظاهرة فى القرن الماضى والتى تتكرر الآن فى بلادنا فيقول:

«كان من الأصعب لسيس الرجال، وكان الاحتمال أكبر أن يثيروا المتاعب بتجمعاتهم، ولم يكن يعوض هذه العيوب انتاج أعلى ،حيث أن النول الذى يعمل بقوة البخار جعل كل العمال فى مستوى واحد، وبالتالى كانت تفسر عمل النساء حقيقة أن السيد اذ يجد أن الطفل أو المرأة خادم أكثر طاعة له، وعهد لآلته على نفس الدرجة من الكفاءة يميل الى استبدالهما بالعامل الذكر البالغ..»

وهذا هو الحال فى كثير من الصناعات الصغيرة فى مصر الآن فى ميدان الغزل والنسيج والصناعات الغذائية والخزف والصينى.. الخ.

وتبقى الحقيقة الأساسية فى تشغيل المرأة أيا كانت الظروف والاعيب أصحاب العمل والطبقة المسيطرة فى مكان العمل والمعارك التى تخوضها النساء العاملات من أجل تحسين ظروفهن فيه هو مفتاح تغيير الأفكار «ورفع الوعى» لأن العمل الجماعى يزيد ثقتك بنفسك وفى زملائك وفى طبقتك، إنه فى الواقع السبيل الوحيد لتحطيم أيديولوجية الاضطهاد التى تحيلها النساء الى جزء من دخيلتهن. إن نساء الطبقة العاملة اللاتى يشكل الكدح من أجل البقاء شاغلهن الرئيسى ليس لديهن ترف رفع الوعى بطريقة ذهنية محضة..»

وتاريخيا طالما نشأ «افتقار النساء للثقة بالنفس كنتاج للتربية والعزلة وانخفاض الأجر..» وليس لأسباب بيولوجية

ومن الثابت أنه حين «يكون الأفراد معزولين يكونون أكثر عرضة لغزو الافكار الطبقية السائدة وتجرى عملية اعادة انتاج لمثل هذه الافكار الطبقية السائدة فى الاعلام والتعليم والثقافة بشكل منظم، فبالرغم من انخراط النساء فى العمل بدرجة وصلت فى بعض البلدان الى نصف قوة العمل فان نظام التعليم، مرة أخرى يربط الفتيات برؤية وظيفتهن مستقبلا كربات بيوت وزوجات وأمهات

لاكعاملات..»

كذلك يتضح بشكل جلى فى الاحصائيات حقيقة.. أن أثر الطبقة على فرص الفتاة فى دخول الجامعة حاسم..»

ويتضح ذلك فى مصر حين نجد أن الغالبية العظمى من الفتيات الملتحقات بالتعليم الثانوى الفنى هن من الاسر الفقيرة جدا، ويتراجع تدريجيا عدد الفقيرات من اسر عمالية فى الجامعات.

أما أجهزة الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الطبقى فإنها تقوم بما يمكن أن نسميه بناء سيكولوجية المهمشين فى أوساط الطبقة العاملة برجالها ونسائها وأطفالها بحيث تحدث هذه المفارقة بين دورهم الذى لاغنى عنه فى العملية الانتاجية، وهامشية وخمول صورتهم فى أجهزة الاتصال الجماهيرى وهو مايكرس بالتالى صورة المرأة كما تريدها الرأسمالية.

«إن أبناء العمال يتعلمون أن أبطال عروض التليفزيون التى يشاهدونها ليس فيها أبطال من عمال المصانع أو سائقى الشاحنات أو عمال البناء، انهم يعرفون أن أبويهم ليسوا من أولئك الذين يؤخذون فى الاعتبار..»

وبالرغم من أن خروج المرأة للعمل ارتبط بظهور الرأسمالية ونموها فان الكتاب يكشف كيف أن أول من ثبت فكرة الأسرة التى لاتعمل المرأة فيها خارج البيت هو الطبقة الرأسمالية ذاتها اذ كان هذا الحل يوفر ثلاث مزايا، فهو أولا يتيح إحلال كمية اضافية من العمل غير المدفوع الأجر محل انفاق اجتماعى، ويتيح قدرا من الصحة العامة فى حياة الطبقة العاملة حيث تربى المرأة الأطفال وتنهض بعملية التغذية، واخيرا فان هذا سيمكن من ضبط الرجل بالمرأة. وقد استخدمت الطبقة الرأسمالية تكتيكات متعددة لتشجيع العمال على تبنى هذا الحل عبر المدارس والدين والترفيه وقنوات أخرى كثيرة»

ولابد أن نقارن ذلك بما تفعله الجماعات الدينية الآن فى مصر باعتبارها وجها من وجوه النمو الرأسمالى التابع وستاره الايديولوجى، فهى التى تبشر بضرورة عودة المرأة الى البيت بينما تقدم الحكومة اقتراحات يجرى الحديث عنها فى الصحافة وأجهزة

الاعلام حول اجازات طويلة بنصف الأجر للمرأة، أو إحالة النساء للمعاش فى سن مبكرة بحجة التخفيف عنهن بالرغم من أنه ثابت أن قدرة المرأة على الإنتاج بعد أن يكبر أطفالها تصبح أكبر، ولعلنا سوف نجد تشابها كبيرا بين تكتيكات الجماعات الدينية الرأسمالية فى مصر وتكتيكات المنظرين المحافظين فى انجلترا الذين يهرعون الى الرب ليستمدوا من أقواله المقدسة شهادات ضد عمل المرأة «واذا كان الرب قد أراد للنساء أن يخرجن الى العمل لما خلق جنسهن» كما يقول كاتب خطب مارجريت تاتشر، وعلينا أن نراجع فتاوى الشعراوى بخصوص عمل المرأة.

وأكثر ماتخشاه الرأسمالية التى تخطط حتى فى أكثر حالاتها تقدما لابقاء قدر من البطالة فى المجتمع تستخدمه ضد العمال- أكثر ماتخشاه -هو أن تواجه فى حالة انخراط النساء على نطاق واسع فى الانتاج وتنظيم الخدمات المنزلية والأسرية اجتماعيا هو طبقة عاملة قوية موحدة برجالها ونسائها قادرة على الدفاع عن حقوقها وتوسيعها والنضال بهمة أكبر من أجل تحويل المجتمع وبناء الاشتراكية.

ينطوى الكتاب كما سبقت الاشارة على خبرات ودروس ثمينة للعمل السياسى التقدمى ورغم أنها غالبا خبرات ودروس مستخلصة من الماضى الأوروبى الأمريكى إلا أنها تكاد أن تكون آنية فى حالتنا لا المصرية فقط وإنما العربية كلها حيث بوسعنا أن نجد مشروعات ردود ثاقبة على بعض الأسئلة المركزية فى النضال التقدمى العربى. فمثلا لايمكن فصل نشاط نساء الطبقة العاملة والكادحات عموما عن نشاط ومصير الطبقات التى ينتمين اليها، وقد تجلى ذلك واضحا أثناء صعود الثورة كما فى تراجعها، فقد نهضت العاملات حين ثارت طبقتهن، وسقطن حتى الى أبعد مما فعل إخوانهن حين هزمت الطبقة هزيمة كاسحة وبسبب العجز عن صياغة الوحدة الطبقية- فى أمريكا- بين جميع العمال رجالا ونساء، سودا وبيضا مهرة وغير مهرة انجذبت الحركة النسائية الى لون من وحدة الجنس، وحدة السيدات وخادماتهن.»

وقد تدهور الحزب الاشتراكى الأمريكى وكان من بين أسباب تدهوره أنه «أعطى من الاهتمام لكسب تأييد الوزراء البروتستانت أكثر بكثير مما أعطى لكسب النساء أو الشباب..»

وما أثمن الخبرة التى تكتسب بالنسبة لنا طابعا آنيا جدا حين يستخلص المؤلف من تحلل فرسان العمل الأمريكية هذه الأسباب الجوهرية ويضعها أمامنا:

ولقد قتلت فرسان العمل من بيروقراطيتها ذاتها، وأنتهت التجربة التى بذلت فيها جهود جبارة لإقامة وحدة عمالية تتجاوز بقوتها فوارق المهارة والعرق والعقيدة الدينية والجنس والأصول القومية..»

وعن ضرورة ارتباط القدرات التنظيمية ارتباطا وثيقا بعملية التحريض والا فإن أثر الأخيرة يتبدد هباء لتبدأ الدورة من نقطة الصفر مرة أخرى يقول:

«فبينما كانت عمال العالم الصناعيين قوية فى قيادة النضال كانت ضعيفة فى الاحتفاظ بتنظيمه بعد انتهاء الأحداث» وتكتب المناضلة النقابية الامريكية جيرلى فلين قائلة «معظمنا محرضون رائعون ولكننا ضعفاء كمنظمين نقابيين..»

ولكن عملية التحريض ذاتها كانت تؤدى الى اكتساب النساء قدرات جديدة ربما لم يعرفنها عن أنفسهن..

«وكان لاغنى عن عقل غير تقليدى لنساء كرسن حياتهن للدعوة لقضيتهن أمام جمهور معاد، وكان من شأن المعاملة التى لقينها أن شجعت بدورها لديهن نزوعا لجعل كل ماهو مقدس لدى مجتمعهن موضع التساؤل فى مجال الدين كما فى مجال السياسة.

وحينما تتفاقم البيرقراطية وتعشش وتخلق حولها أوكارا للفساد تتحول المنظمات الكبيرة الى شلل وعصابات «وذهب بيروقراطيو اتحاد العمل الامريكى بعيدا فى أساليبهم لاحكام سيطرتهم عليه فنظموا شللا من أتباعهم، وأجروا انتخابات مزورة ، وملأوا المؤتمرات بمندوبين كانوا موظفين معينين لدى الاتحاد واستخدموا مجرمين ومأجورين للقضاء على أى معارضة فى

النقابات..»

ألا تذكرنا هذه الوقائع بمايجرى الآن فى بلادنا فى بعض النقابات والأحزاب وهو يحتاج لدراسة متأنية تكشف لنا عن نوعية المصالح الصغيرة والكبيرة موضوع الصراعات والخلفية الثقافية التى تؤججها وتبررها.

وعن تجربة إنشاء منظمة نسائية تضم الجميع مالكات وكادحات يقدم لنا المؤلف هذه الخبرة من روسيا.

«ولكن الجماعات التى نظمتها النسويات البورجوازيات إن تكن قد صعدت سريعا فقد تحللت سريعا أيضا . أحد الأسباب هو عمق الهوة مابين السيدات البورجوازيات والبورجوازيات الصغيرة من جهة، ونساء الطبقة العاملة من جهة أخرى..»

وفى ألمانيا «كان فشل «روزالوكسمبورج وكلارازيتكن» وأنصارهما فى إنشاء منظمة يعتديها فى صفوف النساء كما فى صفوف الرجال راجعا لظروف موضوعية بمثل مايرجع لعيوب ذاتية لدى اليسار فى المانيا، تمثلت الظروف الموضوعية فى توسع الرأسمالية الذى أدى الى تحولات بيروقراطية فى الحركة العمالية وتحولها العميق الى حركة اصلاحية.أما الفشل الذاتى لليسار فتمثل فى عدم تدخله فى النضالات اليومية، ومن ثم فشل فى بناء جسر بين نضال العمال من أجل الاصلاحات وسياساته هو الثورية، وبتعبير آخر فإنه لم يطور الممارسة الثورية وإنما حصر نفسه فى الدعاية العامة..»

وأخيرا «ولم تكن مواقع العمل هى مكان نشاطها الرئيسى. بل الشوارع والاجتماعات العامة» كذلك كان الفصل بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الاقصى فى الحزب الاشتراكى الألمانى ، الفصل بين الاقتصاد والسياسة بين النظرية والممارسة سببا فى المزيد من ضمور الحزب»

وفى مثل حالاتنا حيث تمنع القوانين المعادية للحريات النشاط السياسى فى أماكن العمل كما تمنعه فى الشوارع والاجتماعات العامة فإن القوى اليسارية مطالبة بابتكار أشكال لتعبئة الطبقة

العاملة حتى تسهم فى إسقاط هذه القوانين لتتحرر حركتها وتخلصها من عيوبها حتى تضمن كفاءة العنصر الذاتى فى النضال الاشتراكى.

ولعل الخبرة الفرنسية فى إنشاء منظمات نسائية -إشتراكية أن تكون أقرب إلينا من كل الخبرات الأخرى حيث ملامح التشابه أوضح كثيرا اذ «وحدت أولى الاشتراكيات أنفسهن معزولات عن بعضهن بانتسابهن لكثرة من الجماعات الحلقية التى ميزت الاشتراكية الفرنسية فى طور تكوينها..

وغالبا مايؤدى اتجاه الأحزاب التقدمية لطمس الصراع الطبقى واللجوء الى التعاون الطبقى للإضرار بقضية تحرير النساء اضرارا بالغا.

فى بريطانيا..أضرت سياسات التحالف مع الليبراليين بمصالح العاملات بقدر يفوق الرجال، فقد أعيقت قدراتهن الكامنة على النضال وشوهت، ولم يتح لها النمو أبدا بينما كان يجرى دفعهن الى التحالفات الطبقية..»

وفى بعض الحالات كانت للقيادات النسائية البورجوازية مصلحة مباشرة فى ابقاء النساء غير منظمات وضعيفات وحين تتلامس أكتاف العاملات مع أكتاف السيدات الفخمات من السهل أن نعرف من سيؤثر على من..»

وفى أمريكا كانت نساء الطبقة العاملة الأمريكية والحركة النسائية البورجوازية على طرفى نقيض»

وطالما أفضت المحاولات الرامية الى خلق توازن بين الكفاحية العالية لدى القلة والرغبة فى العمل العام المحسوب لدى قطاعات أوسع كثيرا الى طمس الملامح المميزة للنضال العمالى وتحول الاصلاحات الصغيرة الى أهداف فى ذاتها الحقت أضرارا بالغة بأحزاب كبيرة وقلصت نفوذ نقابات وطبعتها بطابع المحافظة..بل وأدت فى أحيان أخرى لتمزقها

وبقيت حركة النساء فى انجلترا متخلفة كثيرا عن حركة العمال والسبب الرئيسى هو الطبيعة العامة للحركة العمالية البريطانية

وهى طبيعة محافظة..»

وفى حالة الطبيعة الثورية كانت النزعة الارادية للثوريين تصطدم بالواقع الموضوعى المتخلف او المناوئ بصورة ما وفى الاتحاد السوفيتى «واصطدمت موجة المثالية العارمة لدى البلاشفة وشجاعتهم وآمالهم المحلقة بالتخلف المريع لروسيا، فقد جاء التاريخ القاسى بتناقض حاد بين الطموحات الشامخة للعمال وفقرهم الفعلى ماديا وثقافيا..

ثم «وعانت الطبقة العاملة من تدهور خطير فى أخلاقياتها ووعيها السياسى، وتسرب فى الرمال حلم النساء فى التحرر الذى مثلته مراسيم الحكومة..»

كما تبرز لنا هذه الحقائق أيضا إنه لدى قيام الثورة البلشفية كان الفلاحون يمثلون أربعة أخماس السكان ووجهت البطالة ضربة عنيفة لمحاولات تحرير النساء، ودعمت اعتماد النساء على الرجال اقتصاديا، واكتسبت الاتجاهات الرجعية التهرية قوة راحت تتوقف المؤسسات الجماعية الكثيرة، المطابخ الجماعية، وقاعات الطعام الجماعية، وبيوت الاطفال ودور الحضانه مع سعى الحكومة لخفض الانفاق..» ولم يكن الواقع الموضوعى الذى يسمه التخلف الاقتصادى- الاجتماعى هو وحده الذى يشكل قوة تدمير للآمال المحلقة للثوار وإنما كانت هناك عيوب خلقية بكسر الخاء فى بنية بعض الأحزاب ومنطلقاتها، كانت مثل هذه العيوب تكبر وتتفاقم، ولعل الأزمة الخانقة الآن فى الاتحاد السوفيتى وانهيار نظم أوروبا الشرقية أن تكون كلها شواهد على صحة هذه الفكرة، ان أدران الماضى تظل تأكل فى الجسد الحى وتكبر معه الى أن تظهر آثارها مدمرة ويعد قول ماركس هنا «ان تقاليد الاجيال الميتة تجثم ككابوس على دماغ الأحياء ولم يكن بوسع التجربة الستالينية أن تفعل مافعلته فى الاتحاد السوفيتى دون أن تكون آثارها قد تفاقمت بالصورة التى نراها الآن، وتسببت مع عوامل أخرى فى الازمة الشاملة ولعل وصف الكاتب للستالينية بأنها الثورة المضادة لثورة أكتوبر أن يحظى بقراءة متأنية

كذلك كانت الحركة السياسية للطبقة العاملة فى انجلترا مشوشة ومحافظة للغاية حيث دأب قادتها على اعتناق خليط غير متجانس من الأفكار المحافظة والليبرالية مع نقابية ضيقة الأفق..»

وسوف نجد أن بعض قادة حزب العمال البريطانى يقولون مثلا «إن النساء مثلهن فى ذلك مثل الأجناس السوداء من عينة أدنى..»

وسوف نجد فى التاريخ السياسى الانجليزى فى القرن التاسع عشر أصلا للقانون الذى يحارب من أجله حزب المحافظين الآن، وهو قانون ضريبة الاقتراع الذى يبغى وضع شروط لحق المواطنين فى الانتخاب ترتبط بمقدار ثرواتهم، وهى شروط مشابهة لتلك التى استبعدت فى القرن التاسع عشر سبعين فى المائة من السكان البالغين وحجبت عنهم حق الاقتراع.

كذلك تنبعث بكل قوة لا فى انجلترا و حدها وإنما أيضا فى أمريكا وفى مصر الآن ظاهرة «أرستقراطية العمال الذين كانوا يتمتعون فعليا بعمل مستديم بينما كانت غالبية العمال تعيش فى سوق عمالة مريع للغاية للمشترين من أصحاب العمل وقد تمتع هؤلاء الرجال المهرة بوضع أعلى فى الدخل والتعليم والثقافة. فكانوا من الناحية الاجتماعية أقرب للشرآئح الدنيا من الطبقة المتوسطة منهم للطبقة العاملة. ومن هذا الوضع أثروا على الطبقة العاملة ككل إذا أوجدوا تقاليد النزعة المحافظة ضيقة الأفق التى صارت حصنا ضد الماركسية له قوته فى بريطانيا..»

وربما لو قرأنا طبيعة التحولات الأخيرة فى قيادة الاتحاد العام للعمال فى مصر والتى وقعت على بيان رجال الأعمال الذى يستهدف تصفية كل المكاسب التى حصلت عليها الطبقة العاملة والكادحون بنضالهم الطويل لوجدنا بالإضافة إلى القوانين التى تلحق الحركة النقابية العمالية واقعيابسلطة الدولة علاقة وثيقة جدا بكل مايجرى الآن فى الساحة العمالية وبالصعوبات الهائلة التى تواجهها التيارات الراديكالية الاشتراكية الماركسية فيها.

يلقى الكتاب أضواءه الكاشفة النافذة على واحد من الاتجاهات

التى أصبحت جذابة فى حركة تحرير المرأة فى بلادنا وهو الاتجاه النسوى وهو واحد من اتجاهات ثلاثة رئيسية أحدها الاشتراكى والثانى الاسلام السياسى والأخير يجند النساء على نطاق واسع.

ويبدأ الكتاب نقده للنسوية بإبراز أهمية العمل السياسى المنظم بالنسبة للنساء جنبا الى جنب الرجال..ذلك العمل الذى يستهدف فى المقام الأخير الإطاحة بالرأسمالية، ولأن المنبع الرئيسى لفكر النسوية هو الاحساس البالغ بالإضطهاد يقول الكاتب إنه «ولكى ترد أي جماعة مضطهدة على اضطهادها بالنضال لابدلها من الأمل وهذا لايمكن العثور عليه فى عزلة الاضطهاد..»

والطريقة التى انتهت بها أو أنتهت اليها الجماعات النسوية أو المساحقات فى أوروبا وأمريكا تؤكد هذه الحقيقة، بل إنها تبين بشكل لالبس فيه كيف أنها جميعا أصبحت جزءا من النظام الرأسمالى تهتفى تحسينه وتغيير بعض شروطه.

يتساءل الكاتب: من المستفيدون من اضطهاد النساء؟ تجيب عضوات الاتجاه النسوى الراديكالى والنسوى الاشتراكى وحتى النسوى الماركسى:

هم الرجال.

ونجيب نحن عليه بلا قاطعة ويبرهن واقعنا والواقع العالمى كله على صحة إجابتنا إذا وضعنا كل مسببات الاضطهاد ومظاهره تحت المجهر والتى تنشأ جميعها فى علاقات الاستغلال الطبقى.

ويجيب الكاتب أيضاً، فالطريقة التى ينظم بها النظام الرأسمالى اضطهاد النساء ويؤيده من خلال مؤسساته بخفض أجور النساء، ومنعهن من دخول قطاعات معينة من الاقتصاد، وعدم وجود تدابير لرعاية الأطفال، ومؤسسة الأسرة ذاتها هى الوسائل التى تبقى على عملية تجديد النوع البشرى كعملية خاصة، ومن ثم تبقى على العبء المزدوج على عاتق النساء. وتلك البنى هى أصل اضطهاد النساء. لقد بنيت فى المجتمع الطبقى الذى نعيش فيه، والسيطرة عليها مثل السيطرة عليه ليست فى يد رجال متفردين، ويقينا ليست فى يد رجال منفردين من الطبقة العاملة.»

ولكن النسوية تصفى «صورة مثالية على النساء كضحايا لسيادة الذكور لاكشريكات فى نضال الطبقة العاملة وبدلا من التركيز على النطاق الذى يخاطب أقوى ماعند النساء، أى النقابات ومواقع العمل تركز هذه الحركة على أمور تثير أضعف مافى النساء.»

لذلك إنتهى بها المطاف إلى الهامش، ووقعت فى شرك التحلل، وذلك رغم أن أفكارها مايزال لها سلطان كبير.

كذلك تتمتع المدرسة النسوية فى بلادنا والتى تمثلها الدكتوره نوال السعداوى بسلطان لابأس به ولم تتعرض لنقد جذرى حتى الأن إلاخلال المعركة التى نشبت فى عام ١٩٨٦ بين جمعية تضامن المرأة وعدد من القيادات النسائية وكتبت كل من د. ليلى عبد الوهاب وفريدة النقاش ردودا شاملة فى عدد الاهالى بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٨٦ فندتا فيها كل المقولات الأساسية للإتجاه النسوى للدكتوره نوال السعداوى نقدتاه نقدا شاملا.

وانني لعلى ثقة أنه بعد قراءة هذا الكتاب قراءة متأنية فاحصة لن تبقى الطليعية النسائية التقدمية فى بلادنا كما كانت، ولن تندفع مجددا إلى اتجاه النسوية العدمية لتجربة لأن الخبرة التى يقدمها لنا الكتاب بغناها وتنوعها تطلعنا بفهم متعمق على الحصاد المر لمثل هذه التجارب فى بلدان أكثر تقدما وتملك الحركة النسائية فيها من الترف مايجعلها قادرة على أن تجرب كل شيء حتى لو عادت منه مرورة لتكتشف ان جهودها تخدم ماهو قائم.

اللهم إلا إذا كانت النسويات الجديدات سوف يفضلن- رغم ذلك- أن يكتوين بلسع النارويجنين الإخفاق والمرارة والنزاعات الشخصية الطاحنة التى تشهد انفجاراتها فى الحياة السياسية من حين لآخر.

ولكن هناك فارقا واحدا لابد من تسجيله بين الإتجاه النسوى الأوروبى والاتجاه النسوى العربى الذى تمثله نوال السعداوى هو أن الأخير يلعب دوراً إيجابيا من زاوية تأكيد حق الاجتهاد. وطرح كل المسائل بما فيها المسألة الجنسية طرحا شاملا للنقاش وعلى نطاق واسع..رغم مافى هذا الاتجاه من تقليد لما فى الغرب تقليد أعمى

فى بعض الاحيان.

أما النقد الجذرى الشامل لحركة الاسلام السياسى النسائية فهى مهمة للإشتراكيين ولكل الديمقراطيين ماتزال لم تنجز، ويحتاج انجازها إلى مقدرة ومعرفة جيدة بتراث الثقافة العربية الإسلامية لأن هذا التيار يشكل واحدا من أكبر معوقات تحرير المرأة وادماجها فى مجمل النضال الطبقى- بهدف تغيير المجتمع تطلعا لبناء الاشتراكية

فاذا اتفقنا أن مفتاح ايقاظ العاملات يكمن فى النضال فى موقع العمل، فان الاتجاه الاسلامى يسوق النساء سوقا خارج العمل تحت دعاوى ايديولوجية.

بل يسعى لاقناعهن بتقبل دونيتهن على أسس دينية.

سوف يساعدنا الكتاب باحصائياته الموثقة وتحليله القائم على أساس رؤية الواقع المادى فى حركته على تصحيح كثير من المسلمات الشائعة فبعد إحصائية نتجت عن استطلاع واسع يستخلص الكاتب أنه.

«على العكس من العرف الجاهز الذى يقبل به علماء الاجتماع البورجوازيون والحركة النسوية البورجوازية والذى يرى أن مواقف النساء تتشكل خارج العمل ويأتين بها اليه حيث يساعدن على تدعيم كل ما هو لاعقلانى فى عمل النساء المهين، نرى هنا كيف أن العادات والأفكار التى تنشأ فى مكان العمل تغزو البيت فى واقع الأمر. وبينما يرتبط الانتاج وتجديد النوع البشرى بوحدة جدلية، فان الأولوية للانتاج، وعمل النساء المأجور هو الحاسم فى التأثير على شغل البيت والموقف منه وليس العكس».

وبين لنا الكتاب أيضا بصورة جلية ونحن مقبلون فى بلادنا على تجربة رأسمالية كاملة التبعية لاضوابط لها ولاتهذيب لوحشيتها- بين لنا كيف أن الرأسمالية. تشوه كل البشر فى المجتمع، إذ تحرم الرجال والنساء والأطفال من القدرة على تطوير إمكانياتهم فى كل مجالات الحياة والأسرة ذلك الجزء من المجتمع الذى يتطلع اليه الناس طلبا للحب والعزاء تنسخ العلاقات

الخارجية، ومن ثم تتحول الى مرجل للصراعات الشخصية، للغضب والغيرة والخوف ومشاعر الذنب ويعجز كل من الرجال والنساء عن التطابق مع المثال النمط المستحيل الذى يقدمه لهما المجتمع عن كل منهما..»

ألا نجد فى هذا القول أعمق وأشمل تفسير لظواهر الجرائم البشعة والتحلل الأسرى التى تتفشى فى حياتنا ويرجعها التيار الاسلامى السياسى لغياب الاخلاق والدين. ويرجعها التيار النسوى لسيادة الذكور، فهو يبين لنا دون اى لبس كيف أن الرأسمالية هى العدو.

هذا كتاب لاغنى عنه لكل المعنين بحركة تحرير المرأة المصرية والعربية من كل الاتجاهات سواء تلك التى ينقدها جذريا أو تلك التى يساندها كصاحبة رسالة ومهمة تاريخية ثورية.

وشكرا «لأروى صالح» التى اختارت الكتاب وقدمت له ترجمة بليغة رائعة تحيل قراءته الى متعة خالصة وكأنه نص أصلى.

نساء... ورجال... وثورات

أروى صالح

ليس هذا الكتاب للمهتمين بالحركة النسائية، وحدهم (أو وحدهن) على الأقل، بل ربما كان في الواقع ضدها! فالحركة النسائية التي ترى العالم من منظور «أنثوي» لايرى فيه سوى اضطهاد الذكر للأنثى، غير قادرة- قبل أي شيئ آخر- على تحرير المرأة، تماما بقدر مايفقدها هذا الذي يتحول إلى هاجس مسيطر القدرة على التعاطف مع كل المضطهدين عنصريا ودينيا وطبقيا من كل لون، بقدر مايحدّ من افقها، ويجعلها فريسة للتحيز الجنسي، ويسم نضالها بالأنانية لتصبح في النهاية جزءا مكملا لا أكثر لألية الاضطهاد المنظم الذي يتحكم في العالم هذا هو ماتخبرنا به التجارب التي يحكي لنا عنها هذا الكتاب، متنقلا وراءها بين الولايات المتحدة وروسيا (القيصرية في الجزء الأول من الكتاب)

والمانيا وفرنسا وبريطانيا، حيث يطلعنا على الحركة النسائية والاتجاه الذى نشأ عنها المعروف باسم "feminism" والذى انتشر فى أوربا الغربية وأمريكا فى ستينيات القرن الحالى، والمصائر التى انتهت إليها فى كل منها.

فى المقابل تحكى لنا الكتاب قصة الثورات الكبرى مع النساء فى هذه البلدان، وكيف حدث- فى كل مرة- ان طرحت الثورة على بساط البحث العلاقة بين الرجل والمرأة ، الزواج والأحادية والحب الحر، وكيف كان ينبعث حلم البشر القديم فى خلق شروط حقيقية لحب لايخضع إلا للأعتبارات الشخصية، ثم يتهاوى تحت ضربات العلاقات الغاشمة للسلطة والملكية، وطغيان الماضى الطويل.

ولكننا أيضا نرى خلال تلك الثورات نساء «يتحررن» لا فى مواجهة الرجال، بل معهم كتفا بكتف من أجل الخلاص من كل أصناف الإضطهاد. نراهن يزحفن فى مسيرة هائلة تأتى بملك فرنسا أسيرا بين أيديهن إلى باريس، وتصنع واحدة من علامات تاريخ الثورة الفرنسية، ويتصدرن مظاهرات الخبز التى صنعت يوميات الثورة الشهيرة، ويقفن على المتاريس فى أيام الكوميونة العمالية ليشهد على بسالتهن المؤرخون الرجعيون فى مواجهة فرق الإعدام ومحاكم السلطة الرجعية المنتصرة، وعند اللزوم يقدن القطارات المصفحة أيام ثورة أكتوبر الروسية ويحملن السلاح، ونرى منهن زعامات عمالية فذة فى الولايات المتحدة تصمد وسط المد والجزر العنيف الذى تقاذف الحركة العمالية فى هذا البلد، ومثقفات نادرات يصنعن تراث الاشتراكية فى ألمانيا، بل فى العالم بأسرة. وفى كل ذلك صنعت تلك النساء تاريخا لايخص «جنس النساء» وبهذا بالذات حققن له نوعا من المساواة، ليس هو الذى يراود أحلام زعيمات الحركة النسائية حين يتحدثن عن المساواة (مع الرجال)، فهؤلاء يقصدن الصفوة «الناجحة» من الرجال لا «القطيع» المضطهد منهم كما يلاحظ المؤلف عن حق.

ويكاد الكتاب يكون أقرب لدراسة مقارنة وجيزه لتاريخ الحركات الثورية عامة، والاشتراكية والنقابية خاصة، فى هذه البلدان الخمسة

من حيث هى تقدم الخلفية التاريخية التى يتتبع من خلالها أوضاع النساء ومواقف الثورات منهن، ومواقفهن فيها. فالمؤلف يعتمد فى هجومة على المنطق السائد فى الحركة النسائية الغربية، على التأريخ أكثر مما يعتمد على المناظرة حيث يصر على أن ينسب اضطهاد المرأة -وكذلك حركات تحررها- للتاريخ، فى مواجهة تصوراتها التى تفسر التاريخ بالصراع بين الرجل والمرأة.

وأخيرا، فمن أهم فصول الكتاب وأكثرها تشويقا الفصول الأخيرة المخصصة للأسرة، وفيها تتعرف على الأسرة فى مجتمعات البلدان المختصة (بما فى ذلك روسيا الاشتراكية والانتكاسات التى أصابت محاولات تحريرها فى عهد ستالين) من عدة أوجه يشير لها الكاتب فى مقدمته، ويعرضها من خلال شهادات واقعية لأسر من كل من الطبقة المتوسطة والطبقة العمالية، نرى خلالها أوجه التماس والأفتراق بين الاسرتين، وربما كان المثير فى هذا الجزء هو أن القارئ (المصرى خاصة) سيجد رغم اختلاف الظروف الاجتماعية والحضارية، تشابها فى كثير من الأمور، حلم التحرر من خلال الزواج عند المرأة ثم انهياره المحتوم، العنف فى الأسر الأفقر، ومشاكل علاقات المحارم فيها، وقبل كل شيئ دور الأسرة كعنصر حماية وقهر فى الوقت نفسه للفرد، كيف تتحول إلى بديل للمجتمع فى حياته ومن ثم إلى مرجل تنصب فيه كل إحباطاته ومراراته فى المقابل.

يبقى أن أشير إلى أن بعض مواقف الكاتب ستثير اعتراضا، وهذا طبيعى، ولكن الموقف الذى من المؤكد تقريبا أن يستفز القارئ العربى هو موقفه من الشذوذ الجنسى، والذى يعتبره مشكلة خلقتها الرأسمالية. وأود أن أقول، بإذن القارى، وبغض النظر عن نصيب هذا التفسير من الصحة، أن مجتمعاتنا تعودت أن تحمل الشواذ جنسيا وغيرهم ممن تعتبرهم منحرفين، أوزارها الكثيرة المستورة ومشاعرها المحملة بالذنب تجاه الجنس، وليس فى هذا من الأخلاق ما يعطيها الحق فى تنصيب المحاكم، وربما لو أننا امتلكنا يوما هذا القدر من الأخلاق، لو صارت مجتمعاتنا أكثر إنسانية تجاه نفسها، لما عدنا بحاجة لتنصيب المحاكم.

مقدمة المؤلف

حركتان .. وقضية ..

تونى كليف

على امتداد المائتى عام الماضية أو يزيد، عملت حركتان مختلفتان على تحرير النساء، وهما الحركة النسوية والماركسية.[1] كلتا هما ترغب فى القضاء على اللامساواة والاضطهاد فى وضع النساء فى مجتمع اليوم، وفى أن تستبدل به المساواة الكاملة والحقيقية بين الرجال والنساء. غير أنهما تسلكان فى تفسيرهما لواقع اضطهاد النساء طرقاً مختلفة كل الإختلاف، وتنتهجان استراتيجيات بينها تعارض كامل.

فالحركة النسوية ترى أن الإنقسام الأساسى فى العالم هو ذلك القائم بين الرجال والنساء، وأن السبب وراء اضطهاد النساء هو نزوع الرجال للسيطرة عليهن والتحكم فيهن. وترى أن التاريخ هو قصة البنى البطريركية الأزلية التى من خلالها أخضع الرجال النساء، وأن الطريق الوحيد إلى تقويضها هو أن تتوحد النساء من أى طبقة إجتماعية كنّ ضد الرجال فى كل

الطبقات الإجتماعية.

أما وجهة النظر الماركسية، فترى أن التعادى الأساسى فى المجتمع يقوم بين طبقات، لابين الجنسين فعلى مدى آلاف السنين اجتمعت أقلية من الرجال والنساء على العيش من عمل الأغلبية الساحقة من الكادحين، رجالاً ونساء. إن الصراع الطبقى بين المستغل والمستغل، بغض النظر عن جنسهما، هو القوة المحركة للتغير التاريخى، ولايمكن فهم إضطهاد النساء إلا فى إطار علاقات أشمل، علاقات الاستغلال الطبقى.

ولاسبيل إلى التوفيق بين وجهتى النظر هاتين، وإن تكن بعض «الإشتراكيات فى الحركة النسوية» قد حاولن تضييق الفجوة بينهما. فمنذ عهد المفكرين الطوباويين العظام سان سيمون وفورييه وروبرت أوين فى مطلع القرن التاسع عشر رأى الاشتراكيون هدفهم فى التحرير الشامل للجنس البشرى، فى القضاء على الاستغلال الطبقى والإضطهاد الجنسى وجميع أشكال الإضطهاد الأخرى.

وقد استطاع ماركس وانجلز أن يبينا عبر المفهوم المادى للتاريخ الذى أبدعاه، أن النضال الطبقى وحده هو القادر على تحقيق الإشتراكية وتحرير النساء. إن الاستغلال الذى يتعرض له العمال والعاملات على السواء فى عملهم، يدفعهم إلى التنظيم الجماعى لأنفسهم فى مواجهة الرأسمالية، وهذا النضال للطبقة العاملة المتحدة هو الذى سيجرف فى طريقة الإضطهاد والاستغلال على حد سواء.

ويهدف هذا الكتاب إلى أن يبين كيف أن تحرير النساء يتوقف على هذا النضال ويرجع فى ذلك إلى الحركة النسوية خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. ويقتضى الاشتباك مع أفكار هذه الحركة، التى كثيراً ماتتسم بالإبهام، تناول عدداً من القضايا التى تثيرها.

أولها، هو مفهوم هذه الحركة عن مكانة النساء فى التاريخ، تشكو الحركة النسائية عن حق من أن النساء «محجوبات عن التاريخ»، ولكنها لاتربط هذه الحقيقة بالطبيعة الطبقية لطريقة كتابة التاريخ وتعليمة فى مجتمعنا. فهى التى تركز على نشاط النُخب الحاكمة، الملوك والجنرالات ورؤساء الوزارة والبابوات ورجال البنوك وأصحاب المصانع والفنانين والعلماء والفلاسفة العظام. وجميع هؤلاء، باستثناء بضع ملكات وامبراطورات وجان دارك كانوا رجالاً.

ومن ثم يكتب التاريخ باعتباره قصة رجال، إلا أن أقلية ضئيلة من الرجال هي التي حظيت بامتياز الدخول في هذه القصة، ولذا فإن الشكوى من استبعاد النساء من التاريخ، دون ملاحظة أن جميع الرجال يلاقون المصير ذاته، تنطوي على قبول بالمنطلقات النخبوية الأساسية للتاريخ «الرسمي». إن الخصوم المتسقين الوحيدين لهذه المجموعة من الأفكار السائدة هم الماركسيون، الذين يعلنون أن «تاريخ المجتمع هو تاريخ النضال الطبقي»، وعلى ذلك تمثل الطبقات المستغلة والمضطهدة- رجالاً ونساءً- ذاتاً للتاريخ، تماماً كالطبقات الحاكمة.

يدخل المؤرخون البرجوازيون جمهرة الناس في التاريخ بالطبع، ولكن كموضوعات له، تقع عليها آثار أعمال الحكام وحسب، وهو نفس المنظور الذي يغلب في رؤية الحركة النسوية لوضع النساء، إذ تجعلهن موضوعات للتاريخ، حين تراهن ضحايا لإضطهاد الرجال فتروي لنا ماذا فعل المجتمع، أو الأفراد بالنساء، اللاتي تبدون سلبيات في جملتهن أو في أحسن الأحوال مجرد رد فعل لضغوط الرجال. وأبرز المدافعات عن مفهوم «الضحية» بشأن مكانة النساء في التاريخ، في السنوات الأخيرة هي سيمون دي بوفوار، فهي ترى أن النساء سلبيات منذ الأزل، وحتى الاستثناءات منهن- النساء «العظيمات» مثل جان دارك واليزابيث الأولى ملكة إنجلترا- اكتسبن عظمتهن بأن تمكّن من انتحال خصائص الذكورة بطريقة ما.

وتلحق بفكرة «الضحية» فكرة أخرى عن النساء، وهي أنهن لايتغيرن بفعل التاريخ، بل يجسدن صفات أنثوية خالدة تلعب الدور الفاصل في تكوينهن.

وتقدَم القيم التي تدافع عنها حركة تحرير المرأة دائماً كنقيض لقيم مضطهديها «الطريقة التي يتصرف بها الرجال» فالرجال يمثلون «المراتبية» و «البطريركية» و «السلطة»، بينما تمثل النساء الأخوة والتضامن ووحدة الجماعة. وتوصف الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية بأنها «هياكل رجاليه» و«منظمات على النمط الرجالي» بل توصف المسيئات من الحركة النسائية بأنهن «يشبهن الرجال».

في كل ذلك، تعكس الحركة النسائية القيم والمعايير التي عمل على البرهنة عليها أعتى الرجال رجعية في الماضي. فلقد كان المعادون للمرأة هم الذين استندوا دائماً إلى طبيعة النساء الخالدة غير القابلة للتغيير، ليتخذوا منها ذريعة تبرر الكثير من القيود الإجتماعية والقانونية التي فرضت على النساء.

ويؤدى النزوع إلى اعتبار كل النساء تقريباً متماثلات من حيث الأساس، يؤدى بالكثيرات فى الحركة النسائية إلى تصوير الرجال جميعاً تقريباً كما لو كانوا سواء. ولننظر على سبيل المثال فى واحد من أكبر الكتب أثراً فى الحركة النسائية، وهو كتاب كيت ميلر «السياسة الجنسية» وفيه تصف جميع الرجال بأنهم أبويون غلاظ، يحتقرون النساء، ويختالون بقوتهم التى يستعملونها فى قهر النساء، فكم يبدو هذا الوصف بعيداً عن الحقيقة حين ينظر المرء إلى العبد الذكر فى الماضى، أو إلى عامل اليوم المطحون المغترب، من حيث هو فرد وحسب، حتى نزعة الذكورة عند الكثيرين منهم إنما تعبر عن الافتقار للقوة أكثر بكثير مما تعبر عن وجودها.

إن وجهة النظر التقليدية للمرأة إذ تجعل للنساء صفاتاً أصلية ولاتقبل التغيير، إنما تفسر الأنماط الإجتماعية والثقافية لاباعتبارها نتيجة لقوى خارجية فى المجتمع الذى نعيش فيه بل كنتيجة لطبيعة النساء بالذات. وهى الفكرة التى تحظى بقبول واسع فى الحركة النسائية، وإن يكن بصورة مقلوبة، فحين يعرّف جناح أقصى اليمين فى حركة تحرير المرأة، أى المساحقات الراديكاليات، العلاقات النسائية الخالصة بأنها صيغة سياسية، لايزيد بذلك على أن يقلب التعريف التقليدى للنساء الذى ينسبهن إلى علاقتهن بالرجال.

وسوف نحاول فى هذا الكتاب أن نبين أنه عدا مايتعلق بالمستوى البيولوجى، لاوجود لجماعة موحدة تدعى «النساء» أكثر مما هناك وجود لأخرى موحدة تدعى «الرجال»، إن الهوة بين مالك العبيد والعبد، وبين الملك والفلاح، تجعل مفهوم «الرجال» فاقداً المعنى تماماً كما تجعل الهوة بين زوجة مالك العبيد وعبدتها مفهوم «النساء» خلوا من المعنى.

بسبب من وجهات النظر السائدة فى الحركة النسائية، فإنها تقع فى خطأ استخدام تعبيرى «النساء» و«اضطهاد النساء» بطريقة غامضة تفتقر إلى التحديد والفهم التاريخى. لقد كان الاضطهاد يعنى للمرأة المسترقّه، القسوة البدنية والاستغلال الجنسى والفصل الاجبارى عن أطفالها، أما لسيدة المزرعة المترفة التى لاعمل لها، فقد كان يعنى قيوداً إجتماعية وقانونية، وقهراً جنسياً. والثورة الصناعية كانت تعنى لنساء الطبقة العاملة استغلالاً رأسمالياً وحشياً علاوة على فظائع الحمل فى ظروف مريعة (كانت تؤدى فى الغالبية العظمى من الحالات إلى موت مبكر للأطفال)، بينما كانت تعنى للزوجة

الرأسمالية حياة مترفة قمعية، حين نكومّ إذن كل النساء معاً في كلمة واحدة، فإننا نغفل الظروف التاريخية العيانية ونتجاهل الدور الذى لعبته السيدات الثريات فى استعباد واستغلال الكادحات والكادحين.

من الشائع فى الحركة النسائية تشبيه وضع النساء بوضع العبيد والأقليات العنصرية المضطهده والجماعات المقهورة إقتصادياً، ولكن أوجه الشبه محدودة فى الواقع، فالنساء لا يكونّ جماعة منفصلة، بل ينتشرن وسط كل قطاعات السكان، وإذا كانت النساء هن الأكثر تعرضا للإستغلال بين جمهور العمال، فإنهن يوجدن أيضاً فى صفوف المستغلين. وتختلف علاقات النساء بالرجال فى الأسرة اختلافا جذرياً عن العلاقات بين العمال والرأسماليين، أو بين السود والبيض، فهناك علاقات عميقة ومعقدة إقتصادية وجنسية ونفسية تدفع النساء إلى المشاركة فى الأسرة. السود محاصرون فى الجيتوات بعيداً عن البيض، بينما يتداخل الحنان مع علاقات السيطرة والخضوع فيما بين الزوجات، والازواج، والأمهات والأبناء، ويثير السود الإشمئزاز عند العنصريين البيض، ولكن النساء مرغوبات من الرجال.

تشكل النساء جزءاً من المجتمع الذى يعشن فيه، لذلك لايمكن أن يدرس وضعهن فى الفراغ ويعنى هذا الكتاب بإيضاح العلاقة بين مفهوم اضطهاد النساء وبين الاستغلال الطبقى، حيث ستكون موضوعاً أساسياً فيه.

أما فيما يتعلق باضطهاد النساء فى عالم اليوم، فستجد كثيرات من نصيرات الحركة النسائية يتحدثن عن الاضطهاد باعتبارة نتاجاً «للبطريركية» ويذلك يفسرن نزعة السيطرة الرجالية خارج التاريخ، كعامل يوجد مستقلاً عن المجتمع الطبقى أو الرأسمالى. وفى معارضتنا لوجهة النظر هذه، سنتخذ من كتاب فريدريك إنجلز «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» (١٨٨٤) حجر الزاوية النظرى لوجهة نظرنا، يقول إنجلز أن ظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات هو الذى أدى إلى اخضاع النساء. وفى ظل الرأسمالية تتم عملية إنتاج ضروريات الحياة من خلال عملية إجتماعية، بينما تتم عملية تجديد النوع البشرى- تنشئة الأطفال- كعملية خاصة، تتم أساساً فى محيط الأسرة المغلق. وترجع جذور اضطهاد النساء إلى الازدواجية بين الاثنين ولذلك لايمكن فصل النضال من أجل تحرير النساء عن النضال ضد الرأسمالية.

* البريركية هى النظم الإجتماعى الذى يتميز بسيادة الرجل. المترجمة *

لايؤدى الاضطهاد بحد ذاته وبالضرورة إلى نضال من أجل التحرر، فاضطهاد النساء، إذ يفرقهن ويحبسهن بين جدران البيت الأربعة، يؤدى بهن فى معظم الحالات إلى قلة الحيلة والخضوع. وفقط حيث تملك النساء قوة جماعية، بوصفهن عاملات، يكتسبن الثقة للنضال ضد الرأسمالية، وحينئذ يصبحن قادرات أيضاً على مقاومة اضطهادهن بوصفهن نساء. ويتمثل الوجه الآخر للعملة فى أن النساء العاملات، مثل باقى الجماعات المضطهدة، غالباً مايكون نزوعهن العفوى فى فترات الأزمة الاجتماعية أكثر ثورية من الرجال(٤) إن نضال العمال ضد الاستغلال هو مفتاح نجاح نضالهم ضد جميع أشكال الاضطهاد لذلك فإن أول خطوة تخطوها نساء الطبقة العاملة لدخول ساحة النضال من أجل تحريرهن كنساء، هى نبذ عزلة البيت ودخول المجال الإجتماعى متمثلاً فى الإنتاج.

وليس المقصود بذلك «التحرر من خلال العمل»، فنحن نجد فى مؤلف إنجلز «ظروف الطبقة العاملة فى انجلترا» (عام ١٨٤٥) وصفاً حياً لما أصاب حياة الطبقة العاملة من توحش ولا إنسانية إثر جر النساء للعمل فى المصانع، ولكن الاستغلال الذى يعنى لعلماء الإجتماع والاقتصاد والتاريخ البرجوازيين، استغلالاً وكفى، يعنى للماركسيين محور التاريخ، فلقد أدى الوضع الوحشى الذى وصفه إنجلز إلى نضال خاضه الرجال والنساء معاً من أجل تغييرات إجتماعية لصالح الطبقة العاملة ككل، كما سنرى فى مواضع لاحقة.

ويركز هذا الكتاب على نساء الطبقة العاملة باعتبارهن ذواتاً للتاريخ، أى صانعات له.

ولقد وجدت تاريخ نضالات النساء العاملات من الإتساع والغنى، بحيث كان أختيار فصول منه وجمعها فى كتاب واحد، مهمة صعبة. فاخترت تناول هذه النضالات فى لحظات ذروتها، فمن قمة الجبل نستطيع أن نحصل على رؤية شاملة للتضاريس أوضح كثيراً مما فى الوادى. وتمثل الثورات نقاط الذروة فى تاريخ البشر، بما فى ذلك تاريخ النساء، لذلك يهتم هذا العمل بإيضاح الدور الذى لعبته النساء فى أربع ثورات، وقد بدأت بالثورة الإنجليزية فى القرن السابع عشر، حين أينعت لأول مرة أفكار حديثة حول تحرير المرأة، ومعها أخلاقيات جنسية جديدة. والثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، ثم كوميونة باريس فى القرن التاسع عشر، حيث عرضت النضالات العنيدة لنساء الطبقة

العاملة فى كل منهما.

وأخيراً تأتى قصة ثورة عام ١٩١٧ الروسية، وكانت هذه علامة هامة فى تاريخ تحرير النساء، فلأول مرة توضع على جدول أعمال التاريخ المساواة الكاملة للنساء، إقتصاديا وسياسياً وجنسياً، وأعلنت الحكومة الجديدة قوانين جديدة سياسية ومدنية واقتصادية وأخرى خاصة بالأسرة، طمحت إلى أن تكتسح بضربة واحدة صور اللامساواه التى ترجع إلى قرون مضت، فمنحت النساء حق الاقتراع، وأصدرت قوانين مدنية وخاصة بالطلاق تجعل من الزواج علاقة طوعية وأزالت التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين.

ولكن الثورة لم تفلح فى الامتداد إلى الدول الرأسمالية المتقدمة، وعلى رأسها المانيا، فتدهورت الثورة الروسية المعزولة وتولت الثورة المضادة الحكم فى عهد ستالين، وجرى إخضاع كل شيء لبناء الصناعة، فأهمل النظام تلك القطاعات الإقتصادية بالذات التى من شأنها التخفيف من أعباء النساء كذلك كان مما ترتب على الستالينينة مراتبية إجتماعية مفرطه، ووجدت السلطات فى بنية الأسرة مؤثراً محافظاً فى المجتمع مفيداً لها.

إن تاريخ الجهود من أجل تنظيم نساء الطبقة العاملة فى منظمات إشتراكية، هو قصة طويلة تتعاقب فيها أحوال المد والجزر، إنجازات عظيمة وخيبات أمل تفطر القلب، مثلها فى ذلك مثل مجمل تاريخ حركة الطبقة العاملة، غير أن النضالات تستمر، حتى وإن كانت تضطر مراراً لأن تستأنف كما لو كانت تبدأ لأول مرة.

للحزب العمالى الثورى دور حاسم يتعين أن يلعبه فى النضال من أجل التحرر، تحرر الرجال والنساء على حد سواء، ومهمته أن يقود النضال الطبقى، ويصارع الأفكار البرجوازية السائدة، ويكافح للتغلب على التباين بين مختلف أقسام الطبقة العاملة- بما فى ذلك القائم بين النساء والرجال- وأن يقود طبقته أخيراً فى عملية التغيير الثورى للمجتمع. لقد بين التاريخ بقسوة المرة تلو المرة، كم كان من الصعب بناء أحزاب اشتراكية جماهيرية، وكان لابد وأن تؤثر تلك المصاعب على الجهود التى بذلت لكسب تأييد العاملات.

لقد كرست خمسة فصول من هذا الكتاب لعرض ماحققته جهود تنظيم النساء فى الحركة الإشتراكية من نجاح وفشل فى الفترة مابين عام ١٨٦٠ و١٩٢٠ فى كل من الولايات المتحدة وألمانيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا.

اختلف تطور الحركة فى كل من هذه البلدان وجاء متفاوتاً، وذلك فى المقام الأول للتباين الكبير فى ظروف التطور الإقتصادى فى كل منها. وكانت العلاقة مبهمة، معقدة بين وضع النساء فى الحياة الإقتصادية والإجتماعية، الذى اختلف بالتبعية أيضاً، وبين الأفكار التى طرحتها النساء الإشتراكيات، وهى العلاقة التى نشأ عنها النمط السياسى والتنظيمى للحركة النسائية الإشتراكية.

ومن هنا التباين المدهش فى حركات النساء العاملات، الذى يتجاوز حتى التباين بين الطبقات العاملة فى مختلف البلدان، ويزيد كثيراً على مدى الاختلافات بين هذه الدول فى التطور الإقتصادى.

إلا أن مسألة تحرير المرأة تراجعت إلى الهامش بعد العشرينيات تحت ضربات الأزمة الإقتصادية، والنازية والستالينية، وانبعاث الاشتراكية الديمقراطية اليمينية، وكان عليها أن تنتظر نصف قرن قبل أن تعود للظهور حركة نسائية جديدة مع تفاقم أزمة الرأسمالية العالمية فى أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات.

فى الفصول الأخيرة من الكتاب، نلقى نظرة على حركات تحرير المرأة المعاصرة فى الولايات المتحدة وبريطانيا. فنتفحص تكوينها الإجتماعى وأسلوب عملها، ونبين كيف ركزت دائماً على مايفرق بين النساء والرجال- الاغتصاب، وضرب النساء والمطالبة بتقاضى أجر عن أعمال المنزل- بينما تجاهلت أو هونت من شأن النضالات التى تتوافر لها إمكانية أكبر لنيل تأييد الرجال، مثل الإضرابات ومعارضة تخفيض معونة الرعاية الإجتماعية، ومطلب مساواة الأجر، والتنظيم النقابى، والإجهاض. وتضفى الحركات النسائية المعاصرة صورة مثالية على النساء كضحايا لسيادة الذكور، لاكشريكات فى نضال الطبقة العاملة. وبدلا من التركيز على النطاق الذى يخاطب أقوى ماعند النساء- أى النقابات ومواقع العمل- تركز هذه الحركات على أمور تثير أضعف ما فى النساء، لذلك انتهى بها المطاف إلى الهامش، ووقعت فى شرك التحلل، وذلك رغم أن أفكارها مايزال لها سلطان كبير.

كانت وراء هذه الحركات طبقة متوسطة جديدة، تركت سماتها الخاصة بصمتها على مفهومى اضطهاد المرأة، وتحرير المرأة. وهى طبقة تعانى نساؤها ورجالها أيضاً من شعور بالاغتراب، ويكون هذا مضاعفاً عند النساء، اللاتى يتعرضن لتمييز الرجال عليهن فى العمل والترقية. ويسفر تمرد هؤلاء عما دعاه ماركس،

الإشتراكية البرجوازية الصغيرة، حيث يندون بمظالم الرأسمالية، ولكنهم إذ يتشبثون بالفردية لايستطيعون التطابق مع الطبقة العاملة، الطبقة الوحيدة القادرة على القضاء على منبع هذه المظالم.

وأخيراً نتعرض مباشرة لاضطهاد النساء اليوم، الأسرة، والعمليات التاريخية التى شكلت الأسرة العمالية: لماذا عاشت هذه الأسرة التى كانت آخذه فى التحلل فى بداية عهد الرأسمالية؟ كيف ولماذا ناضل الرجال والنساء فى الطبقة العاملة دفاعاً عن الأسرة، وأى ثمن كان على النساء دفعه مقابل الانتصار الجزئى على قساوة الرأسمالية؟ وهل تمثل الأسرة اليوم عامل دعم أم قهر، أم كليهما؟ وما هو الدور الذى تلعبة كبؤرة لإغتراب النساء؟ هل بوسعها أن تكون ملاذاً للحب والرقى فى مجتمع يشوه كل أنواع العلاقات؟ وكيف تؤثر الطبقة على الأسرة؟ وعلى أى نحو تختلف أسر الطبقة العاملة عن أسر الطبقة المتوسطة؟

ويركز الفصل الأخير على العلاقة بين استغلال النساء كعاملات، واستغلالهن كنساء. كيف يؤثر الاضطهاد على النساء، سواء فى المجتمع ككل، أو فى الأسرة؟ ما هى العلاقة بين النضال الطبقى ضد الاستغلال والرأسمالية من جهة، والنضال ضد اضطهاد النساء من جهة أخرى؟ وما هى المنظمات اللازمة لقيادة كلا النضالين؟ ونحاول فى هذا الفصل، وضع المفاهيم الماركسية عن العلاقات المتبادلة بين الاستغلال، والاضطهاد والتحرر، فى سياقها التاريخى. ودعوانا هنا، هى أنه لايمكن تحرير النساء دون انتصار الإشتراكية، وأن الاشتراكية بدون تحرير النساء، مستحيلة.

هوامش المقدمة

١- تجنبت فى هذا الكتاب استخدام كلمتى «الحركة النسوية» و «النسويات»* بدون استخدام صفة تلحقهما، فقد تبدلت على هاتين الكلمتين معانى مختلفة. عند الاشتراكى الطوباوى العظيم شارل فورييه كانت الحركة النسوية أحد وجوه الإشتراكية الهامة، وعند ألكسندرا

كولونتاى (كذلك كلارازتكين وإينيسا أرمان وروزا لو كسمبورج وأخريات من نفس الجيل) كانت كلمة مسيئة لوصف الحركة النسائية البرجوازية. وقد مرت كلمات أخرى بتحولات مماثلة. منها «راديكالى»، فقد كانت تستخدم لوصف الحركة الشعبية فى بريطانيا فى الفترة الواقعة بين الثورة الفرنسية ونهاية الحركة الشارتية، ولكنها صارت مرتبطة فيما بعد بالمحافظين الراديكاليين (تورى)، وأعضاء الجناح الراديكالى من الحزب الليبرالى، (ويجز)ثم أصبحت لعنة تلحق بالإشتراكيين، وما إن ترسخت فكرة الحزب العمالى المستقل، حتى بدت الراديكالية مبهمة ومنتمية للماضى.

٢- كيت ميليت «السياسة الجنسية» (لندن، ١٩٧٧).

٣- فردريك إنجلز «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» (نيويورك، ١٩٧٩).

٤- على سبيل المثال لعبت النساء فى الموجة الثورية التى اجتاحت أوروبا فى سنوات ١٩١٥-١٩٠٢ دوراً بارزاً فى حالات كثيرة رغم واقع أنهن القسم الأضعف تنظيماً من الطبقة العاملة، كما كن الأضعف أجراً. ومع ذلك كان ينتظر منهن خلال الحرب العالمية الأولى أن يطعمن أسرهن من مخزون طعام متناقص وأن يعملن لساعات طويلة فى مصانع الذخيرة. وفى عدة حالات أشعلت النساء الشرارة التى فجرت موجات من النضال الجماهيرى الواسع وفى جلاسجو فاز إضراب النساء عن دفع الإيجارات- بمساندة التهديد بالإضراب فى أحواض السفن- بالحد من مقدار رفع الإيجارات.

*يرد فى الفصل الخامس تعريف بترجمة الكلمتين FEMENISTS, FEMINISM المترجمة.

وقد أسفرت اضطرابات الجوع التى قادتها العاملات فى ليبزج عام ١٩١٧ عن أول مجلس للعمال الألمان، كما دشنت إضرابات النساء ومظاهراتهن حالة العصيان فى تورين فى نفس العام. ولعل أشد هذه الأمثلة درامية هو ثورة فبراير ١٩١٧ فى روسيا

٥- فردريك إنجلز «أحوال الطبقة العاملة فى إنجلترا» (لندن ١٩٧٣).

الفصل الأول

ميلاد حلم

كانت الثورة الإنجليزية فى منتصف القرن السابع عشر هى فجر تحرير النساء، فقد جلبت الفلاحات والكادحات إلى ساحة التاريخ، وأثارت أسئلة كثيرة جوهرية حول بنية المجتمع، بما فى ذلك مايتعلق بمكانة النساء فيه. وقد حظيت النساء برضا خاص من الفرق والشيع الدينية والسياسية التى انبثقت بكثرة وقت الثورة والحرب الأهلية، حتى أن بعضها منح النساء المساواة فى الحقوق، كما ظهرت براعم أخلاقيات جديدة بما فى ذلك مايتعلق منها بالجنس.

ولكن سرعان ما ذبلت البراعم الجديدة، إذ توقفت الثورة وهى لم تكد تبدأ،

بعد أن قامت وحدة جديدة بين البرجوازية المنتصرة والأرستقراطية، أسفرت عن استعادة الملكية والنبلاء والأساقفة.

ظهرت الأفكار الجديدة حول مساواة النساء والأخلاقيات الجنسية إلى الوجود، في صفوف الراديكاليين من المعسكر الثوري، ومن هؤلاء كانت فرق «المساوين» و«الحفارين» و«الصخابين».

مثل المساوون، الذين كانوا يرون أنفسهم من «أواسط الناس»، الفلاحين والحرفيين المستقلين بأدوات إنتاجهم وقد استقرت نقمتهم على تركز السلطة الإقتصادية في أيدي الأغنياء، واعتبروا الاستقلال الإقتصادي، أي حق الفرد في تملك أدوات إنتاجه الخاصة من أدوات وأنوال يدوية ومحاريث، ثم الأرض ذاتها على وجه الخصوص، من الحريات الأساسية للإنسان. كانوا يطمحون إلى مجتمع من المنتجين الصغار المستقلين الأحرار، وأدانوا كل وجوه المجتمع الاستغلالي، ملاك الأرض والنبلاء والملكية ورجال الدين والمحامين. ورأوا الطريق إلى تحقيق المساواة في السلطة السياسية عبر إلغاء شرط الملكية لحق الاقتراع، وإنشاء دوائر انتخابية متساوية الحقوق، وإجراء انتخابات سنوية. ولقد تمتع المساوون لفترة من الوقت بنفوذ كبير وسط جمهرة الجنود العاديين في جيش كرومويل.

جاءت هزيمة المساوين الساحقة على يد كرومويل عام ١٦٤٩ لتقضي على آمال الراديكاليين في عالم جديد، فلا توسيع لحق الإقتراع الآن، ولا إصلاحات إجتماعية ولا إلغاء لنظام العشور ولتسييج الأراضي، وتحطمت الأحلام الشعبية بصورة تدعو إلى اليأس. ولكن من هذا الحطام إنبثقت حركة الحفارين، ففي يوم الأحد، الأول من أبريل عام ١٦٤٩، تجمعت حفنة صغيرة من الفقراء عند تل سانت چورج قرب أبرشية والتون المطلة على نهر التيمز، وشرع هؤلاء يحفرون الأرض الجرداء هناك ويبذرونها بالقمح والجزر والفاصوليا. وكان هذا نوعاً من الدعوى الرمزية بحق الملكية، فأغار عليهم ملاك الأرض المحليون وأجبروهم على الرحيل حيث انتقلوا إلى كوبام هيث على بعد ميل أوميلين من أبرشية والتون، حوالي أغسطس ١٦٤٩. قامت مستوطنات الحفارين في «نورثامبتون شاير» (ويلينجبورو) وكنت (كوكس هول) وبارنيت وانفيلد ودنستابل، بوزورث ونوتنجهام شاير، وربما أيضا في باكنجهام شاير وجلو شستر شاير.(١)

مضى الحفارون الى أبعد من المساوين، فقالوا أن إعادة توزيع السلطة

السياسية ليست كافية للقضاء على الاستغلال، وأن الحرية الحقيقية تقتضى إلغاء الملكية الخاصة. لقد كانوا اشتراكيين طوباويين، ولم يكن زعيمهم «جيرارد وينستانلى» أول ذلك الطابور من المفكرين الاشتراكيين والحالمين، ولكن الاتساع الذى اتسمت به أفكاره حول عدد كبير من الموضوعات، كان باهرا. فخلال عامى ١٦٤٩-١٦٥٠ نشر مجموعة من الكراسات التى تناولت الله والمادة، السياسة والاقتصاد الثقافة والعلم والزواج والأسرة.(٢)

كان الصخابون نتاجاً آخر لانهيار المساوين، وقد ظهروا بصورة مفاجئة تماماً فى عام ١٦٤٩، بعد فترة وجيزة من هزيمة المساوين، ويبدو أنهم اجتذبوا على امتداد عام تقريباً جمهوراً عريضاً، خاصة بين فقراء لندن، وإن تكن قد ذاعت أنباء عن نشاطهم فى جميع أنحاء انجلترا تقريباً.(٣) لقد كانوا «يتكلمون لصالح العناصر الأكثر بؤساً وشقاء» وسط السكان، سكان الأحياء الفقيرة فى لندن وغيرها من المدن، ووجهوا كلامهم إليهم». ويبدو أنهم اجتذبوا عدداً من المساوين السابقين الذين استولت عليهم المرارة وخيبة الأمل، فحيث فشلت المساواة بالسيف والجاروف، بدا أنها باتت رهناً بمعجزة يتدخل فيها الرب نفسه ليهد المتجبرين بواسطة أفقر من على الأرض وأكثرهم وضاعة وحقارة شأن (٤) فلسوف ينقض الرب أعظم المساوين على الأغنياء والمتجبرين «كلص بليل، بسيفى المشهر فى يدى» ومثل لص كما أنا الآن، أقول سلم كيسك، سلمه ياسيد، أو أقطع رقبتك، إكان هؤلاء مشوشون، وفوضويون غيبيون من حيث الأساس يفتقرون لأى شكل من أشكال التنظيم.

فى المسائل المتعلقة بالأسرة والجنس، كان المساوون متعلقون بقوة بالملكية الخاصة، وكان موقف زعيمهم «ليلبورن» واضحا بشأن العلاقة المباشرة بين الزواج الأحادى والملكية الخاصة، ولقد دافع عن كليهما.

فى المقابل، آمن جيرارد وينستانلى والحفارون بالزواج الأحادى، ولكن على أن يقوم على حرية الطرفين، حريتهما من القيود الاقتصادية والقانونية، وحريتهما فى الإختيار، وصاغ فكرته هذه فى «قانون الحرية فى برنامج» كما يلى:

«ستكون لكل رجل وامرأة الحرية فى الزواج ممن يحب أو تحب، إذا استطاع أن يحوز حب وقبول الطرف الذى يود الزواج منه، ولن يوقف هذا الزواج لا الأصل ولا البائنة، لأننا جميعاً من عرق واحد، هو البشرية، أما عن البائنه،

فسوف تكون المحال الجماعية هى بائته كل رجل وكل فتاة، مجانية للجميع على قدم المساواة.

«وإذا عاشر أى رجل فتاة فحملت منه طفلاً، سيتزوجها».

فإذا ماتم الزواج بالفعل لاتبديل فى الأزواج. كتب وينستانلى عن الحرية الجنسية:

«إن المرأة والطفل المتورطان فى وضع كهذا، هما اللذان يتعرضان لأسوأ نتائجه، فالرجل سيمضى ويتركهما بعد أن يكون قد قضى وطره. لذلك يجب أن تحاذرن أيتها النساء ففى هذا المسلك العربيد تكمن قوة تدمير الخلق لاقوة إحيائهم.. إنهم إذ يطلبون الحرية لأنفسهم، يستعبدون غيرهم»(٦)

وكما يلاحظ كريستوفرهيل:« كانت الحرية الجنسية تؤول فى الواقع إلى حرية للرجال وحدهم طالما لم توجد بعد وسائل فعالة للتحكم فى الحمل، وقد كان ذلك هو الأساس العملى لتأكيد البيوريتانين على الزواج الأحادى»(٧).

ويجب أن نضيف أساساً عملياً آخر للتشديد البيوريتانى على الزواج الأحادى، وهو أن الحياة الأسرية المستقرة مثلت تحسناً إيجابياً عند كثيرين من فقراء انجلترا فى القرن السابع عشر، فلقد كانت الأسر الفقيرة تتهدم باستمرار نتيجة لضعف الأجور وضيق فرص العمل. كان الأزواج والآباء الذين دفعهم الفقر للبحث عن عمل بعيداً عن أسرهم يتركون النساء والأطفال لتعولهم الأبرشية، وعندما يبلغ «ابناء الأبرشية» هؤلاء السابعة من العمر، كانوا ينتزعون من أمهاتهم للشغل (لاكمتدربين على حرفة، بل كخدم فى أدنى مراتب الخدم) عند سيد أو سيدة اختارها المشرفون على الأبرشية.

كان البيوريتانيون أبناء الطبقة المتوسطة ينتقدون الفقراء بقسوة لأنهم يعيشون حياة «لا أخلاقية»، وقد أوضح وينستانلى أن الأمان الإقتصادى وحده هو الذى يكفل الظروف اللازمة «للاستقرار الأخلاقى للأسرة».(٨)

جماعة واحدة من جماعات الثورة الانجليزية انفردت بمعارضة الزواج الأحادى، وهى جماعة الصخابين، ومنح واحد من زعمائها (جون روبينز) «تلاميذه سلطة تغيير الزوجات والأزواج، وغير زوجته على سبيل إعطاء القدوة ورفع لورنس كلاركسون هذه الممارسة إلى مستوى نظرية للحرية الجنسية الكاملة، ومضى أبيزر كوب بالهجوم إلى أبعد، إلى الأسرة الأحادية ذاتها فقد كتب يقول: «اهجر أسرتك العفنه والتزاماتها». وعند كلاركسوف لافرق بين فعل الخيانة والصلاة،

فالأمر كله يتوقف على موقفه الداخلى. وأكد أن «كل الأشياء نقية عند الإنسان النقى، بلى، كل الأشياء نقية»، بما فى ذلك الخيانة الزوجية.

كتب كلاركسون هذه الكلمات عام ١٦٥٠، وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ كتب معلقا على مبادئه تلك، مبادئ الصخابين: «لايمكن أن يتحرر انسان من الخطيئة، قبل أن يكون قد مارس ذلك الذى يدعى «خطيئة» وكأنه ليس بخطيئة... قبل أن يصبح بمقدورك أن تعاشر كل النساء كما لوكن امرأة واحدة دون أن تحكم على ذلك بأنه خطيئة، فإنك لاتستطيع أن تعمل إلا الخطيئة» (٩) وقد لخص موقف كلاركسون شاهد موثوق، وان يكن مناوئا له، فى الكلمات التالية: يقولون أن ربط رجل واحد بامرأة واحدة، أو امرأة واحدة برجل واحد، إنما هو ثمرة اللعنة الالهية ولكننا قد تحررنا منها . هكذا يقولون، لذلك فنحن أحرار فى أن نستعمل من نشاء»(١٠)

ويلخص كريستوفر هيل موقف الصخابين من الجنس والعمل كمايلى: «أرى أن الصخابين أعطوا شكلا أيدولوجيا وتعبيرا متسقا لممارسات كانت شائعة بالفعل منذ زمن طويل وسط المتشردين وسكان الأكواخ بالحيازة والفئة الواقعة بينهما من الحرفيين المهاجرين» (١١) لقد كان أغلب ماجاء به الصخابون لايمثل اخلاقيات جديدة ، بقدر ما يعبر عن مواقف تقليدية، بعضها مستمد من الطبقة المترفة، مثل كراهية العمل، والتعددية الجنسية ، والسباب..»(١٢)

لقد لاحظ انجلز من قبل:

تلك «الحقيقة اللافته للنظر، وهى أنه مع كل حركة ثورية كبرى، تنتقل مسألة «الحب الحر» الى الصدارة ، حيث يعتبرها قسم من الناس تقدما ثوريا، يحطم الأغلال التقليدية القديمة التى لم يعد لها موجب، بينما يرحب بها آخرون باعتبارها نظرية تغطى كل ألوان الممارسات المستهتره والمنحلة بين الرجل والمرأة» (١٣).

كانت الأخلاق الجنسية للحفارين والصخابين مرتبطة بالظروف الاجتماعية لكلا الجماعتين، فالأخلاق- شأنها فى ذلك شأن كل الأفكار والعادات والأعراف- تجد جذورها فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى يعيشها الناس، وهى ليست امتدادا ميكانيكيا لهذه الظروف، ولكنها ليست معزولة عنها أيضا.

كانت الثورة الجنسية، سواء فى الشكل الذى أعطاه لها الحفارون، أو

الصخابون، خطوة للأمام فى مواجهة الأخلاقيات المزدوجة فى معاييرها فى الأمور الجنسية.كذلك كان الحفارون والصخابون يتمتعون كليهم برؤية واضحة للعلاقة بين الملكية الخاصة والجنس، وراودهم الحلم بعالم تكون فيه الثروة ملكية جماعية ويتمتع الفرد فيه بحريته. وكانت رؤياهم بشيرا بمجتمع المستقبل الحر، الذى يتطور فيه الرجال والنساء كبشر متكاملين، ولقد أعطتنا الثورة الانجليزية عينه منه سلفا.

هوامش الفصل الاول

١-ك. توماس «برنامج آخر عن الحفارين» ن «الماضى والحاضر» العدد ٤٢ ،فبراير ١٩٦٩.

٢- تتوافر مجموعة من كتابات وينستانلى اعدها للنشر كريستوفر هيل بعنوان «وينستانلى:قانون الحرية وكتابات أخرى» (لندن ،١٩٧٣).

٣- أ.ل. مورتون «عالم الصخابين» (لندن ١٩٧٠) ص٧٨. ٤- مورتون، ص٧١

٥- وينستانلى ص٣٨٨ ٦- اقتباس لكريستوفر هيل «العالم مقلوبا رأسا على عقب» (لندن، ١٩٧٥) ص٣١٩ ٧- هيل، ص٢٥٧

٨- أبدى كل من ادوار آفلنج واليانور ماركس آراء مماثلة فى كراسهما «مسألة المرأة» (١٨٨٦):«يطالب كثيرون من المفكرين التقدميين بتسهيل إجراءات الطلاق الآن... ثم وهو الأهم ، مساواة شروط الطلاق للجنسين، وهذا كله ممتاز، ولكنه فقط لن يكون عمليا الا اذا- ولانغفل إلا اذا هذه- كان الوضع الإقتصادى للجنسين متماثلا، ولكنه ليس كذلك. لذلك، فبينما نوافق على كل هذه الأفكار نظريا، فاننا نعتقد أنها ستؤدى- فى حال تطبيقها عمليا فى ظل نظامنا الحالى- الى مزيد من الظلم للنساء، فى غالبية الحالات. فالرجل سوف يتمكن من استغلالها لمصلحته ولن تستطيع المرأة ذلك، سوى فى الحالات النادرة التى تكون لديها فيها ملكية خاصة أو وسيلة ما لاكتساب العيش. وعدا ذلك سيكون فى إبطال الزواج حرية له، وتجويع لها ولأطفالها (ص.١٠)

٩- اقتباس لهيل ، ص ٣١٤-٣١٥ ١٠- إقتباس لهيل ص ٣١٨ ١١- هيل، ص ٣١٩-٣٢٠

١٢- هيل، ص ٣٤٠

١٣- انجلز «كتاب الوحى» من (التقدم) المجلد الثانى (١٨٨٣).

الفصل الثانى

الثورة الفرنسية

كانت للثورة الفرنسية طبيعة مزدوجة، فعلى امتداد الثورة كان النضال الطبقى يدور على محورين متوازيين، من ناحية كانت هناك البرجوازية- طبقة الصناعيين والتجار الصاعدة،بما فى ذلك حتى أصحاب الحوانيت الصغيرة وأصحاب الورش، رجال تتوقف ملكيتهم وثروتهم على الرأسمالية النامية- وهى التى اتجه نضالها ضد النبلاء الذين كانت أملاكهم وثرواتهم ماتزال تقوم على الملكية العقارية للأراضى. ومن ناحية أخرى كان هناك نضال طبقى ضد البرجوازية ، يشنه الفقراء والمعدمون، جنين الطبقة العاملة «الأذرع العارية»* (أى أولئك الذين يشمرون أكمامهم كى يعملوا). لقد كانت أيضا أول محاولة

* بالفرنسية فى النص bras nuS المترجمة

يقوم بها المستغلون والمضطهدون لتحرير أنفسهم من كل أشكال الاستغلال والقهر.

كانت هذه أول ثورة حديثة تنخرط الجماهير الواسعة فى النشاط فيها (فالثورة الانجليزية كانت من حيث الأساس، من عمل جيش كرومويل البيوريتانى). وقد دفعت هذه الجماهير مرارا بالبرجوازية الى المضى قدما فى النضال ضد الأرستقراطية والملكية، فمرة تلو المرة اقتحم الفقراء السجون والقصور واجتماعات الجمعية الوطنية وقاتلوا الرجعية وأنقذوا الثورة. لقد كانوا هم الذين دفعوا بالبرجوازية الى أبعد من الحدود التى كانت راغبة فى التحرك فيها: من الملكية الدستورية فى فترة ١٧٩٠-١٧٩١، الى جمهورية متذبذبة فى ١٧٩٢-١٧٩٣- بزعامة الجيروند اليمينيين، وأخيرا الى الجمهورية التى تزعمها القسم الأكثر راديكالية وحزما من البرجوازية، اى اليعاقبة بزعامة ماكسيمليان روبسبيير.

لقد ضحت جمهرة الفقراء والمعدمين بحياتها على أبواب سجن الباستيل وغيره، يلهمها الأمل فى نهاية لفقرها، فى التطويح بنير الاضطهاد العتيق من يد النبلاء الاقطاعيين، ورجال الدين والملكية، ولكنها قاتلت أيضا للتخلص من النير الذى فرضته عليها البرجوازية. كان المعبرون السياسيون عن هذه التطلعات الى الخبز والعدالة هم «المسعورون»*، وهو نعت أطلقته البرجوازية على حزب الثورة الأكثر تطرفا، وقد دعاهم ماركس، المثلين الرئيسيين للحركة الثورية»، كانوا فى الواقع طليعة الطبقة العاملة الجنينية، التى ماتزال ضعيفة للغاية وغير متجانسة.

تغاضى اليعاقبة عن «الأذرع العارية» حتى مرحلة معينة، بل واستخدموهم فى التغلب على مقاومة أنصار الملكية والجمهوريين المعتدلين ولكن ماإن أطاحوا بالجيروند- فى ٣١ مايو ١٧٩٣- حتى انقلبوا على حلفاء الأمس، ففى فبراير- مارس ١٧٩٤ قاموا بعملية قمع دموية للمسعورين، وكان من شأن ذلك أن تعرض روبسيير وأصدقاؤه لهجوم قاض من اليمين البرجوازى الذى رأى أن الثورة قد مضت بعيدا بما يكفى، ففى ٢٧ يوليو ١٧٩٤ (التاسع من ترميدور

---

* بالفرنسية فى النص les enrage's (المترجمة)

بتقويم الثورة) تمت الاطاحة بروبسبير واليعاقبة. لقد شعرت، البرجوازية ، بعد القضاء على السلطة السياسية «للأذرع العارية» تماما، بأن حكمها قد استقر الآن الى الأبد .

ماذا كان دور النساء فى الثورة الفرنسية؟

تجيب سيمون دى بوفوار على النحو التالى:

«لقد كان العالم دائما ملكا للرجال... فقد يتوقع المرء أن تكون الثورة الفرنسية قد غيرت نصيب النساء، ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك. لقد كانت تلك الثورة البرجوازية مفعمة بالاحترام للمؤسسات البرجوازية والقيم البرجوازية، وكانت ثورة من صنع الرجال وحدهم تقريبا». (١)

وهذا هو عكس الحقيقة، فقد لعبت النساء دورا بالغ الحيوية فى الثورة، ويمكن تقسيمهن الى ثلاثة معسكرات منفصله تبعاً للطبقة التى ينتمين لها: النبيلات. والحركة النسائية البرجوازية، ونساء الطبقات المعدمه.

الحركة النسائية البرجوازية

بصفة عامة اتسم موقف نساء النبالة بالسلبية على امتداد الثورة، فرغم أن النبيلة كانت أدنى مرتبة من النبيل، فلا تمارس حقوق زوجها وسلطاته فعليا، حيث يقتصر الدور المحدد لها على تربية ورثة اسم الاسرة وثروتها، فقد كانت تشارك أيضا فى امتيازات الأرستقراطية، ومن ثم كانت من المؤيدين الاساسيين للنظام القديم.

ولكن الوضع اختلف عند نساء البرجوازية فقد استنهضتهن الثورة حين حطمت الهياكل المراتبية للسلطة، وازدهرت الحركة النسائية البرجوازية. كانت تشريعات لويس الرابع عشر الخاصة بانتخابات مجلس فئات الأمة تقصى النساء عن المشاركة المباشرة فيها، ولكن البرجوازيات كن نشيطات فى صياغة قوائم بالتظلمات والمطالب والمقترحات والعرائض التى خرجت من الثورة، واحتلت الحقوق السياسية موقع الصدارة فى أوراق الشكاوى والعرائض تلك ، التى اشتهرت «بكراسات» الثورة. وهكذا نصت «قائمة تظلمات ومطالب النساء لمدام

ب...ب...» على مايلي:

«إننا نعتقد أن العدالة تقضي بالسماح للنساء- أرامل وفتيات- اللاتي تملكن أرضا أو غيرها من الأملاك بحمل تظلماتهن الى الملك، وأنه من العدل أيضا الأخذ بأصواتهن في الاقتراع، طالما أنهن ملزمات، مثل الرجال، بدفع الضرائب الملكية وتنفيذ العقود التجارية... وحيث أنه يجب أن تكون لمن يمثلون طائفة نفس المصالح التي لها ، فلا يجوز أن يمثل النساء الا النساء»(٢)

وطالبت كراسة أخرى تحمل عنوان « مطالب السيدات الى الجمعية الوطنية عام ١٧٨٩ » بإلغاء امتيازات الرجال كلية، بمافي ذلك حقوقهم القانونية على زوجاتهم، وبالسماح للنساء بممارسة مختلف الوظائف السياسية دون أي قيد.

وقدمت صحيفة «مونيتور» في عدد ٦ ديسمبر ١٧٨٩ عرضا لكراسة بعنوان « تظلمات وشكاوى نساء في زيجات سيئة »، تضمن نقدا لقوانين الزواج السارية وقتئذ، يتهمها بالافتقار للعدالة، وطالبت بأن تتسع تشريعات الزواج لإلغاء الزيجات التي فيها« أحد الطرفين هو الكل في الكل والآخر لاشيئ.. النصف يأمر والنصف الآخر يخدم، أحدهما يقهر والثاني مقهور ولايسعه أن يكف عن أن يكون كذلك» كذلك تحدت مجموعة من النساء الطغيان القانوني للأزواج ثانية عام ١٧٩١، في عريضة قد منها الى الجمعية الوطنية احتجاجا على قانون يعطي للأزواج وحدهم حق رفع الدعوى في القضايا المتعلقة بالخيانة الزوجية، ويوقع عقوبة على من تثبت ادانتها في هذا الصدد بالسجن عامين.

الا ان العدد الأكبر من الإقتراحات النسائية التي ظهرت في الكراسات- التي بلغ عددها ثلاثا وثلاثين- كان يتعلق بإدخال تحسينات على تعليم النساء (٣)

من أبرز رائدات الحركة النسائية البرجوازية أثناء الثورة «أوليمب دي جوج»، وهي امرأة ثرية من العامة وإن كانت تدعي الانتماء لطبقة النبلاء. في بداية الثورة كانت ملكية متعصبة، ولم تتعاطف أدنى تعاطف مع موكب الاحتجاج النسائي الذي توجه الى قصر الملك في فرساي في ٦ أكتوبر ١٧٨٩، بل كان نظام الملكية المطلقة بأسرة، الذي بلغ به لويس الرابع عشر نقطة اكتماله، يبدو لها- في ١٧٨٩- مقدسا تقريبا، وكتبت تقول عن ذلك: «لقد حسنت أربع عشرة سنة من العمل هذا الدستور الممتاز... ومن الجنون التفكير في تغييره، ومع ذلك فانهم يفكرون بالفعل في الاقدام على ذلك، فأي زمن هذا!» واقترحت في احدى كتيباتها أن تشكل النساء من بينهن حرسا خاصا لحماية الملكة، وفقط

عندما هرب الملك الى «فارين» تحولت بالولاء الى الجيروند، أى أصبحت جمهورية معتدلة.

وفيما يخص بنات جنسها في أدفي طبقات المجتمع، كانت بلا شفقه، فلكي تحمى النساء الشريفات وبناتهن من أن تقع أنظارهن على الفساد فى شوارع باريس، أرادت أن تكنس العاهرات من الشوارع وتعزلهم فى أحياء مغلقه تابعة بالفرنسية فى النص ≠chaiers المترجمة.

للدولة وتحت حماية الشرطة.(٤)

قدمت أوليمب دى جوج أكمل تعبير عن الحركة النسائية البرجوازية فى «إعلان حقوق النساء» الذى كتبته وقدمته الى الملكة، واذ جاء هذا تاليا على «إعلان حقوق الانسان» الصادر عام ١٧٩٠ والذى انتشر انتشارا واسعا، فقد ركز على مساواة حقوق النساء بمقابلتها بماورد فى حقوق الانسان،بندا بندا تقريبا. وجاءت العبارات الافتتاحية متسمة بطابع براجماتى: «لن تكتمل هذه الثورة قبل أن تعى جميع النساء سوء مقدراتهن، والحقوق التى فقدنها فى المجتمع... » ثم مضت تتساءل:«أيها الرجل، هل لديك القدرة على أن تكون عادلا؟ أخبرنى، ماالذى أعطاك سلطة السيادة لقهر بنات جنسى؟ أهى قوتك؟ أهى قدرتك؟ ». وتحدثت عن الانسجام والتعاون بين الذكر والأنثى فى الطبيعة. واتخذت منه نموذجا تسخر من خلاله من زعم الرجل بحقه «فى التحكم المستبد بجنس يتمتع بكافة القدرات العقلية». ونصت المقدمة القانونية للإعلان على ان «ممثلات الأمة من النساء يطالبن بحق الانضمام الى الجمعية الوطنية» ونصت المادة (١) على ان:

«جميع النساء ولدن حرات ولهن ان يتمتعن بمساواة الرجال فى الحقوق... إن هدف جميع الجمعيات السياسية هو الحفاظ على الحقوق الطبيعة وغير القابلة للنقض للنساء والرجال.. الامة هى اتحاد النساء والرجال ... القانون هو التعبير عن الارادة العامة: لكل المواطنين ، نساء ورجالا، الحق فى صياغته، بأشخاصهم او عبر ممثلين عنهم».

وتتضمن المواد التالية مساواة دقيقة وتامة بين الجنسين أمام القانون وفيما يتصل بأى وضع آخر يتعلق بالحياة الخاصة أو العامة. وحددت الحقوق الأساسية بأنها :«الحرية، والرخاء والأمن، وقبل كل شئ الحق فى مقاومة الإضطهاد»، ويتولى القانون حماية الحقوق السياسية، أما الحقوق الاقتصادية فيؤ منها انهاء

التمييز في التشغيل في الاشغال العامة والخاصة. وكانت الفقرة الأخيرة نداء موجها لجميع النساء كي يتحدن ليستعدن «إرثهن الذي قضت به سنن الطبيعة الحكيمة».

برزت في الحركة النسائية البرجوازية أيضا «ايتا بالم فان أيلدر» الهولندية المولد، وهي جيروندية يمينية، اتخذت اللقب الأرستقراطي «البارونه دي أيلدر» ليلمع اسمها ،ووجهت دعوة للأميره دي بورربون» لتكون راعية إحدى منظماتها الخيرية ، وفي الأول من ابريل عام ١٧٩٢ قدمت عريضة للجمعية التشريعية ، عبرت عن أهداف النساء البرجوازيات. طالبت العريضة خاصة بتعليم البنات، وتحديد سن قانونية للنساء تصبح سارية عند بلوغهن الحادية والعشرين، وبالحرية السياسية ومساواة الجنسين في الحقوق، وبحق الطلاق.

كذلك من المعبرات البارزات عن الحركة النسائية البرجوزاية، الجيرونديه تيرواني دي ميريكور التي يبدو أن اسمها الحقيقي كان «آن تيرواني.» ولعلها أشهر النساء الثلاث، الأمر الذي يرجع الى حد كبير الى الهجوم الذي شنه معاصروها ضدها.

اخيرا وليس آخرا، كان بين أهم المدافعين عن الحركة النسائية البرجوازية رجل، هو الجيروندي الماركيز «دي كوندورسيه» وهو فيلسوف ورياضي. وقد طرح في المذكره التي وضعها عن تعليم نساء الصفوة، مبدأ «ضرورة توحيد العلم الذي يتلقاه الرجال والنساء»، واختلاط الجنسين خلال الدراسة بدلا من الفصل بينهما. وقال أنه لامعنى لاستبعاد النساء من التدريب على مهن يفتحها أمام كلا الجنسين مبدأ التنافس. وطالب بمساواة النساء في فرص التدريس في جميع مستويات الدراسة ولأن لديهن ميل خاص لبعض الفنون العملية، تكتسب الدراسات العلمية قيمة خاصة في حالتهن. ويجب أن تتعلم النساء قبل كل شيئ ليتمكن من تربية الأطفال بطريقة ذكية وإرشادهم في دروسهم. كذلك دافع كوندورسية عن منح حق الاقتراع للنساء من المالكات ، على غرار الوضع القائم وسط الرجال.

غير أن مسيرة الثورة المتصاعدة لم تترفق بقيادات الحركة النسائية البرجوازية، فقد عاملت الطبقات الدنيا، ونساؤها خاصة، مدام أوليمب دي جوج بلا أي رحمة: فحين صعدت الى المقصلة مع غيرها من زعماء الجيروند، أخذن في التصفيق. وتعرضت تيرواني دي ميريكور لضرب وحشي على أيدي

مجموعة مناللعاملات فى ربيع عام ١٧٩٣، ويبدو أن هذا أدى بها الى جنون لم تشف منه. أما «إيتا بالم فان أيلدر» فقد كان لديها مايكفى من الحصافة كى ترحل عن فرنسا قبل أن يتسنى للحكومة الثورية القبض عليها. وكذلك أعدم كوندورسية على المقصلة.

تمكنت الحركة النسائية البرجوازية بالفعل من الحصول على بعض الاصلاحات نتيجة للثورة، فقد أجريت تعديلات على قوانين الإرث، لمنح الذكور والاناث من الأطفال حقوقامتساوية، ووضعت قوانين جديدة تجعل للنساء «سنا قانونية» يبلغنها فى الحادية والعشرين، وتمنحهن صلاحية إقتراض الديون، والادلاء بالشهادة فى القضايا المدنية وعدلت تشريعات أخرى القوانين المتعلقة بأملاك النساء، فأعطتهن قدراً من التصرف فى شئون إدارتها، واعترفت بالأم طرفا فى اتخاذ القرارات المتعلقة بالأبناء . وقضى التشريع الذى أقرته الثورة بخصوص الطلاق، بمعاملة الجنسين بالمثل.

ومع ذلك بقيت بعض أشكال اللامساواة، فلم يكن للنساء حق الجلوس فى مقاعد المحلفين، وجرى إقصاؤهن عمليا عن «محاكم الأسرة»، التى حاولت أن تقوم بدور الفصل فى النزاعات الأسرية منذ عام ١٧٩٠ حتى عام ١٧٩٦. وفضلا عن ذلك لم يكتب الدوام للمكاسب النسائية، فقد اكتسحت القوانين النابوليونية كل تقدم أحرزته النساء من الناحية الفعلية.

العاملات

كيف كان رد فعل السياسيات من نساء الطبقة العاملة إزاء مطالب الحركة النسائية البرجوازية؟ أجاب أحد المؤرخين بأنهن:

« لم يعارضن قوانين الطلاق والفرص التعليمية أو المساواه القانونية والسياسية لجنسهن، ولكنهن.. رأين أن الحصول على حقوق النساء متوقف على الحصول على حقوق العمال بصفة عامة.. عند نساء الطبقة العاملة، كانت مشكلات التضخم والبطالة والجوع، أكثر إلحاحاً بكثير من مسائل الطلاق والتعليم والوضع القانونى».(٦)

لقد كانت القوة الدافعة الرئيسية وراء نشاطات «الأذرع العارية»، هي الحاجة للحصول على الطعام بأسعار عادلة وبكمية كافية، فحسب تقديرات المؤرخ «لابروس»، كان العامل بالأجر في الفترة (١٧٢٦-١٧٩١) ينفق خمسين في المائة من أجره (أو وأجرها) على الخبز وحده، وفي عامي احتدام الأزمات الاقتصادية ١٧٨٨- ١٧٨٩ ارتفعت هذه النسبة إلى ٥٨ في المائة، ثم بلغت حداً مروعاً في شهور المجاعة وارتفاع الأسعار في أعلى معدل لها (١٧٨٩)، إذ وصلت النسبة إلى ٨٨ في المائة من الدخل، ومن هنا كان القلق الشعبي المتصل بشأن أسعار الخبز(٧) ومن هنا أيضاً الطريقة التي اتبعتها الجماهير في الحكم على المنظمات السياسية فقد بنت هذا الحكم على موقف مختلف المنظمات من الحاجة للطعام.

ولم تكن المطالبه برفع الأجور لتعويض ارتفاع أسعار الطعام اختياراً وارداً حينئذ حتى لأولئك الذين كانوا يعملون بالأجر. فالصناعة الرأسمالية ذات الإنتاج واسع النطاق لم تكن قد وجدت بعد، ولا الحركة النقابية بالتبعية، لتتولى قيادة النضال. كان نموذج وحدة الإنتاج في القرن الثامن عشر هو الورشة الصغيرة التي تستخدم فقط عمالاً وصبية، وكان هذا العامل مايزال يأكل على مائدة سيده وينام تحت سقفه أحياناً كثيرة. أما الملامح المميزة للطبقة العاملة الصناعية الحديثة، فلم تكن تشاهد إلا وسط عمال صناعة النسيج الجديدة شمالي باريس، وربما كان هؤلاء يعادلون نحو ربع أو خمس مجموع العاملين من السكان(٨) وليست القضية أنه لم تقع إضرابات، ولكن أنها كانت هامشية في الحركة السياسة الشعبية(٩) كان مطلب الخبز هو محور جميع «يوميات الثورة»* أي أعمال العصيان الشعبية والمظاهرات التي اندلعت على نحو متقطع فيما بين عامي ١٧٨٩و١٧٩٥. وكانت النساء هن بطلات هذه المظاهرات، وكذلك وصف دورهن أحد المؤرخين:

«كانت مظاهرات الخبز في الثورة الفرنسية.. سواء المسيرة إلى فرساي في يومي الخامس والسادس من أكتوبر سنة ١٧٨٩.أو بقدر أقل يوميات «جيرمينال» و«بريرال» في العام الثالث أياماً للنساء بحق، فحيثما تعلق الأمر بالخبز، كان الموضوع في نطاق سيادتهن: ذلك أن مظاهرة خبز بدون نساء هي تناقض بحد ذاته»(١٠)

---

* بالفرنسية في النص Journees

ووصف مؤرخ آخر هو جورج روديه مسيرة النساء إلى فرساى فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ كما يلى:

«فى صباح ٥ أكتوبر بدأ العصيان فى السوقين المركزيين وحى سانت أنطوان فى نفس الوقت، وفى كلتا الحالتين كانت النساء هن الشعلة المحركة، ويبدو من روايات عديدة ومتباينة أن الأنشطة التى تلت ذلك ضمت نساء من كل الطبقات الإجتماعية، بائعات السمك وصاحبات الأكشاك فى السوق وعاملات حى سانت أنطوان، والبرجوازيات المتأنقات و«النساء لابسات القبعات». فى السوقين.. بدأت الحركة بفتاة صغيرة انطلقت من شارع سانت إستاش تدق طبلة وتخطب الناس عن ندرة الخبز، فتجمعت حولها زمرة كبيرة من النساء، ثم راح العدد يتضاعف بسرعة...

«كان هدفهن الأول هو الخبز، والثانى على الأرجح هو السلاح والذخيرة لرجالهن.. ثم قمن بنزع سلاح الحرس [فى قاعة البلدية] وسلمن السلاح للرجال الذين تبعوهن وأخذوا يستحثونهن..»

وكبر العدد إلى أن صار ستة أو سبعة آلاف.

«وحين بلغت السائرات فرساى على مشارف المساء، توجهن مباشرة إلى اجتماع الجمعية الوطنية وتزاحمن على الدكك المرصوصة حول النواب المذهولين، ورحن ينتظرن.. النظر فى عريضتهن(١١)

و«تحكى الرواية المألوفة عن مسيرة النساء إلى فرساى، أنهن كن يهتفن أثناء سيرهن «فلنبحث عن الخباز وزوجته وصبيه» [أى لويس السادس عشر والملكة مارى أنطونيت والدوفان وريث العرش] كان يفترض أن الملك، بمجرد تواجده بين رعاياه، سيضمن حضور خبز وفير، إلا أن هذه الآمال لم تتحقق على الفور، فقد استمرت أزمة الخبز شهراً آخر. وفى اليوم التالى على عودة الأسرة المالكة [إلى باريس] غزت جموع من النساء سوق الحبوب، وألقين بمائة وخمسين برميلاً من الدقيق المعطن إلى النهر بعد أن أعطيت عينات منها للملك ليراها. وفى ٢١ أكتوبر، وأثناء اضطرابات خبز فى منطقة «أوتيل دى فيل» شنق الخباز فرانسوا على عامود المصباح سئ الصيت فى ميدان «بلاس دى جريف».. وفى اليوم التالى فى شارع «تيبولت أو دى» على مبعده من السوقين المركزيين، أثارت النساء شغباً إذ أصررن على تفتيش بيت بحثاً عن دقيق وحبوب مخبوءة»(١٢)

ورغم أن المطالب الاقتصادية كانت القوة الدافعة وراء مظاهرة النساء فى أكتوبر، فقد امتزجت بالعصيان السياسى الذى شنته الأحزاب البرجوازية وأيدته فرق الحرس الوطنى فى باريس (وهو سلاح قريب من الفقراء والمعدمين).

فى الفترة مابين نوفمبر ١٧٨٩ وسبتمبر ١٧٩١، وفى تعارض حاد مع الفترة السابقة، استقرت أسعار الخبز، بل وحتى انخفضت. وشهد مستوى معيشة العمال والفلاحين تحسناً كبيراً ولم تقع أعمال تحريض علنية بشأن الخبز. إلا أن هذا لم يؤد إلى أن تفقد عاملات باريس الأهتمام بالثورة، بل ومن الواضح أن الكثيرات منهن أخذن يكتسبن ثقافة سياسية مع تزايد قوة الحركة من أجل القضاء على الملكية. فترددت النساء على النوادى والجمعيات الشعبية، وقرأن صحفاً ثورية وشاركن فى النقاش والجدل المستمر فى كل مكان والذى هو جزء لايتجزأ من كل ثورة.

وأنظر مثلاً إلى الشهادة الرائعة. «لكونستانس إرفارد» وهى طباخة فى الثانية والعشرين من العمر، ألقى القبض عليها فى المظاهرة الجمهورية الضخمة فى «شام دى مار» فى يوليو ١٧٩١. فقد اعترفت بترددها على «نادى الكورديليه» وانتظامها فى قراءة أربع صحف ثورية، وبأنها ذهبت إلى شام دى مار للتوقيع على العريضة الجمهورية، ووصفت هدف العريضة بأنه من أجل تنظيم مختلف للسلطة التنفيذية»(١٣)

وقد أسفر إجتماع المظالم الاقتصادية والتربية السياسية المتقدمة التى أتاحها الوضع الثورى، عن قوة انفجارية.

فبدءاً من خريف ١٧٩١ ارتفعت الأسعار ثانية، وبدأت قيمة النقود الورقية تقل، وظهرت بوادر حركة كانت تدريجية فى بدايتها، ولكنها أخذت تزداد خطراً مع استطالة شبح الحرب. إن العاملة فى عام ١٧٩٢:

«تتجلى غاضبه فى مواجهة انقطاع مواد التموين، وخاصة اللبن، الذى قصّر الريف فى إمداد المدينة به، ويغدو صوتها مسموعاً أكثر بوصفها بطله تثبيت الأسعار، وبدءاً من منتصف ١٧٩٢ بذلت محاولات محلية لتثبيت الأسعار فى ليون والمدن الكبيرة فى الشرق «بيزانسون» و«شالون» و«فيسول»، وجاءت القوة الدافعة لهذه الحركة من «نوادى النساء» المحلية التى اتسعت عضويتها خلال ذلك العام»(١٤)

فى ٢٥ فبراير ١٧٩٣ بادر جمهور العاملين بالأجر إلى العمل المباشر،

فدخلوا المحال وأجبروا أصحابها على بيع السلع بأسعار حددوها هم أنفسهم. لما كان فيه استياء البرجوازية التى أسمت ذلك نهباً. كان بين هؤلاء عدد كبير من النساء، وخاصة الغسالات اللاتى كن يشكين من ارتفاع سعر الصابون.

وفى مساء ذلك اليوم، فى نادى اليعاقبة عبّر روبسبير عن سخطة: «ألايستطيع الشعب، حين يثور، أن يفعل ذلك لسبب جدير به؟ أمن اللازم أن يشغل نفسه بتلك البقالة المنكودة طوال الوقت».

وفى اليوم التالى، ٢٦ فبراير، توجه وفد من النساء إلى قاعة البلدية ليطالب بضبط أسعار جميع السلع الأساسية ورد جان باش، الذى كان قد انتخب لتوه عمدة باريس، ساخراً «إذا تحدد سعر ثابت لعمل أزواجكن، ماذا تقلن فى ذلك؟ هل ستسعدن به؟». وعند انعقاد المؤتمر الوطنى فى نفس ذلك اليوم، هاجم النائب اليعقوبى متظاهرى اليوم السابق. وأعلن نائب يعقوبى آخر «كامبون» فى الثامن والعشرين من الشهر أن الملكية «تواجة تهديداً» ودعا إلى وضع قانون شديد العقوبة ليردع كل من يريد المساس بها.

وفى مطلع شهر مارس، بعث اليعاقبة الذين ساءهم أن ينعتوا بالمضاربين وتجار السوق السوداء إلى فروع نواديهم بنشرة كتبها روبسبير نفسه، نفوا فيها أى مسئولية لهم عن الحركة النسائية التى زعموا أنهم عارضوها بكل مالديهم من قوة، والتى لايمكن إلا لأعدائهم أن يكونوا المحرضين عليها. «إن شعب باريس يمكن أن يسقط طاغية، ولكنه لاشأن له بالبقالين، فلدية ماهو أهم ليفعله من سحق تجار السوق السوداء التافهين».

إلا أن الأذرع العارية لم تكن لتأخذ أوامرها من اليعاقبة، فقد واصل هؤلاء ممارسة الضغط، وفى أول مايو ارتفعت درجة الحرارة السياسية، وقال المتحدث بأسم وفد مندوبى حى سانت أنطوان، وهى المنطقة العمالية الأكثر تقدماً فى باريس، وهو عامل نسيج مطرز يدعى فرانسوا موزين، قال فى بار الجمعية:

«منذ وقت طويل وأنتم تعدوننا بوضع حد أقصى للسعر على جميع السلع الأساسية.. وعود طوال الوقت، دون عمل أى شئ بشأنها.. قد مواشيئاً من التضحية، إنسوا أن معظمكم من المالكين.. حتى الآن، سقطت كل التكلفة التى تكبدتها الثورة على كاهل الفقراء، لقد حان الوقت ليصبح الأغنياء والأنانيون جمهوريون أيضاً، فيتجهون بعيونهم إلى شجاعتهم بدلاً من ملكتيهم< »(١٥)

فى الرابع من مايو ١٧٩٣، ونتيجة لنشاط العاملات، خضع المؤتمر للضغوط واتخذ أول خطوة لوضع نظام لضبط الأسعار، فاستن أول «قانون للحد الأقصى» يثبت الحد الأقصى لسعر السلع الأساسية.

إلا أن القانون كان يشتمل على عدة ثغرات، فاستمر ارتفاع الأسعار والنقص الحاد فى السلع، وردت النساء بالتوجة ثانية إلى العمل المباشر، ففى أيام ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من يونيو، أجبرن التجار على بيع سلعهم، وخاصة الصابون بأسعار أقل. وحين وصل بعض المواطنين من دائرة بواسونيير إلى المجلس العام للكوميونه *أى المجلس الثورى للمدينة- فى ٢٨ من الشهر، اقترحوا توزيع عشرين صندوقاً من الصابون كانت قد صودرت لتوها، بسعر عشرين سو للرطل، ورفض المجلس الاقتراح بالإجماع. ووبخ جاك إيبير نائب مدعى الكوميونه المواطنين النشطين فى هذه الحركة فى مقالة «الأب دوشزن» «اللعنة! إنكم تمضون الوقت فى صيد الذباب بينما أمامنا أسود لنحاربها. أيتها السماوات، أونشن الحرب على تجار السكر والصابون؟ »(١٦)

مع نهاية شهر أغسطس كانت طوابير الخبز واضطرابات الخبز قد أصبحت أحداثاً يومية فى باريس، وكانت تلك هى الخلفية المباشرة لمظاهرات يومى الرابع والخامس من سبتمبر ١٧٩٣ التى دفعت المؤتمر أخيراً وتحت رئاسة روبسبيير إلى سن قانون «الحد الأقصى العام»، وتشغيل الميليشيا الثورية التى كانت مهمتها تأمين وصول إمدادات كافية من الحبوب واللحم إلى باريس من الأنحاء الريفية المحيطة بها.

لم تكتف النساء الشغيلات بالمشاركة فى أضطرابات الخبز، بل وشاركن مشاركة فعالة فى الحرب الثورية ضد خصوم الثورة الأجانب الذين كانوا يريدون إعادة الملكية الفرنسية، فقد من أطناناً من الكتان المنزلى ليستخدم أربطة للجرحى، وكان الكتان، وهو جزء من جهاز العروس المعد لاستعمالها مدى الحياة، هو أهم رصيد تملكه الأسرة العمالية فى أغلب الأحيان.

«لكسوة المتطوعين، تبرعت نساء بونتارلييه، إحدى مدن المواجهة، بخواتم الزواج، أثمن قطعة تملكها الأسرة للرهن وقت الحاجة وفى بيزانسون كانت النساء السائرات فى الطريق والمجهدات من العمل طوال اليوم، يعدن بعد أن ينومن أطفالهن لحياطة جوارب الجنود على الجبهة. وفى صيف ١٧٩٢ حين تعالت حمى الحرب، وصلت الجمعية رسائل لاحصر لها من نساء يؤكدن فيها وطنيتهن

ويقسمن على إرضاع أطفالهن اللبن السليم، لبن..« المبادىء الحسنة، مبادىء حب الدستور وكراهية الطغاة»... علاوة على ذلك وأعمق مغزى أنهن أخذن على عاتقهن شخصياً خوض الحرب الداخلية أثناء غياب الأزواج والأبناء فى الجمعية أي الحرب ضد الخونة فى الداخل، لا الفعليين وحسب، بل وكذلك المحتملين، أى أبناءهم. وعند اندلاع الحرب مع النمسا تسلحت نساء «لون لوسولينييه» و«ماسون» و«كوت» بالمذارى وأوانى القلى وأعلن أنهن سيدافعن عن بيوتهن وأطفالهن فى غياب رجالهن، وإذا هزم هؤلاء.. سيقاومن للنهاية. وتسلحت نساء شارع «تارب» فى صيف ١٧٩٢ بسكاكين المطبخ. وسلحن أطفالهن بالمغارف وانطلقن لمجابهة الأسبان. وأقامت نساء «بورتون بسان» دفاعات ساحلية تحسباً لهجوم الإنجليز على غرة. وإذ تحول النصر السريع المتوقع إلى هزيمة عاجلة، اتجه نصل الكراهية بعنف متزايد إلى أولئك المشتبه فى تآمرهم بالداخل، لاشىء يشبه المقت والانتقامية التى إتسم بها الغل الذى صبته النساء على الهاربين من القساوسة وأقارب المهاجرين.. فى كل تعبير عن المشاعر فى عام ١٧٩٣، كانت النساء أشد جنوناً وحدّة... من رجالهن».(١٧)

تراجع الثورة

حملت مظاهرات يومى الرابع والخامس من سبتمبر ١٧٩٣ الثورة إلى ذروتها، وما إن أنقذ فريق «الأذرع العارية» الموقف لليعاقبة، حتى استدار هؤلاء عليهم، وبدأت الثورة منزلقها إلى اليمين.

وحتى قبل أن يتمكن روبسبيير من سحق الجيروند نهائياً فى ٣١ مايو ١٧٩٣، أظهر هو وزملاءه بغضاً لالبس فيه نحو قيادة الحركة النسائية الجمهورية، وعلى سبيل المثال، فى ٢٢ فبراير ١٧٩٣ طلب وفد من النساء استخدام قاعة اليعاقبة لمناقشة ارتفاع الأسعار وتخزين السلع، فرفض شقيق روبسبيير الأصغر متذرعاً بأن اجتماعا كهذا سيثير متاعب، وجاهر يعقوبى آخر بالقول:« إذا تركنا المواطنات يجتمعن هنا، قد تتجمع ثلاثين ألف امرأة ويثرن حركة فى باريس ستكون قاضية على الحرية»(١٨)

كانت قاعدة نفوذ «الأذرع العارية» تكمن فى «الجمعيات الشعبية» التى كانت تضم عدداً كبيراً من الجمعيات النسائية ومن بين المنظمات النسائية كانت «جمعية الثوريات الجهوريات» هى الأكثر أهمية، وقد تأسست رسمياً فى ١٣ مايو عام ١٧٩٣. وكانت زعيمتاها البارزتان هما كلير لاكومب وهى ممثلة، وبولين ليون وهى عاملة فى مصنع شيكولاته، وكانت كل عضويتها من الفقيرات والمعدمات.

تجلت نضالية الجمعية بأعلى صورها فى الدور الذى لعبته فى الصراع السياسى الذى نشب فى صيف وخريف ١٧٩٣، والذى لعبت النساء دوراً مهما فيه، حيث شاركن فى المظاهرات الحاشدة التى خرجت فى نهاية شهر مايو مطالبة بإلقاء القبض على زعماء الجيروند، الذين استسلموا فى الثانى من يونيو وفيما بعد، كرمت نساء من شعبة حقوق الإنسان فى باريس جمعية الثوريات الجمهوريات للدور البارز الذى لعبته فى تحقيق النصر، بالعلم الثلاثى منقوشة عليه حقوق الإنسان.

«لقد حطمتن حلقة فى سلسلة أغلال التحيز: تلك التى قيدت النساء إلى نطاق بيتهن الضيق، جاعلة أحد نصفى الشعب مجموعة من الكائنات السلبية المعزولة، فهذه لم يعد لها وجود عندكن، أنتن اللاتى يردن شغل مكانهن فى النظام الإجتماعى، فاللامبالاة عندكن إساءة وإهانة». (١٩)

إزداد التقارب بين جمعية الثوريات الجمهوريات والجماعة التى مثلت أقصى يسار الحركة الثورية «المسعورين»، بصورة مضطردة. وشجعت صحيفة «صديق الشعب» التى كان يصدرها «لوكليرك» أحد زعماء المسعورين- نساء الجمعية على تصدّر النضال من أجل المطالب الشعبية. فقالت الصحيفة فى عدد ٤ أغسطس ١٧٩٣، موجهة الكلام للنساء: «إمضين قدماً فيما تقدمنه من مثال ومن خطب لتوقظن العنفوان الجمهورى، وتشعلن الوطنية فى القلوب التى انتابها الفتور.. لقد استأهلتن الحق فى القيادة. والمجد فى انتظاركن!».

غير أن روبسبيير لم تعد به حاجة لمساندة الشغيلات، ما إن تحققت له هزيمة الجيروند، ففى ١٦ سبتمبر ١٧٩٣ خصص اليعاقبة اجتماعهم المسائى لشجب كلير لاكومب زعيمة الجمعية، وطالبوا باتخاذ «إجراءات عنيفة» ضد النساء الثوريات، وألقى القبض على لاكومب، ويشير إطلاق سراحها فى اليوم التالى إلى أن متهميها أرادوا تخويفها وحسب، وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم لم

يفلحوا. فبعد أربعة أيام أخرى فى ٢١ من الشهر، اقترح وفد من جمعيتها، ضمن اقتراحات أخرى، أن تشكل الدوائر لجنة مركزية مكونة من مندوبين عن جميع الدوائر، وكانت اللجان المركزية قد أشرفت فى الماضى على الإطاحة بالملك وتطهير الجيروند.

كان لدى حكومة اليعاقبة ما يدعوها للقلق فقرب نهاية شهر سبتمبر (كما فى بدايته) كان المعروض للبيع من الطعام فى الأسواق الشعبية هزيلاً، وكذلك الخبز فى المخابز، وبدأت تكثر المشاحنات. وفى ٢٩ سبتمبر شبهت جمعية وطنية للرجال جمعية الثوريات الجمهوريات «بأسرة مديتشى، وإليزابيت ملكة إنجلترا، ومارى أنطونيت، وتشارلوت كورداى» وطالبت بحلها. وسمح لكلير لاكومب بالرد على هذه التهم الجسيمة. قالت فى اليوم التالى أمام المؤتمر: «لقد أنجب جنسنا وحشاً واحداً، بينما تعرضنا على مدى أربع سنوات للخيانة والإغتيال على أيدى وحوش لاعد لهم من جنس الرجال، إن حقوقنا هى حقوق الشعب، وإذا كنا نتعرض للاضطهاد، فسوف نعرف كيف نقاومه».

وعليه، شرع زعماء اليعاقبة فى تعبئة بائعات السوق، اللاتى كن يعارضن بالطبع اضطرابات الخبز وضبط الأسعار، ضد «الجمهوريات». وفى ٢٨ أكتوبر غزت نحو ستة آلاف من بائعات السوق مقر الجمعية فى سانت إستاش، وفى ٢٩ أكتوبر تحدث نائب فى المؤتمر لصالح بائعات السوق، وشجب عضوات جمعية الجمهوريات، واتهم النساء بالتكالب على الخبز «كالخنازير على المزود» وقال أنهن لسن بأمهات وبنات طيبات، بل- وهو التوصيف ذو المغزى- زمرة من «الفتيات المتحررات، إناث جنديات».

بعد وهلة وجيزة تقدمت إحدى النساء المتابعات للنقاش وطالبت بإلغاء جميع النوادى النسائية، وفى اليوم التالى اتهم ممثل عن «لجنة السلامة العامة» النساء الثوريات بالتحريض على الثورة المضادة لحساب زعماء الجيروند الذين كانوا حينئذ يحاكمون تمهيداً لإعدامهم. وبعد بضعة أيام أخرى، ألمح النائب «فابر ديجلانتين» إلى أن النساء الثوريات يتألفن من مجموعة من المومسات. وزعم نائب آخر أن النساء يفتقرن لقوة الشخصية اللازمة للحكم، وأن الإجتماعات السياسية تبعدهن عن «المشاغل الأهم التى تدعوهن إليها الطبيعة».

وماكانت أوامر الطبيعة التى لاترد لتنتهك، وإذن لاحقوق سياسية للنساء. وهكذا سارع المؤتمر الوطنى إلى الإقتراع بحظر جميع الأندية النسائية. وحين

قدم وفد نسائي في ١٧ نوفمبر إلى المجلس العام لكوميونة باريس ليحتج على حل الأندية النسائية. قال لهن «أنا كساجوراس شوميت» مدعي الكوميونة:

«هكذا! منذ متى يسمح للناس بإنكار جنسهم؟منذ متى صار مقبولاً أن تُرى النساء يهجرن واجباتهن البارة تجاه بيوتهن ومهاد أطفالهن، كي يخرجن للحياة العامة، فيعتلين المنصات ويلقين الخطب، ويمثلن أمام ممثلي الأمة؟ ... لقد قالت الطبيعة للمرأة، كوني امرأة. المشاغل الحانية التي هي من حق الطفولة، وتفاصيل عمل المنزل، والمزعجات الحلوة للأمومة، تلك هي مهامكن.. آه منكن أيتها النساء الطائشات اللاتي يردن أن يصبحن رجالاً.. ماذا تردن أكثر من ذلك؟... هل من الصواب أن تتقدم النساء بمشاريع قرارات؟ هل للنساء أن يضعن أنفسهن على رأس جيوشنا؟ (وهنا أخذ شوميت يهذي بأصوات غير مفهومة، تذكيراً بجان دارك.)

ثم حظرت الكوميونة على النساء حضور اجتماعاتها، ونشرت «المونيتور» الحظر مع مقال من لجنة السلامة العامة بعنوان «نصيحة للنساء الجمهوريات» ذكرتهن فيه بالمصير الذي لاقته ماري أنطوانيت وأوليمب دي جوج ومدام رولان، اللاتي جرى إعدامهن جميعاً، وكان الغرض من هذا التذكير واضحاً وضوحاً فظاً. فقد قال الكاتب عن دي جوج: «لقد أرادت أن تكون سياسية، ويبدو أن القانون عاقب هذه المتآمرة على نسيانها فضائل الأمومة التي تلائم جنسها» أي أنها لم تعاقب على آرائها، بل لأن لها آراءً على الإطلاق.

هاجم زعماء اليعاقبة كلير لاكومب وزميلاتها ليس فقط لأنهن من «المسعورين»، بل ولأنهن نساء أيضاً. كان اليعاقبة يمثلون ذلك القطاع من الطبقة الرأسمالية الذي أفاد بصورة هائلة من الاستيلاء على الأراضي الوطنية أثناء الثورة، ومن تسليح الجيش وتموينه وتصنيع الأسلحة، وبوصفهم بورجوازيين أقحاح ومن المدافعين بحرارة عن الملكية الخاصة، كانوا معادين بضراوة للحركة النسائية، وكانت الأسرة البرجوازية عندهم مقدسة، فكما يقول «البيان الشيوعي»: «على أي أسس تقوم الأسرة الحالية، الأسرة البرجوازية؟ على الرأسمال، على المكسب الخاص». ولدى «محدثي النعمة» هؤلاء، كانت النساء جزءاً مهماً من ملكيتهم.

كان دانييل جورين محقاً في تعليقه: «لقد سحقت النساء الثوريات لأنهن أردن أن يبذرن بأسرع مما ينبغي بذور الثورة التي من شأنها تحرير

القضاء على «الأذرع العارية»

كان حل النوادى النسائية وثيق الصلة بالحملة التى شنها اليعاقبة على «الجمعيات الشعبية» بصفة عامة، لم تكن هذه الجمعيات رسمية ولم تكن لها رسوم عضوية عالية مثل جمعيات اليعاقبة والكورديلييه الشهيرة، وكانت مفتوحة لكل من الرجال والنساء. وقد خشيها اليعاقبة وكرهوها، لأنهم لم يكن بوسعهم السيطرة عليها والتلاعب بها كما يفعلون فى الاجتماعات الرسمية للدائرة، ولأنها كانت توفر جمهوراً من المستمعين لوجهات النظر الأقرب للتعاطف مع الشغيلة. وفى مايو ١٧٩٤ أقفلت الجمعيات، كان اليعاقبة مصممون على إقصاء النساء عن النقاش والعمل العام، سواء كن منظمات بصورة مستقلة، أو مشتركات مع الرجال فى النوادى الشعبية.

وترافق هذا مع هزائم أخرى «للأذرع العارية» فقد أرخي العمل بقانون «الحد الأقصى» الذى يضبط الأسعار، ثم سرعان ما أصبح دون أى قيمة عملية، وفى ٩ ديسمبر ١٧٩٤ أصدر المؤتمر مرسوماً بإلغائه، وارتفعت تكاليف المعيشة إلى مستوى كارثى.

وأخضعت كوميونة باريس، التى كانت قاعدة سلطة الديمقراطية المباشرة للشعب، والميلشيا الثورية التى كانت تشرف على تنفيذ الرقابة على الأسعار، لسلطة الحكومة المركزية.

حين كانت الثورة تسير قدماً للأمام، أزيحت للخلف التعاليم الدينية:

«لم يأت القرار بإلغاء العبادة من أعلى، بل من أسفل ... فقد أغلقت دوائر باريس واحدة إثر الأخرى الكنائس أو استعملتها فى أغراض أخرى.. وإذ تحرروا من العبء الذى قهرهم طويلاً. بدا كما لو أن لهم أجنحه، فقد راحوا يرقصون فوق الكنائس المقلوبة على عقبها، كانت المشاهد التى خرجت للعيان فى كل مكان فى فرنسا لاتشبه أى شىء سبق أن حدث من قبل.»

ولكن روبسبيير أعاد الديانة الكاثوليكية والكنيسة الكاثوليكية نحو نهاية

عام ١٧٩٣، و«أضعف وشتت حركة جماهيرية كانت قد انخرطت بحميّة في النضال ضد القساوسة والكنيسة.»(٢٣)

خلال الفترة التي تمتع فيها روبسبيير بسلطة مطلقة، تدهورت الظروف المادية للشغيلة بصورة هائلة، وفي هذه الفترة ذاتها، وبعد مارس ١٧٩٤ خاصة، فرض المؤتمر الوطني حدوداً على الأجور، مما أدى إلى مظاهرات احتجاج أمام قاعة البلدية في التاسع من ترميدور، وهو ذات اليوم الذي أطيح فيه بروبسبيير من قبل اليمين. لقد جاء هجوم روبسبيير على اليسار ليعزله عن أولئك الذين أوصلوه للسلطة وساندوه بإخلاص قبل عام واحد فقط.

وكما رأينا، ما إن تخلص اليمين من روبسبيير وأنصاره، حتى سارع إلى إلغاء الضوابط على أسعار المواد الغذائية، وكان أثر ذلك على شعب باريس مدمراً «فقد أنطلق التضخم كالمجنون من عقالة. وولّد ارتفاع تكاليف المعيشة مع اضطهاد اليعاقبة، وسفه اغنياء المضاربين وأثرياء الحرب، وعجرفة شباب الطبقة المتوسطة، ولّد كل ذلك مشاعر عداء مريرة، ولعب دوره في إثارة آخر موجتين من اضطرابات الخبز في الثورة في شهري أبريل ومايو ١٧٩٥، ولكن يبقى السبب الرئيسي وراء هذه الاضطرابات، هو النقص الحاد في الخبز، الذي قلّ حتى بلغت حصته اليومية أحياناً ثلاث أوقيات أو أربع.

كانت النساء قد تظاهرن في ٢٥ مارس من أجل زيادة حصة الخبز، داخل المؤتمر وخارجة، ووقعت اضطرابات في دائرتي «جرافيية» و«تامبل»، ضمت عمالاً بالأجر وربات بيوت. وفي الأول من إبريل اقتحم حشد المؤتمر يهتف بصيحات «الخبز! الخبز»، إلا أن المظاهرة كانت بلاقيادة، ولا توجة واضح، فوجة إليهم إنذار، وحين ظهر جنود الحرس الوطني انسحبوا دون إبداء أي مقاومة.(٢٤)

في مظاهرة العشرين من مايو، جاء المتظاهرون إلى المؤتمر مسلحين، وأشد مرارة بكثير مما كانوا في المظاهرة السابقة، وكان مكتوباً على قبعاتهم أومشبوكاً على ستراتهم الشعار التحريضي: «الخبز ودستور ٩٣»! وكذلك «شعار الخبز أو الموت»، وكانت غالبية المتظاهرين من النساء. وقد ضربت هذه المظاهرة بعنف فلأول مرة منذ عام ١٧٨٩ تخمد الحكومة مظاهرة بقوة السلاح، وبذلك هزمت شعب باريس هزيمة حاسمة، لم يعرف بعدها طريقة للإنتفاض ثانية بوصفة قوة اجتماعية قبل مرور خمسة وثلاثين عاماً أخرى، في عام ١٨٣٠.

والآن إقترح المؤتمر بالموافقة على منع النساء من حضور إجتماعاته، وفى المستقبل سيسمح لهن بالفرجة فقط إذا كن بصحبة رجل يحمل بطاقة مواطن.
وبعد ثلاثة أيام، وضع المؤتمر جميع النساء الباريسيات تحت مايمكن تسميته بالإقامة الجبرية «على جميع النساء العودة إلى سكنهن مالم تصدر لهن أوامر بغير ذلك، ومن يعثر عليهن فى الشوارع فى مجموعات تزيد على خمس نساء بعد ساعة من إعلان هذا الأمر، سيتم تفريقهن بالقوة، ثم إلقاء القبض عليهن، وذلك إلى أن يعود الهدوء العام إلى باريس».
لقد كانت هزيمة الثورة، تعنى هزيمة النساء.

النساء يلذن بالرجعية

و ينفتح واحد من أكثر فصول تلك الفترة مأساوية فالثورة البرجوازية التى خانت النساء الشغيلات، استدارت الآن عليهن لتحول هؤلاء النساء بالذات إلى أسلحة للرجعية.
ففى سنة ١٧٩٥ أدت بهن المجاعة، وفشل اضطرابات الخبز واستفزازات الأغنياء الذين كانوا يستعرضون غناهم، إلى اليأس الكامل. ولقد كانت المجاعة دائماً انتقائية فى اختيار ضحاياها، مفضلة أحد الجنسين على الآخر.
«لعله زائد عن الحاجة التذكير بالمظاهر الكلاسيكسة للمجاعة: الموت للأضعف، الصغار والمسنين، ازدياد عدد حالات الإجهاض والمواليد الموتى، إلا أنه لايجب أن يغيب عن الذهن إن هذه الحالات الأخيرة هى نصيب النساء، أن الجسم الأنثوى بأسرة هو جهاز قياس جهم يسجل درجات الحرمان. ففى ظروف كهذة، تكون الولادة المبكرة أو العقم بسبب من سوء التنغذية، هما أحسن الاحتمالات الواردة: فهذا أفضل من أن تحمل المرأة طفلا تعرف أنه ميت، لاحراك له بداخلها، أو أنها إذا ولدته لن يكون لديها اللبن الذى ترضعه به، كانت الأمهات فى «كاين» عام ١٧٩٥ يهدئن صراخ أطفالهن الرضع بخرق مغموسة فى الماء، وبهذه الطريقة لم يكونوا يستغرقون وقتاً طويلاً حتى يموتوا. وهناك أيضاً، أن يرقب المرء أطفاله وهم يضعفون حتى يعجزون عن البكاء».

وتكاثر الانتحار. ففي كل يوم كانت تخرج جثث نساء وأطفال من نهر السين(٢٥)

أثناء الفترة اليعقوبية، ابتعدت النساء الباريسيات عن الكنيسة، ونشطت كثيرات منهن في انتهاك أماكن العبادة، والآن، في عام ١٧٩٦، تحولت النساء إلى الكاثوليكية بتعصب.

«كانت الكاثوليكية التي حلت منذ ١٧٩٥ فصاعداً، من النوع الغريزي: كانت تدين بقوتها لشدائد هذا الزمن، الموت المحدق من المرض أو سوء التغذية، الأحلام المجهضة، والاحساس بالخزي والفشل، والندم الذي يبحث عن.. نوع من الدين قادر على التكفير ليتحدى خطر الزوال.. كانت نساء «كوتانس» تتشاجر حول من تحظى بالأولوية في تعميد ابنها، فحل القسيس المشكلة بأن أخذ يقدر أي الأطفال يرجع موته قبل أن يبلغه في الطابور المنتظر، وحين أخطأ في حالتين، أمعن النظر وراح يرش ماء التعميد على الجثمانين الصغيرين. لقد كان لهذه الحركة وجوهها الشريرة، فقد كانت متلازمة بصورة أساسية مع «الارهاب الأبيض»، كما في أبرشيه «لوبوي»، حيث كانت النساء تختطف القادة المحليين من اليعاقبة فيمزقنهم إربا أو حتى يقتلنهم بشق ضلوعهم ضلعا ،ضلعا بينما راحت كنائس تلك المدينة الأكثر تدينا بين المدن، تعيد فتح أبوابها معلنة انتصارها»(٢٩)

الخلاصة

إن الثورة الفرنسية، إذ بلغت بالصراعات الطبقية أعلى ذرى لها، شقت النساء الى ثلاث مجموعات متعادية: نساء النبالة، ونساء البرجوازية، ونساء الطبقات الفقيرة والمعدمة«الأذرع العارية». وكانت المطالب الخاصة بنساء الأذرع العارية مختلفة جذريا عن مطالب الحركة النسائية البرجوازية، بل ومعادية لها. وقد أعطت هموم نساء الطبقة العاملة صاحباتها الشجاعة على مقاتلة البرجوازية قتالا مريرا، بما في ذلك نصفها النسائي، وقد اندفعن للانضمام الى صفوف «المسعورين» في مهاجمة اليعاقبة من اليسار، بينما كانت البرجوازيات

يلحقن بالجيروند ويعقدن المساومات حتى مع الملكيين.

ولايمكن فصل نشاط نساء الطبقة العاملة وقدرهن عن نشاط ومصير الطبقة التى ينتمين اليها، وقد تجلى ذلك أثناء صعود الثورة كما فى تراجعها، فقد نهضت العاملات حين ثارت طبقتهن، وسقطن حتى الى أبعد مما فعل إخوانهن حين هزمت طبقتهن هزيمة كاسحة.

على امتداد الثورة كانت عاملات باريس يساهمن بنشاط فيها، إلا أنه كان عليهن أن ينشطن فى ظروف ليست من صنعهن، وتلك هى الظروف المادية لذلك الوقت، الطبيعة الطبقية للثورة، التى جعلت المضى الى أبعد من الحدود البرجوازية محالا، والافتقار لقيادة آتية من طبقة أكثر تقدمية، أى الطبقة العاملة الصناعية، التى كانت ماتزال جنينا بعد حينئذ. وعلى ذلك كان بوسعهن أن يتحركن بصورة فعالة فى المظاهرات التى استطاعت فى الفترة من ١٤ يوليو ١٧٨٩ الى ٥ سبتمبر ١٧٩٣، أن تدفع بالثورة يسارا أكثر فأكثر، من الملكية الدستورية الى الجمهورية ثم الى الديمقراطية. ولكن ما إن تسلم اليعاقبة السلطة، وهم القطاع الأكثر ديمقراطية فى الطبقة الرأسمالية، حتى تحولت العاملات الى هدف لضرباتهم، لقد دفعن دفعا الى أحضان الرجعية.

هوامش الفصل الثانى

١- سيمون دى بوفوار «الجنس الثانى»، المجلد الأول، صفحات ١٠٧ و١٨٢-١٨٣.

٢- ى.راس «حركة المطالبة بحقوق النساء فى الثورة الفرنسية» من «العلم والمجتمع»، ربيع ١٩٥٢

٣- راس.

٤- ونستيفنس «النساء فى الثورة الفرنسية» (لندن)، ١٩٢٢) الصفحات ١٦٥-١٦٧، ١٧٧، ٢٤٧-٢٤٨

٥- ج . أبراى «الحركة النسوية فى الثورة الفرنسية»، من «المجلة التاريخية الأمريكية»، فبراير ١٩٧٥.

٦- راس.

٧- ج. روديه «الأسعار والأجور والحركة الشعبية فى باريس فى الثورة الفرنسية»، من «مجلة التاريخ الاقتصادى» العدد (٣) ١٩٥٤.

٨- ج. رودية، «الجموع فى الثورة الفرنسية» (لندن)، ١٩٥٩) ص١٩-٢٠.

٩- للرجوع الى سجلات لهذه الاضرابات، إنظر ح. رودية «دوافع العصيان الشعبى فى باريس أثناء الثورة الفرنسية»، «نشرة معهد الأبحاث التاريخية»، ١٩٥٣، ص٧١-٧٣.

١٠- و.هفتون، «النساء فى ثورة ١٧٨٩-١٧٩٦»، من «الماضى والحاضر»، (٥٣)، (١٩٧١)، «جبرمينال» و«بريرال» شهران فى التقويم الجديد الذى عملت به الثورة، والذى بدأ التأريخ بسقوط الباستيل فى عام ١٧٨٩، وعلى ذلك فالعام الثالث هو عام ١٧٩٢.

١١- روديه «الجموع فى الثورة الفرنسية»، ص٧٣-٧٥.

«الفوبورج» هى أحياء باريس، وكان فوبورج سانت أنطوان ذو أغلبية عمالية قوية.

١٢- روديه، ص٧٨.

١٣- رودية، ص٨٦-٨٧

١٤-هفتون.

١٥- د. جورين«الصراع الطبقى فى الثورة الفرنسية الأولى: البرجوازيون والأذرع العارية ١٩٧٣-١٩٧٥»، (لندن ١٩٧٧)

١٦- اقتباس لجورين ، ص٥٩

١٧- هفتون.

١٨- م. سيراتى «نادى المواطنات الثوريات الجمهوريات»، (باريس ١٩٦٦) ص٢٣، ٢٤.

١٩- أبراى.

٢٠ - س. هـ . ليتل «الجنس الثانى- سبتمبر ١٧٩٣» من «يوميات التاريخ الحديث»، مارس ١٩٥٥.

٢١- ليتل

٢٢- جورين، ص ١٣١.

٢٣- جورين، صفحات ،١٤٢- ١٤٣، ١٤٥، ١٧٤.

٢٤- ج. ليفيفر «الترميدو ريون» (لندن ١٩٦٥) ص١٠٤.

٢٥- هفتون

٢٦- هفتون.

الفصل الثالث

النساء في كوميونة باريس

تقدم نضالات العاملات فى كوميونة باريس فصلا من الفصول الأكثر بطولية فى تاريخهن.

فى صيف عام ١٨٧٠، اندلعت الحرب بين ألمانيا بسمارك وفرنسا تحت حكم الامبراطور نابليون الثالث، وكانت كارثة على فرنسا، ففى الثالث من سبتمبر حوصر الجيش الفرنسى بأكمله في سيدان وأسر البروسيون الإمبراطور. وخلال الغليان السياسى الذى تلى ذلك أعلنت فرنسا جمهورية، وفى ٢٨ يناير ١٨٧١

عقدت اتفاقية هدنة، ثم عقدت انتخابات جديدة للجمعية الوطنية فى فبراير، وجاءت النتيجة نصرا كاسحا لليمين الملكى فى جميع الأقاليم الفرنسية، وترأس الحكومة الوطنية أدولف تيير، الذى بقى ملكيا محافظا متطرفا طوال عقود، وكان مقر الجمعية الوطنية والحكومة فى فرساى، على بعد نحو عشرة أميال من باريس.

ولكن باريس خرجت كلية على ايقاع خطو الحكومة المركزية ، فمن ١٨ سبتمبر ١٨٧٠ وحتى عقد الهدنة بعد أربعة أشهر من هذا التاريخ، بقيت باريس تحت الحصار البروسى، وترتب على ذلك أن صار السكان أكثر راديكالية ، وأن بلغت العاصمة حالة الانهيار الاقتصادى. كان الشتاء هو الأقسى بين الشتاءات التى تعيها الذاكره، وندر الطعام والوقود، وفى فبراير اندلعت اضطرابات الخبز، وكان الباريسيون يعانون أيضا من البطالة، ففيما يتعلق بمعظم الرجال العاملين بالأجر، كان اجرهم من الحرس الوطنى والبالغ مائة وخمسين فرنكا فى اليوم، هو المصدر الوحيد للدخل. وحمل كل من يعمل بالأجر السلاح من الناحية الفعلية، وكبر الحرس الوطنى ليبلغ ثلاثمائة ألف رجل.

كان تيير، بوصفه رئيسا لحكومة لاتحكم عاصمتها ذاتها، عازما على استعادة السيطرة على باريس، وكانت العقبة الرئيسية أمامه هى الحرس الوطنى، وفى ١٨ مارس ١٨٧١ حاولت قواته الاستيلاء على مدافع الحرس الوطنى، فصد هذا الهجوم، وهرب ممثلو اليمين من المدينة، وانتخب العمال حكومتهم هم، لقد ولدت الكوميونة.

كانت كوميونة باريس عام ١٨٧١ طرازا جديدا من الدولة. كتب عنها ماركس فى مؤلفه «الحرب الأهلية فى فرنسا» «كانت حكومة للطبقة العاملة من حيث الأساس، نتاج نضال الطبقة المنتجة ضد الطبقة المالكة، والشكل السياسى الذى أخيرا اكتشف ليتسنى فى اطاره التوصل الى الانعتاق الاقتصادى للعمال»(١)

لقد قامت دوله بدون جيش دائم ولابيروقراطية: فجميع الموظفين يختارون بالانتخاب، بما فى ذلك القضاة، وقابلون للاقاله بنفس الطريقة، ويتلقون أجورا تعادل أجور العمال.

«فى الثلاثين من مارس ألغت الكوميونة التجنيد الالزامى والجيش الدائم وأعلنت الحرس الوطنى القوة المسلحة الوحيدة، التى يسجل فيها جميع المواطنين

القادرين على حمل السلاح. وأجلت دفع ايجار جميع المنازل السكنية من أكتوبر ١٨٧٠ حتى إبرايل من العام التالى على أن تسجل المبالغ التى دفعت بالفعل كإيجارات مسددة عن أشهر مقبلة، وأوقف بيع جميع المرهونات فى مكتب الاقراض التابع للبلدية. وفى نفس اليوم الذى تم فيه انتخاب اجانب للكوميونة ، ثبتوا فى مناصبهم ، لأن «علم الكوميونه هو علم الجمهورية العالمية»... وفى السادس من الشهر، أحضرت الكتيبة (١٣٧) من الحرس الوطنى المقصلة التى أحرقت على الملأ، وسط ابتهاج شعبى عارم. وفى الثانى عشر قررت الكوميونة ازالة عامود النصر عند قصر الفندوم، الذى صب من المدافع التى استولى عليها نابليون، بعد حرب ١٨٠٩، باعتباره رمزاً للتعصب القومى يحض على الكراهية القومية، ونفذ ذلك فى ١٦ مايو. فى ١٦ أبريل أمرت الكوميونة بوضع جدول إحصائى عن المصانع التى أغلقها أصحابها، ووضع خطط لتشغيلها من قبل العمال الذين كانوا يعملون فيها من قبل، والذين سينظمون فى جمعيات تعاونية، وكذلك خطط تنظيم هذه التعاونيات فى نقابة واحدة كبرى. فى العشرين من الشهر ألغت العمل الليلى للخبازين ، وكذلك مكاتب العمل التى كانت تحتكر اداراتها منذ الامبراطورية الثانية مخلوقات عينتها الشرطة، مستغلون للعمل من الطراز الأول، وتم تحويل هذه المكاتب الى مقار لحكم الدوائر العشرين فى باريس. وفى ٣٠ ابريل أمرت بإغلاق مكاتب الرهن التى قالت أنها تمارس استغلالا خاصا للعمال، وتتعارض مع حقهم فى أدوات عملهم وفى الاقتراض». (٢)

تراث الأفكار البرجوازية الصغيرة

مما يؤسف له أن الكوميونة عانت من الارث الروحى لأجيال سابقة ، حيث كان فى التقاليد الثورية فى فرنسا مايشجع على الثورة ومايضعها فى قوالب مقيدة فى آن واحد. فكما كتب ماركس قبل عشرين عاما من هذا التاريخ. «إن تقاليد كل الأجيال الميتة تجثم مثل كابوس على دماغ الأحياء».

ويمكن تلخيص هذه التقاليد فى حقيقة أنها راديكالية بورجوازية صغيرة،

استمدت قوتها من تخلف الصناعة الفرنسية، حيث ساد فيها المشروع الصغير.

«...كان سكان باريس من العمال عند نهاية الامبراطورية مايزالون أبعد مايكونوا عن البروليتاريا الصناعية ويفيد الاحصاء السكانى لعام ١٨٧٢ أن ٤٤ فى المائة من السكان العاملين عمال صناعيون، إلا أن عدد المصانع التى تستخدم أكثر من مائة عامل كان لايتجاوز الخمسة عشر مصنعا، بالاضافة الى مائة مصنع آخر يستخدم كل منها مايتراوح بين عشرين وخمسين عاملا» (٣)

وصاغت الآفاق الضيقة للعمال الفرنسيين العاملين فى الورش الصغيرة، موقف الكثيرين منهم تجاه المرأة، والأفكار التى سادت هنا، كانت أفكار بييرجوزيف برودون (١٨٠٩-١٨٧٥)، أبو الفوضوية الفرنسية، التى كانت أيدولوجية للبرجوازية الصغيرة الراديكالية، تلائمها كل الملاءمة. كانت آراؤه عن النساء، التى عرضها بتفصيل كبير، رجعية، فأشار الى صغر حجم المرأة من الناحية البدنية وسلبيتها المفترضة فى الفعل الجنسى باعتبارهما من الأمور الدالة على طبيعتها الأضعف، وأشار الى كبر حجم الفخذين والحوض والثديين كادلة علي وظيفتها الوحيدةفى الحياة كحاملة للطفل.

كما أشار الى صغر الحجم النسبى لمخ المرأة (وهى حقيقة لاتنكر ولكنها بلامغزى) كدليل على دونيتها العقلية وباستخدام نظام عجيب من القيم الرقمية نسبة للجنسين، افترض أن الرجل مقارنا بالمرأة من الناحية البدنية يعادل ٣:٢، وأن هذه النسبة لابد وأن تكون قائمه أيضا فيما يتعلق بالمبادرة والقدرة على التعلم والقدرات الكامنة.. الخ.. وخلص من ذلك الى أن الرجل هو السيد وعلى المرأة الطاعة.

يقول برودون: «العبقرية هى رجولة الروح والملكات المصاحبة لها من قدرة على التجريد والتعميم والخلق وتكوين المفاهيم، وتلك مواهب يفتقر اليها الطفل والقزم والمرأة على حد سواء».

ويرى برودون أن الطبيعة اختارت المرأة لتكون مجرد أداة لتجديد النوع البشرى، أى أن وظيفتها الوحيدة التى يفيد منها المجتمع هى حملها للأطفال، وعدا ذلك فانها لاداعى لوجودها بحد ذاتها وهى تكلف الرجل أكثر مما تكسب، ومن ثم فإن وجودها يتعيش على التضحية المستمرة من جانبه.

وليس أمام المرأة سوى اختيار واحدة من مهنتين «أمار بة بيت أو عاهرة» و«.... كل امرأة تحلم بالتحرر تكون قد فقدت بهذا نفسه، صحة روحها وصفاء

عقلها وعذرية قلبها » وتحسبا لمثل هذا الفساد أوصى برودون بأن تشمل الأسباب المشروعة لقتل الزوجة «الخيانة الزوجية والوقاحة، والخيانة، والسكر أو التهتك، والإسراف أو السرقة، والاصرار على عدم الطاعة»، ولم لا ؟ اذا كانت المرأة ليست سوى «حيوان جميل». والانصات «للأدباء الأقزام» الذين يدافعون عن مساواة المرأة،أمر تستحق عليه التوبيخ« ... فنتائجه الحتمية هي الحب الحر» وادانة الزواج ، وادانة الأنوثة، والغيرة من الرجال وكراهيتهم المضمرة، ثم تتويجا لكل ذلك فسق لايخمد: تلك هي فلسفة كل امرأة متحررة، دون تغيير». (٤)

أوجز مؤرخ الاشتراكية والحركة النسائية الفرنسية م.ج.بوكسر الجذور الاجتماعية لأفكار برودون على نحو دقيق: «مثل برودون، وهو ابن لصانع براميل وطاهيه، تمثيلا جيدا نمط العامل والفلاح أو الحرفي ، الذي كان لايثق في سلطة القيادة المراتبية المركزة، في نطاق الأسرة، رجحت تقاليد الكاثوليكية الفرنسية على معاداة السلطة الدينية لقد عبر مبدأ برورون «لا أسر، لاحضاره، لاجمهورية» عن مشاعر الكثير من العمال الفرنسيين » (٥)

وكان موقفه من النساء جزءا لايتجزأ من نظرته العامة للعالم كبرجوازي صغير، واذ كان يعكس مُثلُ الحرفيين المستقلين، الذين لهم ملكيتهم ، وهم الحكام البطريركون في بيت الأسرة ، أكد على التعاون الطبقي لا الصراع الطبقي. وعارض ملكية الدولة للصناعة، وكان ضد الاضرابات. كان ضد الأغنياء، ولكن كذلك ضد العمال الذين يحاربونهم:

« ... ان الفقراء يستغلون الأغنياء ، والعمال يستغلون مستخدميهم، والمستأجر يستغل مالك أرضه ومندوب الشركة يستغل حملة الأسهم ، بقدر لايقل عن استغلال الرأسمالي وضغطه على الصناعي، واستغلال الصناعي لعمالة، ومالك الأرض لمستأجرية» (٦)

تأسس الاتحاد الدولي للشغيلة- الذي عرف فيما بعد باسم الأممية الأولى- في عام ١٨٦٤ ، واقترع مجلسة العام، بقيادة ماركس، على السماح بانضمام النساء لعضويته، ولكن الوفد الفرنسي رفض الاقتراح «باغلبية كبيرة» بدعوى أن «مكان المرأة بجانب مدفأة البيت ، لافي المنتديات العامة.. للرجال العمل ودراسة المشاكل الانسانية، وللنساء رعاية الأطفال وتزيين بيت العامل». وحل الاشكال بأن ترك لكل فرع تقرير أمر عضويته بنفسه. (لم يكن القرار

الفرنسى بأثر رجعى، فسمح لبعض النساء بالاستمرار كعضوات).

وأراد المندوبون الفرنسيون وقف عمل النساء، وقالوا عن ذلك ان «أعظم اسم على الأرض هو اسم الأب» فهو العائل كما أكدوا . ومع ذلك فالمرأة تلعب دورا مهما فى المجتمع، طالما أن «القطاع الذى تختص به» أى الاسرة يمثل «حجر زاوية فى البنيان الاجتماعى بأسرة... الملاذ الحانى للقلوب الحزينة، والأرواح المعذبة المرهقة..... إننا لانعتقد أنه من المفيد أن يعطيها المجتمع رسالة أخرى فوق ذلك. اذا ماصارت زوجة العامل نائبة.... فمن الذى سيملح حساء العامل؟ ثم انها يجب ان تلعب دور المعلم لأولاده «بشرط صريح مع ذلك) هو أن يكون الأب هو القوة الموجهة». وأعلنوا انهم لن يقبلوا بغير ذلك «سواء فى مجتمع اليوم، او فى المجتمع الذى سيعاد تنظيمه على أسس اشتراكية، وخاصة هذا الأخير. (٨)

كانت غالبية أعضاء كوميونة باريس عام ١٨٧١، الذين كانوا أيضا أعضاء الاتحاد الدولى للشغيلة، أنصارا لبرودون. وكان عمر الكوميونة- ٧٢ يوما- أقصر من أن يتيح التغلب على التناقض بين قوة دفعها الثورية وعبء الماضى الميت الذى كان يجثم عليها.

النساء فى الكوميونة

هناك الكثير من الشهود للدور الحاسم الذى لعبته النساء فى الكوميونة. كتب مؤلف رجعى:

«لقد تصرف الجنس الأضعف بصورة فاضحة فى تلك الأيام الفظيعة.. فأولئك اللاتى أعطين أنفسهن للكوميونه- وقد كن كثيرات- لم يكن لهن سوى طموح واحد: ان يرتفعن بأنفسهن فوق مستوى الرجل، بالمبالغة فى رذائله... كن جميعا هناك، يحرضن ويزعقن.. خياطات السادة، وصانعات قمصانهن، ومعلمات صبية المدارس الكبار، والخادمات غير المتخصصات .... الأمر الكوميدى للغاية هو أن اولئك الهاربات من شغل البيت كن يتقمصن جان دارك بكل جديه، ولم يكن ليترددن فى مقارنة أنفسهن بها... وخلال الأيام الأخيرة،

صمدت تلك السليطات المولعات بالقتال أطول مما فعل الرجال خلف المتاريس».
وكتب دويان ، وهو رجعي آخر متطرف:
«كانت النساء كالرجال: متقدات، عنيدات، مجنونات، ولم يحدث من قبل أن ظهرن بكل هذه الأعداد يواجهن الخطر ويتحدين الموت، كن يضمدن الجراح الفظيعة الناجمة عن بنادق الرش وطلقات المدافع والرصاص الأسطواني، ويهرعن الى أولئك الذين تحت وطأة عذاب لايحتمل يعوون ويبكون ويعولون ألما وغضبا ، ثم وبعيونهن ملؤها مشهد الدماء وآذانهن ملؤها الصرخات المنتزعة من آخر بقايا اللحم الحية، يلتقطن بحزم «الشاسبوت» (نوع من المدافع) ويهرعن الى نفس الجراح ونفس العذاب. وأى بسالة لاتعرف الخوف وراء المتاريس، أى شراسة فى القتال ، وأى حضور ذهن أمام الحائط فى مواجهة فرقة الاعدام...»
«لو كانت الأمة الفرنسية مكونة من النساء الفرنسيات وحسب، فأى أمة رهيبة كانت تصير» كذلك كتب مراسل صحيفة التايمز فى ١٩ مايو ١٨٧١.
فى اليوم الاول من أيام الكوميونة، الثامن عشر من مارس، لعبت النساء دورا حاسما فى تحييد القوات التى أرسلها تيير للاستيلاء على مدافع الحرس الوطنى ففى موغارتر أعطى الجنرال لوكومت الأوامر بإطلاق النار، هنالك خاطبت النساء الجنود: أو تطلقون النار علينا؟ على أخوتكم؟ وأزواجنا؟ وأطفالنا؟» ويصف الجنرال دورى دى بالادين ماتلى ذلك:
«تقدمت النساء والأطفال واختلطوا بصفوف القوات. لقد أخطأنا خطأ كبيرا بترك هؤلاء الناس يقتربون من جنودنا، فقد امتزجوا بهم وراحوا يقولون لهم :«لن تطلقوا النار على الشعب». كذلك- حسبما أرى- وجد جنود الكتيبة الثامنة والثمانين، وفرقة مشاة أخرى، أنفسهم محاصرين ولم تواتهم القوة لمقاومة الاحتفاء الذى أحاطهم ، فقد كان الناس يهتفون «فليحيا الجنود».
وأمام هذا التدخل غير المتوقع، تردد الجنود، ووقف صف ضابط أمام سريته وصاح: «التمرد!» وعلى الفور تآخت الكتيبه (٨٨) مع الحشد، وألقى الجنود القبض على جنرالهم.
وفى شارع أودون تجمعت حشود من النساء، وأعطى الجنرال سوسى الأمر بالتصويب، ولكن الفرسان الذين أرهبتهم صرخات النساء أرخوا أعنه خيلهم مما أثار ضحك الحشد وفى كل مكان... كان الحشد، المكون غالبا من النساء، يحيط بالجنود ويوقف خيولهم، ويقطع أعنتها، ويرغم الجنود «المرتبكين» على

التآخي مع «اخوانهم» في الحرس الوطني (١٠)

«الاتحاد النسائي»

من أهم المنظمات النسائية الثورية والأوضح رؤية بينها «الاتحاد النسائي للدفاع عن باريس ومساعدة الجرحى». كان هذا هو الفرع النسائي من الفرع الفرنسي للأممية الأولى. أسسته في أبريل ١٨٧١ اليزابيث ديمتريف (١٨٥١-١٩١٠) ، وهي ابنة نبيل روسي كان قد عقد زواجا صوريا ليهرب من روسيا ويدرس في سويسرا وحين جاءت الى لندن التقت بماركس وصادقت بناته، وعقب سقوط الكوميونة فرت عائدة الى روسيا ، حيث تزوجت سجينا صدر ضده حكم بالترحيل الى سيبيريا. ورافقته الى هناك حيث عاشت حتى وفاتها. كانت عضوية الاتحاد النسائي من الطبقة العاملة بصفة أساسية.

«من أصل ١٢٨ عضوة، نعرف مهن ٦٠ منهن ، وجميع المهن النسائية ممثلة فيها: خمس عشرة خياطه، تسع حائكات للصدرات. ست عاملات على ماكينات الخياطة، خمس حائكات للفساتين خمس تاجرات في الكتان ، ثلاث عاملات توضيب ملابس الرجال، عاملتان في إصلاح الأحذية البوت، صانعتا قبعات، غسالتان، صانعتان للورق المقوى، عاملة في تطريز الأوسمة العسكرية ، صانعة شرائط للشعر، صانعة اربطة عنق، معلمة، صانعة عطور، صائغة، عاملة صقل ذهب، عاملة تجليد كتب ، عاملة حزم كتب. واللجنة المركزية ، التي تكونت من حيث المبدأ من عشرين عضوة يمثلن دوائر باريس العشرين عكست بدقة هذا التكوين الاجتماعي».

كان الاتحاد «منظمة مسئولة من مواطنات باريس، المصممات على مساندة والدفاع عن قضية الشعب و الثورة والكوميونة» وأنشئت لجان في كل دائرة لتجنيد النساء لأعمال الأسعاف، ومطابخ الميدان، وتدبير شئون أموال التبرعات، ولاستدعاء نساء الاتحاد في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، بناء على أوامر لجنته المركزية وطلب لجان الكوميونة «باختصار كانت لجان الدوائر مكلفة بتعبئة النساء» (١١)

وفى أول استدعاء للمعركة وجهه الاتحاد فى ١١ أبريل أعلن عن هويته الاشتراكية والأممية بجسارة «باريس محاصرة، باريس تقصف، أيتها المواطنات... أتسمعن المدفع يهدر، ناقوس الخطر الذى يدق النداء المقدس؟ الى السلاح! فالوطن فى خطر! أهؤلاء أجانب جاءوا يهاجمون باريس ليهددوا تلك الانتصارات المدعوة بالحرية والمساواة والاخاء؟ كلا فهؤلاء الأعداء، هؤلاء القتلة لنظمنا وللحرية، فرنسيون.

«أيتها المواطنات الباريسيات، سليلات نساء الثورة العظيمة اللاتى سرن باسم الشعب والعدالة الى فرساى، وأخذن لويس السادس عشر أسيرا، هل سنظل نحن، أمهات وزوجات وأخوات الشعب الفرنسى، نسمح للفقر والجهل بأن يزرع العداوة بين أبنائنا؟ نسمح لهم بقتل أحدهم الآخر - الأب ضد الأبن والأخ ضد الاخ - تحت سمعنا وبصرنا، إرضاء لنزوات مضطهدينا، الذين يريدون تسليم باريس للأجانب ولمصير الابادة؟ .... ايتها المواطنات، لقد فرض التحدى.. يجب أن نفوز، أو نموت»(١٢)

ولخص الاتحاد النسائى هدفه بأنه: «الثورة الاشتراكية الكاملة، من أجل إلغاء جميع البنى الاجتماعية والقانونية القائمة، وإزالة جميع الامتيازات وصور الاستغلال، واستبدال حكم العمل بحكم رأس المال - باختصار من أجل تحرير الطبقة العاملة بيد الطبقة العاملة.» (١٣)

كانت هناك نوادى أخرى كثيرة تنظم النساء، غير أن أيا منها لم يكن على هذا القدر من التقدم السياسى (١٤)

الى العمل

كان للنساء دور محورى أيضا فى إنتاج السلاح اللازم للدفاع عن الكوميونة.

«يبدو أن ثلاثة آلاف امرأة عملن فى صنع الخراطيش. وتصف ليساجراى حجرة العمل فى مبنى الهيئة التشريعية حيث كانت خمسمائة امرأة يخطن أكياس الرمل للمتاريس كمايلى: «وقفت فتاة طويلة جميلة اسمها مارتا توزع

العمل كانت ترتدي وشاحا أحمر بحواش فضية أعطته لها صديقاتها، وترددت اغانى مرحة تلطف من عبء العمل. وفي كل مساء يوزع الأجر، فتتلقى العاملات الأجر كاملا عن عملهن، ثمانية سنتيمات عن كل كيس. في الأيام الخوالي ماكان السمسار ليترك لهن سوى سنتيمين على الأكثر». (١٥)

رأت ديمتريف أن الانتاج التعاوني، الذي بدأ العمل به بعد هروب أصحاب المشروعات من باريس، يمثل اعادة تنظيم الاقتصاد على أساس اشتراكي، وكتبت في تقرير للجنة العمل والتبادل التي أنشأتها الكوميونة:

«إن أي اعادة تنظيم للعمل تطمح الى طمأنة المنتج بشأن عائدة، لايمكن بلوغها الا بواسطة الاتحادات المنتجة الحرة التي تفيد من مختلف الصناعات في خدمة ربحها الجماعي، إن تشكيل هذه التنظيمات اذ يحرر العمل من استغلال رأس المال سيتيح للعمال ادارة النشاط التجاري الخاص بهم فعليا.

«وسيعدل هذا لافي العلاقات الاجتماعية للانتاج وحسب، بل وكذلك في أشكال العمل التي كانت لا انسانية. لقد كان قد بات من الضروري اطلاقا التنويع في العمل لأن التكرار المستمر لنفس الحركة اليدوية له أثر مميت على البدن والمخ. كما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار تقصير يوم العمل لأن استنفاذ القوة البدنية يقضي حتما على القوة المعنوية وأخيرا ،ستكون فكرة جيدة لو ألغيت أي منافسة بين العمال من الجنسين طالما أن مصالحهما كانت واحدة في النضال الذي شناه ضد الرأسمالية، إن الأجور يجب أن تكون واحدة، عن العمل الواحد». (١٦)

نشطت النساء في اداره مستشفيات الميدان لتمريض الجرحى، وتحملن المسئولية الأساسية عن تنظيم مطابخ اعداد الحساء ومساعدة الفقراء.

كما لعبن دورا مهما في صياغة مجموعة من الاصلاحات التعليمية التقدمية، ودورا جزئيا في تنفيذها، فمن بين كل ثلاثة أطفال في باريس كان هناك واحد لايحصل على أي تعليم أساسي، والذين كانوا يحصلون علية. كان نصفهم مضطرا للدراسة في مدارس الكنيسة، وكان تعليم البنات خاضعا بقدر أكبر حتى من الصبيان لسيطرة الكنيسة. فاتخذت الكوميونة خطوات مهمة نحو تغيير هذا الوضع في اتجاه نظام تعليم الزامي تموله الدولة، متحرر من نفوذ رجال الدين، ويوازن بين العلوم الانسانية والعلمية، ويجمعها بتدريب فني مفيد. وأولت تعليم البنات عناية خاصة، اذ كان مهملا أكثر من أي نطاق آخر.

فتكونت لجنة كل عضويتها من النساء للاشراف على محاولات إنشاء مدارس للبنات، وأنشئت مدرسة صناعية للبنات، ولمساعدة العاملات، بذلت جهودا مبكرة لانشاء حضانات نهارية قريبة من المصانع(١٧)

كانت هذه الجهود التعليمية من جانب الكوميونة هى أول خطوات نحو تحرير النساء ومساواتهن، ولكن التاريخ للأسف لم يتح الفرصة لتحقيق نتائج هامة وباقية .

كانت لكثير من النساء ومنظمتهن مواقف عدائية ورجعية إزاء العاهرات، وعلى ذلك:

« طالب نادى كلية الطب بإلقاء القبض فورا على جميع النساء المشتبه فى اخلاقهن اللاتى يمارسن مهنتهن المخزية فى الشوارع العامة، وكذلك السكيرين الذين نسوا احترامهم لأنفسهم. وبإقفال المقاهى فى الساعة الحادية عشرة ليلا، ومنع التدخين فى الحفلات الموسيقية وقد أقرت هذه الوثيقة بالاجماع. وهنأ سكان الدائرتين الاولى والثانية المجلس للبلدى للدائرة الحادية عشرة لاتخاذها اجراءات بحق العاهرات والسكيرين. وطالبوا بتطبيق مرسوم مماثل فى أحيائهم.. وقام أعضاء الكوميونة فى الدائرة الخامسة عشرة بإلقاء القبض على العاهرات والسكيرين »(١٨).

الا أن نساء أخريات كثيرات تبنين موقفا مختلفا وأظهرت الكثير من العاهرات استعدادا شجاعا للقتال من أجل الكوميونة، وأقترحت إحداهن « أماندا » فى نادى سانت سيفرين أن تشكل الكوميونة كتيبة خاصة من العاهرات.

وتصدت لويز ميشيل، إحدى الشخصيات البارزة فى الكوميونه، لهذا الاجماع ورفضت أى ادانة أخلاقية للعاهرات:« من أحق منهن أتعس ضحايا العالم القديم هؤلاء، بإعطاء حياته للعالم الجديد؟ » ووجهتهن الى لجنة نسائية (لجنة الأمن الأهلية للدائرة الثامنة عشرة التابعة للاتحاد النسائى) كان لديها من الكرم ماجعلها ترحب بهؤلاء النساء.

وقالت هؤلاء العاهرات «لن نجلب العار على الكوميونة ابدا » وبالفعل ماتت كثيرات منهن بشجاعة على المتاريس خلال ذلك الأسبوع الدامى من مايو الذى شهد نهاية الكوميونة .

إلاأن شهادة آديث توماس تفيد أن معظمهن لم يكن أهلا للاعتماد عليهن

فى نصرة الكوميونة:... فمعظم هؤلاء اللاتى إنحطت بهن «مهنتهن الى الأبد، تعاون فى غالب الأحيان مع الشرطة، وكن يحترمن النظام القديم. (٢٠)

كذلك شهدت الكوميونة اولى البراعم لاخلاقيات جنسية جديدة ولتحرير النساء فتلقى الزواج نصيبه من النقد والادانة وأقرت الكوميونة مرسوما فى ١٠ أبريل بصرف معاش لأرامل وأطفال جميع المواطنين الذين قتلوا أثناء الدفاع عن حقوق الشعب، سواء كان الأطفال شرعيون أم لا، وكان هذا يعنى وضع الارتباطات الحرة الشائعة بين سكان باريس من الطبقة العاملة على قدم المساواة مع الزواج، وعن ذلك قال ارنولد فيما بعد بشئ من الأمل «لقد وجه هذا المرسوم ضربة لمؤسسة الزواج الملكية الدينية فى شكلها الذى نراه ساريا فى المجتمع الحديث».

وارادت بعض النساء المضى الى أبعد، فقد ألقت امرأة خطبة فى أحد النوادى الشعبية بكنيسة سانت جاك ، تكلمت فيها ضد الزواج الذى وصفته بأنه «الخطأ الأعظم فى تاريخ البشرية واقترحت ألا يسلم معاش الا للأرامل غير المتزوجات للقتلى من الحرس الوطنى «كل شئ للنساء الحرة، ولاشئ للجوارى».

مارست التقاليد الجمهورية القوية تأثيرا ونفوذا قويا على الحياة السياسية والعقلية الفرنسية منذ عام ١٧٨٩ ، فلأن الكنيسة كانت قد حاربت ضد الثورة، احتل الموقف المناهض للنفوذ الدينى فى التقاليد الجمهورية موقعا مركزيا فى الجدال السياسى، وحظى التعليم بأهمية بالغة حيث ناضلت هذه التقاليد ضد سيطرة الكنيسة عليه على امتداد القرن التاسع عشر.

وحيث تأرجحت النساء الكادحات، فى مجرى الثورة الفرنسية، مع تعرضهن للمجاعة وأطفالهن ،بين موقف ثورى متطرف وكاثوليكية مضادة للثورة، اتخذت التقاليد الجمهورية موقفا عدائيا منهن، يتسم بعدم الثقة بالنساء سياسيا بصفة عامة، للاعتقاد بأنهن خاضعات لنفوذ القساوسة أكثر من الرجال بكثير، ولذلك لم يخطر للكوميونه مجرد خاطر أن تعطى النساء حق الاقتراع.

«... لم تلحظ أهداف الكوميونة ، التى وردت فى إعلان للشعب الفرنسى، وجودا للنساء ولم يرد فى ذهن رجال الكوميونة ولا للحظة احتمال أن تحصل النساء على حقوق مدنية، أكثر مما دار بخلد «أسلافهم العظام» لأعوام ١٧٨٩ و١٧٩٣، أو ثوريى عام ١٨٤٨». (٢٢)

بذلك نكون أمام واحدة من أغرب مفارقات الكوميونة وهى أن نساء الطبقة

العاملة لعبن دورا ضخما فى الثورة لم يحصلن به حتى على حق الاقتراع. على اننا يجب ألا نرى فى هذا معاداة النساء فحسب، بل وجزءا من ضعف النضج السياسى للكوميونة بصفة عامة. فلقد أجريت الانتخابات للكوميونة على أساس قانون الانتخاب القائم ، بل وشاركت فيها الدوائر التى تقطنها أغلبية ثرية، لم يفهم الكوموتيون أبدا دور وطبيعة الدولة، وأصروا على «التمرد بطريقة دستورية».

الأيام الأخيرة

ولكن أيام الكوميونة كانت معدودة، فقد بقيت التغيرات الثورية الجارية فى باريس معزولة الى حد كبير عن باقى فرنسا بسبب حصار القوات الألمانية، بينما تمكن تيير، بتواطؤ من الالمان، من بناء جيش. تجمعت القوات فى فرساى دون أن يبذل الكومونيون أى محاولة لايقافهم، وقصفوا المدينة أولا، ثم غزوها، وقاتل الكومونيون متراسا فمتراس، وحين هزموا آخر الأمر ونزع سلاحهم، كان انتقام الحكومة داميا ومروعا، فقد صُف آلاف من الرجال والنساء والأطفال صفوفا وأطلق عليهم الرصاص بكل بساطة.

وحتى اللحظات الأخيرة أبدت النساء شجاعة استثنائية فى الدفاع عن الكوميونة.

«عمل أعضاء الحرس الوطنى، رجالا ونساء وأطفال برداء العمل، طوال النهار وحتى الليل فى بناء الدفاعات التى سيموت عليها الكثيرون منهم .وفى ميدان البانثيون قامت ببناء ثكنة، نساء يرتدين وشاحات طويلة وشارات حمراء، وكان أطفال يغنون «أغنية الرحيل» ونشيد المارسيلييز. وفى ميدان «بلاس بلانش» بشارع كليشى أقامت كتيبة من مائة وعشرين امرأة المتراس الأسطورى الذى دافعن عنه بشراسة فى يوم الثلاثاء الذى ذبحت فيه الكثيرات منهن بعد سقوطه. وفى القطاع الشرقى من الدائرة الثامنة عشرة، كانت جوزفين كورتواز، التى اكتسبت من قبل لقب «ملكة المتاريس» لدورها فى انتفاضة ليون فى ١٨٤٨ ، والعضوة بنوادى حيها ، تصادر البراميل الفارغة- لتعين فى بناء

متراس عند ناحية شارع دودوفيل وشارع ستيفنسون، كانت توزع الخراطيش وتبعث بابنتها الصغيرة لتنقل الذخيرة للمقاتلين. وتقدم اديث توماس في كتابها عن النساء أثناء الكوميونة قائمة بشخصيات كثيرة مماثلة، ألقى القبض عليهن فيما بعد وحوكمن للدورهن على المتاريس». (٢٣)

حين سقطت الكوميونة ، تبعت النساء والأطفال الأزواج والآباء صائحين على الجنود : اقتلونا معهم. وقد قتلوا. وشوهدت النساء يهرعن في الشوارع وقد أثارت المذابح جنونهن، فيضربهن الضباط ثم يرمين بأنفسهن على حائط من الحوائط في انتظار الموت (٢٤)

أدى النشاط البطولي لنساء الكوميونة، حين أضيفت له الحرائق التي شبت بسبب القصف من فرساي وتلك التي أشعلها أنصار الثورة المضاده وهم يحاولون تدمير دلائل فسادهم السابق الى موجة هستيريا عامة بشأن النساء المتهمات بالاحراق العمد فقد:

«كلفت أسطورة مشعلات البترول التي ولدها الخوف ونفخت الصحافة النار فيها ، المئات من النساء تعسات الحظ حياتهن ،فقد انتشرت شائعة تقول أن نساء حاقدات يرمين بترولا مشتعلا في الاقبية. وعلى ذلك كافت أي أمرأة رثة الملبس، أو تحمل إناء لبن، أو سطلا أو زجاجة فارغة. يشار اليها كواحدة من مشعلات البترول، فتمزق ملابسها تماما وتدفع الى أقرب حائط وتقتل برصاص مسدس». (٢٥)

عقب هزيمة الكوميونة مثلت أمام مجالس الحرب ألف وخمسون امرأة:

«كان للطبقة العاملة وطبقة الحرفيين الباريسين فيهن ٧٥٦ امرأة ، خياطات ومطرزات وعاملات يومية وغسالات، وبائعات كتان وحائكات فساتين ومغلفات كتب، الى آخره، ونجد امرأة واحده فقط من أصحاب الملكية، وأربع معلمات، وثلاثا وثلاثين امرأة من صاحبات الفنادق والمقاهي، إحدى عشرة من صاحبات المحال أو حجرات الأشغال المتخصصة، وهناك ٢٤٦ امرأة بدون مهنة» (٢٦)

وأظهرت النساء شجاعة رائعة في المحاكمة، ردت امرأة على اتهامها بقتل جنديين:« فليعاقبني الرب لأنني لم أقتل المزيد، كان عندي ابنان في ايسي، وقد قتلا كلاهما، واثنان في نويلي، وقدمات زوجي على هذا المتراس، والآن افعلوا ماتشاءوا»، فخلعوا ملابسها وأطلقوا عليها الرصاص (٢٧)

أما لويز ميشيل فقد أعلنت أمام المحكمة تحملها المسئولية الكاملة أمام

المحكمة وأمام التاريخ، عن أعمالها: «وقيل لى أنى شريك متواطئ مع الكوميونة نعم بكل تأكيد، فلقد أرادت الكوميونة ، قبل كل شيئ ، الثورة الاجتماعية والثورة الاجتماعية هى أعز أماني، بل وأكثر من ذلك. إننى لفخورة بكونى واحدة من دعاة الكوميونة... وبما أنه لاحق لكل قلب يدق لأجل الحرية فيما يبدو سوى فى رصاصة، فانى أطالب بنصيبى، ولو تركتمونى أعيش، فلن أكف أبدا عن الهتاف طلبا للأنتقام»(٢٨)

وكان انتقام فرساى فظيعا، وخاصة سيدات فرساى. تروى ليساجراى أنه بعد سقوط الكوميونة، اخذت نساء انيقات مسرورات، كما فى نزهة للمتعة ، يتمشين الى الجثث، وكى يستمتعن بالنظر الى القتلى الباسلين، يرفعن بطرف مظلاتهن آخر مابقى يستر أجسادهم (٢٩) وقالت صحيفة (لاسيكل) الليبرالية المحافظة فى ٣٠ مايو ١٨٧١ «يرى المرء سيدات انيقات يوجهن الاهانات للمساجين لدى مرورهم. بل ويضربنهم بمظلاتهن» (٣٠) وفى الذكرى السنوية الاولى للكوميونة لاحظ مؤرخ ان الأخبار تفيد أن السيدات الانيقات الملبس كن أكثر الجميع عنفا، خاصة ضد بنات جنسهن. (٣)

خلاصة

لقد كشف العمال الباريسيون ، نساء ورجالا- لوهلة- شيئا مما يمكن أن تكون عليه طاقات البشر، ومما يمكن أن تكون عليه الحرية. فقد أظهرت النساء شجاعة ومبادرة خارقتين خلف المتاريس، وفى التعاونيات الجديدة والتعليم وفى الأفكار الجديدة المتعلقة بأخلاقيات جديدة فى الجنس. غير ان الكوميونة بينت أن نساء ورجال الطبقة العاملة رغم تآخيهم حين قاتلوا معا وماتوا معا، لم يحققوا وحدة كاملة.

كانت التقاليد الثورية لفرنسا وباريس ذات حدين: فقد شجعت العمل الثورى للعمال- رجالا ونساء- ولكنها كانت أيضا قالبا محافظا لافكارهم وأعمالهم، ودعمت الطبيعة الحرفية للصناعة هذا القالب، وكانت أفكار برودن نتيجة وسببا لتناقضات وانقسامات بين الرجال والنساء. لقد أعطتنا الكوميونة

لمحة خاطفة عن إمكانيات تحرير النساء، كما من وراء زجاج معتم.

بالنسبة لنساء الكوميونة كان الحصول على حقوق النساء يتوقف على الحصول على حقوق العمال، ولم يتحقق أيهما الاجزئيا وكانت الطبقة العاملة ماتزال غير ناضجة وافتقرت لقيادة سياسية واضحة وخنقتها ظروف الحصار، وكان عمرها قصيرا الى أبعد حد.

ورغم أن الوحدة الكاملة لم تتحقق بين رجال الكوميونة ونسائها الا أنه لم تكن بين هؤلاء النساء وبين البرجوازيات أى أرض مشتركة: بل حل صراع حياة أو موت لتصفية الحساب بينهن، ولم يعرف إنتقام البرجوازيات وغلهن حدودا تجاه «أخواتهن» العاملات.

الفصل الثالث: كوميونة باريس - ملاحظات

١- كارل ماركس وفريدريك انجلز، «كتابات حول كوميونة باريس» أعدها للنشر هال دربير (نيويورك ١٩٧١) ص٧٦

٢-« كتابات حول كوميونة باريس» ص٢٧ . ٢٨

٣- س. ادواردز «أعضاء كوميونة باريس ١٨٧١ »(لندن ١٩٧٣) ص١٥

٤- إقتباس فى كتاب ى. هيامز «بييرجوزيف برودون» (لندن ١٩٧٩) ص٢٧٤

٥- م.ح. بوكسر «الاشتراكية فى مواجهة الحركة النسوية فى فرنسا ١٨٧٩-١٩١٣» (أطروحة رسالة دكتوراة فى الفلسفة بجامعة كاليفورنيا) ص٣٣

٦- هيامز، ص٢٤٦

٧- محاضر المجلس العام للأممية الأولى (موسكو، بدون تاريخ مدون)، المجلد (١) ، ص٩٢-٢٤١

٨- بوكسر، ص٣٣-٣٤

٩- اقتباسات من ن. ليساجراى «تاريخ كوميونة باريس» (لندن ١٩٧٦) ،ص٤١٩

١٠- أديث توماس، «مضرمات الحرائق» (لندن ١٩٦٦)، ص٤٥-٤٦

١١- توماس، ص٦٢-٦٤

١٢- توماس ص٥٥-٥٦

١٣- ى. شلكيند «كوميونة باريس لعام ١٨٧١(لندن ١٩٧١

ص٣٣-٣٤

١٤= انظر توماس، الفصل السادس

١٥- توماس، ص٦٦-٦٧

١٦- توماس، ص٧٠

١٧- ادواردز، ص١١٧-١٢٠

١٨- توماس، ص٨٩

١٩- توماس ص٩٠

٢٠ - توماس ، ص٢٠٢

٢١- ادواردز، «كوميونة باريس لعام ١٨٧١» (لندن ١٩٧١) ص٢٩٠

٢٢- توماس، ص٥٣ من المدهش أن ماركس كتب أن الكوميونة أعطت «حق الاقتراع العام» (في «الحرب الأهلية في فرنسا» في كتابات حول كوميونة باريس ص٧٤) دون أن يلاحظ انها استبعدت نصف السكان البالغين، اى النساء ، ويرتكب لينين نفس الخطأ حين كتب عن كوميونة باريس في «الدولة والثورة».

٢٣- ادواردز «كوميونة باريس لعام ١٨٧١» ص٣١٧-٣١٨

٢٤- ليساجراى، ص٣٠٧

٢٥- ليساجراى ص٢٧٧، ٢٧٨.

٢٦- توماس ص٢٠١-٢٠٣

٢٧- ادواردز، «كوميونة باريس لعام ١٨٧١»، ص٣٣٠

٢٨- توماس ص١٦٧-١٧٠

٢٩- ليساجراى، ص٣٠٥

٣٠- ليساجراى ص٣١٦

٣١- ادواردز، «كوميونة باريس عام ١٨٧١»، ص٢٠١

الفصل الرابع

الحركة النسائية الأمريكية فى القرن التاسع عشر

«ولدت الحركة النسائية الأمريكية من رحم الحركة المنادية بإلغاء العبودية، »وتصيغ إليانور فليكسنر« هذه الحقيقة فى مؤلفها الكلاسيكى عن تاريخ الحركة النسائية الأمريكية «قرن من النضال» على النحو التالى:

«أجتذب هذا العمل آلافاً من الرجال والنساء، ومن هؤلاء النساء ظهرت أولى رائدات الحركة النسائية الواعيات بقضيتهن، فكن يذهبن إلى المدارس من أجل النضال لتحرير العبيد، وخلال ذلك، يخضن معركتهن الخاصة من أجل المساواة. فى حركة الدعوة لإلغاء العبودية، تعلمت النساء لأول مرة كيف ينظمن، وكيف يعقدن اجتماعات جماهيرية، ويدرن حملات توقيع العرائض.

أجل النضال لتحرير العبيد، وخلال ذلك، يخضن معركتهن الخاصة من أجل المساواة. في حركة الدعوة لإلغاء العبودية، تعلمت النساء لأول مرة كيف ينظمن، وكيف يعقدن اجتماعات جماهيرية، ويدرن حملات توقيع العرائض. وبوصفهن داعيات لإلغاء العبودية اكتسبن الحق في الكلام العلني لأول مرة، وبدأن يكونَّ فلسفة عن مكانتهن في المجتمع، وعن حقوقهن الأساسية. ولمدة ربع قرن، كانت الحركتان، لتحرير العبيد وتحرير النساء، تتغذى إحداهما على الأخرى وتتقوى بها »(١)

من أبرز النساء اللاتي نشطن أولاً في حركة المطالبة بإلغاء العبودية، ثم في الحركة النسائية، سوزان أنطوني وإليزابيث كيدي ستانتون، فقد صارت الأخيرة الشخصية المثقفة القيادية في الحركة على امتداد أكثر من نصف قرن، بينما كانت سوزان أنطوني منظمتها الأساسية.

كان أول تجمع للنساء كحركة نسائية، هو مؤتمر «شلالات سنيكا» في ١٤ و١٥ يوليو ١٨٤٨، ولم يكن هذا مؤتمراً بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ لم تكن هناك مندوبات على الإطلاق. وصاغت إليزابيث كيدي ستانتون مشروعاً بأهداف الحركة للمؤتمر، اقتفت فيه أثر إعلان الاستقلال الأمريكي بدقة: «إننا نعتبر الحقائق التالية واضحة بذاتها، وهي أن جميع الرجال والنساء ولدوا متساوين، وأن ربهم أنعم عليهم بحقوق معينة لاتقبل النقض، ومن بينها حق الحياة والحرية والسعي إلى السعادة...

«إن تاريخ البشرية، هو تاريخ الإيذاء المتكرر واغتصاب الحقوق من جانب الرجل تجاه المرأة، وهدفه المباشر هو فرض طغيانه عليها، ولإثبات ذلك، فلتقدم الحقائق لعالم غير متحيز».

وتناولت الحقائق المقدمة كل وجوه وضع المرأة، وفي الختام، ابتعد الإعلان عن نموذجه المحتذى ليقول:

«إننا إذ نشرع في العمل العظيم الذي ينتظرنا، نتوقع قدراً غير قليل من سوء الفهم، والإساءة لصورتنا، والسخرية منا، ولكننا سنستخدم كل وسيلة في متناولنا لكي نحقق هدفنا، سنشغل مندوبين لحسابنا، ونوزع كراسات الدعاية، ونقدم عرائض للدولة والهيئات التشريعية، ونجتهد لكسب منابر الكنيسة والصحافة في صفنا، وإننا نأمل أن تتلو هذا المؤتمر مجموعة من المؤتمرات في كل مكان من البلاد »(٢)

كما أقر المؤتمر القرار التالى الذى قدمته إليزابيث كيدى ستانتون:

« تقرر، أنه من واجب النساء فى هذا البلد أن يحصلن لأنفسهن على حقهن المقدس فى الإقتراع الانتخابى ».

وقد جاء الاقرار بأغلبية ضئيلة. وفى ختام المؤتمر، وقعت ثمانى وستون امرأة واثنان وثلاثون رجلاً أسماءهم على «إعلان المبادىء» (٣)

كانت البرجوازية الأمريكية فى ذلك الوقت ماتزال فى حقبتها التقدمية الثورية، وكان الجنوب مالك العبيد يقف عقبة أمام تطويرها إقتصاداً رأسمالياً يقوم على العمل المأجور، ولعبت الحركة النسائية، بوصفها جناحاً فى القوى البرجوازية الثورية دوراً تقدمياً أيضاً. غير أنه بانتهاء الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) التى أسفرت عن توحيد البلاد تحت سيطرة رأس المال الصناعى الشمالى، تحول كل من البرجوازية ككل، وفرعها النسائى، إلى معارضة أى تغيير راديكالى آخر.

دب الانشقاق بين الحركة النسائية وحركة إلغاء العبودية فقد أسخط الأولى الظلم فى التعديل القانونى الرابع عشر لعام ١٨٦٦ الذى منح حق الإقتراع للرجال السود بينما أنكرة على جميع النساء، وراحت سوزان أنطونى تقطع عهداً ملؤه الاستنكار: « لسوف أقطع ذراعى الأيمن هذا، قبل أن أعمل من أجل المطالبة بمنح الزنجى حق الإقتراع وليس المرأة. » أخذت إليزابيث كيدى ستانتون تلمح إلى الزنوج بإشارات مهينة مثل «سامبو»، وتحتج على إعطاء حق الإقتراع «للأفارقة والصينيين وكل الجهلة من الأجانب ما إن تطأ أقدامهم شواطئنا ».

وإذ أخذ القرن ينصرم، اتخذت الحركة النسائية شيئاً فشيئاً طابعاً محافظاً وقوراً وتفسر ذلك المؤرخة «أيلين كراديتور» على النحو التالى:

«حين كان حق الإقتراع للنساء قضية راديكالية،كانت القيادة لحفنة من الرائدات المستعدات لمواجهة استهجان الجمهور، فخلال الفترة التى كانت المطالبات بحق الإقتراع يتوقعن فيها الرجم بالبيض والفاكهة فى مراحل الضعف، كان لاغنى عن عقل غير تقليدى لنساء كرسن حياتهن للدعوة لقضيتهن أمام جمهور معاد، وكان من شأن المعاملة التى لقينها، أن شجعت بدورها لديهن نزوعاً لجعل كلّ ماهو مقدس لدى مجتمعهن موضع التساؤل، فى مجال الدين كما فى مجال السياسة. غير أنه بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أصبح حق الإقتراع للنساء محل الاحترام، وصار بوسع النساء ذوات الآراء

الأرثوذكسية حول كل المواضيع الأخرى، الانضمام لمنظمة تطالب بحق الإقتراع للنساء، دون خوف من النبذ». (٥)

مع تحول البرجوازية الأمريكية من قوة تقدمية إلى قوة رجعية نحو نهاية القرن، كان محتماً أن تصبح نساؤها- اللاتى يشاركن رجالها الرأى والقيم فى كل موضوع آخر عدا حق الإقتراع للنساء -عنصريات، متهوسات بالعداء للأجانب، ويضمرن عداء مسموماً للطبقة العاملة. فليس بوسع النساء ولا الرجال الإفلات من الوسط الإجتماعى والسياسى والأيديولوجى الذى يعيشون فيه.

وقوت بعض العوامل تلك النقلة إلى اليمين. وكان أحدها نشأة حركة عمالية كفاحية اعتباراً من سبعينيات القرن فصاعداً. خاضت إضرابات واسعة النطاق، ضم أحدها وهو «الإضراب الأكبر لعمال السكك الحديدية» فى عام ١٨٧٧ قرابة مائة ألف عامل، من شاطىء المحيط الأطلنطى إلى وادى المسيسيبى. كذلك كان امتداد الحركة النسائية ونشاطها إلى الجنوب عاملاً آخر. وقد كانت النساء السود مستبعدات دائماً من الحركة النسائية، ولكنها علاوة على ذلك بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر تنظم نساء الجنوب من البيض اللاتى كن عنصريات سافرات.

كان عند اليمين عدد من التهوسات: السود، والأجانب بالمولد، وسكان الأحياء الفقيرة، والعمال المكافحين. وعلى ذلك، بينما لم يطرأ تغيير على مطلب الحركة النسائية بحق الإقتراع للنساء على امتداد العقود، تغيرت الحجج المطروحة للدفاع عنه تغيرات جذرية. فقد أصبحت ذات طابع عنصرى ومعاد للأجانب فنجد نغمة الحدة تزداد مع الوقت فى نقد سوزان أنطونى لمنح حق الإقتراع «للزنجى المتوحش والجاهل»، وراحت كارى تشابمان كات، إحدى زعيمات «الرابطة الوطنية الأمريكية لحق الإقتراع للنساء» (ناوسا)، تحاكم منح هذا الحق «للأجانب الجهلة» و«سكلن الأحياء الفقيرة» «امنعوا تصويت الأحياء الفقيرة واعطوه للمرأة». واعتبرت ناوسا الميزة الأساسية لإعطاء المرأة حق الإقتراع، «أنها ستؤمن» دوام السيادة البيضاء فى الجنوب». (٦)

وهكذا، وكما كتبت أيلين كراديتور:

«كفت الحركة النسائية للحصول على حق الإقتراع، عن أن تكون حملة من أجل توسيع حق التصويت ليشمل جميع الأمريكيين البالغين. وبدلاً من ذلك، أصبح جزء مهم من منطقها هو اقتراح سحبه من بعض الأمريكيين وهم الزنوج فى الجنوب والأجانب المدمجين حديثاً فى الشمال». (٧)

وفى هذا الإطار اجتذبت الحركة النسائية عدداً ضخماً من النصيرات الجديدات. وتفيد التقديرات أن (ناوسا) غت عضويتها من ١٣٠١٥٠ عام ١٨٩٣ إلى ١٧ ألفا عام ١٩٠٥، ثم ٤٥٠٥٠١ عام ١٩٠٧، ثم أكثر من ٧٥ ألفا فى ١٩١٠ ومائة ألف عام ١٩١٥، وفى عام ١٩١٧ بلغت مليونان.

فى عالمين مختلفين

كانت نساء الطبقة العاملة الأمريكية والحركة النسائية البرجوازية على طرفى نقيض، فقد كانت ظروف حياتهن قاسية، كن يكسبن أجراً زهيداً عن ساعلت عمل تتراوح بين سبعين وثمانين ساعة أسبوعياً، ويعشن فى أحياء فظيعة، لاينلن أى رعاية طبية أو أى خدمات تذكر.

وواجهن مصاعب أكبر حتى من الرجال فى الانتظام فى نقابات فعلاوة على المصاعب المألوفة لكل الطبقات العاملة الوليدة فى كل مكان فى العالم، أضيفت مصاعب أخرى فى الولايات المتحدة نشأت عن ظروف خاصة: وهى العدد الضخم من السكان المهاجرين فى المدن، والموجات المتواصلة من الهجرة إلى بلاد شاسعة الاتساع ذات بنية لامركزية. كما كان على المناضلين النقابيين مواجهة القمع والإرهاب الشرسين من جانب أصحاب العمل والدولة.

بسبب من الصراع بين حاجة العمال الملحة للتنظيم، والعقبات التى تبدو مستحيلة أمام تحقيق ذلك، كان تاريخ الحركة العمالية الأمريكية إلى حد كبير هو قصة تعاقب التقدم والتراجع المتكررين على نطاق واسع. وخلال التقدم، يحاول العمال تنظيم أنفسهم فى نقابات صناعية أو عامة، بحيث يضمون كل العمال، مهرة وغير مهرة، رجال ونساء، بيض وسود ويعقب ذلك تحلل النقابات. ثم يّجد تقدم آخر، ولكن النقابات تناور هذه المرة طلباً للسلامة، فتنظم فقط العمال البيض المهرة، مستبعدة عملياً النساء والسود. ويلى هذه المرحلة تمرد العمال غير المنظمين، الذين يغدون أكثر راديكالية، فيتخذون خطوات ثورية فعلياً لبناء نقابات صناعية وعامة، ثم يحل تراجع هائل جديد، وهكذا.

أثر المد والجزر على الجبهة الصناعية فى تنظيم العمال على الجبهة السياسية فنرى الحركة السياسية للطبقة العاملة الأمريكية تتذبذب بين النزعة

النقابية الثورية، والاصلاحية اليمينية المتطرفة.

واليكم موجز القصة.

من النماذج المبكرة للجهود الضخمة التى بذلتها العاملات من أجل التنظيم، الحملة من أجل يوم عمل من عشر ساعات بدلاً من خمس عشرة ساعة فى أسبوع عمل من ستة أيام كما كان معمولاً به. فى ١٥ سبتمبر ١٨٤٥، أضربت عن العمل خمسة آلاف عاملة فى مصانع القطن فى وسترن بنسلفانيا، وصمدن لمدة شهر قبل أن تعود بعضهن مستيئسات، لتجرهن المضربات ثانية وهن يتنقلن من مصنع لمصنع، يقتحمن البوابات ويمسكن بالعاملات الواقفات أمام المكن. وفى النهاية، أرغمن على العودة إلى العمل تحت وطأة الجوع، دون أن يجنين شيئاً(٩)

بعد جيل آخر، وبعد الكثير من الإضرابات والجهودمن أجل بناء النقابات، التى لم يكتب البقاء منها إلا لبعض النقابات الحرفية، اتخذت خطوة جديدة. ففى عام ١٨٦٦ تأسست النقابة الوطنية للعمال. ويقول أحد المؤرخين أنها كانت من أوائل المنظمات فى العالم التى أثارت مسألة مساواة الأجر للنساء على العمل المتساوى، ومكنتهن من شغل مناصب قيادية، وكانت أول اتحاد وطنى أمريكى للعمال يرحب بمندوبين عن الزنوج»،(١٠) وللأسف لم تعش سوى حتى عام ١٨٧٣.(١١)

وبعد نصف قرن كامل من التضحيات والنضال، بلغ العدد الإجمالى للنقابيين فى هذا البلد الفسيح بأسرة فى عام ١٨٧٨ خمسين ألفاً فقط.

فرسان العمل

لم يحدث تغير ذوشأن، إلى أن ظهر «فرسان العمل»، الذين تقازقمت بجانب تجربتهم كل الجهود السابقة. فى البداية نشأت المنظمة كأخوية سرية فى عام ١٨٦٩، ثم طرحت عنها معظم ملامحها الطقسية واتجهت إلى العمل الجدى فى تنظيم العمال على نطاق شعبى واسع. كان هدف فرسان العمل هو «أن تدخل فى حظيرتها كل قسم من أقسام الصناعة المنتجة» وأن «تؤمن للكادحين نصيباً

ملائماً من الثروة التى يخلقونها». (١٣) كتب عنها مؤرخ الحركة العمالية الأمريكية فيليب س. فونر:

«قدم فرسان العمل شكلاً من التنظيم والقيادة المشتركة للطبقة العاملة الأمريكية،من المهرة وغير المهرة الرجال والنساء، الشماليون والجنوبيون، الزنوج والبيض، والأمريكيون بالمولد المولودون فى الخارج، بمختلف آرائهم الدينية والسياسية»(١٤)

خصص فرسان العمل منظمين يكلمون العمال بلغتهم الأصلية، وشكلوا جمعيات تقوم على التجمعات القومية، وكذلك أخرى «مختلطة» مكونة من عمال من مختلف القوميات وفى هذه الحالة الأخيرة، كان على المنظمين غالباً أن يتحدثوا بالبولندية والمجرية والألمانية والإنجليزية فى نفس الجلسة.(١٥)

ونمت المنظمة قفزاً، ففى ١٨٧٨ كان لديها ٢٨٧ . ٩ عضواً، وفى ١٨٧٩ بلغوا ١٥١ . ٢٠، وفى ١٨٨٠ بلغوا ١٣٦ . ٢٨، وفى ١٨٨٣ بلغوا ٩١٤ . ٥١. والفترة التى شهدت ذروة نموها كانت فى ١٨٨٥-١٨٨٦، حيث انضم إليها مايزيد على ستمائة ألف (١٦)

بذل فرسان العمل جهوداً هائلة لتنظيم العمال السود فى الجنوب، كان خطر االإعدام دون محاكمة ماثلاً دائماً، ووجب عليهم العمل سراً، ولكن رغم هذه المصاعب والمعارضة الواسعة لمنظمتهم، انضم لهم عشرات الألوف من العمال السود الذين لم يسبق للحركة النقابية أن شملتهم من قبل.(١٧) ويرجح أن حوالى تسعين ألفا من العمال السود كانوا أعضاء فيها عام ١٨٨٧، وانتخب العمال السود إلى مناصب القيادة فى جميع المستويات- المؤتمرات المحلية، ومؤتمرات المناطق، ومؤتمرات الولايات، والجمعية العامة. رغم أنهم فى معظم هذه الحالات كانوا أقلية.(١٨)

نقل فرسان العمل جهودهم لصالح السود إلى الشوارع فى مظاهرات كبيرة مختلطة، ففى «لويسفيل» دخل ستة الاف من السود والبيض الحديقة الوطنية، التى كانت محظورة على السود، «وبذلك حطم فرسان العمل أسوار التحيز». وشهدت كل من بيرمنجهام وألاباما ودالاس وتكساس مظاهرات ضخمة، وكذلك لأول مرة خطباء سود(١٩)

كما بذل فرسان العمل جهوداً حقيقية من أجل تنظيم النساء، لقيت استجابة حارة:

«كانت إضرابات عام ١٨٨٤ التى نظمتها عضوات فرسان العمل فى مصانع النسيج في «فول ريفر» و«ورشستر»، ومصانع القبعات بجنوب نورووك، نماذج رائعة للدأب والروح القتالية للمضربات. وفى عام ١٨٨٥ وقع واحد من الإضرابات المشهودة لذلك العقد، وهو الذى نظمته ألفان وخمسائة من عاملات نسيج السجاد العضوات فى فرسان العمل، واللاتى يعملن لدى «أولاد ألكسندر سميث» فى يونكرز، نيويورك». (٢٠)

ويقدر عدد النساء العضوات فى المنظمة وقت ذروة نموها عام ١٨٨٦، بحوالي خمسين ألف امرأة، وهو مايعادل ٨-٩ فى المائة من إجمالى العضوية. (٢١)

ناضل فرسان العمل من أجل مساواة أجور النساء، وقال المفوض العمالى فى نيوجرسى عام ١٨٨٦: «طالما أن الفتيات قد انضممن إلى فرسان العمل هنا، فليحصلن على نفس الأجور التى للرجال» وختمت نقابة لوس أنجلوس دراسة أجرتها حول الأوضاع العمالية فى منتصف ثمانينيات القرن، بالقول: «إن فرسان العمل هى المنظمة الوحيدة التى يعرف عنها تشجيع عضوية السيدات، والمطالبة بالمساواة التامة للنساء، والإصرار على الأجر المتساوى عن العمل المتساوى». (٢٢)

وبرغم كل هذه الإنجازات، لم يكتب البقاء لفرسان العمل، فقد أنطوى نشاطها على نقاط ضعف خطيرة.

لم تكن منظمة عمالية خالصة، وشجعت أصحاب العمل على الانضمام، وفى منتصف الثمانينيات، بدأ الأعضاء من غير العمال يهيمنون على سياسات جمعياتها، ويوجهونها ضد مصلحة الغالبية العظمى من أعضائها. وبدلاً من التركيز على الإضرابات كسبيل للحصول على الاعتراف بالنقابة، ورفع الأجور، وخفض ساعات العمل وتحسين ظروفه، ركز فرسان العمل على تنظيم جمعيات تعاونية للمنتجين، حيث كانوا يأملون فى أن توفر الإمكانية «لجعل كل رجل سيد نفسة، ورب العمل الوحيد لنفسه»، ومن ثم التخلص من نظام الأجور.

وأخيراً وليس آخراً، لعبت الكنيسة الكاثوليكية دوراً فاصلاً فى ثلم الطابع النضالى العمالى للمنظمة.

وفى عامى ١٨٨٦-١٨٨٧ انتقل أصحاب العمل إلى الهجوم، مستغلين الضعف فى قيادة فرسان العمل، وكذلك الركود الإقتصادى، فوقعت أكثر من

مائتى حالة إقفال للمصانع إلى حين قبول العمال بشروط أصحاب العمل، وفصل من العمل ٦١٠ . ١٦١ عاملاً (معظهم أعضاء فى فرسان العمل). (٢٣)

وعند هذه النقطة بالذات، كفت قيادة فرسان العمل عن أى نضال جدى لصالح أعضائها . وفى عام ١٨٨٦ ، منعت القيادة الإضراب مالم تتوافر أغلبية الثلثين فى اقتراع سرى، وفى حال الاحتياج لمساعدة مالية خارجية، يمنع الإضراب مالم يكن أحد أعضاء اللجنة التنفيذية العامة قد حاول اللجوء للتحكيم، وإذا لم ينجح هذا الإجراء، يظل الإضراب ممنوعاً مالم يحصل على إذن من اللجنة التنفيذية العامه

فى أعقاب ذلك انخفضت عضوية فرسان العمل من حدها الأقصى البالغ ٧٠٠ ألف فى صيف ١٨٨٦ الى ٣٥١ر٥١٠ عضوا فى يوليو ١٨٨٧، وبعد عام واحد كانت العضوية قد تضاءلت الى ٦١٨ . ٢٢١ عضوا ، وفى عام ١٨٩٠ بلغت مائة ألف ، ثم ٦٥٣ر٧٤ عضوا فى ١٨٩٣، ثم عشرين ألفا فقط فى عام ١٨٩٥.

لقد قتلت «فرسان العمل» من بيروقراطيتها ذاتها وانتهت التجربة التى بذلت فيها جهود جبارة لاقامة وحدة عمالية تتجاوز بقوتها فوارق المهارة والعرق والعقيدة الدينية والجنس والأصول القومية. وفى الفراغ الذى نشأ عن غيابها ، قامت منظمة وطنية جديدة للنقابات العمالية، ولكن مستبعدة هذه المرة العمال غير المهرة والنساء والسود.

اتحاد العمل الأمريكى

تأسس اتحاد العمل الأمريكى (AFL) فى عام ١٨٨١، ونما ببطء ولكن بثبات مع انحلال فرسان العمل. وتعلمت قيادته من تجربتهم لا الحاجة الى المزيد من الكفاحية، بل الى المزيد من الحذر، وكثيرا ما انكمشت أمام شراسة هجوم أصحاب العمل، مقتنعه بأن محاولة توحيد العمال فى نقابات صناعية قوية عبر توسيع قاعدة النقابات الحرفية القائمة، هى بمثابة دعوة لتصادم بالرأس مع الشركات الكبرى والحكومة ، واجتلاب لدمار المنظمات العمالية القائمة، وسعت

الى عقد سلام مع أصحاب العمل بشروط معينة، تبقى على النقابات الحرفية حية، حتى ولو على حساب العمال غير المهرة ونصف المهرة وتحولهم الى فريسة لهذا الوضع، وهم يشملون الغالبية العظمى من السود والمولودين بالخارج والنساء من العمال.

وحين كانت حفنة من العمال السود تتمكن من دخول النقابات، كان يجرى تنظيمهم فى فروع أو منظمات محلية منفصلة. كان اتحاد العمل الأمريكى منظمة مناصرة لسيادة البيض «جيم كراو»* الأمر الذى وجد أفصح تعبير عنه فى موقف صمويل جورج رئيس الاتحاد، الذى كان يسعر الكراهية العنصرية ضد السود، الذين كان يشير إليهم بلفظ التحقير «الداكنون» ويقول عنهم أنهم أناس مؤمنون بالخرافات أغبياء وجهلة قصار النظر يتصرفون دونما تفكير، وكسالى ولا أخلاقيون. والتزم الصمت التام حيال مسائل حيوية مثل حرمانهم من حق الاقتراع، واعدامهم دون محاكمة، واستبعادهم من دور المحلفين، والفصل العنصرى فى المدارس والكليات والسكك الحديدية وغير ذلك من الأماكن العامة (٢٦) ولقى العمال المولودون بالخارج نفس المعاملة من الاتحاد، علاوة على معارضته دخولهم الى البلاد من الأصل، ومن ثم عضويتهم فيه.

وكذلك النساء، وغالبيتهن الساحقة من العمالة غير الماهرة أونصف الماهرة، لم يكن مرغوبا فى وجودهن فى الاتحاد، وتحقق له استبعادهن عبر فرض مؤهلات فترة تدرب طويله، ورسوم عالية على حصولهن على العضوية، واجراء فحوصات خاصة للنساء. وسمحت بعض النقابات بانضمام النساء العاملات فى فروع معينة من الصناعة فقط، وفى مثل هذه الحالات كانت النساء يستبعدن من فروع الصناعة الأعلى أجرا (٢٧)وحين يسمح لهن بالدخول بالفعل، كان الاتجاه السائد هو تنظيمهن فى نقابات منفصلة فكان من الشائع أن يشكل منظمو الاتحاد نقابتين فى مصنع أو محل، واحدة للنساء وأخرى للرجال، وتدير المفاوضات مع أصحاب العمل لجنة مشتركة يمثل فيها الاثنان ولطالما اشتكت العاملات من أنهن يخرجن بالنصيب الأسوأ من هذه المفاوضات، لأن «الرجال يعتقدون أن الفتيات لايجب ان يحصلن على عمل بجودة عمل الرجال، ولا أن يكسبن أكثر من نصف مايكسبونة» (٢٨)

ولم تلعب منظمة فى أى مكان دور كاسر الاضراب كما فعل اتحاد العمل

* إشارة لى العامية الأمريكية لموقف الاستعلاء العنصرى على السود. المترجمة.

الأمريكى . كتب عن ذلك فيليب فونر «أصبح التقاتل على الشغل كسرا للموقف النقابى من الأمور العادية فى اتحاد العمل الأمريكى، فتفعلها الحرفة فى حرفة أخرى، ويكسر عمال نقابيون إضرابات إخوانهم، بل عرفت تلك الظاهرة المدهشة، وهى أن تقوم نقابات عمال البناء التابعة لاتحاد العمل الأمريكى ببناء مجمعات سكنية لكاسرى الاضراب الذين يستأجرون للعمل لكسر إضرابات نقابات أخرى تابعة لاتحاد العمل الأمريكى أيضا». (٢٩)

كذلك شاع الفساد فى اتحاد العمال الأمريكى، على نطاق لامثيل له فى أى مكان آخر، فكان موظفوه يدرون دخلا من سرقة خزائن النقابة، والهدايا والبقشيش، والقروض التى لاترد، ومقاسمة العمال جزءا من رواتبهم بانتظام، والرشوة من أعضاء النقابة وأصحاب العمل، بدءا من الرشاوى الضخمة مقابل منع الاضرابات أو ايقافها، والقبول بشروط «معقولة» فى تعاقدات العمال وإهمال بنود معينة فيها، وحتى التعاون مع أصحاب العمل فى تشكيل احتكارات من فرع صناعة بعينها، بالدعوة الى الإضراب لدى المنافسين الرافضين الانضمام للاحتكار المعنى أو الانصياع لأوامره»(٣)

ذهب بيروقراطيو اتحاد العمل الأمريكى بعيدا فى اساليبهم لاحكام سيطرتهم عليه، فنظموا شللا من أتباعهم، وأجروا انتخابات مزورة، وملأوا المؤتمرات بمندوبين كانوا موظفين معينين لدى الاتحاد. واستخدموا مجرمين ومأجورين للقضاء على أى معارضة فى النقابات.

كان الضحايا الرئيسيون لبيروقراطية إتحاد العمل الأمريكى هم العمال غير المهرة السود والمولودين فى الخارج والنساء وارتبط هؤلاء بمصير واحد، على نحو سلبى الآن، بعد الرباط الايجابى الذى جمعهم من قبل تحت لواء فرسان العمل.

عمال العالم الصناعيون

من نهوض الجمهرة الهائلة من العمال المهاجرين غير المثبتين والمحرومين من حق الاقتراع، والعمال غير المهرة، اولئك الرجال والنساء الذين وجدوا أبواب اتحاد

العمل الأمريكي مغلقة في وجوههم، نشأ عمال العالم الصناعيون».(Iww).
المعروفون أيضا باسم ووبليز، كذلك من العوامل التي حفزت على تأسيسها، ثورة ١٩٠٥ الروسية. ففي مؤتمرها التأسيسي في يونيو ١٩٠٥، قال بيل هيوود «الكبير» الذي صار زعيمها الأبرز فيما بعد، أنه يأمل أن يرى الحركة الجديدة «تنمو في جميع أنحاء البلاد الى أن تستوعب الغالبية العظمي من العمال، وينهض هؤلاء العمال في ثورة على النظام الرأسمالي كما يفعل أبناء الطبقة العاملة في روسيا الآن.»(٣١)

كانت منظمة عمال العالم الصناعيون مقتنعة بضرورة تنظيم كل العمال في «نقابة واحدة كبيرة» تأخذ على عاتقها شن النضال الطبقي بواسطة السلاح الرئيس للعمال، الاضراب، مصعدة أياه الى السلاح الثوري، الاضراب العام، الذي سينهي عهد الرأسمالية، ويقيم دولة عمالية تديرها منظمة نقابية.

بداية، كان جميع الأعضاء القياديون في «عمال العالم الصناعيون»، أعضاء في الحزب الاشتراكي، الذي كان الاتجاه اليساري فيه نصيرا متحمسا للنقابية الثورية، وتدخلت المنظمة في النضالات السياسية باستمرار: دفاعا عن الحقوق المدنية ، وحرية الكلام، وضد قوانين مكافحة التشرد، ودفاعا عن حقوق المساجين، وقضايا أخرى كثيرة ، (٣٢) كذلك لم يقف «بيل الكبير» بمعزل عن النشاط السياسي الانتخابي فقد كان واحدا من أبرز من قادوا الحملة الانتخابية لصالح الحزب الاشتراكي في عام ١٩٠٤ متميزا بحيويته وتأثيره الفائقين وكذلك في انتخابات الرئاسة والكونجرس لعام ١٩٠٨، كما رشحه الحزب الاشتراكي لمنصب حاكم ولاية كولورادو في عام ١٩٠٦(٣٣)

ولكن الحزب الاشتراكي طهر صفوفة من التيار اليساري عام ١٩١٢، وأقيل بيل هيوود من اللجنة التنفيذية للحزب لزعامته عمال العالم الصناعيون، فترك الحزب وانضم له آلاف اليساريين المفصولين من الحزب أو الذين تركوه بمحض ارادتهم، وفي أعقاب ذلك بدأ عمال العالم الصناعيون يتخذون موقفا لا سياسياً رافضين العمل السياسي.

حظي عمال العالم الصناعيون بشعبية خاصة وسط العمال المهاجرين في الغرب الأمريكي، وكان هؤلاء جيشا جوالا من عدة ملايين من العمال الشبان نصف المهرة أو غير المهرة، بلازوجات ولابيوت، يتنقلون من عمل الى عمل في عربات الشحن الفارغة، كانوا يعملون في ورش قطع ونشر الخشب وفي المناجم

ومشروعات البناء وفى الحقول، وخلال الترحال، كانوا يتخالطون بحرية، بغض النظر عن الفوارق العنصرية والقومية والدينية (٣٤)

وفاخر عمال العالم الصناعيون بدورهم بشعبيتهم وسط العمال المهاجرين فى الغرب، ونظموا صحافة ضخمة باللغات الأجنبية خصيصا لاجتذاب مواليد الخارج، ففى أواخر عام ١٩١٢ كانوا يصدرون ثلاث عشرة صحيفة بلغات مختلفة: الانجليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والروسية والبولندية والسلافية والليتوانية والمجرية والسويدية والعبرية واليابانية، الا أن معظم هذه الصحف لم يعمر طويلا (٣٥)

وقد بذلوا جهودا خاصة من أجل تنظيم العمال السود، وكان موقفهم قاطعا بشأن تنظيمهم على اساس المساواة الكاملة، وشفعوا القول بالفعل حتى فى أعماق الجنوب، حيث رفعوا شعار «لاعنصر، لاعقيدة، لالون»، ووحدوا العمال السود والبيض فى نضال مشترك (٣٦)

بينما كان معظم أعضاء عمال العالم الصناعيون فى الغرب من الرجال، اكتسبت النساء أهمية فى صفوف العمال نصف المهرة وغير المهرة فى الشرق وكان عند «الووبليز» تقدير عال للصفات القتالية لدى النساء، كتبت «م. تاكس» فى كتابها «نهوض النساء»: «أن مقدم النساء جنبا الى جنب مع الرجال فى الاضرابات، سرعان ماسينمى القوة القتالية التى ستنتهى الرأسمالية وفظائعها فى القريب... وبلغة كيبلنج فإن إناث المخلوقات مميته أكثر من ذكورها، ويجدر أن نلاحظ أيضا أن الذكر يغلو مميتا أكثر فى حضور الأناث وبمعونتها وتشجيعها، إن الحركة النقابية تتجه الى تنمية قتالية كلا الجنسين» (٣٧)

وقد أولت صحفهم اهتماما خاصا لأى أنباء عن «نشاط العاملات»، وكانت تقارير الأنباء الصحيفة عن الاضرابات الهامة بقيادة المنظمة تركز على الدور الذى لعبته النساء، سواء كمضربات أو معاونات للرجال فى مهمة حراسة الاضراب.*

ولعل أول محاولة فى التاريخ لتنظيم إضراب للعاهرات، هى تلك التى قام

---

* الاشارة الى مهمة تركلها النقابة لواحد من أعضائها حيث يقف أمام المصنع المضرب ليثنى العمال عن الدخول والعمل. المترجمة.

بها عمال العالم الصناعيون فى نيوأورليانز عام ١٩٠٧. ويروى القصة فيليب فونر:

«أوحى نشاط «الووبليز» لعدد كبير من عاهرات المدينة بمغادرة بيوت الدعاره والمطالبة بتحسين ظروفهن. كانت القوادات فى عدد من البيوت قد ضاعفن ايجار أوراق اللعب التى تتسلى بها الفتيات، فدار نقاش بين الفتيات حول طريقة الووبليز فى التصرف فى هذه الأمور، ثم نظمن الاضراب وانتخبن مسئولات عن مهماته، وأوقفن عمل صاحبات البيوت المسيئات وعملا بمبدأ عمال العالم الصناعيون فى دعوة كل أعضائه لابداء التضامن مع الشقيقات المضربات استجاب بمقاطعة البيوت المضربة، وكسبت المضربات معركتهن. «وردت الفتيات المجاملة بالمثل ففى وقت لاحق، أفادت صحيفة صوت الشعب الناطقة بلسان عمال العالم الصناعيون فى أقصى الجنوب ، أن الفتيات يقاطعن عملاء الشرطة، وقالت أن

«فتيات الاضاءة الحمراء يرفض بيع أجسادهن لحماه كاسرى الاضراب، ومن رجال الميليشيا المرسله لقمع المضربين فى (بوت) »(٣٨)

اليزابيث جيرلى فلين

وسط المنظمين القياديين فى عمال العالم الصناعيون ظهرت نساء تعد اليزابيث جيرلى فلين أبرزهن. وقد كتب جوهيل، أثناء سجن فى ولاية يوتاه عام ١٩١٥ فى انتظار تنفيذ الاعدام لتهم ملفقه بسبب نشاطه النقابى، أغنية سماها الفتاة المتمردة وأهداها لاليزابيث جيرلى فلين، وبقى اللقب ملتصقا باسمها. فى عام ١٩٠٦ أنضمت لعمال العالم الصناعيون وهى بعد فى السادسة عشرة من عمرها، وبعد عام خاضت أول تجربة لها فى الاضراب فى مصنع بريدجبورت للأنابيب فى ولاية كونكتيكت، ومن بعدها وجدت هنا وهناك وفى كل مكان. كانت مع عمال المناجم المضربين فى «ماسابى ايرون رينج»، ومع عمال نسيج باسايد الذين صمدوا على مدى سبعة عشر شهرا رغم الاعدامات بالغاز

والهراوات والتغطيس فى الماء المثلج وسجن مئات العمال، ومع ٢٣ ألف من عمال نسيج لورنس خلال اضرابهم المرير الذى استمر شهرين، ومع نساجي الحرير وصانعى الشرائط فى باترسون الذين احتملوا خمسة أشهر من وحشية الشرطة والاعتقالات وحال تقارب المجاعة، والقائمة لاحصرلها بالفعل.

انتهجت اليزابيث جيرلى فلين خطا طبقيا ثوريا متسقا ولم تقدم أى تنازلات للاتجاه النسائى البرجوازى، وقد كتبت فى مقال بعنوان «نداء عمال العالم الصناعيين للنساء»، «بالنسبة لنا، يتحرك المجتمع فى مسارات تحددها الطبقة، لا الجنس والتمايزات الجنسية لاتؤثر علينا إلا فى أقل القليل، ولولا الفوارق الاقتصادية، لكان هذا التأثير أقل، وعمال العالم الصناعيون انما يتوجهون بالخطاب لأولئك النساء اللاتى يعملن بالأجر أو هن زوجات لعمال، إننا لانرى أى أساس لوجود مصالح نسائية مشتركة، لاشواهد على وجود «صراع جنسى»، طبيعى، ولا أى إمكانية للتضامن بين النساء وحدهن- ولاهو بالمرغوب فيه حاليا... فليس هناك من مصلحة تجمع الملكة فى حجرة الاستقبال بالخادمة فى المطبخ، وزوجة صاحب المحل التجارى الضخم لاتبدى اهتماما أخويا بالفتاة ذات السبعة عشر عاما التى تصبح الدعارة الباب الوحيد المفتوح أمامها اذ لايتجاوز أجرها خمسة دولارات أسبوعيا. إن أخوة النساء، مثلها مثل اخوة الرجال، ليست سوى ادعاء أجوف بالنسبة للعمال، وخلف كل لزوجتها المرائية وعاطفيتها المغثية، تلوح الملامح المنذرة للحرب الطبقية» (٣٩)

كانت ترى أن حركة المطالبة بحق الاقتراع للنساء خاضعة لسطوة «الثريات المولعات بالتقاليع»، واحتجت على جعل نساء الطبقة العاملة «ذيلا فى لعبة الإقتراع على أيدى نساء ذات الطبقة التى تستأجرهن لحياة البؤس والخزى». (٤٠) وقالت أن مفتاح إيقاظ العاملات يكمن فى النضال فى موقع العمل، و أن على النساء والرجال أن ينظموا أنفسهم ويناضلوا جنبا الى جنب.

«إن (عمال العالم الصناعيون) تناشد النساء أن ينتظمن جنبا الى جنب مع الرجال من عشيرتهن، فى النقابة التى ستصبح شيئا فشيئا صاحب القرار فى تحديد قواعد العمل والأجور الى أن يدين العالم لتضامنها وسلطتها. وتقول للفتاة الشابة أن الزواج لايقدم مهربا من مشاكل العمال، وللأم أن مصالحها ومصالح أبنائها مغزولة فى مصالح الطبقة ككل. كيف ستتغلب (عمال العالم الصناعيون) على النزعة المحافظة والأنانية؟ بدفع النساء الى المشاركة الفعالة

فى الأمور النقابية ، وخاصة الاضرابات، حيث تقدم الاجتماعات الجماهيرية ، والنشاط الجماعى فى حراسة الاضرابات، والاجتماعات النسائية وتجمعات الأطفال.. حافزا وجدانيا هائلا، إن النقابات القديمة لم يخطر لها أبدا أن تعتبر النساء جزءا من الاضراب، كان ينتظر منهن أن يقبعن فى البيت وينشغلن بالقلق على خزانة الطعام الخاوية، والأطفال الجياع ودمدمة صاحب البيت، وبذلك يغدون فريسة سهلة لعملاء الشركة. كان الاضراب من شئون الرجال، لهم متعة الكفاح، أما النساء فليس من حقهن حتى الحصول على تفسير ذكى له... بوسع النساء أن يكن العنصر الأكثر قتالية فى الإضراب، أو الأكثر محافظة، يتوقف ذلك على فهمهن لأغراضه، إنهم يتهمون (عمال العالم الصناعيون) بوضع النساء فى المقدمة، والحقيقة أنها لاتحجزهن فى المؤخرة، فيمضين من تلقاء أنفسهن الى المقدمة». (٤١)

دافعت اليزابيث جيرلى فلين عن فكرة أن تحرير النساء رهن بالثورة الاشتراكية: «يحتاج تحرير النساء لماهو أكثر كثيرا من حق الاقتراع المجرد: ولا أقل من ثورة اجتماعية ،يستطيع أن يحطم المناخ الذى يغل تفكيرها ويحاصره بالحمق اليوم».(٤٢) والثورة الاشتراكية هى أيضا الشرط اللازم لتحطيم قيود القهر الجنسى:

«إن المشاكل الجنسية الوحيدة التى أعرفها ، هى كيف يكون للنساء الحكم فى أنفسهن، كيف يكن حرات، بحيث يصبح الحب وحدة هو الوصية الوحيدة سارية المفعول*، ولست أرى سوى سبيل واحد، هو أن يتحكمن فى مشكلتهن الوحيدة، مشكلة كيف يعشن، كيف يحصلن على الطعام والكساء، مشكلة حياتهن الاقتصادية الخاصة... إن الاستعباد الجنسى.. مترتب على الاستعباد الاقتصادى، وهو ليس سوى تعبير مهذب عن الدعارة، سواء كانت لليلة واحدة، او لعمر بأسره»(٤٣)

الأم جونز

«الأم» مارى جونز، شخصية نسائية أخرى عملاقة، بدأت تقود النشاط

* اشارة للوصايا الدينية للمسيح التى تشتمل على وصايا خاصة بعلاقة الرجل والمرأة. المترجمة

العمالى قبل اليزابيث جيرلى فلين بنحو عقدين، ثم استمرت على مدى مايقرب من ستين عاما. كتبت عنها اليزابيث جيرلى فلين!

«كانت الأم جونز أعظم محرضة من النساء عرفها عصرنا . فعلى مدى ستين عاما من الاعتقالات والترحيل والاحتجاز على يدالميليشيا، والملاحقة والتهديدات من الشرطة والقتلة المحترفين، واصلت النضال بلارهبة..

ولدت فى كورك بايرلندا، وأتت الى هنا صبية ثم فقدت زوجها الذى كان لحام حديد، وأطفالها الأربعة أثناء وباء للحمى الصفراء اجتاح ممفيس بولاية تنيسى، وتولت النقابة دفنهم (١٨٦٧). وحيدة ومستوحشة ذهبت الى شيكاغو، وعملت فى خياطة الفساتين للأغنياء.، وبينما كانت تخيط فى القصور الرائعة المطلة على البحيرة، شاهدت الفقر والبؤس فى المدينة. وعقب حريق شيكاغو، حضرت اجتماعات فرسان العمل فى مبناهم المحروق، وبعد مذبحة العمال فى أول مايو ١٨٨٦ أمام مصنع «ماكورميك هارفستروركس»، وماتلاها من مكيدة سرق التبن للقادة العماليين، أصبحت من حجاج النشاط العمالى الذين لاتهدأ لهم حركة، فراحت تنتقل من إضراب الى اضراب، تحرض وتنظم وتشجع . بدأت فى وست فيرجينيا ثم فى منطقة فحم الانتراست، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، صاحبت عمال مناجم الفحم فى كل نضالاتهم على الاطلاق طوال العشرين عاما التالية، فى الشرق وفى كولورادو، وفى كل مكان». (٤٤)

عملت الأم جونز منظمة فى صفوف فرسان العمل، ثم أصبحت من مؤسسى عمال العالم الصناعيون، وواحدة من قادتها الرئيسيين ماتلى ذلك، (كذلك كانت من مؤسسى الحزب الاشتراكى). تركز نشاطها فى العمل منظمة لحساب «عمال المناجم المتحدين»، كتب هيوود «كلما تفجرت المتاعب فى وجه عمال المناجم، ذهبت اليهم الأم جونز، فاذا انسد جسر بالجند، خوضت فى النهر شتاء، واذا روقبت القطارات، هربها فيها طاقم العاملين. نظمت «جيوش النساء» أثناء نزاعات المناجم لمطاردة كاسرى الاضراب بالماسح والمكانس وأوعية القلى ياإلهى، «يا إلهى، لقد وصلت الأم العجوز ونساؤها الجامحات! . كذلك كان يئن أصحاب المناجم حين تواجههم تلك المفرزه العصية». (٤٥)

قادت عمال المناجم فى اضرابات فرجينيا عام ١٨٩١، ومنطقة فحم الانتراسيت عام ١٩٠٠ و١٩٠٢، وفى بينت كريك وكابين كريك فى وست فيرجنيا فى ١٩١٢-١٩١٣، وفى لدلو بكولورادو فى ١٩١٣-١٩١٤، وفى

كنساس فى ١٩٢١، واضرابات أخرى (٤٦) واشتركت فى تنظيم عمال السكك الحديدية فى اضرابات أعوام ١٩٠٣، و١٩٠٤ و١٩٠٥ و١٩١١، وقادت جماهير العاملات فى صناعة النسيج فى اضرابات أعوام ١٩٠١ و١٩٠٣ و١٩٠٥، وفى عام ١٩١٠ قادت عاملات تعبئة الزجاجات فى اضراب ضد اصحاب مصانع البيرة في ميلووكى.

لقد ألقى القبض على الأم جونز فى كل مرة وقع فيها إضراب فعليا، فكانت ما إن تغادر السجن، حتى تشرع ثانية فى التحريض والتنظيم، حتى ينتهى بها المطاف الى السجن مرة أخرى. وفى الثانية والثمانين من عمرها عام ١٩١٢، ألقى القبض عليها فى وست فيرجينيا أثناء اضراب لعمال المناجم، وحكم عليها بالسجن عشرين عاما، وإزاء إندلاع الاحتجاج وسط العمال الأمريكيين، اضطر الحاكم لاصدار الأمر بالافراج عنها. (٤٨) ومن أواخر الاضرابات التى شاركت فيها، وهى تشارف على التسعين من العمر، إضراب عمال الصلب الكبير عام ١٩١٩.

ومثل اليزابيث جيرلى فلين، كانت الأم جونز خصما للحركة النسائية البرجوازية، قالت فى أحد اجتماعات المطالبات بحق الاقتراع فى نيويورك: «علام كل هذه الثورة من أجل حق الاقتراع! أتردن آراء وصوتا إنتخابيا!... إن نساء كولورادو حاصلات على حق الاقتراع منذ جيلين، ومايزال العمال يرسفون فى العبودية»: كانت ترى أن قضية حق الاقتراع للنساء، حيلة من الأغنياء لتحويل انتباه النساء عن القضايا الحقيقية، وإبقاؤهن مشغولات «بالاقتراع والمحظورات والأعمال الخيرية». (٤٩)

وتوفيت عام ١٩٣٠ عن مائة عام، ودفنت مع شهداء اتحاد فيردين بمقبرة عمال المناجم فى ماونت أوليف بولاية الينوى.

«الخبز والأزهار»

كان أكبر الاضرابات النسائية هو ذلك الذى وقع فى صناعة النسيج فى لورنس من يناير إلى مارس ١٩١٢، اشتركت فى الاضراب ثلاثة وعشرون ألف

عاملة ينتمين لخمس وعشرين قومية ويتكلمن خمسا وأربعين لغة مختلفة، وكتب عنه فيليب فونر :«الحق أنه لم يسبق فى تاريخ الحركة العمالية الأمريكية، أن اتحدث جماعات قومية ولغوية مختلفة بهذا القدر من النجاح فى اضراب»(٥٠)

«فى جميع أعمال حراسة الاضراب* والمواكب ، لعبت المضربات أنفسهن، أوزوجات المضربين دورا حيويا ، كن يمشين فى الشوارع التى غطاها الجليد بجانب الرجال، وكثيرا ما احتللن الصفوف الأمامية فى المظاهرات والمواكب، نساء حوامل وأمهات يحملن أطفالهن الرضع، يسرن مع الباقين ويحملن لافتات -مثل باقى فتيات المصانع- كتب عليها : «نحن نريد الخبز والزهور ايضا».. ويبدو انه جرى إلقاء القبض على عدد من النساء أكبر من عدد الرجال بسبب ارهابهن لكاسرى الاضراب أثناء قيامهن بأعمال حراسة الاضراب... وقد رفضن دفع الغرامة مفضلات السجن عليها ، وتميزت بهذا الموقف خاصة النساء الايطاليات والروسيات والليتوانيات». (٥١)

أظهر عمال العالم الصناعيون عبقرية فى ارتجال تكتيكات جديدة بأستمرار فى الاضراب ، فكانوا هم أصحاب فكرة تحويل مهام حراسة الاضراب الى عمل جماهيرى جماعى ، وتسيير المواكب الجماهيرية، والمظاهرات ، فى اضراب لورنس تجلى هذا الابداع على نحو لاسابق له.

«ومن أجل الالتفاف على الحظر المفروض على التجمع أمام المصانع، ابتكرت لجنة الاضراب... خط حراسة الاضراب المتحرك الشهير، ويوما بعد يوم، راحت صفوف من حراس الاضراب تتحرك فى سلسلة لانهاية لها حول منطقة المصنع لتضعف معنويات كاسرى الاضراب... فى كل يوم يسير موكب، حيث يمشى مايتراوح بين ثلاثة وعشرة آلاف شخصى على موسيقى الفرق وقرع الطبول يغنون نشيد الأممية والمارسيليز و«التضامن الى الأبد» وغيرها من الأغانى الراديكالية وأغانى «الووبليز»(٥٢)

كان زعيم الاضراب عند الجميع هو بيل هيوود أو «بيل الكبير»،وعملت معه اليزابيث جيرلى فلين وقد إنتهى الاضراب بنصر كاسح.

ولكن بينما كانت (عمال العالم الصناعيون) قوية فى قيادة النضال، كانت

---

* نذكر القارئ بأن هذه الاعمال هى المتصلة بحث العمال على عدم دخول المصنع المترجمة

ضعيفة فى الاحتفاظ بتنظيمه بعد انتهاء الاحداث. فقبل الاضراب كان لديها حوالى ثلاثمائة عضو فى لورنس، وفى ستمبر ١٩١٢ ارتفعت العضوية الى ستة عشر الفا، ولكن حين جاء صيف عام ١٩١٣، كانت قد انخفضت الى سبعمائه (٥٣) وقد كان هذا النمط من التجنيد السريع خلال الاضرابات، ثم فقدان العضوية بعدها، من سمات نشاط عمال العالم الصناعيون.

تلى إضراب عمال نسيج لورنس، إضراب ٢٥ الف عامل بمصانع باترسون للحرير فى عام ١٩١٣، وانتهى هذا الاضراب بعد خمسة أشهر منهكة بهزيمة تامة. وبعد بضعة أشهر وقعت هزيمتان أخريتان لاضرابين تحت قيادة عمال العالم الصناعيون، اضراب عمال المطاط فى أكرون وعمال صناعة سيارات ستودبيكر فى ديترويت، ومن بعدها لم يستطع منظمو عمال العالم الصناعيون أن يحشدوا مرة أخرى قسما يعتدبه من عمال النسيج، وانتهت عمال العالم الصناعيون فى الشرق الى الدمار النهائى.

كان العنصر المهيمن فى هذه النقابة الى حد بعيد هو الاعضاء القادمون من ولايات الغرب، فانعكست فى نشاطها نقاط الضعف والقوة المتصلة بتكوينها هذا كما فى أفكارها، فكان مستحيلا بناء نقابات مستقرة وسط العمال المهاجرين، وقد اعترفت اليزابيث جيرلى فلين بأن :«معظمنا محرضون رائعون، ولكننا ضعفاء كمنظمين نقابيين». (٥٤)

كان محكوما على عمال العالم الصناعيون ألا تتجاوز وضع المنظمة الثورية الصغيرة، ولاتبلغ أبدا وضع المنظمة ذات العضوية الجماهيرية الواسعة. فى أوج تألقها عام ١٩١٢ بلغت عضويتها ٢٥ ألفا، ثم تناقصت فى عام ١٩١٣ الى ١٤٫٨٥١ عضوا، وفى ١٩١٤ الى ١١٫٣٦٥ عضوا.

الرابطة النقابية النسائية

كان من نتيجه فشل اتحاد العمل الأمريكى فى تنظيم النساء من جهة وعدم استقرار عمال العالم الصناعيون من جهة أخرى، أن فتح الباب أمام تشكيل الرابطة النقابية النسائية، التى أسستها عام ١٩٠٣ مجموعة من النساء

الليبراليات اللاتى يقمن بنشاط اجتماعى، وعدد من النقابيات، واعتبرتها زعيماتها بمثابة إجابة على تحدى الثورة، وهكذا كتبت احداهن «اليس هنرى» فى عام ١٩١١:

«اذا ترك كل عبء علاج أشكال اللامساواة غير العادلة ليقع على عاتق الفئة الاجتماعية المقهورة، سنكون أمام طريقة الثورة، الفظة والبدائية، والبديل الوحيد عن ذلك، هو أن يأخذ المجتمع بأسرة على عاتقه، وعبر العمل التعاونى، إزالة المساوئ فى الصناعة ، ووضع أساس لها عادل ومنصف تجاه العامل» (٥٦)

وكتبت سيدة قيادية أخرى ، هى لويزا بيركتز: «....إن الآلة لمثالية لتحقيق الاصلاحات الجذرية، يجب أن تتكون من رجال ونساء أقوياء متجردين عن المصلحة يمثلون مختلف الصناعات والمصالح فى المجتمع، ويجمعون بين المال والعقل المثقف والخبرة العملية والبصيره النبيلة» (٥٧)

اعتبرت الرابطة نفسها تحالفا من جميع الطبقات وقالت عن ذلك جين آدامز نائبة رئيسة الرابطة: «إن من يعملون.. لايملكون ترف التعلق بأهداب المرارات الطبقية». وبذلت الرابطة جهودا «لانشاء منظمات مستقلة للنساء»، ولكنها انهارت جميعا آخر المطاف» كما كتبت مؤرختها ج. بون (٥٨)

واذ عجرت الرابطة عن أداء المهمه بمفردها، أخذت تبحث عن حلفاء فى النقابات، ولم يكن لها أن تتوقع من (عمال العالم الصناعيون) سوى موقف الفتور، حيث كانت الأخيرة ترى أن الروابط النقابية النسائية تعمق «الانفصال بين العمال والعاملات» (٥٩) وعلى ذلك فقد اتجهت الى اتحاد العمل الأمريكى، رغم موقف الاهمال الذى يتخذه إزاء العاملات..

حققت الرابطة بعض النجاح فى نيويورك فى نوفمبر عام ١٩٠٩ مع إضراب حائكات الصداريات الذى سمى «انتفاضة الثلاثين ألفا» ولابأس هنا من اقتباس بعض التفاصيل التى أوردتها ميريديث تاكس فى وصف أحداثه فى كتابها «نهوض النساء»، حيث تكشف طابع مساهمة الرابطة، وخيانتها فى النهاية. فى البداية ، ساندت زعيمات الرابطة الاضراب مساندة فعالة، فقد «نظمن قافلة سيارات لتقوم بالدعاية للإضراب وأخذت السيارات ، التى أعارتها عدة نساء مليونيرات، تشق طريقها بصعوبة وسط الشوارع الضيقة فى ايست سايد الأدنى، تنقل حارسات الاضراب فتأخذهن من مكان وتنزلهن فى مكان..

وبداخل السيارات كانت تلوح نساء مرتديات ملابس على الموضه، مع الفتيات المضربات، فقيرات ، هزيلات... وقد أخذن يمرحن حول هذا الحدث غير المعتاد. كان من المسلى مشاهدة نساء ثريات يحملن بطاقات تعلن ضرورة التنظيم للعمال وتطالب بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجر.

«ولم يجتذب أى وجه من وجوه الاضراب اهتمام الصحافة، قدر ذلك المتعلق بمساندة بعض الشخصيات النسائية الثرية له، وخاصة ألفا بلمونت وآن مورجان. كانت الأولى ابنة صاحب مزارع فى الا باما وواحدة من أبرز الشخصيات العامة فى مجتمع نيويورك، تزوجت من ويليام ك. فاندربلت وشرعت فى حملة مسرفة لاقتحام مجتمع «الأربعمائة»، النيويوركى، وبعد أن بنت قصرا تكلف ٣ ملايين دولار فى الشارع الخامس، وآخر تكلف ٢ مليون دولار فى نيوبورت، كانت قد حققت هدفها فطلقت من فاندربلت، وتزوجت أوليفرهازرد فرى بلمونت، وريث شبكة مترو أنفاق نيويورك...»

أما آن مورجان ، فكانت إبنه «البارون اللص ج.ب. مورجان»(٦٠)

اقترح الوسطاء مايرون أنه حل وسط، ورحبت زعيمات الرابطة النقابية النسائية به، ولكن المضربات اقترعن برفضه غاضبات، واعتبرنه خيانة تامة- لم يعترف الاتفاق بالنقابة على سبيل المثال. وعليه ، أعلنت زعيمات الرابطة استنكارهن «لتطرف» العاملات، وللتأثيرات الاشتراكية فى صفوفهن.

وحينما كان الأمر يتعلق بالاضرابات ، التى قادها عمال العالم الصناعيون، مثل اضراب «الخبز والأزهار» فى لورنس عام ١٩١٢، أو إضراب النساء الضخم فى باترسون عام ١٩١٣، انتحت الرابطة جانبا كلية.

وفى عقدها الثانى، أخذت الرابطة تركز على النشاط التشريعى أكثر من النشاط التنظيمى، وتتطلع أكثر فأكثر الى الحكومة الفيدرالية طلبا للمساندة، ويقدر ويليام اونيل أن عضوات الجمعية شغلن فى عام ١٩١٩ ثمانية وثلاثين منصبا حكوميا.(٦١)

حين نضع كشف الحساب عن ربع قرن من العمل مابين اتحاد العمل الأمريكى وعمال العالم الصناعيون والرابطة النقابية النسائية، نتوصل دون عناء الى الاستنتاج المحزن، ومفاده أن النتائج ليست مبهرة، ففى عام ١٩١٠ كان مجموع النساء المنظمات فى نقابات ٧٦٫٧٤٨ فقط، أى مايعادل ١٫٥ فى المائة فقط من جميع العاملات بالأجر، وفى المنشآت الصناعية كانت نسبة العاملات

المنظمات ٥٫٢ فى المائة فقط.

الحزب الاشتراكي : تشوش وابهام وتخبط

حين كان الحزب الاشتراكى الأمريكى فى أوج قوته، ضم فى صفوفه مائة وخمسين ألف عضو، ونشر مئات الصحف، وحصل على مايقرب من مليون صوت لمرشحة للرئاسة، وحظى بتأييد ثلث أعضاء اتحاد العمال الأمريكى، وكان له دور فى تنظيم عمال العالم الصناعيون، ولكى نفهم موقفه من العاملات، يجب أن نبدأ بموقفه من النقابات.

كان دانييل دي ليون، زعيم حزب العمال الاشتراكى الصغير والخلقى، يقول أن «الحزب يجب أن يسيطر على الحركة النقابية». أما الحزب الاشتراكى، فقد دافع عن حياد الحزب إزاء شئون النقابات، حتى يسار الحزب، بزعامة يوجين ف.ديبز، ورغم رفضه فكرة التمييز التام بين عمل الحزب وعمل النقابات، «استمر على الالتزام بالمبدأ القائل بأن النقابات والحزب الاشتراكى كيانان منفصلان ، لكل منهما واجب خاص يؤديه، وعليهما الامتناع كليهما عن التدخل بأى صورة فى شئون أحدهما الآخر». (٦٣)

كان هناك تسليم بأن يترك اعضاء الحزب الاشتراكى العمل فى المجال الاقتصادى للقيادة النقابية، ويكرسوا أنفسهم لتعليم إخوانهم وأخواتهم الحاجة الى انتخاب الاشتراكيين، وبناء على هذه السياسة، سعى الحزب فى المؤتمرات السنوية لاتحاد العمال الأمريكى الى كسب التأييد لمقترحات هو صاحبها، وتتناول أساسا التطويح بنظام الأجور و إقامة مجتمع على أساس الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ونادرا ماتناولت مسألة تنظيم غير المنظمين، ورغم تأييده للنقابية الصناعية، فقد تواءم مع اتحاد العمل الأمريكى وأحجم عن الادانة الواضحة للنقابية الحرفية.

إلا أن كثيرين من يسار الحزب الاشتراكى لم يتبعوا خط عدم التدخل فى شئون النقابات ، وحتى عام ١٩١٢ كان كثير من القادة البارزين فى عمال العالم الصناعيون، مثل «بيل الكبير»، أعضاء أيضا فى الحزب الاشتراكى.

وفى يمين الحزب، كان كثير من القادة عنصريون بلا استحياء، فنجد فيكتور ل. برجر، أول عضو اشتراكى في الكونجرس يعلن:«ليس هناك أى شك فى أن

الزنوج والمولدون يشكلون جنسا أدنى» (٦٤) وكتبت كيت اوهارا، وهى من أبرز الزعامات النسائية فى الحزب الاشتراكى، فى وثيقة بعنوان «مساواة الزنجى» أن «الاشتراكيين يريدون وضع الزنجى حيث لا يسعه منافسة الرجل الأبيض»، وقالت أنه لايوجد سوى حل واحد لمسألة الاجناس، وهو «الفصل» العنصرى.

«بل لقد اصر اشتراكى من أوكلاهوما على أنه سيكون هناك فصل عنصرى فى الحياة الاخرى، وتصور سماء زنجية، تقوم فى رقعه واسعة مزروعة بأشجار البطيخ، تتخللها أشجار ظليلة ومنصات رقص، والعديد من رفاهيات البعث، حيث يمكنهم أن يلعبوا ويرقصوا ويزعقوا طوال الأبدية، وقد ظهرت هذه الرؤيا فى كتيب بعنوان (لماذا أنا اشتراكى)». (٦٥)

وفى مؤتمر الحزب الاشتراكى لعام ١٩١٠، ذهب إرنست أوترمان (مترجم كتاب ماركس «رأس المال» الى الانجليزية) الى حد التأكيد بأن أى محاولة لمكافحة التحيز العنصرى ستكون خيانة للمبادئ الاشتراكية!

وحتى يسار الحزب، ورغم موقفه النظرى المؤيد لمساواة الزنوج لم يقم بأى مجهود فعلى لاستخدام الحزب فى النضال من أجل حقوق السود، كما أفادت ايرا كيبنيز مؤرخة الحزب.

كانت الطبقة المتوسطة هى العنصر السائد فى الحزب الاشتراكى الأمر الذى جعل من عدم التدخل فى شئون النقابات ، الاختيار الأسهل.ففى مؤتمر الحزب لعام ١٩١٢، كانت أكبر المجموعات بين المندوبين (١٩٣ مندوبا) مكونة من ٣٢ صحفيا، و٢١ محاضرا و٢٠ محاميا، و١٢ عمدة، و١١ موظف محترف لدى الحزب وقدمت فئات مثل أصحاب المصانع، وسماسرة الأملاك العقارية، وتجار التجزئة، والمؤلفون والوزراء والاطباء وأطباء الأسنان، ستين مندوبا آخر. كان هناك أيضا ١١ من العمال ذوى الياقات البيضاء، وعشرة فلاحين وسبع من ربات البيوت. ومعظم الباقين كان من العمال المهرة مثل النجارين والميكانيكيين وعمال الكهرباء. (٦٦)

فى عام ١٩٠٦، أعلن مرشح الحزب الاشتراكى لمنصب عمدة ميلوكى، ويليام ارنولد...« إن المصالح التجارية فى ميلووكى ستكون فى مأمن بأيدى ادارة مكونة من الاشتراكيين الديمقراطيين، أكثر مما كانت وهى بأيدى الادارتين الجمهورية والديمقراطية»، وطمأن أرنولد الناخبين الى أنه صاحب ملكية خاصة ودافع ضرائب هو نفسه ، ومن البديهى أنه لارغبة لديه فى ايذاء النشاط

نادى "ويليام وريس" وجعلني شعاره : « نحن نجاهد لنبنى العالم الرفاقى ، فى الحريه والفن والزماله » وأهتممن بتشجيع الثقافة باعتبارها مثلهن الأعلى ، مع

التجارى فى المدينة. وأكد فيكتور ل. بيرجر، الذى سبقت الاشارة لعنصريته، لرجال الصناعة فى المدينة أن الصوت الذى يقدمونه لحزبه الاشتراكي، هو صوت ضد الاضرابات، وقال أن ماوقع فى ميلووكى من اضرابات خلال الأعوام الستة أو السبعة الماضية، أقل من أى مدينة أخرى بنصف حجمها، وذلك بفضل التأثير الاشتراكى فى نقاباتها على حد قوله. «استطيع أن أقول مستندا الى خبرة فعلية أن الاشتراكيين الديمقراطيين فى المدينة عارضوا كل اضراب تقريبا جرى اعلانه هنا». (٦٧)

وفى هذه الصحراء، فإن أولئك الذين أرادوا أن ينظموا جماهير العمال المهضومة الحقوق ، من أعضاء الحزب الاشتراكى، توجهوا الى عمال العالم الصناعيون. وأدى طرد «بيل هيوود» من اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى ، ثم استقالته من الحزب ، الى خروج آلاف من الجناح اليسارى فى الحزب معه، فانخفضت عضويته من ١٥٠ ألفا قبل مؤتمر مايو ١٩١٢، الى ٧٨ ألفا فى يونيو ١٩١٣، (٦٨) وطردت آلاف كثيرة أخرى من يسار الحزب فى الاشهر التالية، وفقد الحزب كل حيويته.

لم يكن للحزب الاشتراكى اهتمام خاص بالعاملات اذ لم يكن لهن صوت فى الانتخابات، وتقول ايراكيبنير. أنه «أعطى من الاهتمام لكسب تأييد الوزراء البروتستانت أكثر بكثير مما أعطى لكسب الشباب أو النساء، (٦٩) ولقد كان يضم بالفعل أكثر من ثلاثمائة من رجال الدين فى عضويته. كذلك فإن توجهه الى اتحاد العمال الامريكى أكثر مما الى عمال العالم الصناعيون ، أقام صعوبة فى إيجاد صلة فاعلة بينه وبين العاملات اللاتى يخضن نضالا.

كانت دائرة النساء المحيطة بالحزب الاشتراكى، مكونة أساسا من زوجات أعضاء الحزب، وقد شكلن أنفسهن فى جماعات مستقلة ذاتيا متعاطفة مع الحزب (٧٠) وكانت الشخصيات الرئيسية النشطة فى جماعات النساء الاشتراكيين، من المخضرمات فى النوادى النسائية، حيث اعتدن الجلوس جنبا الى جنب مع السيدات البرجوازيات فى جماعات نقاش صغيرة. وكانت للإنسجام الشخصى داخل الجماعة، الأولوية على أى تجنيد سياسى قائم على العمل السياسى لأى منهن. كونت النساء الاشتراكيات فى سان فرانسيسكو

تركيز خاص على تنمية إدراك النساء وتقديرهن لأهمية «التعبير الكامل عن الحياة»(٧١) وبينما أبدين تعاطفا مواليا للحزب الاشتراكى ، فضلن «إثارة الوعى بفرديتهن وتعميقه فيما بينهن»(٧٢)

وكان الترتيب المتبع، هو تنظيم لقاء نصف شهرى فى بيت واحدة من العضوات، وتتوقف أنشطة كل جماعة على مايستهوى كل حى: كورس إنشاد الأطفال ، ونوادى النقاش للصبية، ومدارس الأحد الاشتراكية (حيث يتعلم الأطفال أغانى اشتراكية وممارسات اشتراكية) والمكتبات المتنقلة، وهى الأنشطة التى كانت شائعة فى معظم المناطق فى البلاد. وفى المناطق الحضرية كان النشاط يشتمل عادة على عمل سياسى وتحريض علنى. وحضرت النساء الاشتراكيات بصفه وفود أخوية مؤتمرات «تمبرانس» و«حق التصويت للنساء» «ومنظمات نوادى النساء. »(٧٣)

بصفة عامة، لم تكن عضوات تلك الجماعات منضمات للحزب الاشتراكى، رغم أن كثيرا من النشيطات كن عضوات فيه. وتحسبا لاحتمال ابتعادهن عن تأثيره، دعا الحزب الاشتراكى فى نوفمبر عام ١٩٠١ فى صحيفته الأسبوعيه «الاحتكام الى العقل» الى تنظيم النساء الاشتراكيات بصوره راديكالية، وإن جاءت صياغة الأهداف ماسخة الى حد كبير:

«مطلوب تنظيم، تنظيم يعلم مبادئ نظام صناعى أرقى من القائم حاليا ، نظام سيقوم على القاعدة الذهبية القائلة بتطابق جميع المصالح البشرية... إننا نطلب الى جميع النساء اللاتى تنبض أرواحهن بالمسئولية إزاء الحرية والواجب، الى كل أولئك اللاتى يسعين الى الولاء لله وللانسانية نطلب مشاركتهن فى هذا النضال العالمى من أجل رفعه البشرية، وأن يسجلن أنفسهن فى النقابة الاشتراكية الوطنية للنساء» (٧٤)

وفشلت محاولة فى عام ١٩٠٤ لانشاء اتحاد يجمع كل تلك الجماعات، فشرع الحزب فى إصدار صحيفة «المرأة الاشتراكية» (تغير فيما بعد إلى «المرأة التقدمية» فى عام ١٩٠٧، لتكون بؤرة تمحور لتلك الجماعات، وقد صممت بحيث تكون مجلة شعبية، مثل (صحيفة بيت السيدات) مع جرعة من الاشتراكية. وفى قمة نجاحها بلغ توزيعها ١٢ ألف نسخة. (٧٥)

وبعد عام ، فى ١٩٠٨ ،شكلت الجماعات اتحادا بالفعل فقد انشأ مؤتمر الحزب الاشتراكى لذلك العام «اللجنة الوطنية النسائية للحزب الاشتراكى» التى

انضمت اليها كل الجماعات تقريبا. وقد قام هذا المؤتمر نفسه بتدعيم التكتل بين اليمين والوسط، بعد أن تخلى الحزب عن كل تظاهر بالثورية ، وشرع فى حملة للتخلص من اليسار ، وكانت قاعة المؤتمر مزينة بصور ماركس وانجلز مكسوة بالعلم الأمريكى، (٧٦) كما عقد أول مناقشة كاملة حول مسألة المهاجرين، وكان القول الفصل فيها للعنصريين.

أقامت الحركة النسائية الاشتراكية صلتها بالنساء لا كعاملات، بل كربات بيوت، كمستهلكات، فنجد صحيفتها «المرأة التقدمية» تكتب:

«البيت، والطفل ومصروف الأسرة، وخزين الأسرة، أمور تجتذب كل امرأة من الطبقة العاملة... المرأة العادية تعرف أن جونى يجب أن يحصل على كذا زوج من الأحذية كل عام، وأن مقدار كذا من السكر يجب أن يوضع على المائدة، وأن ملابسها تقل شيئا فشيئا مع مرور الوقت وارتفاع الأسعار. فاذا ما استطعنا أن نبين لها وجه الصلة بين مسلك السناتور بنج واقتصاديات بيتها على وجه الدقة، فسوف تتنازل حينئذ وتبدى اهتماما به» (٧٧)

كانت الحركة النسائية الاشتراكية تبشر بنوع من «الاشتراكية» لاعلاقة له بالصراع الطبقى، بل بمشاعر النساء، بالحب:

«الأخوات الرفيقات، هل خطر لكن أبدا أن دور المرأة خاصة هو أن تقود العالم بالحب الى الطيبة. أحقا أهملنا حبنا وحبسناه ، فكان من اثر ذلك ومع افتقار الرجل للحكمة، أن بلغنا هذه الحال التى هى عليها الأمور الآن؟»(٧٨)

وكان النشاط السياسى الرئيسى للحركة النسائية الاشتراكية هو تنظيم حملات دعائية حول حق المرأة فى الاقتراع. وفى هذا تعاونت مع «الرابطة الوطنية الأمريكية لحق الاقتراع للنساء» (ناوسا) ، تلك المنظمة النسائية البرجوازية التى كانت فى ذلك الوقت عنصرية ومعادية للأجانب وللطبقة العاملة بصورة سافرة. وبهذا التعاون، تجاهلت الحركة النسائية الاشتراكية القرار الذى اتخذته الأممية الاشتراكية فى مؤتمر شتوتجارت عام ١٩٠٧، والذى نص على مايلى:

«إن النساء الاشتراكيات لن يخضن هذا النضال من أجل المساواة التامة أو الحق فى الاقتراع، بالتحالف مع نساء الطبقة المتوسطة المطالبات بحق الاقتراع ، بل بالاشتراك مع الأحزاب الاشتراكية، التى تصر على حق الاقتراع للنساء بوصفه واحدا من أهم الاصلاحات الأساسية لأجل التحويل الديمقراطى الكامل

للاقتراع السياسى عامة».

غير أن زعيمات الحركة النسائية الاشتراكية الأمريكية، رددن بأن حق الاقتراع ليس من القضايا الطبقية.

بعد خيانة اضراب حائكات الصدرايات فى نوفمبر ١٩٠٩، قررت العضوات البارزات فى الحركة النسائية الاشتراكية فى نيويورك الانفصال عن الحركة البرجوازية للمطالبات بحق الاقتراع. وعلى ذلك اتخذ مؤتمر النساء الاشتراكيات فى نيويورك، المنعقد فى ديسمبر ١٩٠٩، قرارا يقضى بأن «عمل النساء الاشتراكيات من أجل حق الاقتراع يجب أن يتم وفقا لخط منفصل ومستقل من خلال التنظيم الاقتصادى والسياسى للطبقة العاملة وبالاعتماد عليه»، وأعلن الانسحاب من (ناوسا). (٧٩)

أقرت هذه الخطوة فروع عديدة للحركة الاشتراكية النسائية على امتداد البلاد، ولكن فروعا أخرى كثيرة رفضتها أيضا. وفي المؤتمر العام للحزب الاشتراكى المنعقد فى مايو ١٩١٠، اتخذت القيادات، غير الراغبة فى استعداء اى من المجموعتين- قرارا مبهما يتيح لكل فرع من الحزب ومن الحركة النسائية تحديد مايراه من تكتيكات فيما يخص التعاون مع (ناوسا)، فواصلت فروع كثيرة انتماءها لناوسا.

الخلاصة

رأينا كيف انزلقت المطالبات البرجوازيات بحق الاقتراع، اللاتى انطلقن الى النشاط من خلال الحركة المطالبة بإلغاء العبودية، الى الرجعية والعنصرية والعداء للأجانب وكراهية سكان الأحياء الفقيرة، فى أعقاب الاستقطاب الطبقى الحاد فى المجتمع الأمريكى خلال بضعة العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ورأينا كيف أن نساء الطبقة العاملة، اللاتى لم يكن بد من أن يشعرن بأنهن غريبات فى هذه الحركة، واجهن المصاعب أيضا فى الاندماج فى المنظمات

الصناعية والسياسية للطبقة العاملة. فقد عجزت الطبقة العاملة الأمريكية عن بناء منظمات نقابية مستقرة تحتوى العمال غير المهرة، من النساء والسود ومواليد الخارج. وتعثر كل من فرسان العمل وعمال العالم الصناعيون ثم هلكا- بعد أن صنع الأخيرون المحاولة الأكثر بطولية فى تاريخ الطبقة العاملة الأمريكية، وماكتب له البقاء، كان كاريكاتيرا فاسدا للحركة النقابية، اتحاد العمل الأمريكى.

وكان لهذا الوضع فى النشاط النقابى أبلغ الأثر على النشاط السياسى للطبقة العاملة، فقد عبرت عمال العالم الصناعيون على وجه الاجمال عن مطالب قسم ثورى وكفاحى من الجماهير العمالية، ولكن موقفها المعادى للسياسة، وسوء الظن بكل مايتعلق «بالسياسة» و«الأحزاب»، كرد فعل لانتهازية الحزب الاشتراكى، كان موقفا يعبر عن ضيق أفقها. أما الحزب الاشتراكى، فبابتعاده، عن عمال العالم الصناعيون وتوجهه لاتحاد العمل الأمريكى، بقى على حاله، حزبا للعمال المهرة والشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، وكانت النتيجة تثبيط النضال ضد العنصرية، واستبعاد العاملات من النقابات.

واجهت النساء ،سواء العضوات فى الحزب الاشتراكى أو النصيرات من حوله، وهن أساسا من زوجات العمال المهرة والشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، الخيارين الحركة النسائية البرجوازية بقيادة اليزابيث كيدى ستانتوت وسوزان ب أنطونى فى الرابطة الوطنية الأمريكية لحق الاقتراع للنساء من جهه، والموقف العمالى النضالى الذى تبنته الأم جونز واليزابيث جيرلى فلين فى عمال العالم الصناعيون من جهة أخرى. وكان الانحياز للحركة الأخيرة فوق طاقة نساء الحزب الاشتراكى ، فتحتم أن يقعن تحت تأثير الأولى، حيث كون خليطا من الأفكار المشوشة. وبسبب العجز عن صياغة الوحدة الطبقية بين جميع العمال- رجال ونساء، سود وبيض، مهرة وغير مهرة- انجرت الحركة النسائية الى وحدة «الجنس» ، وحدة السيدات وخادماتهن.

هوامش الفصل الرابع

١- ى. فلكسنر، «قرن من النضال: حركة المطالبة بحقوق المرأة فى الولايات المتحدة» (كامبردج ماسا تشوستس ١٩٧٦) ص٤١.

٢- إقتباس لفلكسنر، ص٧٥

٣- فلكسنر، ص٧٧

٤- فلكسنر، ص١٤٧.

٥- أ. كراديتور « أفكار حركة المطالبة بحق الاقتراع للنساء ١٨٩٠-١٩٢٠»، (نيويورك ولندن ١٩٦٥) ص٨٤-٨٥.

٦- كراديتور، ص١٦٥.

٧- كراديتور ص١٣٧.

٨- كراديتور ص٧

٩- ب.س.فونر، «تاريخ الحركة العمالية فى الولايات المتحدة» (نيويورك ١٩٥٥)المجلد (١)، ص٢٠٧-٢٠٩.

١٠- فونر، المجلد (١)، ص٤٣١

١١- هناك حدث يلقى الضوء على موقف قيادات الحركة النسائية من الحركة النقابية، ففى يناير عام ١٨٦٩ أعلنت النقابة الوطنية لعمال الطباعة (ثانى نقابة تسمح بانضمام النساء لعضويتها) الاضراب فى قسمى طباعة الكتب والمتفرقات (الاعلانات، والبطاقات الخ) من أجل رفع الأجور فيهما الى المستوى المعمول به فى النقابة. وتعاونت عاملات الطباعة مع عمال النقابة، كما انضمت كثيرات منهن للنقابة أثناء الاضراب. ورأت سوزان ب. أنطونى فى الاضراب مناسبة لتحسين فرص النساء فى العمل... بأن يتطوعن بكسر الاضراب. وذهبت لاجتماع لاتحاد أصحاب العمل لتقترح عليهم أن ينظموا مدرسة خاصة لتدريب النساء على الطباعة على الآلة الكاتبة، وقد تبنوا اقتراحها بحماس. وانتلم منها المؤتمر الوطنى للعمال بطردها من أوساطه (ى.س.دى بوا «الحركة النسوية وحق الاقتراع :ظهور حركة نسائية مستقلة فى أمريكا ١٨٤٨-١٨٦٩» (ايثاكا ١٩٨٠) ص١٥٣ -١٦٠).

١٢- فونر، المجلد (١) ص٤٤٠
١٣- فونر، المجلد (١) ص٥٠٧
١٤- فونر، المجلد (٢) ص٥٦
١٥- فونر، المجلد (٢) ص٥٨
١٦- فونر، المجلد (٢) ص٥٠٩
١٧- فونر، المجلد (٢) ص٦٦
١٨- فونر، المجلد (٢) ص٦٧و٧١
١٩- فونر، المجلد (٢) ص٧٠
٢٠- فونر، المجلد (٢) ص٦٢-٦٣
٢١- فونر، المجلد (٢) ص٦١
٢٢- فونر، المجلد (٢) ص٦٦
٢٣- فونر، المجلد (٢) ص٨٣
٢٤- فونر، المجلد (٢) ص١٥٧، ١٦٦، ١٦٨.
٢٥- فونر، المجلد (٢) ص٢٧٧
٢٦- فونر، المجلد (٢) ص٣٥٩-٣٦٠
٢٧- فونر، المجلد (٢) ص٣٦٤-٣٦٥
٢٨- فونر، المجلد (٢) ص١٩٠
٢٩- فونر، المجلد (٣) ص٢٠٢
٣٠- فونر، المجلد (٣) ص١٣٩-٤٦
٣١- فونر، المجلد (٣) ص٣٦
٣٢- ي. كيبنيس «الحركة الاشتراكية الأمريكية: ١٨٩٧-١٩١٢» (نيويورك ١٩٧٢). ص ٣٢٠-٣٢١
٣٣- كيبنيس، ص٤١٥
٣٤- فونر، المجلد (٤) ص١١٥-١١٧
٣٥-- فونر، المجلد (٤) ص١٤٩
٣٦-- فونر، المجلد (٤) ص١٢٦-١٢٧
٣٧- م. تاكس «نهوض النساء» (نيويورك ١٩٨٠)ص١٢٧
٣٨-ب.س.فونر «النساء والحركة العمالية الأمريكية» (نيويورك ١٩٧٩)، ص٤٢١.

٣٩- اقتباس لتاكس، ص١٨٠-١٨٢

٤٠- فونر «النساء والحركة العمالية الأمريكية» ص٤٠٥

٤١- اقتباس لتاكس ، ص٢٥٥-٢٥٦

٤٢- اقتباس لتاكس، ص١٥٥

٤٣- اقتباس لتاكس، ص١٤١

٤٤- ى.جيرلى فلين، «الثائرة المتمردة: سيرة ذاتية»، (نيويورك ١٩٧٦)، ص٨٨-٨٩

٤٥- اقتباس لرينشو «ذاووبليز» (لندن ١٩٦٧) ص٦٥

٤٦- فونر، «النساء والحركة العمالية الأمريكية» ص٢٨١

٤٧- «السيرة الذاتية للأم جونز»، أعدها للنشر م.ب. بارتون، (شيكاجو ١٩٧٦).

٤٨- فونر«النساء والحركة العمالية الأمريكية»، ص٣٨٢

٤٩- «السيرة الذاتية للأم جونز ص٢٠٢-٢٠٣

٥٠- فونر، تاريخ الحركة العمالية فى الولايات المتحدة، المجلد (٤) ص٣٢٠

٥١- فونر، المجلد (٤) ص٣٢٣

٥٢- فونر، المجلد (٤) ص٣٢١-٣٢٢

٥٣- فونر، المجلد (٤) ص٣٤٨-٣٤٩.

٥٤- جيرلى فلين، ص١٥٠،

٥٥- فونر، المجلد (٤٤)، ص٤٦٢.

٥٦- تاكس، ص١٢

٥٧- تاكس، ص٩٩

٥٨- ج.بون «الروابط النقابية النسائية فى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية» (نيويورك ١٩٤٢) ص١٦٦-١٦٨

٥٩- فونر، المجلد (٤)، ص١٢٨.

٦٠- تاكس، ص٢٢٩-٢٣٠

٦١- و.ل. أونيل «كان الجميع شجعانا»، (شيكاجو ١٩٦٩)، ص٢٢٠

٦٢- بون، ص٢٤٢

٦٣- فونر، المجلد (٣).

٦٤- اقتباس لفونر، المجلد (٣) ،ص٣٨١

٦٥- ب.س.فونر «الاشتراكية الأمريكية والسود الأمريكيون»، (وستبورت كونكتيكت ١٩٧٧) ص٢٢٢و٢٢٥-٢٢٦

٦٦- كيبنيس ،ص٢٦٦

٧٠- لدى روايتي لقصة النساء في الحزب الاشتراكي الأمريكي، نقلت كثيراً عن م.ج. بوهل «الحركة النسوية والاشتراكية في الولايات المتحدة ١٨٢٠-١٩٢٠»، (أطروحة رسالة دكتوراة، بجامعة واشنطن ١٩٧٤).

٧١- بوهل،ص ١٣٢.١٣٣

٧٢ - بوهل.ص١١٤.

٧٣- بوهل، ص١١٦-١١٧.

٧٤- بوهل، ص ١١٩-١٢٠

٧٥- تاكس، ص١٨٧.١٨٨،

٧٦- كيبنيس، ص ٢١١و٢١٥.

٧٧- اقتباس عند بوهل، ص٢٠٢

٧٨- اقتباس عند بوهل، ص ٢٥٠-٢٥١.

٧٩- بوهل، ص٢٥٩-٢٦١.

٨٠- بوهل ،ص.٢٧٠-٢٧٢

الفصل الخامس

الحركة النسائية الاشتراكية فى ألمانيا

بعد هزيمة كوميونة باريس، انتقل مركز ثقل الحركة العمالية الدولية إلى ألمانيا، وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى (SPP) هو القوة الاشتراكية الرئيسية على المستوى الدولى، وسيطر على كل وجه من وجوه الحركة العمالية داخل ألمانيا. وعلى غير الحال فى بريطانيا، حيث كان على الحزب الاشتراكى أن ينتظر حتى تؤسسه النقابات، فى ألمانيا سبق الحزب الاشتراكى الديمقراطى النقابات إلى الوجود ولعب دوراً محورياً فى بنائها.

بقى الحزب الاشتراكى الديمقراطى إثنى عشر عاماً يعمل بصورة غير شرعية

فى ظل قانون مكافحة الإشتراكية، وحتى حين ألغى هذا القانون فى عام ١٨٩٠، كان الحزب مضطراً للعمل فى ظل قيود ثقيلة، ومع ذلك كان قد أصبح أكبر حزب اشتراكى فى العالم، ووقف موقف المعارضة العنيفة للنظام الإقتصادى والاجتماعى والسياسى القائم. فى عام ١٩١٤ كان لدية مايزيد على مليون عضو، وحصل على أكثر من أربعة ملايين ونصف صوت فى الأنتخابات البرلمانية، وكان يصدر تسعين صحيفة يومية، ويدير نقابات وتعاونيات ضخمة، ونوادى رياضية ونوادى غناء، ومنظمة شباب، ومنظمة نسائية وكان لدية مئات من الموظفين المحترفين يعملون لحسابه.

قبل أن نتناول تنظيم الحزب الاشتراكى الديمقراطى للنساء، يجب أن نقف عند الطبيعة العامة «لماركسية» الحزب.

لم تكن الدولة الألمانية ديمقراطية برجوازية تقليدية، فقد فشلت الطبقة المتوسطة الألمانية فشلاً مزرياً فى إنجاز ثورتها ذاتها فى عام ١٨٤٨، وأذعنت للملكية البروسية. ونتيجة لذلك، استمرت الارستقراطية البروسية من ملاك الأرض- اليونكرز- تحكم بنفس هيكل الدولة الملكية العتيق، وإن كان قد أخذ يخدم الحاجات الإقتصادية للبرجوازية على نحو متزايد. وفى مواجهة القيود القانونية فى بروسيا وغيرها من الولايات الألمانية، مع عجز الرايخستاغ (البرلمان)، وجد الحزب الاشتراكى الديمقراطى نفسه، بغير إرادة منه، فى وضع المعارضة المتصلبة.

فى الوقت نفسه أدى نمو الرأسمالية الألمانية بطريق مطول، والارتفاع المتصل فى مستوى معيشة العمال على امتداد مايزيد على نصف قرن، مترافقين مع انخفاض مستوى النضال العمالى، أدى بالحزب إلى سلبية مخدره. كان الحزب مثل «دولة داخل الدولة»، يدار ببيروقراطية من قبل النقابة ومسؤلى الحزب وهيئته التنفيذية.(١)وتكاد مؤسسات الحزب تطوق حياة العمال من الميلاد إلى الممات- بأستثناء الوقت الذى يعملونه لحساب أصحاب العمل- كلية تقريباً، فكان بوسع عضو الحزب أن يأكل طعاماً اشتراه من تعاونية اشتراكية ديمقراطية ويقرأ صحفاً ومجلات اشتراكية ديمقراطية ولاشىء غيرها، ويقضى أوقات فراغة فى نوادى الرياضة أو نوادى الدراجات الاشتراكية الديمقراطية، ويغنى فى فرقة اشتراكية ديمقراطية، ويشرب فى حانة اشتراكية ديمقراطية، ويدفن بمعونة جمعية دفن اشتراكية ديمقراطية.

لقد جمع الحزب الاشتراكى الديمقراطى بين ماركسية ثورية شكلاً وإصلاحية فعلاً ووجد هذا المركب تعبيراً واضحاً عنه فى برنامج الحزب، برنامج إيرفورت، الذى خط معظمة قلم كارل كاوتسكى «بابا الماركسية». كان البرنامج مقسماً إلى جزئين بينهما انفصال كامل، برنامج الحد الأدنى الذى يتناول الإصلاحات فى الواقع اليومى، وبرنامج الحد الأقصى الذى كان مفيداً فى خطب أول مايو، ولقد صمد هذا المركّب لفترة طويلة، ويفسر ذلك كارل شورسكة، أفضل المؤرخين للحزب الاشتراكى الديمقراطى، على النحو التالى:

«طالما أبقت الدولة الألمانية الطبقة العاملة فى وضع الطبقة الدنيا*، وطالما لم تجد الطبقة العاملة- وهى مستطيعة الحصول على نصيب من نعم الرأسمالية الآخذه في التوسع بنشاط وحيوية- مايدفعها إلى الثورة، أمكن لمركب إيرفورت أن يستمر.»(٢)

وكان الفصل بين الإقتصاد والسياسة، بين برنامج الحد الأدنى وبرنامج الحد الأقصى، وبين النظرية والممارسة، سبباً فى المزيد من ضمور الحزب الاشتراكى الديمقراطى.

أصبحت النضالات الإقتصادية ملكية مطلقة للنقابات، واختزلت السياسة إلى وضع علامة (×) فى ورقة الإقتراع، والتواؤم مع الدولة الرأسمالية.

اتخذ مركّب المحتوى الإصلاحى والشكل «الثورى» أوضح صوره فى المناقشات التى دارت فى الحركة العمالية الألمانية عقب هزيمة ثورة ١٩٠٥ الروسية. فخلال موجة الحماس التى ولدتها الثورة، أقر مؤتمر الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى المنعقد فى جينا عام ١٩٠٥، العمل بتكتيك استخدام الإضراب العام كخطوة أولى نحو الثورة الاشتراكية، ولكن سرعان ماجرى إسقاطة بعد عام واحد فقط فى مؤتمر الحزب المنعقد فى مانهايم، بناء على إصرار عدوانى من زعماء النقابات بالغى النفوذ، وكان قادة الحزب، وفى مقدمتهم بيبل وكاوتسكى، يسلمون **باستقلال** النقابات عن الحزب، وبأنها يجب أن تبقى كذلك دائماً.

---

* فى النص PARIAH وهى طبقة «المنبوذين» فى نظام الإقطاع الهندى التى تقع فى أدنى درجاته ويقتصر عملها على أحط الأعمال، ولايحق لها الزواج أو الأختلاط بالفئات الأخرى المترجمة.

* المقارنة هنا مع المنصب الدينى المسيحى الأعلى. المترجمة

اضمحلت «ماركسية» الحزب الاشتراكى الديمقراطى، احتفظت بشكل أفكار ماركس الثورية ولكنها فقدت روحها، أساساً لأنها قطعت الصلة التى تربط بين النضال من أجل الإصلاحات الإقتصادية داخل الرأسمالية، والنضال الثورى ضدالرأسمالية.

الوحيدون الذين ناضلوا ضد هذا الانقسام، وعارضوا باستمرار ماركسية كارتسكى من وجهة نظر ثورية، هم المجموعة الصغيرة التى كانت حول روزا لكسمبورج داخل الحزب الاشتراكى الديمقراطى، ولكن حتى زور الكسمبورج ورفاقها لم يتصرفوا كتنظيم مستقل، بل كتيار داخل الحزب، ومن ثم لم يتدخلوا بصورة مستقلة فى نضالات العمال اليومية.

تنظيم النساء فى نقابات

هناك إنجازات إيجابية فى مجال تنظيم النساء، تحسب للحزب الاشتراكى الديمقراطى، وأولها تنظيم النساء فى نقابات.

فى عام ١٨٩٢ كان إجمالى عدد النساء المنظمات فى «النقابات الحرة» التابعة للحزب الاشتراكى الديمقراطى ٤٫٣٥٥ فقط، أى مايعادل ١٫٨ فى المائة فقط من مجموع أعضاء النقابات، وأقل كثيراً من نسبة النساء فى قوة العمل، التى بلغت ٣٤٫٩ فى المائة فى إحصاء عام ١٨٩٥.(٣)

وفى ذلك العام وجة مؤتمر النقابات الحرة فى هالبرشتات النقابات الحرفية إلى تحويل نفسها إلى منظمات «حرفية مختلطة» تسمح بانضمام العاملات غير الماهرات للنقابات التى تضم العمال المهرة. كان من المحظور قانوناً فى السابق أن تنظم نقابة عمالاً من كلا الجنسين، ولكن حتى حين أصبح هذا قانونياً بقيت قيود أخرى على تنظيم النساء، فقد كان ممنوعاً على النساء فى معظم الولايات الألمانية- بروسيا وبافاريا وساكسونى وغيرها- الاشتراك فى أية اتحادات تتعامل مع قضايا سياسية، الأمر الذى كان يعطى تفسيراً مطاطاً، وعلى سبيل المثال:

وفى عام ١٨٨٦ حلت الشرطة اتحادا نسائياً له نشاط نقابى، لأنه ناقش قراراً من الدولة يحدد يوم العمل العادى، ومشروع قانون حول حماية العمال مقدم إلى الرايخستاغ، واقتراحاً بأن تشرف الدولة على مبانى المصانع، كما حل اتحاد نسائى آخر لأنه قدم عريضة للسلطات المحلية فى المدينة، يطالب فيها بتعيين النساء فى مناصب قضائية استشارية فى المحاكم الصناعية.»(٤)

بعد عام ١٨٩٠ أدمج جناحاً الحركة الاشتراكية السياسى والنقابى فى بناهما اللجان التى تعالج القضايا النسائية، وكانت جميع اللجان على اتصال وثيق فيما بينها، وكثيراً ما كانت العضوية مشتركة فيها، وجاءت النتائج مبهرة، فقد زاد إجمالى العضوية فى النقابات من ٢٣٧٠٩٤ عضواً فى ١٨٩٢ إلى دروته فى عام ١٩١٣ حيث بلغ ٢٥٧٣٧١٨، إلا أن العضوية النسائية ازدادت بسرعة أكبر نسبياً فى نفس الفترة، من ٤٣٥٥ إلى ٢٣٠٣٤٧، أى من ١.٨ فى المائة إلى ٨.٩ فى المائة من عضوية النقابات.

وقد تبين أن تنظيم النساء فى نقابات كان أقل نجاحاً بكثير فى الوظائف النسائية التقليدية، منه فى الصناعات التى تعمل النساء فيها بجانب الرجال. فنجد ٤٤ فى المائة ممن يعملن فى الهندسة عام ١٩٤١ عضوات فى النقابة، بينما لم ينضم لنقابة الخياطين أكثر من ١٪ من النساء العاملات فى هذه المهنة.(٦)

تكاد الحركة النسائية الإشتراكية فى ألمانيا أن تترادف مع إسم شخصية واحدة هى كلارازتكين (١٨٥٧-١٩٣٣)، التى لعبت أيضاً دوراً حيوياً فى تنظيم النساء فى النقابات وكانت هى نفسها عضواً فى نقابة مغلفى الكتب فى شتوتجارب طوال خمس وعشرين سنة، وقامت بدور نشط فى نقابة الخياطين والخياطات التى حضرت كثيراً من مؤتمراتها، كما كانت أحد الممثلين عن النقابة الألمانية للخياطين والخياطات فى مؤتمرهم الدولى الثانى المنعقد فى لندن عام ١٨٩٦، وانتخبت سكرتيراً مؤقتاً للنقابة فى المستوى الدولى.

وهناك شخصيات نسائية اشتراكية أخرى بارزة، لعبت دوراً مهماً فى تنظيم النساء فى نقابات، منهن لويز كايتز (١٨٦٥-١٩١٦)، التى كانت لسنوات طويلة عضواً فى نقابة عمال المصانع غير المهرة وكثيراً ما انتخبت سكرتيراً لمؤتمرات النقابة وأوتيلى بادر (١٨٤٧-١٩٢٥) التى كانت شخصية قيادية فى كل من الحركة النسائية الإشتراكية ونقابة الخياطين والخياطات. وشاركت

عضوات الحركة النسائية الإشتراكية فى «الكارتلات»- وهو شكل من المجالس المهنية وإن يكن أكثر نفوذاً *،واعتباراً من عام ١٩٠٥ عينت الكارتلات بنفسها المنظمات من النساء التابعات لها فى المدن مثل هامبورج ونورمبرج، وكانت تسيطر عادة على صناديق الإضراب، ومن ثم تؤثر على السياسات الإضرابية. (٧)

كانت الحاجة للوحدة النقابية بين النساء والرجال محورية فى فكر كلارازتكين ونشاطها فبينما ضمت النقابات فى روسيا الرجال والنساء معاً منذ البداية، احتاج الأمر فى ألمانيا جيلاً قبل أن تفتح النقابات التى يسودها الذكور أبوابها للنساء. (فى بريطانيا استغرق هذا ثلاثة أجيال وفى مثال جمعية المهندسين المتحدين المؤسسة فى عام ١٨٥٢، لم يسمح للنساء بالانضمام حتى عام ١٩٤٣، أى بعد واحد وتسعين عاماً، وفقط فى أدنى أقسامها)

ولم يحدث أبداً أن رغبت العاملات فى إنشاء نقابة مستقلة، فالجماعة الضعيفة فى الطبقة العاملة ليست ميالة للإنقسام، وحين كان هذا يحدث بالفعل، فقد كان ذلك تحت وطأة ضغط خارجى، إما من قانون رأسمالى يفرض الفصل، أو بسبب من تأثير الحركة النسائية البرجوازية الليبرالية مثل الروابط النقابية النسآئية فى بريطانيا والولايات المتحدة، أو بسبب من النقابية الضيقة والبيروقراطية فى نقابات الرجال وقد كانت جميع النقابات المقصورة على النساء ضعيفة وغير مستقرة، وعند أول فرصة تنحل لتندمج فى نقابات الرجال.

وفيما يتعلق بإدخال النساء الحزب الاشتراكى الديمقراطى ذاته، واجهت كلارازتكين وأصدقاؤها عقبة قانونية ضخمة، فحتى عام ١٩٠٨ كان القانون فى معظم أنحاء ألمانيا يحظر على النساء الانضمام لأى حزب سياسى، واضطر الحزب لاستخدام وسائل متنوعة للتحايل على هذا القانون. ففى عام ١٨٨٩ أنشئت «لجنة تحريض» مكونة من عدة نساء فى برلين لتكون مركزاً للنشاط النقابى ونشاط الحزب، ثم تبعتها مدن أخرى، وحل بعضها محل منظمات العاملات التى أغلقتها الشرطة. كانت اللجنة تنظم محاضرات واجتماعات وأنشطة أخرى، وتقيم صلة منتظمة بمنظمات الحزب، وكانت جميع لجان

---

*المتحدثون بالنهاية أو SPOKESPERSONS هم فى الأصل أشخاص موثوقون لدى العمال، يختارونهم للوساطة بينهم وبين الإدارة، وقد يكونوا من اللجنة النقابية فى المصنع أو من خارجها. المترجمة.

التحريض مستقلة عن بعضها البعض بحيث لاتخرق القانون، ولكن هذا لم يمنع الدولة من اتخاذ إجراءات ضدها، وفى عام ١٨٩٥ حظرتها جميعاً.*

وفى عام ١٨٩٤ قرر مؤتمر الحزب العمل بنظام المتحدثات بالنيابة، الذى بموجبة توضع مسئولية الدعاية بين يدى شخص واحد، ومن ثم لايسرى عليه قانون الاتحادات السياسية، وبذلك تستطيع الواحدة من هؤلاء اتخاذ أى مبادرة سياسية بصفتها الشخصية، وقد ارتفع عددهن من ٢٥ متحدثة عام ١٩٠١ إلى ٤٠٧ فى عام ١٩٠٧.(٨)

فى نوفمبر ١٨٩٥ تم تعيين متحدثه بالنيابة لتكون بمثابة حلقة وصل بين العاملات المنظمات فى جميع أنحاء ألمانيا، وفى الوقت نفسه انتخبت كلارازتكين عضواً فى اللجنة التنفذية العليا للحزب الاشتراكى الديمقراطى.

كذلك وجدت النساء سبلاً أخرى للتحايل على القانون، مثل تكوين نوادى انتخابية أثناء الفترة المخصصة للحملات الانتخابية، الأمر الذى أتاحته ثغرة فى القانون البروسى. وقدروت لويزكايتز كيف ناورت قانون «تورينجيا» الذى يحظر على النساء أن يخطبن فى الاجتماعات العامة: «منعت من الكلام، فشرع زميل يتكلم لمدة عشر دقائق، ثم دخلت فى المناقشة من تحت المنصة، فتحدثت لمدة ساعة ونصف».(٩)

وحين ألغى قانون المنظمات فى عام ١٩٠٨ لم تعد هناك حاجة للمتحدثات بالنيابة.

لسنوات طويلة لعبت النساء الاشتراكيات دوراً كبيراً فى تجنيد النساء للنقابات، والآن جاء تزايد العضوية النسائية فى النقابات ليدعم عملية كسب عضوات للحزب الاشتراكى الديمقراطى، وقد صنع القانون فارقا زمنيا بينهما، ولكن العضوية النسائية فى الحزب تداركته بسرعة ففى عام ١٩٠٦ كان عدد النساء فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ٦,٤٦٠ عضوة فقط، بينما كان عددهن فى النقابات الحرة ١١٨.٩٠٨، وبتعبير آخر كان أقل من واحد فى المائة من النقابات منضماً للحزب أيضاً، ولكن بمجىء عام ١٩٠٧ ارتفعت هذه النسبة إلى ٨ فى المائة، وإلى ٢١.٣ فى ١٩٠٨ وإلى ٤٦.٥ فى المائة فى ١٩٠٩، وإلى ٥١.٢ فى ١٩١٠، وإلى ٥٦.٣ فى ١٩١١، وإلى ٥٨.٥ فى ١٩١٢، وإلى ٦١.٣ فى ١٩١٣، وفى عام ١٩١٤ كانت النسبة قد بلغت ٨٣ فى المائة.(١٠)

ووفرت الإجتماعات الجماهيرية الكبيرة الفرصة لتجنيد النساء فى الحزب، فكذلك انضمت ست وعشرون امرأة للحزب فى اجتماع جماهيرى عقد فى هامبورج فى ٦ نوفمبر ١٩٠٥، وكان مجموع الحاضرين ٢٨٠ شخصاً وفى عام ١٩٠٧ كانت الأرقام فى ثلاث اجتماعات جماهيرية كبيرة كما يلى: فى، فبراير الحاضرون ٧٠٠ والمنضمون ٤٥، فى ١٨ مارس الحاضرون ١١٠ والمنضمون ١٣، فى ٧ سبتمبر الحاضرون ١٢٠٠ والمنضمون ٥٠، وفى ١١ فبراير من العام التالى ١٩٠٨ ضم الحزب ٣٩ من أصل خمسمائة من الحاضرين.

موقف كلارزتكين من الحركة النسوية* البرجوازية

كانت زتكين ترى أن العمل على تجنيد النساء فى الحركة الاشتراكية، يقتضى معارضة الحركة النسوية البرجوازية، وقد قالت فى كلمة ألقتها فى مؤتمر جوته للحزب الاشتراكى الديمقراطى عام ١٨٩٦ (ونشرت فيما بعد فى كراس تحت عنوان «بالمرأة البروليتاريا فقط ستنتصر الاشتراكية»

«لاوجود لشىء يمكن وصفة «بالحركة النسائية» قائم بذاته.. [أ]توجد الحركة النسائية فقط فى سياق التطور التاريخى.. من ثم ليس هناك سوى حركة نسائية برجوازية وأخرى عمالية، وليس بين هاتين من جامع أكثر مما هنالك بين الاشتراكية الديمقراطية والمجتمع البرجوازى»

وقالت فى موضع آخر من كلمتها: «لقد حققت المرأة فى الطبقة العاملة استقلالها الإقتصادى، إلا أنها لاتملك الإمكانية لأن تحيا حياة ممتلئة كفرد، ولاكشخص ولاكامرأة ولاكزوجة.. ومقابل عملها كزوجة وأم لاتحصل إلا على الفتات المتساقط من مائدة الإنتاج الرأسمالى.

*الحركة النسوية ترجمة لكلمة (Femenism) تمييزاً لها عن الحركة النسائية (WOMEN,S MOVEMENT)، باعتبار أن الأولى اتجاه فى الحركة ازداد تطرفاً مع الوقت، وتحول إلى رؤيا للعالم والتاريخ تقوم على فكرة الصراع بين الجنسين كمحور لهما، وتجعل الرجل، كل رجل، العدو الأول للنساء بوصفهن جنساً. وتضع فى الصدارة هوية المرأة الجنسية، متقدمة على كل هوية أخرى، بما فى ذلك الإجتماعية. ولايوجد فى اللغة العربية فارق جوهرى بين الكلمتين، غير أن الفارق بينهما نشأ فى المجتمع الأوروبى عن وقائع تاريخية إجتماعية لم تشهد المجتمعات العربية مثيلا لها، لذلك لامفر من القبول بالتمييز اللغوى الأقرب للإعتباط هنا. المترجمة

«ويترتب على ذلك أن النضال من أجل تحرير المرأة فى صفوف الطبقة العاملة، لايمكن أن يكون نضالاً ضد الرجال من نفس طبقتها- كما هو الحال لدى المرأة البرجوازية.. إن الهدف النهائى لنضالها، ليس هو المنافسة الحرة مع الرجال، بل الإتيان بالحكم السياسى للطبقة العاملة.

«إن المرأة العمالية تناضل يداً بيد مع رجال طبقتها ضد المجتمع الرأسمالى».(١٢)

ركزت الحركة النسوية البرجوازية على مطلب حق الإقتراع (المقيد بشروط)، ولكن حتى لو منحت النساء المساواة السياسية، فلن يتغير شىء فى موازين القوى الواقعية، فسوف يستمر استغلال نساء الطبقة العاملة ببساطة «على قدم المساواة» مع رجالها، بينما ستكون للبرجوازيات امتيازات «متساوية» مع الرجال.

ودافعت زتكين عن وجهة النظر القائلة بأن نساء الطبقة العاملة لايجب أن يحصرن أنفسهن، كما فعلت البرجوازيات- فى المطالبة بحق الإقتراع، وإنما يجب أن يناضلن من أجل الحق فى العمل، ومساواة الأجر، والإجازة المدفوعة الأجر لرعاية الأطفال الرضع، والتسهيلات المجانية فى العناية بالأطفال، وتعليم النساء، وسخرت مراراً من يافطة «النسويات»، مستخدمة لفظاً ألمانيا يعنى بترجمة انجليزية غير مصقولة «المدافعات عن حقوق النساء- اليمينيات»*(١٣) وأنهت كلمتها بما يلى:

«إن النشاط النسائى صعب، فهو يتطلب عملاً كثيراً وتفانياً كبيرا وتضحيات ضخمة، ولكنها تضحيات ستثمر، ولابد منها. لأنه، تماما كما أن الطبقة العاملة لاتستطيع بلوغ انعتاقها الا إذا ناضل كل أبنائها معا دون تمييز من القومية أو الحرفة، كذلك فإنها لاتستطيع أن تبلغة مالم يتماسكوا معا دون تمييز من الجنس»(١٤)

لكى نفهم تطور الحركة النسائية العمالية الاشتراكية الألمانية بقيادة زتكين، يجب أن نفهم أولا خصمها، أى الحركة النسوية البرجوازية. كانت الحركة النسائية غير الاشتراكية في ألمانيا تشتمل على مجموعة واسعة من التلاوين، بدءا من اليمين المتطرف وحتى اليسار الراديكالى المتقارب مع يمين الحزب الاشتراكى الديمقراطى.

---

*تحمل الترجمة الانجليزية اللعب على المعنيين «حق» و«يمين» اللذان تراد فهما كليهما كلمة «right»

ولنلق نظرة على النسويات الراديكاليات فى الحركة النسائية، وهن القطاع الأقرب للحزب الاشتراكى الديمقراطى. فى عام ١٩٠٤ تأسست «رابطة حماية الأمومة والاصلاحات الجنسية»- التى عرفت أيضا باسم «المناديات بأخلاقيات جديدة»، بقيادة هيلين شتوكر، وقد سعت هذه المنظمة الى المساواة القانونية بين كل من الزوج والزوجة والأطفال ، وتسهيل إجراءات الطلاق والاعتراف القانونى «بالزيجات الحرة»، بحيث يتوقف تدخل الشرطة فيها، ويحصل الأطفال الذين أثمرتهم هذه العلاقات الغرامية على نفس الحقوق القانونية التى للأطفال من زيجات قانونية (١٥) ونظمت حملات من أجل نشر موانع الحمل وكذلك من أجل إلغاء قانون الاجهاض الذى يقضى بسجن المرأة مايتراوح بين ستة أشهر وخمس سنوات اذا أجهضت حملها، حتى لو كان ناجما عن اغتصاب، وقد اكتسبت الرابطة أكبر تأثير لها فى الحركة النسائية بنشاطها حول هذا الموضوع بالذات ويقيم إيفانز فى كتابة «الحركة النسوية فى ألمانيا من ١٨٩٤ الى ١٩٤٤» مكانه «المناديات بأخلاقيات جديدة» كما يلى:

«لقد قامت كل من فيكتوريا وودهل وآنى بسانت ومارجريت سانجر ومارى ستوبس بنشاط دعائى من أجل نفس الأهداف، ولكن الشيئ الفريد هو واقع أن برنامج «شتوكر» تمتع بتأييد عريض فى صفوف الحركة النسوية الراديكالية، فقد كانت المدافعات عن الحب الحر ومنع الحمل يتعرضن للنبذ عموما من جانب الحركة النسائية فى إنجلترا وأمريكا، حتى لقد عاملتا جوزفين بتلر معاملة تتسم بعدم الثقة والطعن الأخلاقى، وعلى العكس من ذلك كانت هيلين شتوكر والحركة التى قادتها جزءا من الحركة النسوية فى ألمانيا» (١٦)

كذلك انخرطت النسويات الراديكاليات فى النشاط النقابى، ونافسن عضوات الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى هذا المجال. ففى عام ١٨٨٩ قمن بتأسيس اتحاد للعاملات البائعات، ارتفعت عضويته خلال السنوات العشر التالية لتبلغ أحد عشر ألفا، بينما لم تتجاوز منظمة عمال البيع فى النقابات الحرة، وحتى فترة متقدمة فى عام ١٩٠٨، ٣٫٨٠٧ عضوا و٤٫٩٩٧ عضوة. كما قامت النسويات الراديكاليات بتنظيم خادمات المنازل (١٧) وأصدرن صحيفة تحمل اسم «صحيفة النساء العاملات الألمانيات».

كانت القاعدة الاجتماعية لهذا التيار فى الحركة النسائية برجوازية صغيرة، من المعلمات والعاملات ذوات الياقات البيضاء اللاتى كان يفصلهن حينئذ عن

المشتغلات بأيديهن من الطبقة العاملة، بون أوسع كثيرا من ذلك القائم اليوم. وفى تلك الأشغال البرجوازية الصغيرة الكلاسيكية، كانت المنافسة على الوظيفة والترقى تؤدى الى حرب بين الجنسين، فكانت هناك نقابتان منفصلتان ومتعاديتان للمعلمين والمعلمات، واتحاد للموظفين الكتابيين من الذكور، ومثلهما فى مهن أخرى.

كذلك عقدت النسويات الراديكاليات، مؤتمرات للنساء العاملات فى عامى ١٩٠٤ و١٩٠٧ووجهت الدعوة للحزب الاشتراكى الديمقراطى والنقابات الحرة لارسال مندوبات اليها. وقد أظهرن جدية فى موقفهن من النساء العاملات تفوق كثيرا مثلا حركة «الضلع الزائد» فى بريطانيا فى الوقت الراهن، وكن يستعملن لغة لايكاد المرء يميزها عن لغة الاشتراكيات، كذلك مثلا تكتب إحدى زعيماتهن «ميناساور» فى ١٥ نوفمبر عام ١٩١٣: «فقط بعون جماهير النساء العاملات ستتمكن يوما من خوض المعركة ، فقط معهن، مع جماهير النساء المأجورات والعاملات، ستحصل النساء على حق الاقتراع».

غير أن النسويات الراديكاليات، اذ كن يفتقرن للتأثير المتسق لقاعدة عمالية، نشبت بينهن نزاعات ضارية حول أمور شخصية خلال السنوات الأخيرة السابقة على الحرب العالمية الأولى، وتتالت الانشقاقات فى صفوفهن ، الى أن تحطمت الرابطة فى نهاية المطاف.

حاولت كلارازتكين دائما أن تنأى عن النسويات الراديكاليات وكانت تقول أن ضم القوى معهن لن يؤدى الى عمل حقيقى، وإنما الى ثلم حد السياسة الاشتراكية القاطع ، الا أن هذا لم يكن بالأمر السهل دائما، حيث أنهن كن يتكلمن لغة «اجتماعية» مقنعة، بل وينظمن حملات تعد بحد ذاتها راديكالية. فى عام ١٨٩٥ كتبت اثنتان من الراديكاليات وعضوة بالحزب الاشتراكى (ميناساور وليلى فون جيسكى وآديل جيرهارد على التوالى) عريضة فى إطار الحملة من أجل إلغاء قانون الاتحادات الذى يحظر على النساء الانضمام لمنظمات سياسية ونشرت صحيفة الحزب الاشتراكى الديمقراطى «فورفارتس» (الى الامام) العريضة مع بيان تأييد يدعو أعضاء الحزب الى التوقيع عليها. ونشرت زتكين العريضة أيضا فى صحيفتها «المساواة» ولكنها أرفقتها بتحذير مطبوع بالحروف العريضة يقول: «أننا نشير على كل عضو واع فى الطبقة العاملة قطعا ضد المساهمة فى هذه العريضة على أى نحو». (١٨) واحتدم

الجدال على أعمدة صحيفة الحزب «فورفارتس» بين زتكين والاشتراكى المخضرم فيلهلم ليكنخت الذى كان ميالا لبذل كل جهد ممكن للتعاون مع النسويات الراديكاليات، وطلبت زتكين رأى انجلز حول الموضوع فأبدو جهة نظرها تماما (١٩)

ودعت النسويات الراديكاليات مرارا الاشتراكيات للأنضمام الى مظاهراتهن، ولكن زتكين رفضت كل الدعوات، ولم يتغير أبدا موقف اللاتعاون مع النساء البرجوازيات لتحقيق أهداف يلوح فى الظاهر أن الحركتين تشتركان فى السعى الى تحقيقها. ومع ذلك لم تتمكن كلارازتكين من فصل نساء الطبقة العاملة عن النسويات الراديكاليات إلا بصعوبة بالغة، وكان عليها أن تشرح مرارا وتكرارا ماعبرت عنه اليانور ماركس بقولها: «حيثما إجتمعت العاملات مع البرجوازيات أو البرجوازيات الصغيرات، فهن اللاتى يقعن تحت تأثير الأخيرات».

المساواة

مثلث صحيفة(المساواة) النسائية نصف الشهرية واحدا من أهم الأسلحة التربوية والتنظيمية للنساء، وكان عنوانها الجانبى يقول «من أجل مصلحة المرأة العاملة»، تأسست الصحيفة فى عام ١٨٩١ ورأست تحريرها كلارازتكين لمدة خمسة وعشرين عاما. وبينما أكدت زتكين دائما على الحاجة الى الوحدة السياسية والتنظيمية الكاملة للحركة الاشتراكية، فقد كانت ترى أن على الدعاية الاشتراكية أن تلائم القارئ أو المستمع المحدد الذى تتوجه له، وكتبت حول ذلك فى رسالة الى زميلتها الهولندية هيلين أنكرسميت فى ٧ سبتمبر ١٩١٣:

«اذا كنا نعتزم كسب نساء الشعب للاشتراكية فسنحتاج جزئيا الى سبل ووسائل وطرائق خاصة، واذا كنا سنعلم أولئك اللاتى تيقظن للعمل والنضال فى خدمة الاشتراكية نظريا وعمليا، يجب أن تكون لدينا منظمات وترتيبات خاصة لهذا الغرض.. لن نتمكن من ذلك بدون اتخاذ تدابير خاصة تكون الغلبة فى قواها الدافعة والتنفيذية للنساء».(٢٠)

وطرحت زتكين تصورها عن المساواة فى افتتاحية موجهة «الى القارئات»، كانت تنشر مع بضع تعديلات فى بداية كل عام طوال عقد التسعينيات من القرن الماضى.

«إن المساواة، موجهة لعضوات الطبقة العاملة الأكثر تقدما، سواء كن مستعبدات لرأس المال بأيديهن أو بعقولهن. وهى تسعى الى تعليمهن نظريا، ليصبح فى متناولهن فهم واضح للمجرى التاريخى للتطور، وقدرة ليس فقط على العمل الواعى فى معركة تحرير الطبقة العاملة، بل وأيضا على أن يكن فاعلات فى تنوير وتعليم رفاقهن الطبقيين وتعليمهم ليكونوا مقاتلين هدفهم واضح»(٢١)

كانت زتكين ترى أن المساواة «تكتب لنساء يستطعن لعب دور المتحدث بالنيابة عن الجماعة انها ليست موجهة للجماهير، وانما بالأحرى للقطاعات المتقدمة منها »(٢٢) وخصصت الصحيفة مساحات كبيرة لوصف ظروف العمل فى صناعات النسيج والملابس والأغذية، ومهنة تجليد الكتب، والصناعات المنزلية، وجميع فروع الاقتصاد التى تنشط فيها النساء خاصة. وقدمت معلومات مفصلة عن قوانين المصانع لمساعدة النساء على أقصى استفادة من ميزاتها، مهما كانت ضئيلة. وخظيت الاضرابات والاضطربات العمالية فى صفوف العاملات فى ألمانيا وغيرها من البلدان، بتغطية عالية دائما.

فى السنوات الأولى من ظهور الصحيفة، كانت زتكين تكتب معظم مقالاتها، علاوة على رئاسة تحريرها وخلال الأربعة عشر عاما الأولى كانت دائرة التوزيع صغيرة، وإن زادت بصورة ثابتة من ألفى نسخة عام ١٨٩١ الى أحد عشر ألفا فى عامى ١٩٠٣-١٩٠٤، وطرأ تغير كبير على طبيعة الصحيفة حين دخلت الحركة النسائية الاشتراكية فترة توسع متسارع، حيث بلغت عضويتها ٧٥ ألفا عام ١٩٠٧.

فى عام ١٩٠٤ بدأ توزيع صحيفة المساواة مجانا على عضوات الحركة الاشتراكية وزوجات اعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى وذلك هو السبب الرئيسى وراء الزيادة الهائلة فى توزيعها، من ١١ ألفا فى ١٩٠٣-١٩٠٤ الى ٤٠ ألفا فى ١٩٠٥-١٩٠٦ و٧٧ ألفا فى ١٩٠٨-١٩٠٩ و١٢٥ ألفا فى ١٩١٤.

وفى عام ١٩٠٤ أيضا فرضت قيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى على

كلارازتكين أولى التغيرات التى توالت بعد ذلك فيما يخص طابع «المساواة» وتصميمها، بغرض توسيع شعبية الصحيفة، ففى المؤتمر النسائى للحزب الاشتراكى الديمقراطى لعام ١٩٠٤، أعلنت زتكين أنه اعتبارا من العام التالى سيضاف الى الصحيفة ملحق الهدف منه «خدمة ثقافة المرأة واهتماماتها كزوجة وأم» و تقديم قراءات جيدة لأطفالها وبدأ التنفيذ في يناير ١٩٠٥، حيث كان يتبدل على الصحيفة ملحقان ، مرة« الى ربات بيوتنا وأمهاتنا » ومرة« الى أطفالنا ». بذلت زتكين مافى وسعها فى ظل وضع فرض عليها الى حد ما، فكانت تتناول خاصة وجهات النظر التى تهملها المدارس التى يتردد عليها أطفال الطبقة العاملة، وتقدم مختارات من كتابات الثوريين البارزى والأدباء.

كانت الثقافة مجالا هاما آخر لنشاط الحركة النسائية الاشتراكية انخرطت فيه معظم قياداتها، فكانت زتكين تلقى محاضرات ، حول تاريخ الثقافة فى النادى الثقافى النسائى فى شتوتجارت، وقامت «زايتز»بإدارة النادي الثقافى فى هامبورج، ومارست «بادر» نفس النشاط فى برلين وقد بلغ عدد النساء المنظمات فى هذه النوادى عام ١٩٠٥ ثلاثة الاف.

وبدءا من عام ١٩٠٨ أخذ الحزب ينظم اجتماعات للقراءة والنقاش فى جميع أنحاء المانيا، معظمها مكرس لتعليم الماركسية، وكان عدد النساء المشاركات كبيرا: فقد بلغ أربعة آلاف فى برلين عام ١٩١٠، وكانت هذه الاجتماعات تعقد بانتظام فيما يقدر بمائة وخمسين منطقة محلية.(٢٥) ويعطى مقرر المحاضرات فى حى «تلتوف بسكوف» ببرلين فى أواخر عام ١٩١٣، فكرة عما كانت عليه، فهى:

«تركز على موضوع: الأساس العلمى لحركة الطبقة العاملة الحديثة، وقد عرضت على المشتركين موضوعات مثل العلاقة بين الاصلاح الاجتماعى والديمقراطية والاشتراكية، وبين المثالية والمادية، وبين الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية. وأتبعت هذه المواد بتحليلات حول التطور الاقتصادى السابق على الرأسمالية، وأصول أسلوب الانتاج الرأسمالى، وتشكل الطبقة العاملة، وطبيعة الاستغلال الرأسمالى. وبعد أحد عشر أسبوعا انتهى الفصل الدراسى بنقاش حول طرق وأهداف النضال الطبقى»(٢٦).

كلارازتكين والحركة النسائية الاشتراكية العالمية

عملت كلارازتكين الكثير من أجل التأثير فى الحركة النسائية الاشتراكية خارج حدود ألمانيا وتوجيهها، فبادرت فى عام ١٩٠٧ بعقد أول مؤتمر دولى للحركة النسائية الاشتراكية فى شتوتجارت، وشاركت فيه تسع وخمسون امرأة من خمسة عشر بلدا، وقد قرر هذا المؤتمر اقامة منظمة دولية تضم جميع المنظمات النسائية الاشتراكية (٢٧).

لم يكن المؤتمر متجانسا، ففيما يتعلق بالموضوع المحورى الخاص بحق الاقتراع للنساء، رأت مندوبات النمسا وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا أن المطالبة بحق الاقتراع المقيد وبتعبير آخر الاقتراع القائم على مؤهلات الملكية أو الدخل أكثر «واقعية» من المطالبة بحق الاقتراع العام. كذلك انتقدت البريطانيات والفرنسيات «تحزب» زتكين ونصيراتها فى موقفهن من الحركة النسوية البرجوازية.

الا أن زتكين تبنت موقفا صلبا تماما فى كلا الموضوعين، وأيدتها فى ذلك المندوبة الروسية الكسندرا كولونتاى وأخريات، وكانت لها الغلبة فى المؤتمر، فقد أصدر قرارات قوية تنص على أن «من واجب الأحزاب الاشتراكية فى جميع الدول، النضال بكل حمية من أجل منح النساء حق الاقتراع العام» وأن«على النساء الاشتراكيات ألا يتحالفن مع الحركة النسوية البرجوازية، بل أن يخضن المعركة جنبا الى جنب مع الرجال الاشتراكيين»، وانتخبت زتكين أمينة للمنظمة النسائية الاشتراكية الأممية، وتقرر ان تصبح صحيفة «المساواة» لسان حال الحركة النسائية الاشتراكية، كما انتخبت كولونتاى لعضوية السكرتاريا العامة.

وجدد المؤتمر الدولى الثانى للحركة النسائية الاشتراكية الذى انعقد فى كوبنهاجن عام ١٩١٠، التأكيد على مطلب «الاقتراع العام» وفى هذا المؤتمر اقترحت زتكين تعيين يوم ٨ مارس يوما عالميا للمرأة، وقد أخذت اليوم والفكرة عن مظاهرة للحركة النسائية الاشتراكية الأمريكية أقيمت فى نيويورك فى ٨ مارس عام ١٩٠٨ فى معارضة الحركة النسائية البرجوازية المطالبة بالاقتراع، وحظى الاقتراح بموافقة حماسية من المؤتمر. وبدءا من عام ١٩١١ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، كانت مظاهرات اليوم العالمى

للمرأة تنظم فى جميع المدن الأوروبية الرئيسية (وبالطبع كان أهمها هو ذلك الذى وقع أثناء الحرب، ومنه انطلقت الثورة الروسية).

المعارضة اليمينية لزتكين

واجهت زتكين معارضة يمينيه فى الحركة النسائية الاشتراكية كما فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ككل. كانت تتقاسم الحزب ثلاثة اتجاهات: «المراجعون» فى أقص اليمين، انصار ادوارد برنشتين، وفى اقصى اليسار أنصار روزا لوكسمبرج، وفى الوسط انصار بيبل وكاوتسكى . وقد ظهرت الاتجاهات الثلاثة ذاتها فى الحركة النسائية الاشتراكية ، وهنا كان اليمين مستعدا للتعاون الطبقى مع الاتجاه الليبرالى، ربما بترحيب أكبر مما يبدى ازاء نظيره فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى.

أبرز من مثل هذا الاتجاه هى ليلى براون (١٨٥٦-١٩١٦)، كانت تنحدر من اسرة نبيلة ولم تقطع الصلة بجذورها أبدا فناظرت ضد النضال الطبقى، قائلة ان الاشتراكية لن تتحقق على يد الطبقة العاملة وحدها، وانما كذلك بنشاط عدد من القوى التقدمية، بما فيها الحركة النسائية، التى كانت ترى أن كل من فيها هن بحكم التعريف تقدميات، طالما أنهن يعارض اللامساواة الجنسية ، تماما كما يعارض الاشتراكيون اللامساواة الطبقية.

فى عام ١٨٩٥ تعاونت ليلى براون مع النسويات البرجوازيات فى وضع عريضة من أجل إصلاح قانون المنظمات وشاركت فى تحرير صحيفة نسائية تحمل عنوان «الحركة النسائية» مع ميناساور ذات الاتجاه النسوى الراديكالى وحوى العدد الأول موجز مبادئها: مناصرة جميع النساء بغض النظر عن قناعاتهن السياسية، والنضال من أجل هدفهن المشترك وهو المساواة التامة بين الجنسين.«إننا نريد أن نكون منصفين ازاء النضال من أجل المساواة فى الثقافة كما نحن إزاء النضال من أجل المساواة فى الأجور».

وتذمرت ليلى براون من مواقف رجال الحركة العمالية من النساء ، وقالت انه من قبيل الوهم الاعتقاد بأن النضال الطبقى سيغلب على الصراع بين الجنسين.

وفى عام ١٩٠١ نشرت كتيب بعنوان «النساء العاملات والتعاونيات المنزلية»، الذى كان دفاعا حارا عن فكرة تحرير النساء من أعباء العمل المنزلى عبر تنظيم تعاونيات منزلية ، وثارت ثائرة زتكين لهذه الفكرة التى وصفتها بأنها طوباوية وانتهازية معا ، حيث ان نساء الطبقة المتوسطة فقط بدخلهن الثابت المنظم هن اللاتى يسعهن الاستفادة من اجراء كهذا ،ووصفت هذه التعاونيات بأنها «عمل إصلاحى برجوازى» الا أن عددا من الشخصيات البارزة فى الحركة النسائية الاشتراكية أخذ صف ليلى براون وكذلك عدد من الرجال البارزين فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى.

حققت ليلى براون وأنصارها بعض النجاحات ، ففى الفترة مابين ١٨٩٨و١٩٠٢ انعقدت فى هامبورج وبرلين عدة اجتماعات مشتركة بين نساء الطبقة العاملة والنسويات البرجوازيات لتدارس التعاون بينهما ، ولم تتمكن كلارازتكين من قهر نفوذ ليلى براون الا بعد جهود شاقة د ءوبه الى أن تمكنت فى النهاية من إقصائها كلية تقريبا عن الحركة النسائية الاشتراكية ، وكان ذلك فى عام ١٩٠٣.

وهناك اتجاه آخر واجه كلارازتكين،إتجاه معاد للحركة النسائية كان يمثله النائب فى الرايخستاغ، ادموند فشر، وقد كتب فى مقال بعنوان «مسألة المرأة» نشرته «سوتسياليتش مونتاشفيتى» فى عام ١٩٠٥، متسائلا:«أليس عمل المرأة عموما أمراً منافيا للطبيعة، وغير صحى اجتماعيا ، وشائنا، شرا رأسماليا سيختفى، ويجب أن يختفى، مع ازالة الرأسمالية؟» ثم يجيب قاطعا:«إن مايسمى بانعتاق المرأة انما يتنافى مع طبيعتها ومع الطبيعة البشرية ككل، إنه أمر غير طبيعى ومن ثم محال أن يتحقق»(٢٨) و«إن خير المرأة الأول والأعلى فى الحياة ، الدفين عميقا فى طبيعتها، هو أن تكون أما وان تحيا لاجل تربية أولادها».

وفى المؤتمر الذى عقدة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى مانهايم عام ١٩٠٦ ، لقى اليسار بزعامة روزا لوكسمبرج الهزيمة، وكانت مدافع اليمين حينئذ مسددة كلها الى كلارازتكين، صديقتها الحميمة سياسيا وشخصيا.

حين ألغى قانون الاتحادات فى عام ١٩٠٨، قرر المؤتمر النسائى المنعقد فى نورمبرج أن تلحق المنظمات النسائية بالفروع المحلية للحزب الاشتراكى الديمقراطى ، على أن تضم كل لجنة محلية أو لجنة حى تنفيذية امرأة واحدة

على الأقل، لتقوم بمسئولية الدعاية وسط العاملات. وتحول المكتب المركزى المسئول عن الحركة النسائية الى مكتب نسائى تابع للجنة التنفيذية المركزية، وقد ضمت هذه اللجنة امرأة واحده فقط رغم الاحتجاجات النسائية وهى لويز كايتز التى لم تكن من أقصى اليسار مثل زتكين، وانما مدعومة من الوسط الكاوتسكى (٢٩). وفى ذات السنة التى نحيت فيها زتكين جانبا، ١٩٠٨، ثم تطهير المنظمة الشبابية الأكثر راديكالية.(٣٠)

أدى اندماج الحركة النسائية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الى حركة تجنيد واسعة للنساء فى الحزب، فمن ٢٩٫٤٦٨ امرأة عام ١٩٠٨ الى ١٧٤٫٤٧٤ فى عام ١٩١٤، أى زيادة تناهز المائة وخمسين ألفا خلال ست سنوات (٣١)

كذلك شهد عام ١٩٠٨ إضعاف سيطرة زتكين كرئيسة لتحرير صحيفة المساواة. لقد رأينا أنه سبق وجرى تغيير طبيعة الصحيفة بالفعل، والآن تضاعف حجمها من اثنتى عشرة صفحة الى أربع وعشرين، وقد أصبح لكل عدد ملحقان واحد للأطفال وآخر للأمهات وربات البيوت. وفى عام ١٩١٠ بلغ الأمر مداه، فقد طلب اليها نشر ملحق عن الموضة، وكان من مؤشرات ذهاب سلطة زتكين استجابتها الجزئية لهذا الطلب، اذ بدأت تنشر بانتظام مقالات عن الموضة والطهى وكذلك وصفات لوجبات ورسوم للملابس . وفى مؤتمر الحزب لعام ١٩١٣ وعدت أيضا بإعطاء اهتمام أكبر من الآن فصاعدا بمن «لم يتلقين أى تعليم» أولئك الاتى «يجهلن بعد ألف باء آرائنا»(٣٢)

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أخذت النقابات تتلقى كميات كبيرة من المجلة لتوزع مجانا حتى أصبحت فى عام ١٩١٤ تمثل ثلاثة أخماس الصحف التى يوزعها الحزب، والتى ازدادت من ١١ ألف نسخة فى ١٩٠٣-١٩٠٤ الى ١٢٥ ألفا فى عام ١٩١٤.(٣٣) وقد بلغ عدد النسخ الموزعة من «المساواة» فى ١٩١٤ مايعادل ٧١٫٦ فى المائة من عدد النساء فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى، أو ٥٩٫٤ فى المائة من عدد النساء فى النقابات الحرة.

أغسطس ١٩١٤: الحرب، مفترق للطرق

كان اندلاع الحرب العالمية الأولى مفترق طرق هائلا. بعد عدة أيام من اندلاع الحرب ،فى ٥ أغسطس ١٩١٤، نشرت زتكين مقالا فى المساواة تحت عنوان

«فلتستعد نساء الطبقة العاملة»، هاجمت فيه الحرب، (٣٤) وقالت لقارئاتها أن المانيا تخوض الحرب «من أجل مصالح أسرة هابسبورج الرجعية، والجوع للذهب والنفوذ لدى كبار ملاك الأرض وكبار الرأسماليين الذين لاشعور لهم ولاضمير» (٣٥) ، وختمت المقال بدعوة لاتكاد تخفى للثورة:

«عند الطبقة العاملة، ليست الأخوة بين الشعوب حلما أجوف ، ولا السلام العالمي كلمة حلوه... فما الذي يجب عمله؟ هناك لحظة واحدة في حياة الشعوب يكون بوسعهم فيها الفوز بكل شيئ، فقط لو كان كل امرئ مستعدا، وهذه اللحظة قائمه هنا الآن، فيانساء الطبقة العاملة خذن استعدادكن»(٣٦)

ولبضعة أشهر كانت المساواة هي الصحيفة المعترف بها دوليا بوصفها المعبرة عن النساء المعارضات للحرب، ونظمت زتكين بالتعاون مع روزالوكسمبرج مؤتمرا نسائيا دوليا مناهضا للحرب في مارس عام ١٩١٥ في برن، وفي اغسطس ١٩١٥ ألقى القبض على كلارازتكين للمرة الأولى، والتي لم تكن الأخيرة.

الا أنه من الخطأ الافتراض أن كثيرات في الحركة النسائية الالمانية أيدن موقف لوكسمبرج وزتكين، بل لقد كانتا في الواقع معزولتين في معارضتهما للحرب.

«كانت روزالوكسمبرج وكلارازتكين كلتاهما مستهلكتان عصبيا ، ومرتا بلحظة اقتربتا فيها من الانتحار، ولكنهما حاولتا معا في ٢و٣ أغسطس (١٩١٤) الإعداد لنشاط تحريضي ضد الحرب، فاتصلتا بعشرين من أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي النواب في الرايخستاج من المعروفين بآرائهم الراديكالية، ولكنهما لم تحصلا على تأييد سوى من (كارل) ليبكنخت ومهرينج... وأرسلت روزا ثلاثمائة برقية لمسئولين محليين كان يعتقد أنهم من المعارضة، طالبة معرفة موقفهم من الاقتراع وداعية اياهم الى مؤتمر عاجل في برلين، وجاءت النتائج تبعث على الأسى (فقد كانت كلارازتكين هي الوحيدة التي بعثت بتأييدها فورا وبلا تحفظ، أما الباقون- أولئك الذين تجشموا عناء الرد- فقد ردوا بأعذار غبية أو كسولة»(٣٧)

كانت المسحة الماركسية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي هزيلة بما يكفي كي تتخلى أغلبية قيادة الحزب عن الأممية بين ليلة وضحاها، وتقترع بتأييد المجهود الحربي الالماني. وسحبت النقابات طلبيات الجملة لصحيفة المساواة، وهبط التوزيع بصورة درامية من ١٢٥ ألفا عام ١٩١٤ الى ٤٠ ألفا في

ديسمبر ١٩١٥ (٣٨) وأرغمت زتكين على ترك منصب رئيسة التحرير.

كانت الحرب ايذانا بدخول عضوات الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى تعاون مع الحركة النسوية البرجوازية، اتجهت البرجوازيات للعمل فى الادارة البلدية، فشكلن هيئة نسائية قومية لهذا الغرض ونظمن جيشا نسائيا معاونا لموظفى البلدية وخطبت لويز كايتز، بوصفها زعيمة عضوات الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى جماعات من الطبقة المتوسطة فى برلين، تستعرض الجهود الخيرية للاشتراكيات وتعرضت لإمكانية التعاون بين الحركتين، وعلى غرار الحزب الاشتراكى الديمقراطى نفسه، تبنت عضوات الحركة النسائية الاشتراكية موقف إلغاء النضال الطبقى أثناء الحرب.

كان قد ترك للنوادى المحلية أمر القرار الفعلى بالتعاون مع البرجوازيات، غير أن الحرب كانت قد خلقت أوضاعا سياسية جديدة . فقد تفاوتت ردود الفعل على فكرة الصلة مع نساء الطبقة المتوسطة تفاوتا كبيرا، حيث عملت بعض الجماعات بالاشتراك معهن، واستمر بعضها يجتنب التعاون. كتبت صحيفة المساواة، التى لم تعد بين يدى زتكين الآن، فى ٢٠ يوليو ١٩١٧: «... يمكننا تعلم الكثير من البرجوازيات فى الأمور العملية» (٣٩) كذلك بدأت النقابات تصدر صحيفة نصف شهرية اعتبارا من يناير ١٩١٦ باسم (الصحيفة النقابية النسائية) ترأس تحريرها جيرترود حنا وقد بلغ توزيعها مائة ألف بعد عام واحد فقط، ووصل الى ٣٥٠ ألفا فى يناير ١٩١٩(٤٠).

بعد عام من التأييد الحماسى للحرب من جانب الحزب الاشتراكى الديمقراطى، وجدت لويزكايتز أخيرا موقف الحزب عسيرا على الهضم، فأخذت جانب كاوتسكى وبرنشتين وزعماء ماسيصبح فى المستقبل الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل، وفى صيف عام ١٩١٥ طردت من اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى الديمقراطى.

والآن اتخذت المساواة عنوانا جانبيا جديدا :«مجلة من أجل مصالح زوجات العمال والعاملات»، وعرضت المحررات الجديدات برنامجها كما يلى«التربية السياسية والتعليم البسيط والترفيه القيم»، وفى عام ١٩٢٢ تغير العنوان الجانبى مجددا، ليصبح «مجلة للسيدات والآنسات العاملات ، ناطقة بلسان الحزب الاشتراكى الديمقراطى المتحد».

أما كلارازتكين وروزا لوكسمبرج ومعها اقلية صغيرة ممن كانوا على يسار

الحزب الاشتراكى الديمقراطى، فلم يتهاونوا ابدا فى معارضتهم للحرب. ومع تزايد فظائعها ودمويتها عاما بعد عام، تزايدت كذلك معارضتها فى صفوف الطبقة العاملة الالمانية، حتى بلغت المانيا حافة الثورة فى عامى ١٩١٨ و١٩١٩ (٤١) ومع ذلك فحتى بعد أربع سنوات من الحرب، بقى عدد النساء المتجمعات حول روزالوكسمبرج وكلارازتكين- وأولاهما هي أكبر عبقرية عرفتها الحركة الاشتراكية الألمانية فى زمنها ، وثانيتهما هى أبرز قيادة فى الحركة النسائية الاشتراكية- بقى هزيلا. فحين أسست روزا لكسمبورج الحزب الشيوعى الألمانى حديثا فى عام ١٩١٨، شكلت النساء نسبة ٩ فى المائة فقط منه، مقابل ١٥ فى المائة فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل، و٥ر٢٠ فى المائة فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى (٤٢) وبالأرقام المطلقة، كان فى الحزب الشيوعى أقل من ثلاثمائة عضوة مقابل ٢٠٧ ألفا فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى عام ١٩١٩.

كان فشل روزا لكسمبورج وكلارازتكين وأنصارهما فى انشاء منظمة اشتراكية يعتدبها فى صفوف النساء- كما فى صفوف الرجال- راجعا لظروف موضوعية بمثل مايرجع لعيوب ذاتية لدى اليسار فى ألمانيا. تمثلت الظروف الموضوعية فى توسع الرأسمالية الذى أدى الى تحولات بيروقراطية فى الحركة العمالية وتحولها العميق الى حركة إصلاحية أما الفشل الذاتى لليسار الثورى فتمثل فى عدم تدخله فى النضالات اليومية، ومن ثم فشل فى بناء جسر بين نضال العمال من أجل الاصلاحات وسياساته هو الثورية ، وبتعبير آخر فانه لم يطور الممارسة الثورية، وانما حصر نفسه فى الدعاية العامة. ولم يكن لديه تنظيم يستحق الذكر، ولعلنا نتساءل ، ماذا كانت زتكين تفعل بحق السماء طوال سنوات كانت فيها رئيسة لتحرير المساواة قبل الحرب، حتى استولى الاصلاحيون عليها فعليا.

كان اليسار الثورى فى واقع الأمر مجموعة من الأفراد تربطهم صلات فضفاضة ، وحين أسست روزا لوكسمبرج » عصبة سبارتكوس أثناد الحرب، لم يكن لديها بعمال الصناعة سوى صلات واهية، ولم تكن مواقع العمل هى مكان نشاطها الرئيسى، بل الشوارع والاجتماعات العامة. واذا كان الثوريون قد وجدوا عدة صلات مع النضالات العمالية، فان هذا يصدق بقدر أكبر على الثوريات، فى وقت لم تكن النساء متمركزات مثل الرجال فى الأقسام الهامة

الأكثر نضالية من الصناعه.

النهاية المؤسفة للحركة النسائية التابعة للحزب الاشتراكى الديمقراطى

خلال الحرب زاد عدد النساء العاملات من ٩٫٥ مليون الى حوالى ١٥ مليونا (٤٣) وبعد الحرب قتل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الثورة الاشتراكية الألمانية. كان لابد من حل لمخاطر البطالة الضخمة عقب تسريح المجندين من القوات المسلحة، اذا كان للأقتصاد والدولة الرأسماليين أن يستقرا، وكان العلاج بسيطا: صرف النساء من أشغالهن، والزم المرسومان الصادران فى ١٨ مارس ١٩١٩و ٢٥ يناير ١٩٢٠ أصحاب العمل بطرد كل العاملات اللاتى لايعتمدن اعتمادا مطلقا على أجورهن، حسب الأولويات التالية:

١- العاملات اللاتى يشتغل أزواجهن
٢- العازبات والفتيات
٣- النساء والفتيات المسئولات عن رعاية شخص أو اثنين فقط
٤- جميع النساء والفتيات الأخريات(٤٤)

وبررت القيادات النسائية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى هذه الاجراءات فقالت جيرترود حنا عضو السكرتارية النسائية فى الاتحاد العام للنقابات الألمانية:

«أى الشرين أهون بطالة النساء أم الذكور؟ إن الاجابة على هذا السؤال فائقة الصعوبة... اننى أجد نفسى فى موقف حرج اذ لا أستطيع أن أقدم أى اقتراح فيما يتصل بكيف تحل مسألة المرأة فى الوقت الراهن...لدى اقتراح واحد وحسب: يجب أن تعمل النساء على كسب القدرة على التأثير فى القرارات المتعلقة بحسم من تستخدم ومن تفصل»(٤٥)

وأرغمت المنظمة النسائية للحزب الاشتراكى الديمقراطى على أن تصبح هيئة تقوم بعمل إجتماعى محض، ففى ديسمبر ١٩١٩ أنشأ الحزب الاشتراكى

الديمقراطى (مكتب الخدمات الاجتماعية العمالى) ليكون المنظمة الأساسية للنشاط النسائى، وبرر مؤتمر الحزب لعام ١٩٢١ ذلك بأن أعلن أن «النساء ولدن حاميات للإنسانية، ولذا فان العمل الاجتماعى يلائم طبيعتهن أفضل الملائمه» (٤٦)

وأصبحت لعضوات الحزب صحيفة تناسب السياسات الجديدة، كانت لأسم المساواة نبرة ثورية أعلى من اللازم، فأسميت الصحيفة الجديدة «عالم المرأة» وأصبحت مادتها الأساسية قصص تربوية، وتصميمات فساتين وصور للموضة ومواد عن الطهى ووصفات وجبات مع قليل من السياسة. وحين طالبت مندوبة فى مؤتمر نسائى انعقد فى برلين عام ١٩٢٤ بأن تتناول الصحيفة قليلا الوقائع الأليمة فى حياة العاملات، رد عليها رئيس التحرير د. لومان:

«إن رأيى الشخصى على أية حال، وأعلم أننى أحظى بتأييد معظم الرفيقات هنا ممن يعانين الوقائع الأليمة، اذ أكدن رأيهن لى فى خطابات كثيرة، هو أنهن لايردن أن تصطدم عيونهن ببؤس حياتهن العائلية حتى أثناء وقت الفراغ. انهن يردن أن تعرض لهن الشمس التى ستشرق ذات يوم على حياتهن بفضل الاشتراكية» (٤٧)

اليمين المتطرف يهيمن فى الحركة النسوية البرجوازية

فى هذه الاثناء ماذا حدث للحركة النسوية البرجوازية؟ تلقت المنظمة الراديكالية «رابطة حماية الأمومة والاصلاحات الجنسية» ضربة عنيفة عام ١٩٠٨ فى مؤتمر المنظمة الجامعة للنساء البرجوازيات «اتحاد المنظمات النسائية الألمانية» فقد وحدت هذه المنظمة الاتحادات النسائية من كل نوع: الثقافية والدينية والخيرية والابداعية، وايضا جماعات الضغط السياسية، وجمعيات المطالبة بحق الاقتراع للمرأة، وجمعيات الاصلاح الأخلاقى والاجتماعى، كانت منظمة نسائية بحته، لامنظمة للدفاع عن حقوق النساء.

كان اليمين فى تقدم، يدعمه انتساب جمعيات مثل «رابطة النساء الألمانيه الكولونيالية» الى الاتحاد، وهى منظمة كرست جهودها للحفاظ على نقاء الجنس

الأبيض فى المستعمرات الألمانية، بواسطة تصدير النساء البيضاوات من البلد الأم، تأسست عام ١٩٠٧ وبلغت عضويتها عام ١٩١١ اثنى عشر الفا ، «والاتحاد الألمانى لمناهضة الاستعمال السئ للكحوليات» الذى تأسس عام ١٨٨٣ وبلغت عضويته عام ١٩١١ سبعة وثلاثين ألفا (معظمهم من الرجال)، وأقوى المنظمات المحافظة فى المانيا «رابطة النساء الألمانية الايفانجيلكيه».

وهكذا ازدادت عضوية «اتحاد المنظمات النسائية الألمانية» الى نحو ربع مليون قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبدأت الحكومة تجد ان من الملائم استشارة الاتحاد للحصول على «وجهة نظر النساء» فى المسائل التى تعتقد أن لهن اهتماما خاصا بها.

تقدم «جيرترود باومر» انسب شخصية تمثل الانتقال الى اليمين ، وهى التى صارت رئيسة لاتحاد المنظمات النسائية الألمانية لتسع سنوات ، من عام ١٩١٠ وحتى عام ١٩١٩. دافعت عن فكرة أن الحركة النسائية يجب أن تكون وطنية ، بمعنى أن تساند سياسة خارجية إمبريالية وعدوانية، واجتماعية، بمعنى أن تكرس نفسها من أجل تقليص التوتر الاجتماعى والصراع الطبقى بواسطة الاصلاح الاجتماعى والخدمات الاجتماعية المنظمة- ووجهة نظرها بشأن الهدف النهائى لانعتاق النساء هى أنه «ليس المساواة الشكلية، وإنما التأثير الحى والغنى والملئ المتساوى لكل القيم النسائية على حضارتنا، والتدفق بغزارة أكبر للقوى النسائية على حضارتنا، والتدفق بغزارة أكبر للقوى النسائية على وجه التحديد على مجمل الأنشطة فى العالم» وقد ترجمت هذه «القوى النسائية على وجه التحديد» الى لغة الواقع فأعلنت أن المرأة «حين تقصر نفسها على البيت والأسرة إنما تتصرف ، فى ظروف معينة، على نحو أكثر اتساقا مع المثل الأعلى للحركة النسائية مما لو امتنهت أى حرفة ذكرية» (٤٩)

ففيما بين عامى ١٩١١ و١٩١٤ شن اتحاد المنظمات النسائية الألمانية حملة ضد «الأخلاقيات الجديدة»، وأيد تأييدا قاطعا الرأى القائل بأن الاجهاض يجب أن يكون جريمة جنائية تعاقب بالسجن ، وقال فى هذا الصدد أن حظر الاجهاض يخلق «احساسا بالمسئولية الاخلاقية فى الأمور الجنسية»، وهو «أفضل طريقة لرفع المستوى العام للأخلاق فى عموم البلاد»(٥٠)

كان الاتجاه اليمينى فى الحركة النسائية إمبرياليا بصورة عدوانية، فكانت ماريا ليشنفكا وهى من ممثلات هذا الاتجاه، تقول أن ألمانيا كى تكسب الصراع

على السيادة على العالم «تحتاج ناسا ليدافعوا عن منجزاتنا فى وجه الجموع العريضة من أعدائنا... نحتاج ناسا ليعمروا المستعمرات التى نملكها وتلك التى مايزال علينا ان نغزوها»... وكان هذا اليمين أيضا عنصريا، فمع موقفه المتمسك بصرامة بمؤسسة الزواج والاسرة، طالبت إحدى ممثلاته «بالحظر القانونى للزيجات القائمة على الاختلاط العنصرى»، قائلة إن «الأبناء المخلطين غالبا مايكونون أدنى»، وأنه يجب تفادى امتلاء المستعمرات «بسكان من أولاد الزنا» ومن المطالب التى لاقت شعبية فى تلك السنوات المطالبة «تعقيم مدمنى الخمر» ومحل القلق من الدعارة كمصدر للفوض الاجتماعية، حل الانشغال بها من زاوية أكثر الحاحا الآن، من حيث هى خطر على قوة ونقاء العنصر ومن وجهة النظر هذه أدين تنظيم الدولة لها كسياسة مدمرة، وكسب أرضا الرأى القائل بضرورة إزالة الدعارة كمصدر لانتشار الأمراض التناسلية.

منذ وقت مبكر يرجع الى ٣١ يوليو ١٩١٤، أنشأ اتحاد المنظمات النسائية الألمانية هيئة نسائية قومية بالتعاون مع وزارة الداخلية لتقوم بمهام الخدمات الاجتماعية فى الجبهة الداخلية أثناء الحرب(٥١) وحين انتهت الحرب وتأسست جمهورية فيمار استمر الاتحاد على تأكيد أولوياته القومية باعتباره مؤسسة توحد «النساء الألمانيات من كل حزب وعقيده، فى التعبير عن هويتهن القومية»

وخلال العشرينيات واصلت قيادته الانزلاق الى اليمين، تقوده الاحزاب الأشد معاداه لحقوق النساء. اما الاحزاب الميالة بوضوح لتأييد حقوق النساء،كالحزب الديمقراطى الألمانى، وبقدر أكبر كثيرا الحزب الاشتراكى الديمقراطى والاشتراكيين المستقلين والحزب الشيوعى الالمانى، فلم تنل سوى القليل من تأييد النساء فى الانتخابات (٥٢) ولكن الاتحاد واصل النمو حتى صار منظمة جماهيرية تدعى لنفسها عام ١٩٣١ عضوية مليون ونصف امرأة، وحتى لو أخذنا فى الاعتبار تزوير العدد فلابد مع ذلك وأنه كان يضم نحو ٧٥٠ ألفا(٥٣).

وخلال سنوات الركود مابين ١٩٢٩-١٩٣٣، هجرت البرجوازية الصغيرة الأحزاب البرجوازية بالملايين لتلتحق بالنازى ولقد تبعها اتحاد المنظمات النسائية الألمانية فى هذا الانتقال الى أقصى اليمين، وقد رد هتلر الدين فقد استمرت الصحيفة الرسمية للاتحاد «داى فراو» التى بقيت ترأس تحريرها جيرترود باومر، حتى نهاية عهد الرابع. الثالث تقريبا، دون أن يعصف بها.(٥٤)

هوامش الفصل الخامس

١-يتبين مدى بيروقراطية الحزب الاشتراكى الديمقراطى من تكوين المندوبين لمؤتمره عام ١٩١١ فى جينا، فمن أصل ٣٩٣ مندوبا كان العمال ٥٣ فقط، ثم ١٥٧ من المسئولين الحزبيين، و٤٥ من المسئولين النقابيين و١٥ من مسئولى التعاونيات وآخرين، وبالتالى شكل العمل ثمن ـ٨/١)المؤتمر فقط (د.فريكه «الحركة العمالية الألمانية»برلين ١٩٧٦). وفى ذلك العام نفسه كان العمال يشكلون ٩٠ فى المائة من عضوية الحزب (فريكه حول تنظيم ونشاط الحركة العمالية الالمانية ١٨٥٠-١٩١٤).

٢- س.ى. شورسكه «الاشتراكية الديمقراطية الألمانية ١٩٠٥-١٩١٧» (نيويورك ١٩٦٥).ص٦

٣- و. ألبريخت وآخرون «قضية المرأة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية منذ القرن التاسع عشر حتى عشرينيات القرن الحالى» «من آرشيف التاريخ الاشتراكى» ١٩٧٩ ص٤٧١ و٤٦٤

٤- ج. هانا «النساء فى الحركة النقابية الألمانية» من المجلة العمالية الدولية، يوليو ١٩٢٣

٥- ألبريخت ، ص ٤٧١

٦- «كورسبندنزبالت»، ٢٨ نوفمبر ١٩١٤

٧- حول «الكارتلات»، انظر فريكة «الحركة العمالية الألمانية»

٨- ،. ليون «سوسيولوجية الحركة النسائية» (برلين ١٩٢٥) ص١٥٨

٩- بروتوكول محضر مؤتمر الحزب عام ١٩٠٦ (برلين ١٩٠٦) ص٤٠٨

١٠- البريخت ص٤٧١ تقدم احصاءات العضوية النسائية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى قبل عام ١٩٠٨، صورة غير صحيحة، حيث كانت عضوية النساء غير قانونية ، ففى الواقع كانت عدة الاف من النساء فى الحزب دون التمتع بوضع العضوية رسميا

١١- ر.ج. ايفانز«الاشتراكية الديمقراطية وتحرير النساء فى ظل الحكم الامبراطورى الألمانى»

١٢- مقتبس عند د. دريبر وأ.ج ليبو «الماركسيات والحركة النسوية البرجوازية» من «السجل الاشتراكى ١٩٧٦» ص١٩٢-٢٠١

١٣- دريبر وليبو.

١٤- مقتبس عند دريبر وليبو

١٥- ر.ج إيفانز «الحركة النسائية فى المانيا ١٨٩٤-١٩٣٣» (لندن ١٩٧٦)ص١٣١-١٣٢

١٦- ايفانز «الحركة النسائية..» ص١٣٧-١٣٨

١٧- ج. سعرين «الحركة النسوية والراديكالية السياسية فى الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية ١٨٩٠-١٩١٤» (أطروحة رسالة دكتوراة جامعة كاليفورنيا ١٩٦٤)ص١٤٥-١٤٨.

١٨- المساواة، ٢٣ يناير ١٨٩٥

١٩- رسالة من فردريك انجلز الى فيكتور أدلر، ١٨ يناير ١٨٩٥، من أعمال ماركس وانجلز، المجلد ٣٩ ، ص٤٠٠

٢٠- ايفانز «الاشتراكية الديمقراطية وتحرير النساء..»ص٢٦٥

٢١- المساواة، ٥ يناير ١٨٩٨.

٢٢- ورد فى ليبون، ص٩٢

٢٣- انظر ليبون، ص١٥٥ ، وفريكه «الحركة العمالية الألمانية» ص٤٣٣ حين نفهم المغزى الحقيقى للانتشار الواسع فى توزيع «المساواة» خاصة حين نرى كم صارت كلارازتكين معزولة بعد بضع سنوات أخرى- يجب أن ننظر للصحيفة فى اطار الجهد العام للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى النشر وآليات نشاط هذه الحركة الجماهيرية الواسعة. فى عام ١٩١٤ كان الحزب يصدر تسعين صحيفة(منها ٧٨ تختلف فقط فى البيانات الخاصة بالصحيفة) وصحيفتان نصف أسبوعيتين وصحيفتان أسبوعيتان وكان معدل إجمالى توزيعها يبلغ ١,٤٨٨,٣٤٦ (فريكة حول تنظيم ونشاط الحركة العمالية...» ص١٣٣)

علاوة على ذلك كانت للحزب الاشتراكى الديمقراطى عدة صحف أخرى:

- المساواة توزيع ١٢٥ الف (١٩١٤).
- «اليعقوبى الحقيقى» مجلة هجائية، توزيع ٣٦٦ ألف (١٩١٤).
- العالم الجديد صحيفة مصورة اسبوعية، توزيع ٦٥٠ الف تقريبا

(١٩١٤)

- رياضة المرأة الحرة ، توزيع ١٨ ألف (١٩١٣)
- الثقافة البدنية الحديثة توزيع ١٨ ألف (١٩١٣).
- الصحيفة الرياضية للعمال ، توزيع ١١٩ ألف (١٩١٣)
- الشباب والرياضة توزيع ١٥ ألف(١٩١٣)
- الرياضة توزيع ١٠ الاف (١٩١٣)
- صحة الناس توزيع ٧٦ ألف (١٩١٣)
- العامل راكب الدراجة توزيع ١٦٨ ألف (١٩١٣) كان مجموع توزيع الصحف الرياضية يبلغ ٣٦٤ ألفا.
- العامل الشاب توزيع ١٠٣ ألف (١٩١٤)
- العامل الذى لايسكر توزيع ١٠٠ر٥ (١٩١٣)
- نزيل الفندق المجانى توزيع ١١ ألف (١٩١٣)
- عامل الاختزال توزيع ٣ الاف (١٩١٣) فريكة (ص١٦٠-١٦٢)

٢٤- ايفانز «الاشتراكية الديمقراطية وتحرير النساء..»ص١٦٨

٢٥- ج. هـ. كراتايرت«نسويات رغم أنفهن فى الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية ١٨٨٥-١٩١٧» (نيوجيرسى ١٩٧٩)ص١٩٦.

٢٦-كراتايرت، ص١٩٧.

٢٧- «مؤتمر الأممية الاشتراكية لعام ١٩٠٧» انانج ، ص٤٠-٤٢

٢٨- مقتبس عند و. تورنسن «تحرير النساء: نهوض الحركة النسائية فى الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية وتراجعها ١٨٦٣-١٩٣٣»ص٨٩ (لندن ١٩٧٦)

٢٩- حول اندماج الحركة النسائية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى انظر فريكه «حول تنظيم ونشاط الحركة العمالية...» ص٨١-٨٢ والحركة العمالية الالمانية» ص٣٢٥

٣٠- انظر أ.هال «شباب متمرد: بدايات الحركة الاشتراكية للشباب ١٩٠٤-١٩١٤» أعدها ر.ج. ايفانز، و «المجتمع والسياسة فى المانيا فى عهد

فيلهلم »(لندن ١٩٧٨).

٣١- البريخت،ص٤٧١-٤٧٢.

٣٢-من العوامل التى سهلت انتصار اليمين فى مسألة المرأة، والتى فضحت الطبيعة المحافظة «لماركسية» الحزب الاشتراكى الألمانى، موقف قادة الحزب فيما يخص أخلاقيات الجنس. ويلاحظ مؤرخ لهذا الموضوع أن قادة الحزب «برغم هجومهم على الأخلاق الجنسية التقليدية والزواج، يشاركون فى الواقع فى تبنى كثير من المفاهيم الخاطئة القمعية الشائعة فى زمنهم فيما يتعلق بالجنس». (ر.ب.نيومان« المسألة الجنسية والاشتراكية الديمقراطية فى المانيا الامبراطورية» فى «يوميات التاريخ الالمانى»، ربيع ١٩٧٤).

وقد اتخذ أوجست بيبل، القائد الأبرز للحركة الاشتراكية الألمانية، موقفا راديكاليا تماما فيما يتعلق بهذا الموضوع «من بين جميع الدوافع الطبيعية التى يزخر بها البشر، فان الجنس هو أقواها، بجانب الأكل والشرب.. وفى سن النضج، يصبح اشباعه ضرورة فعلية لصحة الانسان البدنية والعقلية» (أ. بيبل،«المرأة فى ظل الاشتراكية» نيويورك ١٩٧٥، ص٧٩، وقال أنه عند الامتناع عن ممارسة الجنس:«ينبئنا بالعواقب التى تنجم عن ذلك أطباؤنا ومستشفياتنا ومستشفيات الأمراض العقلية والسجون، ولاحاجة لذكر آلاف الأسر التى تعيش حياة معذبة»(ص٨٢) وتوجه النساء اللاتى يمتنعن عن الجنس رغباتهن الجنسية غير المتحققة الى «الحماس الدينى». وانتهى بيبل الى أن «البشرية سيكون عليها أن تعود للطبيعة، ولممارسة الجنس الطبيعية بين الجنسين ويجب أن تطرح عنها الافكار الروحية غير الطبيعية عن الانسان المستبدة بها الآن، عليها أن تفعل ذلك بأن تنشئ طرائق فى التعليم تلائم أوضاعنا الثقافية الحضارية تفتح الطريق أمام التجدد العقلى والبدنى لجنسنا البشرى» (ص١٩)

الا ان هذا الموقف، المتقدم جدا بالقياس لعصره، والذى قبلت به غالبية الشخصيات القيادية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، كان مترافقا مع مجموعة كاملة من المواقف التقليدية فنجد كراسة للحزب منشورة فى سلسلة «المكتبة الصحية العمالية» تقول أن الرجال الطبيعيين يجب أن يحجموا عن ممارسة الجنس حتى سن الرابعة والعشرين حيث أن المرء لايبلغ النضج الجنسى الكامل الا فى هذه السن. وحتى بعد الزواج، من الواجب الاعتدال فى ممارسة الجنس لان «العجز الجنسى والعقم وأمراض العمود

الفقرى، والجنون او الضعف العقلى على الأقل، أمراض كثيرة أخرى ، هى العواقب المعتادة للأفراط (بيبل، ص١٦٤) واوصى ادوارد برنشتين بفترة استراحة «لعدة اسابيع بعد كل ممارسة للجنس (اقتباس لنيومان).

واختلف زعماء الحزب الاشتراكى الديمقراطى فيما يتعلق بمنع الحمل، فقد أيده كاوتسكى، وأيد بيبل الاجهاض ولكنه رأى أن منع الحمل مسبقا أمر «غير طبيعى». أما ويلهلم ليبكنخت فعارض كل أشكال منع الحمل باعتبارها «لاأخلاقية وبغيضه». وفى السنوات التى سبقت عام ١٩١٤ انتقل الحزب الى تأييد تنظيم النسل، ولكنه لم ينظم حملات دعائية من أجله، وترك هذه المهمة لأفراد من أعضاء الحزب.

وكانت العادة السرية بلاجدال هى «بعبع» كل من كتب عن الجنس تقريبا، فى القرن التاسع عشر يقول كاتب فى «نيوزايت» وهى الصحيفة النظرية للحزب ، أن العادة السرية «رذيلة.. ومن المؤكد أنها غير طبيعية، لأن كل نشاط جنسى لايؤدى للحفاظ على النوع، ليس طبيعياً. ويعلن كراس المكتبة الصحية العمالية أنه «ليس هناك فى النهاية سوى الامتناع...»، ويجب التسامى بالطاقة الجنسية بالرياضة والاهتمام بالسياسة ونشاط النقابات، واتباع «نظام غذائى معتدل يعتمد على الخضر أساساً ويخلو من المواد الحريفة»، وذلك خلال سنوات امتناع الشبان عن الجنس.

إلا أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى كان أول حزب سياسى يطالب علانية بإباحة الجنسية المثلية قانوناً، وذلك فى كلمة القاها بيبل فى البرلمان عام ١٨٩٨. وفى وقت مبكر يرجع لعام ١٨٨٧، قدمت جماعة من أولى جماعات الدفاع عن حقوق الجاى «اللجنة الإنسانية العلمية» عريضة ضد ذلك الجزء من قانون العقوبات الألمانى الذى يتناول أعمال الجنسية المثلية وأيد الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى العريضة، ووقعها كل من هلفردينج وكاوتسكى وبرنشتين، وكيته كو لفيز وآخرين.

ومع ذلك فقد كتب برنشتين، وهو نفسه «جاى»، أن العادة السرية يمكن أن تؤدى إلى «الجنسية المثلية واللواط والساد ومازوكية لقد كان موقف الحزب الاشتراكى من الجنس يتضمن آراء متضاربة، كما هى الحال فى معظم المواضيع الأخرى.

٣٣- ليون، ص ١١٥ وفريكة «الحركة العمالية الألمانية» ص ٤٣٣

٣٤- ك. زتكين، مختارات (برلين ١٩٥٧) مجلد [١]

٣٥- زتكين، ص٦٢٢

٣٦- زتكين، هو ٦٢٥

٣٧- ب. فيتل، «روزا لكسمبورج» (لندن ١٩٦٩) ص٣٧١-٣٧٢

٣٨- تونيسين، ص ١١٩

٣٩- كواتايرت، ص ٤٨٨

٤٠- ألبريخت، ص ٤٨٨

٤١- للإطلاع على سرد منفصل لأحداث الثورة التى تلت الحرب العالمية الأولى فى ألمانيا، ولفشل الحركة الاشتراكية الثورية، انظر كريس هارمان «الثورة التى ضاعت: ألمانيا ١٩١٨: ١٩٢٣»، (لندن ١٩٨٢).

٤٢- ر. ويلر «حول البنية الإجتماعية للحركة العمالية عند قيام جمهورية فيمار» (دوسلدورف ١٩٧٤) ص ١٨٢

٤٣- تونيسن، ص ٩٠-٩١

٤٥- تونيسن- ص ٩١-٩٢.

٤٦- كواتايرت ص ٢٢٣.

٤٧- كواتايرت ص ١٢٢.

٤٨- إيفانز، «الحركة النسائية» ص ١٤٧-١٤٩، ١٥١

٤٩- إيفانز، ص ١٥٤-١٥٥.

٥٠- إيفانز، ص ١٥٧

٥١- إيفانز، ص ٢٠٨

٥٢- إيفانز، ص ٢٤٤.

٥٣- إيفانز، ص ١٥٤.

٥٤- إيفانز، ص ٢٥٩.

الفصل السادس:

الماركسيات والعاملات الروسيات

دامت المعركة بين الحركتين النسائتين البرجوازية والاشتراكية فى روسيا فترة طويلة بالمقارنة مع مثيلتيهما فى ألمانيا، وكانتا كلتيهما أصغر كثيراً من الأخيرتين، وعمرهما أقصر كثيراً أيضاً، إلا أن الصراع بينهما كان أكثر حده وعنفاً منه فى ألمانيا.

الحركة النسائية للنبيلات

حتى ثورة عام ١٩٠٥، لم تكن هناك حركة نسائية تذكر فى روسيا، وإن وجدت جماعات نسائية. ففى ظل المناخ الذى خلقه إلغاء القنانه وإصلاحات محدودة أخرى عام ١٨٦١ على يد القيصر ألكسندر الثانى، بدأ الناس يحلمون بحريات أخرى ومن هؤلاء كانت بعض بنات النبالة، اللاتى أنشأت جماعة منهن عام ١٨٥٩ أول جماعة نسائيةفى روسيا وأصدرت هذه مجلة باسم «راجفيت» (مجلة للعلوم والفنون والأدب للبالغات)، مكرسة لنضال حذر من أجل رفع مستوى ثقافة النساء «يتفق مع روح التعاليم المسيحية»(١) ومثل هذه الدعوة لم تكن لتشعل حماس جمهرة النساء الروسيات، فى وقت كانت خمس أو ست فى كل مائة منهن تستطيع القراءة بالكاد، وواحدة فقط من هؤلاء لديها أى تعليم أعلى على الإطلاق.(٢) ورغم أن محو الأمية انتشر ليبلغ نسبة ٢١ فى المائة مع نهاية القرن، كانت فتاة واحدة فقط من كل ثلاثمائة تذهب إلى المدرسة الثانوية فى عام ١٩٠٩.(٣)

فى نفس العام الذى تأسست فية راجفيت، تكونت جماعة نسائية من فاعلات الخير باسم «جمعية توفير السكن الرخيص ومعونات أخرى لسكان سانت بطرسبورج»، وبدأت أكثر مشروعاتها طموحاً فى عام ١٨٦٨، وكان ورشة ضخمة لصنع الملابس، تستخدم ما يتراوح بين ثلاثمائة وخمسمائة من العمال، وتقوم أساساً بتقديم طلبيات من الزى العسكرى لوزارة الحربية.(٤) كما نظمت الجمعية مطابخ مجانية ومدرسة للأمهات العاملات.(٥)

وبدواعى مماثلة نشأت جمعيات أخرى، واحدة «لمساعدة المعوزات» وأخرى «لترويج الكتب المفيدة» وثالثة «للتشجيع على حب العمل».

ومن هذه البدايات الصغيرة ذات الطابع الخيرى، خرجت تطورات أكبر، ففى عام ١٨٩٣ تأسست «جمعية العمل الانسانى المتبادل للنساء الروسيات».(٦) وبلغت عضويتها ألفان عام ١٩٠٠، وكانت تدير سكناً من ستين غرفة للمتعلمات، وآخرللإقامة المؤقتة وكافيتريا، ومكتب تشغيل، ومركزاً الرعاية أطفال النساء العاملات، كما نظمت محاضرات عن «تربية الأطفال بدنياً وعقلياً

وأخلاقياً»، ولجاناً خاصة لرعاية ضحايا الفيضانات والمجاعة.(٧)

وفي عام ١٩٠٠ تأسست «الجمعية الروسية لحماية النساء» لمكافحة الدعارة، وترأستها بالتبادل أميرتان «يفيجيي أولدلنبرجسكايا» و«إيليا ساكس ألتنبرجسكايا»، وقد امتلأت مناصبها بالنبيلات صاحبات الألقاب ومحبات الإنسانية الثريات من أمثال البارونة جينسبرج والكونتيسة بانينا.(٨) كتب ستايتس مؤرخ الحركة النسائية الروسية:

«كان الإشفاق المتوجس والورع المؤمل خيراً هما المكونان الرئيسيان لموقف الحركة النسائية إزاء العاهرات، وتمثل مردود هذه الأحاسيس في رعاية من سقطن وتزويدهن بالقوة الروحية لمقاومة العودة للشوارع....

«كانت أعمال الخير التقليدية لدى سيدات الطبقة الراقية الروسيات تزينها القيادة البراقة للقيصرات وأرامل القياصرة والاميرات، وكانت الأنشطة في العادة ذات طابع محدود وراق ولاشخصي».(٩)

الحركة النسائية البرجوازية

تيقظت ملايين النساء في عام ١٩٠٥، عام الثورة، من الطبقة العاملة والبرجوازية والبرجوازية الصغيرة. كتبت ألكسندرا كولونتالي وهي تسترجع أحداث هذه الفترة:

«في ١٩٠٥ لم يكن هناك ركن في البلاد، إلا ويسمع فيه صوت امرأة بشكل أو بآخر، تتحدث عن نفسها وتطالب بحقوق جديدة».(١٠) ولأول مرة انعقدت اجتماعات علنية للمطالبة بحقوق النساء، في موسكو وسانت بطرسبورج ومينسك ويالتا وساراتوف وفيلنا وأوديسا.(١١)

وفي أواخر فبراير ١٩٠٥ أنشئت منظمة سياسية نسائية، مكونة أساساً من نساء الطبقة المتوسطة و«المثقفات» تحت إسم «نقابة مساواة حقوق النساء». وكانت لقياداتها صلات وثيقة بنقابة المعلمين وضمت عدداً من الصحفيات،

وتدعمت صفوفها بشخصيتين من الدوائر السياسية التى أصبحت فيما بعد حزب الكاديت، وهما آنا ميليوكوفا وآريادنا تيركوفا.(١٢)

نمت نقابة مساواة حقوق النساء نمواً سريعاً، ففى سنة ٧مايو ١٩٠٥ بعث سته وعشرون فرعاً من تسعين مدينة وبلده بسبعين مندوبة إلى «المؤتمر التنظيمى الأول» الذى انعقد لثلاثة أيام فى موسكو.(١٣) وفى هذا المؤتمر طرح عدد من النساء العاملات مشروع قرار يؤكد على احتياجات عاملات الصناعة والفلاحات، مثل مساواة الأجر عن العمل المتساوى والخدمات الإجتماعية للأمهات والأطفال، ولكن البرجوازيات، اللاتى كن يشكلن أغلبية فى المؤتمر، رفضن هذا الإقتراح، ثم قدمن مشروع قرار يدعو فقط إلى وحدة النساء من جميع الطبقات الإجتماعية فى النضال من أجل الشكل الجمهورى فى الحكم وحق الإقتراع العام دون تمييز على أساس الجنس أو القومية أو الدين.(١٤) علاوة على ذلك طالب البرنامج بالاستقلال للقوميات، ومساواة الجنسين أمام القانون، وحقوق متساوية للفلاحات فى أى إصلاح زراعى، وبوضع قوانين للخدمات الإجتماعية، وتأمينات إجتماعية للعاملات وحمايتهن، وبمساواة الفرص أمام النساء، وبالتعليم المشترك فى كل المراحل، وإصلاح القوانين الخاصة بالدعارة، وإلغاء عقوبة الإعدام. كان برنامج إصلاح برجوازى راديكالى فى شكلة الكلاسيكى.

وحين انعقد المؤتمر الثانى لنقابة مساواة حقوق النساء فى ٨ أكتوبر ١٩٠٥، فى ذروة الثورة، مضى إلى أبعد فطالب بمقاطعة انتخابات الدوما أو البرلمان، مقتفياً خطى البلاشفة والمناشفة والاشتراكيين الثوريين. وفى المؤتمر أعلنت العضوات «أن أهداف الأحزاب الإشتراكية هى الأقرب لأهداف النساء» وحملن راية كتب عليها «اقتراع عام دون تمييز على أساس الجنس»، ومشت عضوات نقابة موسكو فى مظاهرة جنازة نيكولاس باومان، وهو بلشفى قتلته الشرطة، حيث جرحت إحداهن أثناء إطلاق الشرطة النار على المتظاهرين. ورغم أن عضوات النقابة شاركن فى مظاهرات أخرى وفى العمل فى لجان الإضراب، فقد كان جزء كبير من نشاطهن يتصل بأعمال المساعدة، مثل إقامة مطابخ الحساء، ومحطات الإعانة الأولية وتقديم خدمات للعاطلين عن العمل. وأثناء الصدامات

مع عصابات المائة السود العنصرية أو الجيش والشرطة، كن يعملن كمساعدات للأطباء.(١٥)

تواكبت الحقبة الأكثر ثورية فى تاريخ النقابة مع ذروة النشاط الثورى العام فى البلاد ، أى من الإضراب العام فى أكتوبر وحتى انتفاضة موسكو فى ديسمبر ١٩٠٥ غير أنها كانت منظمة تفتقر إلى الانضباط، وقد أهمل عدد من فروعها الدعوة إلى مقاطعة الدوما وتبع الكاديت، وفى مؤتمرها الثالث فى ٢١ مايو ١٩٠٦ ألغت قرار المقاطعة».(١٦) وقد بلغت عضويتها فى ذلك العام ثمانية آلاف.(١٧)

«الحزب النسائى التقدمى» كان منظمة نسائية برجوازية أخرى تأسست عام ١٩٠٥، بزعامة د. ماريا إيفانوفنا بوكروفسكايا، التى مثلت النزعة النسائية الإنفصالية الأكثر تطرفاً فى الحركة. ومنذ عام ١٩٠٤ وحتى ١٩١٧ أنفقت بوكروفسكايا قسطاً كبيراً من وقتها ومن أموالها على صحيفة (رسول النساء)، التى كانت تحررها وتنشرها بمفردها تقريباً من شقتها. وقد خصصت مساحة من صحيفتها لعرض أحوال عاملات المصانع وخادمات المنازل والعاهرات والفلاحات، بصورة أكثر انتظاماً بكثير من غيرها من الصحف النسوية، وذلك على حد قولها لأنه:

«من الواضح أن النساء الطامحات للمساواة فى الحقوق لايمكنهن أن يضعن أملهن فى البرجوازية والأرستقراطيات. إن من يعملن هن اللاتى جربن ويجربن الآن كل ثقل غياب الحقوق، وهؤلاء هن اللاتى يمكننا الاعتماد عليهن الآن».(١٨)

واهتمت بوكروفسكايا اهتماماً تفصيلياً بالعاملات، داعية لا للإصلاح العام فى أحوال المصانع وحسب، بل ومطالبة بإيجاد مفتشات فى المصانع، وإجازة حمل مدفوعة بالكامل لمدة عشرة أشهر، وتقديم تسهيلات لرعاية صغار الأطفال فى المصانع، وبالأجر المتساوى عن العمل المتساوى. كان الحزب النسائى التقدمى واحداً من تلك الجماعات الروسية الليبرالية التى كانت إصلاحيتها الإجتماعية تمضى إلى أبعد كثيراً من مثيلاتها الأوربيات، فقد دعى إلى «إلغاء توزيع الثروة غير العادل والأجر العادل للعمال»، واتخاذ إجراءات

لتحسين الصحة العامة ولكنه كان ضد تشريعات الحماية للعاملات. وقد صاغت الملامح الأساسية للبرنامج، الدعوة «لتدمير الجهاز العسكرى» واستبدال ميليشيات بالجيوش، و«توحيد كل شعوب روسيا باسم الأفكار الإنسانية العامة»، وذلك عدا نقطة واحدة هامة فيه. والمفروض أن يتحقق كل ذلك بالتفاهم مع أسرة رومانوف المالكة، بعد إصلاحها وجعلها دستورية!(١٩)

إلا أن بوكروفسكايا اعترضت على المنحى الكفاحي للطبقة العاملة، استناداً إلى مبادىء إنسانية ودواعي نسائية أيضاً. فقد عارضت الإضرابات بسبب من عواقبها على النساء،

«نتساءل: من الذى يتحمل العبء الأساسى للإضراب؟الزوجة والأم... فليمكث الرجال فى البيت مع الأطفال الجوعى أثناء الإضراب، ولتترك للنساء حرية الابتعاد عن صرخات الجوع!»(٢٠)

وعلى العكس من نقابة مساواة حقوق النساء استبعد حزب بوكروفسكايا الرجال، وعارضت الاشتراكيين، طالما أنهم، مثل كل الأحزاب السياسية، يقودهم الرجال. الأمر الذى يؤيد وحسب سيطرة الرجال وسلبية النساء ولم تكن متعاطفة مع النضال الطبقي:

«إن كل امرأة تطمح إلى المساواة يجب أن توصف بالنسوية، سواء كانت مالكة أراض أو فلاحة، زوجة مالك المصنع أو عاملة، تتمتع بامتيازات أم لا، فعند الحركة النسائية المدافعة عن حقوق المرأة لاطبقات هناك ولا مراتب قانونية ولامستويات ثقافية، إنها فكرة تساوى بين الجميع».(٢١)

كانت تبغض العنف الثورى، وكتبت وقت انتفاضة ١٩٠٥ فى موسكو: «ليس بالعنف والقتل نستطيع خلق الحياة من جديد، وإنما فقط بالإصلاح السلمى».

لم يجتذب الحزب النسائى التقدمى من الطبقة المتوسطة أو الطبقات العليا أكثر من حفنة تعد على أصابع اليد، بينما لاحظت كولونتاى أن سلوك العضوات ورداءهن وحديثهن كان يشعر نساء الطبقة العاملة بالغربة.(٢٢)

أثناء ثورة ١٩٠٥ نظمت جمعية العمل الإنسانى المتبادل للنساء الروسيات حملات التماس محمومة موجهة للمؤسسات والشخصيات العامة، ففى عام

١٩٠٥ وحدة قدمن ٣٩٨ التماساً للمجالس المحلية الزيمستفو»، و١٠٨ التماساً للإدارة البلدية طلباً لتأييد حقوق النساء، وبعثن بالبريد ٦ الاف نداء لهيئات مختلفة إجتماعية وحكومية، وأرسلن التماسات لخمسة من الحكام العامين، وثمانين محافظاً وستة وأربعين مارشال نباله، طلباً لإقرارهم لمساواة حقوق النساء.(٢٣)

النساء في الحركة الثورية

القائمة المتوفرة التي يمكن الاعتماد عليها أكثر من غيرها بأسماء الثوريات هي تلك الخاصة بأسماء المعتقلين، وتبين هذه القائمة إنه من بين ألفى شخص اعتقلوا في ستينيات القرن التاسع عشر كانت هناك ست وخمسون امرأة أى ثلاثة في المائة.(٢٤)

وفي السبعينيات ارتفعت النسبة ارتفاعا كبيرا، فبلغ عدد الثوريات سبعمائة من أصل ٥ر٦٦٤ معتقلا، أي زادت على ١٢ في المائة. وكما هى الحال عند الرجال، كانت جميع الثوريات تقريبا في أعمار تتراوح بين العشرين والثلاثين، غير أن نسبة الانتماء للأرستقراطية أعلى كثيرا بينهن مما وسط الرجال، فهي تبلغ نحو ثلثى الثوريات المنخرطات بعمق في النشاط في الأعوام من ١٨٧٣ الى ١٨٧٧، وأربعة على الأقل منهن بنات جنرالات، وجميعهن- عدا اقلية ضئيلة - حصلن على تعليم ممتاز، الكثيرات من جامعات أوربية، وفيما بعد عام ١٨٧٦ من جامعات روسية (٢٥)

فيما بين عامى ١٩٠١ و١٩١٦ كانت نسبة النساء في الحزب الاشتراكى الثورى الذى انبعث من حركة الشعبيين، ٣ر١٤ في المائة (٢٦) وقد انخرطت النساء بشدة في تنفيذ المهام الارهابية، حيث توفر الأنوثة ميزات تكتيكية كبيرة، ولقد دفعن ثمنا غاليا لنشاطهن: فمن أصل ثلاثة وأربعين ثوريا صدرت ضدهم أحكام بالسجن مع الأشغال الشاقة مدى الحياة عقوبة على

أنشطة ارهابية فى الفترة بين ١٨٨٠ و١٨٩٠، كانت هناك إحدى وعشرون امرأة.(٢٧)

أما بين الماركسيين الذين اكتسبوا وزنا فى تسعينيات القرن الماضى ومطلع القرن الحالى، فكانت نسبة النساء أصغر كثيرا، ومما يؤسف له أن المعلومات بهذا الشأن قليلة. فى المؤتمر السادس للحزب البلشفى المنعقد فى أغسطس ١٩١٧، اشتركت عشر نساء من أصل ١٧١ مندوبا، أو ٦ فى المائة من الاجمالى. ولم يتم اجراء احصاء شامل لأعضاء الحزب قبل عام ١٩٢٢، وحينئذ كانت النساء تشكل أقل قليلا من ٨ فى المائة من اجمالى عضوية الحزب الشيوعى (٢٨) وقد اجتذبت حركة الشعبيين والحركة الارهابية قدرا أكبر من النساء، ومعظمهن من فئة المثقفين، بتركيزهما على الأعمال الفردية البطولية، بينما كان النشاط الأساسى للماركسيين هو التحريض والتنظيم وسط العمال الصناعيين، حيث كان تنظيم النساء صعباً.

النساء والنضال الصناعى

إنخرطت النساء فى النشاط بالفعل مع دخول الطبقة العاملة ساحة النضال الصناعى، وأفضل راوية لقصة نضال العاملات الصناعيات فى الفترة مابين ١٨٧٠ و١٩٠٥ هى ألكسندرا كولونتاى، وهى من الشخصيات البارزة فى الحركة الثورية:

«إن حركة العاملات هى بحكم طبيعتها ذاتها جزء لايتجزأ من الحركة العمالية العامة.. فى جميع الهبات والاضطرابات التى وقعت فى المصانع، تلك التى كانت بغيضة كل البغض على قلب القيصرية، شاركت المرأة بقسط مساو مع العامل، جنبا الى جنب معه... لقد لعبت العاملات دورا فعالا فى الاضطرابات التى وقعت فى مصنع كرينتجلمسكايا عام ١٨٧٤، وشاركت النساء فى إضراب مصنع نوفايا برياديلنا ببطرسبرج عام ١٨٧٨، وفى عام

١٨٨٥ قادت العاملات عمال النسيج في الاضراب الشهير الذي وقع في أوريخوفو زيفويو ، وحين دمرت مباني المصنع وهرعت الحكومة القيصرية للتدخل، صدر قانون في ٣ يونيو يحظر العمل الليلي للنساء وصغار الشبان.

وكذلك «تمرد ابريل» في مصنع ياروسلاف عام ١٨٩٥، تم ايضا بمساعدة النساجات وبتأثيرهن، ولم تترك عاملات سانت بطرسبرج رفاقهن أثناء الاضرابات الاقتصادية المتقطعة في الفترة مابين ١٨٩٤ و١٨٩٦، وحين اندلع الاضراب التاريخي لعمال النسيج في صيف ١٨٩٦ انضمت العاملات للعمال في التوقف الاجماعي عن العمل.

«في أوقات الاضطرابات والأعمال الاضرابية، تكبر فجأة المرأة البروليتارية، المنكسرة المتحرجة والتي لاحقوق لها، وتتعلم كيف تقف باستقامة وإعتداد.. إن المشاركة في الحركة العمالية تضعها على طريق تحررها، لاكبائعة لقوة عملها وحسب، بل وأيضا كامرأة وزوجة وأم وربة بيت»

ولاترسم كولونتاي صورة مثالية لنساء الطبقة العاملة، بل تقدم الصورة كاملة بمافيها من نقائص، فهي تلاحظ افتقارهن للمثابرة وضعف العنصر السياسي الاشتراكي في صفوفهن:

«.... ماإن تخفت موجة النشاط الاضرابي ويعود العمال الى العمل سواء بالنصر أو الهزيمة، تتشرذم النساء وينعزلن ثانية».

أما تلك الحفنة من النساء في المنظمات السرية للحزب فكن من المثقفات، واستحال إقناع العاملات بحضور الاجتماعات السرية أو «المشروعة حيث كان يجرى تعليم الماركسية والاشتراكية الثورية«تحت ستار اعطاء دروس لاضرر منها في الجغرافيا والحساب، كانت العاملات مايزلن يتجنبن الحياة والنضال ، معتقدات أن قدرهن هو اناء الطهي، ووعاء الغسيل ومهد الطفل..» ولكنها كتبت أيضا «أن الصورة تتغير سريعا ما أن يلوح علم الثورة الأحمر عالياً فوق روسيا.. في عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ الثوريين كانت العاملات... في كل مكان... وكي نوفي البروليتاريات حقهن في وصف تضحيتهن بالذات ووفائهن لمثل الاشتراكية ، سيكون علينا أن نصف أحداث الثورة مشهدا

مشهدا ». (٢٩)

بذل كلا الجناحين فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى، البلشفى والمنشفى، وكذلك الاشتراكيون الثوريون أقصى ما فى وسعهم لاجتذاب النساء الى النقابات. ورأت نقابة النسيج لمنطقة موسكو التى كان يسيطر عليها البلاشفة فى عام ١٩٠٦ أن «الحل الوحيد لمشاكل تحسين وضع الطبقة العاملة بصفة عامة والنساء بصفة خاصة، تنظيم البروليتاريا »، ومع افتراض أن «النساء»، بسبب من وضعهن الاقتصادى والمنزلى، أقل قدرة بكثير على الدفاع عن أنفسهن فى مواجهة استعباد واستغلال رأس المال إقترحت النقابة «اتخاذ جميع الاجراءات الكفيلة باجتذاب النساء إلى النقابات وجميع المنظمات العمالية الأخرى على أساس المساواة مع الرجال».

«ولقد عكست المطالب الأضرابية فى فترة ١٩٠٥-١٩٠٧ حاجات العاملات فى كثير من الحالات، فيندر ان تجد وثيقة إضرابية فى الصناعات التى تستخدم النساء إلا وتشير بشكل ما إلى مطالب الإجازة المدفوعة الأجر للأمومة (أربعة أسابيع قبل الوضع وستة أسابيع بعده عادة)، ومدة تأخير لرضاع الأطفال وبناء حضانات فى المصانع» (٣٠)

وخلافا لما حدث فى بريطانيا أو ألمانيا، فتحت أبواب النقابات على اتساعها للنساء منذ البداية فى روسيا، إلا أن مصاعب تنظيم النساء كانت حادة، فاولا كان هناك المستوى المنخفض للتعليم حتى فى حدود القراءة والكتابة، والذى كا. يتجاوز الرجال كثيرا، ثم انخفاض أجور النساء، حيث كانت تعادل نصف أجو. الرجال فى الإنتاج الصناعى عام ١٩١٣، (٣١) ثم هناك العبء المزدوج لامرأ عاملة وربة بيت فى الوقت نفسه... وعلى ذلك كانت النساء تفتقر للثق بالنفس، وقد عبرت عاملة عن مشاعر العاملات إزاء الاشتراك فى الجماعا. العمالية كمايلى:

«حسنا، إننى أود فعلا التعبير عن نفسى، ولكن يحدث أننى أفكر ف الأمر مليا، سيكون هناك كثيرون، وسينظر الجميع إلى فماذا اذا ضحك أحد»

على كلامى،فيجمد الدم فى عروقى وامتلئ رعبا من هذه الأفكار، وهكذا فإنك ترغب فى صمت،ولكن قلبك متورم». (٣٢)

والنتيجة هى مستوى منخفض للغاية لتنظيم النساء فى نقابات بلد حركته النقابية متعثرة على أية حال. وكانت الصناعات التى تستخدم النساء بكثرة متخلفة بوجه خاص، وهكذا فى عام ١٩٠٧ كان ٢ر١ فى المائة فقط من عمال الملابس و٩ر٣ فى المائة فقط من عمال النسيج منظما فى نقابات ، مقابل ٤٣ فى المائة من عمال الطباعة و٦ر٨ فى المائة من المهندسين (٣٣) وكانت نسبة النساء فى النقابات ضعيفة، ففى نقابة عمال النسيج فى موسكو على سبيل المثال شكلت النساء ٤ر٤ فى المائة فقط من عضوية النقابة ، أما فى سانت بطرسبورج والمنطقة الصناعية المركزية فكانت النسبة أعلى، وإن بقيت ضعيفة للغاية (٣٤) وفى السوفييتات، أو المجالس العمالية- التى أقيمت عام ١٩٠٥ كان تمثيل النساء أقل مما يجب أيضا، فبينما كن يمثلن خمسيى الطبقة العاملة فى بطرسبورج، اشتركت ست نساء فقط من أصل ٥٦٢ مندوبا.

فى أعقاب ثورة ١٩٠٥

فقط فى عام ١٩٠٥ ، حين تراجعت الحكومة أمام الحركة الشعبية الناهضة، أصبح بالأمكان تنظيم العاملات على نطاق واسع، ووجدت الماركسيات أنفسهن أمام منافسة حادة من الحركة النسوية البرجوازية، وبسبب صعوبة تنظيم النساء بالمقارنة مع الرجال، ومايستتبع ذلك من ضعفهن، فقد تأثرن بالمنظمات النسائية البرجوازية على نحو أعمق كثيرا مما تأثر العمال بحزب الكاديت الليبرالى، الذى كان تأثيره عليهم محدودا للغاية.

وبذلت نصيرات حقوق المرأة البرجوازيات مجهودات لجذب العاملات، وبداية فقد نجحن، ففى عام ١٩٠٥ أسسن أربعة نوادى سياسية نسائية موجهة

للعاملات فى سانت بطرسبورج واستمرت هذه النوادى مدة شهرين قبل أن تغلقها الشرطة (٣٦) غير أن كثيرات من العاملات قاومن تجنيدهن من قبل المنظمات الاشتراكيات الديمقراطيات، فقد طلبت مجموعة منهن من مصنع أندريف فى موسكو إلى الفرع المحلى لنقابة مساواة حقوق النساء إرسال بعض المحرضات من «نقابة مساواة حقوق النساء» لأن الاشتراكيات الديمقراطيات «صارمات للغاية».

وأحيانا ماعمل منظمو الحزب الاشتراكى الديمقراطى بالتعاون مع الحركة النسوية وفى واحدة من هذه الحالات استخدم منظم اشتراكى ديمقراطى للنساء الأدب الذى توزعه، وكان يحصل على مساعدة نقابة مساواة حقوق النساء ومشورتها، وكانت العاملات يحضرن الاجتماعات النسوية، ويدعين متحدثات من نقابة مساواة حقوق النساء إلى مصانعهن. (٣٧)

ولكن الجماعات التى نظمتها النسويات البرجوازيات إن تكن قد صعدت سريعا فقد تحللت سريعا أيضا. أحد الأسباب هو عمق الهوة مابين السيدات البرجوازيات والبرجوازيات الصغيرات من جهة ونساء الطبقة العاملة من جهة أخرى ، ويقدم مثال الخادمات نموذجا جيدا لإيضاح ذلك. فقد ساعدت نقابة مساواة حقوق النساء فى إقامة نقابة للخادمات فى موسكو وعدد من المدن الأخرى، وذكرت س.ك. ايسبولاتيفا وهى عضو بالمكتب المركزى للنقابة، أن طاهيتها كانت تنظم اجتماعات للخدم- فى مطبخها عادة- وكانت إيسبولاتيفا تقود هذه الإجتماعات، وحين زاد العدد كثيرا ، انتقلت المجتمعات إلى مدخل سلم الخدم، وكانت مقصورة دائما على أماكن الخدم. (٣٨)

وقد علقت كولونتاى على ذلك :«لقد حاولن إقامة نقابة على الطراز الرعوى*، تجمع المستخدمات الفخمات مع خادمات المنازل... لقد اجتهدن من أجل تنظيم الخادمات تحت العيون اليقظة لسيداتهن». (٣٩)

وفى خاركوف نظم الفرع المحلى لنقابة مساواة حقوق النساء لجنة خاصة لدراسة وضع خادمات المنازل، وردا على ذلك دعت الاشتراكيات الديمقراطيات اجتماعات الخادمات الى إيضاح«استحالة القبول بمشروع يصاغ بمشاركة وثيقة من مستخدماتهن وبقيادتهن». وفى تلك الإجتماعات طورت الخادمات اقتراحاتهن الخاصة، فطلبن وضع حد أدنى للأجور، ومعدل ثابت ليوم العمل،

والحق فى إجازة أسبوعية، ورحبت غالبية الخادمات بهذا المشروع. أما غالبية نصيرات الاتجاه النسوى، فقد جاء «مخيباً لآمالهن» حسب رواية كولونتاى، فقد وصلن الى استنتاج مفاده أن جهودهن فى تنظيم النساء العاملات قد فشلت، وعدلن سياستهن، فقد قررت عضوات نقابة مساواة حقوق النساء حصر نشاطهن وسط العاملات فى الدعاية العامة، كما فى مدارس الأحد وفصول التدريس للعاملات فى بعض المصانع، والعمل فى كافيتريات ومطابخ الحساء وجمع التوقيعات على العرائض.

وقد تدخلت الاشتراكيات الديمقراطيات فى اجتماعات للعاملات نظمتها نقابة مساواة حقوق النساء، إلا أن مواقفهن كانت متباينة. فقد كانت الاشتراكيات الثوريات والمنشفيات يؤمن بالحاجة الى إقامة تحالف عريض يجمع الاشتراكيات والليبراليات (٤١)، وعارضت البلشفيات ذلك.

لم تقم كولونتاى، التى انضمت للماركسيين فى عام ١٨٩٦، بعمل تنظيمى

* طراز من الرسم والشعر انتشر وسط الطبقات الإقطاعية فى فترة من الفترات، يشيد بعذرية الحياة الريفية. المترجمة.

بين النساء حتى شتاء عام ١٩٠٥، ورغم أنها لم تكن قد انضمت بعد للبلاشفة- فقد كانت واحدة من أعلى الأصوات فى معارضة أى تحالف (٤٢) ودافعت عن إبقاء «حدود طبقية صارمة»، وعن أن يكون تنظيم نساء الطبقة العاملة فى إطار النقابات والحركة الاشتراكية الديمقراطية (٤٣)، واتخذت موقف المعارضة التامة من نصيرات النسوية، ودائماً ما كانت تشير لهذا التعبير بازدراء، وعرفته كما يلى: «الحركة النسوية هى نضال البرجوازيات من أجل الاتحاد والتكاتف، لكى يقمن بصد العدو المشترك، الرجال»(٤٤) وأثناء عام ١٩٠٥ حضرت العديد من إجتماعات الحركة النسوية لكى تدين قياداتها وتدعو العاملات للإنفصال عنهن، ولم يكن طريقها ممهداً، فكثيراً ما واجهت صيحات «ياقطاعة الطرق»! و«إنك تجلبين الفوائد عليا لمائة السود«و» الشنق قليل عليك».

حاولت البلشفيات والمنشفيات إنشاء نواد للعاملات، رغم معارضة بعض الاشتراكيات البارزات مثل فيرا زاسوليتش، وقد أسفرت محاولة كولونتاى

الأولى التى أقرتها لجنة الحزب فى بطرسبورج، عن كارثة، فرغم أن الحزب وعد بتوفير مكان للإجتماع، حين وصلت كولونتاى ومعها عدد من العاملات وجدن لافته على الباب كتب عليها.

«لقد ألغى إجتماع **للنساء فقط**، وغداً سيكون إجتماع **للرجال فقط**»(٤٦)

جاءت نتائج إنشاء نواد لنساء الطبقة العاملة محدوده للغاية، وقد أفتتح أول ناد نسائى عمالى بإشراف الاشتراكيات فى خريف عام ١٩٠٧ فى بطرسبورج باسم«جمعية العون المتبادل بين العاملات»، وكان نادياً شرعياً، نظمته كولونتاى ومجموعة من العاملات، وتضمن نشاطه محاضرات ومكتبة، وكان يفتح أبوابة كل مساء، وضم مايتراوح بين مائتين وثلاثمائه عضوة (كان ثلثاهما من النساء والثلث الباقى من الرجال)، ولم يرتبط بفصيل ثورى بعينه، وكان هذا مقصوداً، فشارك فيه البلاشفة والمناشفة، وفى عام ١٩٠٨ انقسم النادى إثر عراك بين الفصيلين، حيث طالبت جماعة بصورة صاخبة باستبعاد كل «المثقفين»، وانسحبت كولونتاى باعتبارها من المثقفات.

* المائة السود: جماعة يمينية متطرفة كانت تغتال الثوريين فى روسيا.(٤٥)

وبينما حلت جميع النوادى النسائية العمالية فى بطرسبورج فى نهاية عام ١٩٠٨، بقى خمسة عشر ناديا عمالياً يضم نساء ورجالاً معاً، وكان مجموع عضويتها ستة آلاف يشكل النساء نحو خمسهم، وكانت تلك النساء من الشابات غالباً (حوالى الثلثين تحت سن الخامسة والعشرين) ويجدن القراءة والكتابة، وفيما يتعلق بالناديين اللذين تتوافر معلومات عنهما كانت نسبة هؤلاء ٩٦.٦ فى المائة فى واحد و٩٩.٥ فى المائة فى الآخر(٤٧)

المؤتمر النسائى الأول لعموم روسيا

مع تراجع المد الثورى تراجع أيضاً نشاط الحركة النسائية، وكان المؤتمر

النسائي الأول لعموم روسيا محاولة أخيرة لإحيائها ، وقد عقد في نهاية عام ١٩٠٨ وامتد أسبوعاً. وسوف يفيد إلقاء نظرة على المؤتمر في إيضاح العلاقة بين الاشتراكيات والنسويات البرجوازيات.

كانت عضوات كل من جمعية العمل الإنساني المتبادل النسائية ونقابة مساواة حقوق النساء قد تكاتفن للإعداد للمؤتمر على مدى مايقرب من عام، أملا في أن يسفر عن إنشاء منظمة نسائية موحدة. وأرادت آنافيلو سوفوفا خاصة، - وهي احدى مؤسسات الحركة النسائية المخضرمات في روسيا ، وقد تجاوزت السبعين من العمر أن تتوج سنوات نشاطها النسائي بإقامة مجلس وطني للنساء الروسيات وقد تساءلت أمام عضوات المؤتمر: «كيف يمكننا أن نكسب حقوقاً وتأثيراً سياسيين واجتماعيين، إذا كنا نحن أنفسنا عاجزات عن توحيد وحشد قوة النساء»(٤٨)

وكان شعار المؤتمر هو «حركة نسائية لابرجوازية ولابروليتارية، بل حركة لكل النساء».

وفي الخريف أنشأ عمال النسيج لجنة تنظيمية واتصلوا بالنقابات الأخرى، وحصلوا في النهاية على موافقة كاملة من المكتب المركزي للنقابات في سانت بطرسبورج وكانت اللجنة مكونة من أعضاء نقابات عمال البيع والطباعة والخياطين وكتبة الحسابات وصانعي الحلوى، ثم انضم إليهم فيما بعد مندوبون من النوادي العمالية. (٤٩)

وكان لهذا الاهتمام المتصل من جانب العمال بالمؤتمر أثره على البلاشفة الذين كانوا يعارضونه، فقرروا المشاركة فية، وقد كتب أحد البلاشفة الذين حضروه فيما بعد عن الأوهام التي سبقته:

«كانت كل عاملة تريد أن تعرض أحزانها المخزونة أمام هذا المؤتمر، «أمام البروليتاريا بأسرها» ورغم أننا قلنا مراراً أن المؤتمر لن يعطينا شيئاً، وأننا ذاهبون إليه فقط بغرض التحريض، فقد رأينا نفس الأوهام على وجوه المندوبين».

ولتبديد «الأوهام» كان البلاشفة راغبون في مواصلة الاشتراك بحد أدنى، وكانوا في البداية قد طلبوا من العمال باختصار أن «إذهبوا إلى المؤتمر،

واعرضوا رايتكم، ثم عودوا إلى بيوتكم! »، ولكن حين لم يشف ذلك حماسهم سلم البلاشفة بمشاركة مند وبيهم فى أعمال المؤتمر، شرط أن تقتصر على إعلان الموقف الاشتراكى الديمقراطى فقط، وإذا رفضت مطالبهم يقترحون الانسحاب من المؤتمر.

عقد مايقرب من خمسين اجتماع تنظيمى قبل المؤتمر، وتراوح عدد الحضور بين ثلاثة ومائة وخمسين فى كل منها، وتراوح عدد العاملات المشاركات بين خمسمائة وستمائة وخمسين حسب رواية كولونتاى. ونتيجة لهذه الجهود تشكلت جماعة عمالية عريضة لتمثل نساء الطبقة العاملة فى المؤتمر، وقد ميزت كولونتاى ثلاثة مواقف أساسية داخل هذه الجماعة: موقف البلاشفة الذين كانوا يريدون تخفيض التعاون مع نصيرات النسويه إلى الحد الأدنى ومغادرة المؤتمر فى أسرع وقت ممكن، والمناشفة الذين اتخذوا موقفاً معادياً، فقالوا أنهم ضد استعداء العناصر الديمقراطية فى المؤتمر ومع إقامة تحالف ديمقراطى عريض، ثم كولونتاى نفسها التى أصرت على إيضاح التناقضات بين نصيرات النسوية والاشتراكيين فى جميع النقاط الأساسية المتعلقة بقضايا المرأة. (٥٠)

أرسلت لجنة بطرسبورج فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى والتى يسيطر عليها البلاشفة بلشفيتين بارزتين كمندوبتين عن الجماعة العمالية وهما ف. سلوتسكايا التى كانت من خصوم المشاركة من قبل، وب. ف. كوديللى، ورجل هو «الرفيق» الذى لانعرف عنه أكثر من ذلك. قائلاً وحين انعقد المؤتمر فى ١٠ ديسمبر بقاعة بلدية سانت بطرسبورج، اتضح أن نساء الطبقة العاملة لايزدن على أقلية ضئيلة، إذ كن خمساً وأربعين من أصل ألف وثلاثة وخمسين. (٥١)

كانت فى المؤتمر ثلاث مجموعات، على المسرح وخلف منضدة طويلة «جلست فى صفين من المقاعد المريحة» عضوات اللجنة المنظمة، «نموذج لسيدات بطرسبورج من راعيات النشاط العام»، «زبدة» مجتمع بطرسبورج وأرستقراطية الأقاليم والبرجوازية وزوجات الوزراء وكبار المسؤلين وأصحاب المصانع والتجار، وفاعلات الخير الشهيرات. (٥٢) وعلى الجانب الآخر من القاعة، وفى تناقص حاد مع سيدات المنصة، كانت مجموعة من العاملات، قليلة العدد حيث أن المؤتمرعقد أثناء ساعات العمل، وكان بينهن قسم كبير من البلشفيات، وهى

المجموعة التى تضمنت أكبر عدد من المثقفات.

يتأكد هذا الانطباع من الإحصاءات المتوافرة عن المشتركات، وإن تكن تغطى فقط ٢٤٣ من أصل ١٠٥٣ من المشاركات رسمياً، وتنقصها معظم العاملات اللاتى تركن المؤتمر قبل توزيع بيان الأسئلة، كانت غالبية من وجهت إليهن الأسئلة (٦٠ فى المائة) مابين الثلاثين والخمسين من العمر، و٢٧ فى المائة أصغر من ذلك و١٣ فى المائة أكبر، ثم ٥٩ فى المائة متزوجات و٢٨ فى المائة غير متزوجات، و١٢ فى المائة أرامل، وواحد فى المائة فقط «زيجات حرة». أكثر من نصفهن و(٥٩ فى المائة) أتممن الدراسة الثانوية، و٣٠ فى المائة منهن تلقين تعليما عالياً، و١٦ فى المائة حصلن على معادلة مدرسة النحو ، أكثر من نصفهن يعملن، ولكن أقلية كبيرة (٤٢ فى المائة) اما لم تشر الى أعمالها أو انها لم تكن تعمل عملا مأجورا وهو الأرجح. من النساء العاملات كانت الغالبية من الطبيبات والمعلمات والكاتبات والفنانات، اذ مثلن ٧٥ فى المائة من مجموع النساء العاملات، و١٤ فى المائة من الباقى كن يعملن فى مؤسسات عامة أو خاصة، و١١ فى المائة إما طالبات أو عاملات. وكان لغالبية المتزوجات أزواج من المهنيين.

وتفجرت مرارا الصراعات ذات الطابع الطبقى، فدعت ز.س. ميرفيتش، وهى إحدى القيادات البارزة فى نقابة مساواة حقوق النساء الى الوحدة «القوة فى الوحدة، والوحدة ممكنة فقط على أساس الغياب التام للولاء الحزبى»: فردت البلشفية آنا جورفيتش:

«إن النساء اللاتى ينتمين لجماعات وطبقات مختلفة يختلفن فى الحقوق التى يحتجنها، ولابد وأن تختلف طرق نضالهن وكذلك منظماتهن. وفيما يتعلق بالعاملات فيجب أن يناضلن من أجل جميع احتياجات الطبقة العاملة»(٥٣).

وقالت واحدة من جماعة العاملات: «إن العاملات يناضلن من أجل الحقوق الكاملة....»(٥٤) بينما تكتفى البرجوازيات بالتخلص من العقبات القانونية التى تشلهن، ويواصلن فى هذه الأثناء استغلال الطبقة العاملة (خاصة خادماتهن)، وأن الماركسيين يسعون الى تدمير «السيد الأوحد للحياة

المعاصرة، رأس المال» (٥٥) وألقت كرولونتاى كلمتها التى تحمل عنوان العاملة فى المجتمع المعاصر» فى ١٥ ديسمبر:

«تقول نصيرات النسوية أن قضية المرأة هى قضية حقوق وعدالة، وتجيب المرأة البروليتارية بأنها قضية «قطعة من الخبز». ولن تستيقظ المرأة وتتطور احتياجاتها ومطالبها الخاصة إلا حين تنضم الى جيش السكان العاملين المستقل(٥٦)

«ليست للمرأة قضية مستقلة، لقد ظهرت قضية المرأة كإحدى مكونات المشكلة الاجتماعية لعصرنا، ولذا فان تحرير المرأة كعضو فى المجتمع وكعاملة وكفرد وزوجة وأم ، ليس ممكنا إلا مع حل القضية الأجتماعية العامة مع التحويل الجوهرى للنظام الاجتماعى الحالى» (٥٧)

وقد حددت إحدى نصيرات النسوية الخلافات بين جناحها فى المؤتمر ومجموعة العاملات بقدر من الأمانه:

«الأسلوبان الأساسيان للنشاط الانسانى هما الفردى والجماعى، وإن أناساً من أمثال نصيرات النسوية اللاتى يملكن مجال رؤية أوسع ووقتا وكذلك الوسيلة للتعبير عن أنفسهن فى العمل الفردى، يفعلون ذلك، آملين أن يتركوا بصمتهم الخاصة على النشاط الذى انخرطوا فية، وذلك فى النهاية هو الباعث الكامن وراء الحركة النسوية» (٥٨)

وقالت أن الاشتراكيات من جهتهن يركزن على العمل الجماعى.

وقالت زعيمة أخرى من زعيمات الحركة النسوية ، هى أولجا شابير: «فيما يخص الوحدة... أعتقد انها مستحيلة فى مجتمع طبقى، واعتبر الدعوة المستمرة لفض الوحدة من جانب حزب العمال مفيدة فى إرغامنا على التخلى عن أمل باطل»، وعلى ذلك اقترحت ان تركز الحركة على التحرير الداخلى للنساء بواسطة«رفع الوعى» (وهى عبارة كانت شائعه بين نصيرات النسوية فى ذلك الوقت) بفرض تحريرهن من أغلال عقلية عبودية»(٥٩)

وفى اليوم الأخير للمؤتمر، خرج البلاشفة فى المجموعة العمالية من المؤتمر فى شكل مظاهرة، فى إعلان واضح عن موقفهم الرافض للتعاون بين العمال والرأسماليين، ولكن المناشفة بقوا (٦٠)

بعد المؤتمر أقامت اللجنة المنظمة له وليمة فى مطعم فاخر، وقطعت بلشفية الجلسة بسؤال وجهتة بصوت عال: «لماذا لاتجلس على هذه المائدة العاملات والفلاحات والخادمات؟» (٦١)

وفى تقرير للصحافة المنشفية عن المؤتمر، وجهت النقد للجماعة العمالية لاصرارها على التأكيد على المسائل الاقتصادية وعلى «تعيين الحدود» الفاصلة بين الطبقات، وقالت أن الانفتاح المتعاطف على العاملات الذى كان يجرى التعبير عنه فى المجالس الخاصة، لم يتطور بسبب من تطرف الجماعة العمالية، وبذلك خلق العمال صعوبات،وإن لم يكن استحالة، أمام ايجاد تحالف بين العناصر اليسارية والليبرالية. وقالت أنهم «قطعوا خيوط» المصالح السياسية المشتركة، وإن تكن مؤقته، التى تربطهم بالنساء الديمقراطيات، وتركوا انطباعا بأنهم ضد الحركة النسائية بأسرها، وأنه بدا من كلامهم أن الاشتراكية هى السبيل الوحيد لعلاج الأمراض الاجتماعية.

ورأت كولونتاى فى تقريرها المنشور بنفس الصحيفة أن المؤتمر بين بمالايدع مجالا للشك «أن التعادى الطبقى، وتعارض المصالح الاقتصادية الاجتماعية يقسم عالم النساء، تماما كما يقسم عالم الرجال الى معسكرين متعادين...»، وقالت أن المؤتمر اقنع العاملات نهائيا بعبث الوحدة مع نساء الطبقات الأخرى (٦٢)

الردة والبعث

كانت سنوات ١٩٠٧-١٩١٢ سنوات ردة رجعية قاسية وحين منيت الطبقة العاملة بسلسلة من الهزائم الفظيعة، كان تراجع العاملات أشد من الجميع. ولكن مع تصاعد الحركة العمالية فيما تلا ذلك، نشطت العاملات ثانية، ووقعت اضرابات عمالية نسائية واسعة النطاق وجيدة التنظيم ومستبسله وقد كتبت المؤرخة آن بوبروف عن سنوات ١٩٠٥-١٩٢٠:

«... أخذت الاضرابات تنمى مهارات تنظيمية، وعزماً على عدم العودة

للعمل حتى الحصول على مكاسب حقيقة، ورغبة لدى النساء والرجال في مساندة بعضهما البعض. ولم يكن بالأمر النادر الحدوث أن يشرع قسم عاملات مصنع ما في الإضراب، ثم يحصل على دعم الباقين، بما في ذلك الرجال الذين يتركون الالات حينئذ تعاطفا معهن . وقد حدث على سبيل المثال في أكتوبر عام ١٩١٠ أن زادت ادارة مصنع تيكوف للنسيج مقطوعية العمل على النساء في ورشة تعمل بقوة الماء، وهو عمل كان بالغ الصعوبة حتى قبل هذه الزيادة، مما أدى الى حالتى وفاة بسبب الأفراط في العمل. وعلاوة على ذلك فإن «المعاملة الخالية من كل تهذيب من جانب الادارة أثارت السخط وسط النساء».

أضربت النساء ثم لحق بهن النساجون وعمال الغزل. ثم في النهاية الخمسة آلاف عامل في المصنع».

وفي صيف عام ١٩١٣ أضرب ألفان من العمال في مصنع باليا للنسيج ، معظمهم من النساء، لمدة ٤٧ يوما، مطالبين بزيادة الأجور وإجازة حمل للنساء مدفوعة الأجر، واستخدام دورة المياة الخاصة بصاحب المصنع ومافيه من تسهيلات للغسيل، وفي عام ١٩١٣ أضرب خمسة آلاف وخمسمائة عامل، معظمهم من النساء في مصنع المطاط في ريجا وتجددت الاضطرابات في مصنع خلودوفسكى للنسيج بعد أنتهاء اضراب خمسة آلاف مستخدم بتسوية لمطالبهم ، وذلك إثر فصل ثلاث نساء للاشتباه في تحريضهن العمال على الاضراب، ووقع إضراب آخر في مصنع حلوى وعطور في موسكو لثلاثة آلاف عامل معظمهم من النساء (٦٣)

«لعل أكثر التطورات إثارة للإهتمام في الحركة الاضرابية النسائية في الفترة من ١٩١٠ الى ١٩١٤، هو نمو وعى العاملات بحاجاتهن كنساء ،فما عدن يقبلن بالوقاحة والاستغلال الجنسى من الملاحظين وأصحاب العمل، وبدأن من جانبهن اضرابات مطلبية تتعلق باحتياجاتهن الخاصة.

«وكثيرا مابدأت اضرابات برفض نساء المصنع السماح بقهرهن على الجنس، الأمر الذى كان متفشيا كوباء، ففى مصنع جريسوف في موسكو بدأ إضراب عام ١٩١٣ لأن «موقف ادارة المصنع مقزز، ولاتوجد كلمة لوصفه سوى العهر» وتضمنت المطالب المعاملة المهذبة للعاملات خاصة ومنع السباب. وكان السبب

المباشر الذى فجر إضراب خمسة آلاف عامل فى مصنع خلودونسكى فى يارتسيف عام ١٩١١ هو المعاملة الخشنة التى تلقاها العاملات من أحد ملاحظى العمل الذى سجل إساءاته مفتش المصنع نفسه، وقد تضمنت المطالب فصل هذا الملاحظ.

«وفى مصنع لرقائق الخشب فى ريجا كانت النساء تعمل بغراء مصنوع من الدم والخثائر والمواد اللاصقة والجير، وكان الغراء يشيع رائحة فظيعة ويلتهم أيديهن، ولكن السبب التالى لسخطهن كان أن عددا من الملاحظين لايخجلون من السباب بأبذأ الألفاظ حتى مع النساء».

وفى مصانع عديدة ، رفعت المطالب المتعلقة بمشاكل الحوامل والأمهات، كإجازة للحمل، وعدم فصل الحوامل وإجازة وضع بنصف أجر، والإعفاء من الأحمال الثقيلة أثناء الحمل، والاذن بنصف ساعة مرتين يوميا للرضاع، وإنهاء سياسة عدم استخدام المتزوجات»(٦٤)

اليوم العالمى للمرأة

عقد اليوم العالمى للمرأة لأول مرة فى روسيا فى عام ١٩١٣، وقد بكر ستة أيام فعقد فى ٢ مارس (١٧ فبراير بالتقويم القديم المستخدم حينئذ) خشية تدخل الشرطة. واحتفلت الصحيفة البلشفية «برافدا» بذكرى اليوم بإصدار عدد خاص من ست صفحات، ونظمت لجنة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى بطرسبورج التى يسيطر عليها البلاشفة لجنة خاصة للاحتفال باليوم، مكونة من عاملات فى النسيج وعدد من البلاشفة وجرى الاحتفال فى خمس مدن: سانت بطرسبورج وموسكو وكييف وسمارا وتبليسى، وكان أكبرها فى بطرسبورج، فقد احتشد مايزيد على ألف شخص فى القاعة هذا غير كثيرين عجزوا عن الدخول، بينما غص المكان بالشرطة داخل وخارج القاعة، بل لقد احتلت الصفين الأماميين من المقاعد. وقد أوجزت عاملة النسيج إيا تشفسكايا معنى هذا التجمع كمايلى: «إن حركة العاملات هى فرع يصب فى النهر العظيم للحركة البروليتارية ويقويها»(٦٥)

أثارت هذه الكلمات والروح العامة التى سادت اليوم العالمى للمرأة أعصاب النسوية البرجوازية د. بوكروفسكايا فكتبت!

«كما توقعنا، لم يصدر عن يوم المرأة العمالى أى احتجاج على وضع الزوجات الخاضع لأزواجهن، لقد تحدثن أساسا عن استعباد رأس المال للبروليتاريات، ولم يشرن الى الاخضاع المنزلى إلا عرضا... لقد أخطأت السيدة كوديللى بتأكيدها أن المصالح الاقتصادية هى الأهم للعاملة، فالحرية الشخصية تحتل المقام الأعلى». (٦٦)

وختمت بالاستنتاج التالى: إن جميع الرجال يفيدون من امتيازات الذكور، وعلى جميع النساء إذن التكاتف لمحاربتها.

وفى عام ١٩١٤ رفضت الحكومة طلبا، بعقد عشر اجتماعات فى أماكن التجمع العمالى الكبيرة فى بطرسبورج للاحتفال بيوم المرأة العالمى فى ٨ مارس، وسمحت باجتماع واحد فقط أغرقته بالشرطة، وألقت القبض على ثلاثة من خمسة كانوا يعتزمون إلقاء كلمة فى المؤتمر، ورفضت ان يحل آخرون محلهم. وأثار هذا إحباطا وغضباً لدى المجتمعين، فاندفعت أعداد منهم الى الشوارع، تنشد أغانى ثورية، ولكن الشرطة فرقتهم واعتقلت أعدادا كبيرة منهم.

اختلف المناشفة والبلاشفة فى كل من العامين ١٩١٣ و١٩١٤ ، حيث أراد الأولون أن يقتصر الاحتفال على النساء، بينما أصر البلاشفة على أن تحتفل الطبقة العاملة بأسرها بيوم المرأة العالمى وليس العاملات وحدهن. (٦٧).

خلال الحرب كان الاحتفال بيوم المرأة أصعب كثيرا، ولكن رغم الحظر الذى فرضته الحكومة، جرى الاحتفال باليوم فى عامى ١٩١٥ و١٩١٦ باجتماعات واحتفالات صغيرة.

رابوتنيتسا (العاملة)

فى مطلع يناير عام ١٩١٣ بدأت الصحيفة البلشفية اليومية (برافدا) تنشر قسما خاصا تحت عنوان «العمال وحياة المرأة العاملة»، يقدم المعلومات عن جميع الاجتماعات والمؤتمرات التى ستعقد للتحضير ليوم المرأة العالمى وجميع القرارات

التى اتخذت.(٦٨) كذلك تضمنت صفحة بريد بلغ حجم ماتتلقاه من رسائل العاملات فى عام ١٩١٣ من الضخامة ماعجزت عن تغطيته، وعلى ذلك قرر مكتب الخارج للجنة المركزية للحزب البلشفى بناء على اقتراح من لينين إصدار صحيفة مستقلة موجهة خصيصا لنساء الطبقة العاملة، وأسميت رابوتنيتسا أو العاملة.

وكتب لينين الى شقيقته الكبرى آنا أوليانوفا اليزاروفا، يقترح عليها تنظيم عملية إصدار الصحيفة واختيار هيئة التحرير، وقد اختارت مجموعتين، أقرتهما اللجنة المركزية، إحداهما تقيم فى روسيا والأخرى فى المنفى بالخارج، وضمت المجموعة الأولى ب.ف. كوديللى وك.ن. صامويلوفا ول. مينشنسكايا وآنا أوليانوفا اليزاروفا نفسها، وضمت الثانية اينيسا أرمان وناديجدا كروبسكايا وليلينا زونيفييفا ولودميلا شتال اللاتى كن موزعات فى أماكن متفرقة فى المنفى. وكانت مجموعة الداخل مسئولة عن إصدار الصحيفة وكل نشاط تنظيمى يتصل بذلك.

ولأجل تمويل العدد الأول، تولت العضوات الروسيات فى هيئة التحرير أشغال خياطة، وتجاوب عدد من النساء بحماس مع نداء برافدا لجمع تبرعات لصحيفة العاملة، وقد جاء فى رسالة وقعتها مجموعة من العاملات وتعد نموذجا لموقفهن:

«.... تحيات حارة لصحيفتنا العاملة، نحن واثقات أنها ستكون معبرا صادقا عن حاجاتنا واهتماماتنا ونعدكم بتشجيعنا الدائم معنويا وماديا. إليكم تبرعا بروبلين وأربعة وسبعين كوبيكا لصندوق الصحيفة.»

اقترحت كروبسكايا خطوطا عامة لمحتويات الصحيفة، تشتمل على تناول للأوضاع السياسة الحالية، والنضالات العمالية السياسية والاقتصادية مع التركيز على تلك التى تشارك فيها النساء، وحماية العاملات فى أماكن العمل، ونضالات العاملات فى الخارج، والأسرة والعاملة.(٦٩)

وقبل بضعة أيام من موعد صدور العدد الأول ألقى القبض على جميع عضوات هيئة التحرير الروسيات فيما عدا آنا أوليانوفا إليزاروفا، وصادرت الشرطة معظم المقالات المعده للعدد الأول، وصمدت اليزاروفا حتى نجحت فى

العثور على من يطبع العدد، وظهرت اثنتا عشر ألف نسخة من العدد فى اليوم العالمى للمرأة كما كان مقررا.(٧٠) وتضمن المقال الافتتاحى الذى كتبته كروبسكايا تمييزا صارما بين البلشفية والنسوية البرجوازية، فكتبت «عما يسمى بقضية «المرأة»:

«تدافع البرجوازيات عن حقوق المرأة الخاصة بهن، إنهن يعارضن أنفسهن بالرجال دائما ويطالبن بحقوقهن من الرجال. وعندهن، ينقسم المجتمع المعاصر الى فئتين أساسيين، الرجال والنساء، الرجال يملكون كل شئ ويحوزون كل الحقوق، والقضية إذن هى قضية مساواة فى الحقوق.

«عند العاملة تختلف القضية تماما، فالنساء الواعيات سياسيا يرين المجتمع المعاصر منقسما الى طبقات... إن ما يجمع العاملة بالعامل أقوى بكثير مما يفرق بينهما، يوحد بينهما افتقارهما المشترك للحقوق، وحاجاتهما المشتركة، وظروفهما المشتركة المتمثلة فى استغلال قوة عملهما، ونضالهما المشترك وأهدافهما المشتركة«الكل للفرد والفرد للكل»، وهذه الكل تعنى أعضاء الطبقة العاملة، رجالا ونساء على حد سواء.

«إن قضية المرأة عند العمال والعاملات، هى مسألة كيف تجتذب جماهير العاملات المتخلفة الى التنظيم، كيف توضح لهن مصالحهن على نحو أفضل، كيف يصبحن رفيقات فى النضال المشترك فى أسرع وقت. التضامن بين العمال والعاملات، والقضية المشتركة، والهدف المشترك والطريق المشترك الى تلك الأهداف، ذلك هو حل قضية المرأة عند العمال... وتجتهد صحيفتنا من أجل مساعدة العاملات على اكتساب الوعى والتنظيم »(٧١)

تناولت صحيفة العاملة عددا كبيرا من مشاغل النساء: التأمين على الأمومة، والعمل النسائى ومراكز رعاية الطفل، والمعلومات عن الصحة العامة، ومشاكل العاملات فى الأسرة، وقصص الأطفال ويوم المرأة العالمى، والحق الانتخابى للمرأة. وقد نشرت سبعة أعداد فى الفترة من ٢٣ فبراير الى ٢٦ يونيو ١٩١٤ حين توقفت عن الصدور بسبب عقبات ضخمة ناجمة عن اندلاع الحرب، وقد صودر عددان من الأعداد السبعة.

تشكو آن بوبروف، وهى مؤرخة لها موقف نقدى من البلشفية، من إصرار لينين الدائم على أن تسيطر قيادة الحزب على النشاط النسائى، وكتبت فى ذلك:

«عملت البلشفيات اللاتى أدرن صحيفة العاملة بتعاون وثيق مع لينين، ورغم أن كلا هيئتى التحرير كانتا مكونتين من النساء كليا، فإن لينين رئيس تحرير الاشتراكى الديمقراطى، كان له الصوت المرجح فى حال تعادل الأصوات»

وتضيف علاوة على ذلك أن مساواة حقوق التصويت بين هيئتى الداخل والخارج كانت حيلة «لأعطاء لينين سيطرة الأغلبية على سياسة التحرير، ومعه مجموعة النساء وثيقات الصلة به»

ومن النماذج الصارخة لذلك ماحدث فى المؤتمر النسائى الدولى المنعقد فى مارس ١٩١٥ فى بيرن.

جلس لينين يحتسى شاياً فى مطعم قريب أثناء انعقاد المؤتمر...«وقدمت البلشفيات اللاتى يعملن بتوجية منه مشروع قرار... كان يدعو لقطع الصلة التنظيمية فورا مع الأغلبيات السائدة فى الأحزاب الاشتراكية والعمالية القائمة، ولتشكيل أممية جديدة» ورغم معارضة الأغلبية الساحقة من جميع الوفود الأخرى، رفضت البلشفيات سحب قرارهن، وبسبب الرغبة العارمة فى إظهار الوحدة الأممية بين الاشتراكيين فى تلك اللحظة، تفاوضت كلارازتكين فى النهاية مع الروسيات ولينين فى حجرة منفصلة «وهنا وافق لينين أخيرا على حل وسط. (٧٢)

ويقدم لنا هذا «مزيدا من الضوء على مقاومة البلاشفة لتنظيم العاملات فى جماعات نسائية خالصة»(٧٣).

ومما يؤسف له أن آن بوبروف مثل كثيرين من غير الماركسيين، لاتفهم الأسباب وراء دور الحزب الاشتراكى الثورى و«المركزية الديمقراطية» كما طرحها لينين إن الطبقة العاملة، بكلمات ماركس، هى «ذات التاريخ»، ومن ثم يجب عليها وهى تناضل من أجل انعتاقها الخاص، أن تناضل من أجل انعتاق

الانسانية بأسرها، انعتاق كل المقهورين. ولهذا السبب يستحيل التنازل أمام الأفكار البرجوازية السائدة التى تقسم العمال على أساس العرق أو القومية أو الجنس، ويصدق هذا بصفة خاصة على الحزب، الذى يتمثل دوره فى قيادة الطبقة العاملة فى نضالها من أجل السلطة.

«والمركزية الديمقراطية» هى المبدأ الذى يعمل الحزب وفقا له، وهى لاتعنى ديكتاتورية القيادة المركزية كما تومئ بوبروف. وحين تعمل القيادة المركزية على النحو الصحيح فانها لاتتصرف من تلقاء نفسها، وانما تنفذ قرارات تم التوصل اليها عبر أوسع فهم ممكن لنضال الطبقة العاملة. لذلك فالديمقراطية فى الحزب أساسية بحيث يستطيع أن يطرح سياسات تفى بحاجات الطبقة العاملة. إلا أن المركزية أيضا أساسية، لأن الطبقة العاملة تتعرض للانقسام باستمرار بسبب الأفكار المسبقة البرجوازية، كما أن خبرة النضال الطبقى وفهمة يتباينان الى حد بعيد من مجموعة عمالية لاخرى ، وعلى الحزب ان يتغلب على هذه الانقسامات والتفاوتات كى يمكن أن تتوحد الطبقة العاملة بالقدر الكافى للفوز فى نضالها من أجل الاشتراكية والمركزية أساسية أيضا لأن هذا النضال موجه ضد عدو على درجة عالية من المركزية وهو الدولة الرأسمالية.

ومالإن تنتخب القيادة المركزية للحزب بصورة ديمقراطية، لابد وأن تخضع لها جميع المنظمات المحلية للحزب، لضمان أن تعكس أنشطتها حاجات نضال الطبقة العاملة ككل وليس أقسام المجتمع البرجوازى الذى نعيش فيه. لقد تدخل لينين بعمق فى العمل السياسى فى صفوف النساء لأنه أخذه مأخذ الجد.

نحو أكتوبر

عمقت الحرب الهوة بين الاشتراكيات والبرجوازيات النسويات ، فقد قفزت الأخيرات الى عربة الموسيقات الوطنية، حيث قالت د. بوكروفسكايا!

«فى مثل هذه اللحظة الوطنية العظيمة... يجب أن نقلل احتياجاتنا الى حدها الأدنى، ونتخلى عن الترف، ونضحى بكل شئ على مذبح المجتمع... لكل ذلك أهمية .. فى نجاح تلك المساواة التى تأمل النساء التقدميات فى كل

مكان فى العالم تحقيقها. » (٧٤)

ولم يكن حماس جمعية «العمل الانسانى المتبادل» أقل فى دعم المجهود الحربى، عبر منظمات تطوعية تغطى جميع أنواع النشاط فى الجبهة الداخلية. ودعت نقابة مساواة حقوق النساء فى أغسطس ١٩١٥ إلى «تعبئة النساء» من «بنات روسيا» على نفس الأسس التى حكمت محاولة كريستابل بانكهورست فى انجلترا، فى حملة لاجتذاب جميع النساء الروسيات الى نوع من النشاط المتصل بالحرب« ذلك هو واجبنا تجاه وطن الأجداد، وهو الذى سيعطينا الحق فى المشاركة كأنداد للرجال فى الحياة الجديدة لروسيا المنتصرة. » (٧٥)

غير أن الحرب كانت تعنى للعاملات الروسيات أعباء إضافية فوق كواهلهن المثقلة بمايكفى من قبل، وفى الوقت نفسه أدت التغيرات فى العمالة أثناء الحرب إلى زيادة قوتهن الاقتصادية، حيث زاد عدد العاملات زيادة ضخمة، بعد أن أدى التجنيد على نطاق واسع الى خفض عدد العمال فى الصناعات التى جرى احصاؤها بنسبة ١٢٫٦ فى المائة فى الفترة مابين ١٩١٤ و١٩١٧، وزاد عدد النساء فى نفس الفترة بنسبة ١٨٫٨ فى المائة، كانت النساء تشكل نحو ثلث القوة العاملة عند بداية الحرب، ثم أصبحن يشكلن نصفها تقريبا فى عام ١٩١٧. (٧٦)

فى البداية، أدت الحرب إلى فوضى شاملة فى الحركة العمالية، وخلال الشهور التسعة الأولى كانت الأحوال هادئة تماما على الجبهة العمالية، وكان الفضل للنساء فى إشعال فتيل تغيير، حيث بدأت القصة باضطرابات خبز ففى بتروجراد فى ٦ أبريل ١٩١٥ ألغى بيع اللحم ليوم واحد، فحطمت النساء سوقا كبيرا لبيع اللحم وقمن بنهبه، وتكرر المشهد فى موسكو بعد يومين من هذا الحادث، بسبب نقص الخبز، وخلال الاضطرابات التى وقعت أصيب الحاكم العسكرى للمدينة إصابات بليغة من جراء الحصى المتطاير. وتكرر هذا فى أواخر الصيف فى سوق ختيروفا المتسم بالعنف أصلا، ووقعت حوادث مماثلة فى العام التالى.

اشتركت النساء فى عدد كبير من الاضرابات، ففى ايفانوفو فوزنيسنسك بدأ إضراب فى يونيو ١٩١٥ «كإضراب دقيق»، ثم اندلع مجددا بعد شهر

كمظاهرة سياسية تطالب بإنهاء الحرب وإطعام العمال المسجونين، وقتل خلاله ثلاثون شخصا فى نفس الوقت اندلع إضراب اخر فى كوستروما واجهته السلطات بقمع مسلح واعقبت ذلك جنازة شعبية ضخمة ثم اندلع ثانية، وفى هذه المرة وجهت العاملات نشرة للجنود يطالبنهم فيها بتقديم الحماية بدلا من الرصاص (٧٧).

وأدى انتشار انباء هذه الصدامات إلى وقوع اضرابات سياسية كبرى فى أغسطس وسبتمبر، ففى أغسطس أضرب ٢٧ ألف عامل فى بتروجراد مطالبين بانسحاب حرس القوزاق من المصانع، وإطلاق سراح خمسة نواب بلاشفة فى الدوما من المنفى، وبحرية الصحافة بالاضافة لمطالب أخرى. وفى أوائل سبتمبر أضرب ٦٤ ألف عامل فى بتروجراد رافعين مطالب سياسية . وقد بلغ اجمالى الاضرابات فى عام ١٩١٥ تسعمائة وثمانية وعشرون إضرابا ، منها سبعمائة وخمسة عشر إضراباً اقتصاديا اشترك فيها ٣٨٣د٨٧ عاملا، ومنها مائتين وثلاثة عشر إضرابا سياسيا شارك فيها ٩٤١ . ١٥٥ عامل.

واستمر النضال فى عام ١٩١٦، ففى ذكرى« الأحد الدامى» فى ٩ يناير ١٩١٦ أضرب ثلاثة وخمسون ألف عامل (٨٥ فى المائة منهم فى بتروجراد). وعلى امتداد عام ١٩١٦، وخاصة فى النصف الثانى من العام، ازداد عدد العمال المشتركين فى الاضرابات باضطراد، وفوق ذلك اتخذت هذه الإضرابات طابعا سياسيا متزايدا. وقد بلغ إجمالى العمال المشتركين فى اضرابات سياسية فى ذلك العام ٩٤٣ . ٢٨٠ عاملا، بينما شملت الاضرابات الاقتصادية ١٣٦ . ٢٢١ عاملا.

وجاء فى تقرير للشرطة فى يناير ١٩١٧:

«إن الأمهات المسئولات عن اسر، اذ أجهدهن الوقوف بلانهاية فى طوابير المحال، وتعذبهن نظرة أطفالهن المتضورين جوعا والمرض، صرن أقرب كثيرا للثورة من السادة ميليوكوف ورودييشيف وشركاهم، وبالطبع فإنهن أكثر خطورة لأنهن يمثلن ذلك المخزون من المادة القابلة للاشتعال، والتى تكفيها شرارة واحدة لتشعل حريقا.»(٧٨)

لقد كانت عاملات بتروجراد هن اللاتى بدأن ثورة ١٩١٧، ففى ٢٢ فبراير

(٧ مارس) اجتمعت مجموعة من العاملات لمناقشة تنظيم يوم المرأة العالمى فى اليوم التالى، ونصحهن ف. كايوروف، قائد لجنة منطقة بطرسبورج فى الحزب البلشفى بعدم الاقدام على عمل متسرع:

«ولكن لدهشتى واستيائى، علمنا فى ٢٣ فبراير أثناء اجتماع للتشاور من خمسة أشخاص فى أحد ممرات مصنع اريكسون من الرفيق نيكيفير ابلين نبأ إضراب بعض مصانع النسيج، ووصول عدد من مندوبات العاملات اللاتى أعلن تأييدهن لعمال التعدين. كنت فى غاية الاستياء من مسلك المضربات، لأنهن تجاهلن بفظاظة قرار لجنة الحزب فى النطاق، وأيضا لأنهم ذهبن بعيدا بعد أن رجوتهن بالأمس فقط ان يلتزمن الهدوء والانضباط. ووافق البلاشفة على مضض (على توسيع الإضراب) وتبعهم عمال آخرون من المناشفة والاشتراكيين الثوريين، ولكن ماإن يقع إضراب كبير، حتى يصبح علينا أن ندعو الجميع الى الشارع ونأخذ زمام القيادة». (٧٩)

الا أن البلاشفة انتظروا حتى ٢٥ فبراير قبل ان يظهر لهم أول منشور يدعو للإضراب العام، بعد أن كان مائتا ألف عامل قد أوقفوا الآلات بالفعل!

كانت الموجه العارمة من الاضرابات والمظاهرات ذروة لسنوات من الغضب المتراكم، وقد روى أحد الشهود عن ذلك فيما بعد أن:

«النساء العاملات اللاتى أوصلتهن الحرب والجوع الى الياس، كن يأتين كالاعصار الذى يدمر كل شئ فى طريقة، بعنف قوة من قوى الطبيعة القاهرة. لقد كانت تلك المسيرة الثورية للعاملات، تملؤها كراهية قرون من القهر، هى الشرارة التى أشعلت الحريق الكبير لثورة فبراير، الثورة التى ستطيح بالقيصرية». (٨٠)

كانت العاملات فى مصانع النسيج هن اللاتى انتخبن مندوبات وبعثن بهن الى المصانع المجاورة محملات بنداءات تطلب المساندة، وعلى هذا النحو أشعل فتيل الثورة، كانت كما قال تروتسكى:

«... ثورة بدأت من أسفل، غالبة مقاومة منظمتها الثورية ذاتها، حيث بادر إليها دون طلب من أحد القسم المضطهد والمسحوق أكثر من الجميع وسط الطبقة العاملة، عاملات النسيج» (٨١)

وهؤلاء النساء انفسهن، هن اللاتى تآخين مع الجنود، فأقنعنهم بعدم إطاعة أوامر الضباط، والإمساك عن إطلاق النار:

«إنهن يتوجهن الى نطاق الجنود بشجاعة تفوق الرجال، ويأخذن البنادق، ويتوسلن، آمرات تقريبا: اخفضوا سلاحكم، وانضموا إلينا. وتعم الإثارة الجنود، ويلوح عليهم الخجل ويتبادلون نظرات قلقة، ويتذبذبون، ثم يحزم أحدهم أمره أولا، وترتفع البنادق على استحياء فوق اكتاف الحشد المتقدم، لقد انفتح الحاجز، ويهتز الهواء بصيحة مفعمة بالسرور والامتنان «هررا» ، ويحيط الجمهور بالجنود، وفى كل مكان يسمع ضجيج مناقشات وعتاب ورجاوات، إن الثورة تخطو خطوة أخرى للأمام»(٨٢)

وتعترف البرافدا التى بعثت من جديد بدين الثورة للنساء فى افتتاحيتها:

«فلتحيا النساء»

فلتحيا الأمية

النساء هن أول من خرج الى شوارع بتروجراد فى يومهن، يوم المرأة

فى موسكو، حسمت النساء حاجتنا للجيش فى كثير من الحالات، فتوجهن للثكنات وأقنعن الجنود بالانضمام لصف الثورة.

فلتحيا النساء!»(٨٣)

ولكن تقل القرون لايمكن محوه بسهولة

ولكن حتى الثورة ليست بقادرة على تغيير الأفكار المسبقة المزروعة على امتداد أجيال فى عقول العمال والعاملات كليهما، فكما قال ماركس:«إن تقاليد كل الأجيال الميتة تجثم مثل كابوس على دماغ الأحياء»

ولنأخذ مسألة مساواة الأجر مثلا، فخلال ثورة ١٩٠٥ كانت المطالب بوضع حد أدنى للأجر واضحة فى معظم الأحوال فى طلب معدلات أدنى للنساء منها للرجال.(٨٤)

ونفس الافتراض يكمن وراء اتفاقيات العمل المعقودة بعد ثورة فبراير ١٩١٧، فأول اتفاقية حول الحد الأدنى للأجر تعقد بين جمعية لملاك المصانع

وسوفييت نواب العمال والجنود ، وضعت حدا أدنى للرجال يبلغ خمسة روبلات في اليوم وآخر للنساء يبلغ أربعة روبلات. (٨٥) أما مصنع تيفسكى للأحذية فنص إتفاقة على خمسة روبلات للرجال وثلاثة للنساء ، واتفق مصنع سكوروخيد العملاق للأحذية فى بتروجراد (فى ١٣ مارس) على خمسة وثلاثة ونصف روبل ، وللعمال غير المهرة فى مصنع ايكاترينوسلاف ثلاثة روبلات للرجال وروبلين للنساء (فى ١٤ يونيو). (٨٦)

ناضل البلاشفة ضد اللامساواة فى الأجور، وانضمت إليهم كولونتاى عام ١٩١٥، وفى مقال بعنوان «ثغرة خطيرة» نشر فى البرافدا فى ٥ مايو ١٩١٧، انتقدت جدول أعمال مؤتمر النقابات المقبل:

«هناك ثغرة خطيرة فى جدول أعمال المؤتمر. فقضية مساواة الأجور عن العمل المتساوى، التى هى من ألح القضايا على الطبقة العاملة ككل وعلى العاملات خاصة، ليست مدرجة للبحث. لم يعد مقبولا الآن أكثر من أى وقت انخفاض أجور النساء. فقد ألقت الحرب بعدد كبير منهن إلى سوق العمل وأصبحن مورد الرزق الوحيد لأسرهن»(٨٧)

وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فرضت مساواة الأجور بالقانون.

ومن مظاهر عدم التساوى، وكما فى ١٩٠٥، تمثيل النساء فى السوفيتيات ضعفاً بالغاً. ففى أكثر الانتخابات ديمقراطية فى التاريخ اقترعت العاملات المرة تلو المرة للرجال كى يمثلونهن. ففى منطقة موسكو حيث تشكل النساء نصف السكان العاملين، انتخبت ٢٥٩ امرأة من مجموع ٤٧٤٣ فى السوفيتيات فى ٢٦ ، ٢٧ مارس ١٩١٧. وفى جروجنى انتخبت أربع نساء من مجموع ١٧٠ من المندوبين، وفى نيجنى نوفجورد ثلاث من مجموع ١٣٥ وفى أوديسا أربعون من مجموع تسعمائة وفى ياروسلاف خمس من مجموع سبعة وثمانين. (٨٨)

وهكذا فإن النساء اللاتى كن فى طليعة الثورة فى فبراير ١٩١٧، انسحبن إلى خلفية مسرح الأحداث التاريخية، ولذلك تظهر النساء فى الفصلين الأول والثانى فقط من كتاب تروتسكى «تاريخ الثورة الروسية».

من أولى الأمور التى اهتم بانجازها لينين لدى عودته إلى بترجراد فى ابريل

١٩١٧، الطلب الذى تقدم به إلى اللجنة المركزية لإقرار العمل السياسى فى صفوف النساء:

«مالم تجتذب النساء إلى القيام بدور مستقل، ليس فقط فى الحياة السياسية بصفة عامة، بل وأيضاً فى الخدمات اليومية الملزمة للجميع، من العبث الكلام لاعن الاشتراكية وحسب بل وحتى عن ديمقراطية كاملة ومستقرة». (٨٩)

بذلت اللجنة التنفيذية للجنة بتروجراد البلشفية جهداً خاصاً فى تنظيم النساء وفى ١٠ مارس كلفت فيراسلوتسكايا بمهمة التحريض وسط العاملات، وبعد ثلاثة أيام قدمت توصيات بإنشاء مكتب نسائى يلحق بلجنة بتروجراد وإعادة إصدار صحيفة العاملة، على أن تنتخب كل لجنة حى فى المنطقة ممثلة عنها لهذا المكتب، الذى تحددت مهامة المباشرة فى إعادة إصدار صحيفة العاملة وإصدار كتيبات «مخصصة لقضية المرأة البروليتارية».

وكانت سلوتسكايا محددة فيما يتعلق بأنه «لن تقوم منظمات نسائية مستقلة من أى نوع»، فسوف تنتظم العاملات بصفة عامة فى مؤسسات الطبقة العاملة السياسية والنقابية. أما المكتب النسائى فيقتصر نشاطة على العمل التحريضى المتفق مع قرارات لجنة بتروجراد، ومن ثم أنشئت مكاتب مماثلة للتحريض فى جميع لجان الحزب المحلية، كما أنشئت نواد بغرض اجتذاب العاملات غير الحزبيات إلى نشاط الحزب.

فى ١٠ مارس بدأت صحيفة العاملة تصدر أسبوعية بحجم توزيع يتراوح بين أربعين وخمسين ألفاً، وكانت محرراتها هن كرويسكايا وإليزاروفا وكولونتاى وصاموليلوفا وكوديللى وفيليشكينا. وتناولت قضايا مثل الحرب ويوم العمل من ثمانى ساعات وانتخابات الدوما المحلية، وعمل الأطفال والحركة النسائية فى روسيا وفى الخارج. (٩٠)

وحين صار البلاشفة فى السلطة فى أكتوبر ١٩١٧ اكتسبت مسألة اجتذاب جماهير النساء غير الحزبيات أبعاداً جديدة، فقد أصبحت القضية الآن هى كيف تعبأ ملايين النساء للمشاركة فى بناء الاشتراكية. أين نجحوا فى ذلك وأين فشلوا، ذلك ماستبحثه فى فصل لاحق.

الخلاصة

تبين قصة الحركة النسائية فى روسيا بوضوح كيف أن تصاعد حدة النضال الطبقى يؤدى إلى استقطاب بين حركتين نسائيتين متعاديتين: واحدة للطبقة العاملة والأخرى للبرجوازية، وكلما ازداد الاستقطاب بين النساء، كلما تقوت الروابط بين نساء ورجال الطبقة العاملة. ولقد كان هذا الاستنتاج محورياً للبلاشفة الذين عارضوا النسويات البرجوازيات معارضة لاتلين. وفى مواجهة هذا الموقف، كان موقف المناشفة الداعين إلى التحالف السياسى مع الليبراليين، ومن ثم إلى التوفيق بين نساء الطبقة العاملة والنسويات البرجوازيات.

ولقد فهم البلاشفة صعوبة تنظيم نساء الطبقة العاملة اللاتى كان يشدهن للوراء واقع القهر المزدوج الذى جعل منهن ضحايا عبودية العمل المأجور والعمل المنزلى معاً وتختلف الاستنتاجات التى خرج بها البلاشفة من ذلك اختلافاً جوهرياً عن النزوع الإنفصالى للحركة النسوية، فقد رأوا أن كلاً من النساءَ والرجال يواجه نفس الرؤساء ونفس الدولة الرأسمالية، وأن مكان العمل هو المكان الذى تستطيع فيه النساء التغلب على سلبيتهن وعزلتهن عن بعضهن البعض الأمر الذى يفرضة إلى حد يعيد تركيب المجتمع القائم على الأسرة)كعاملات تتطابق حاجاتهن مع حاجات الرجال. لكل ذلك فإن الإنفصال بين العمال والعاملات سيضر بهما معاً، والضرر أكبر على النساء.

وبالمثل، فلأن دور الحزب هو قيادة نضال الطبقة العاملة، يجب أن يلائم بنيان الحزب- بما فى ذلك منظماتة المتصلة بالنساء- مراكز النضال العمالى لا المراكز السياسية للمجتمع البرجوازى، ويعنى ذلك بدورة التركيز على أماكن العمل، حيث تتوحد مصالح النساء والرجال».

وقد كانت الثورة ذاتها دليلاً قاطعاً على صحة موقف البلاشفة فى قضية المرأة، فلقد دشنت العاملات بالاشتراك مع العمال «عيد المقهورين»، وافتتحت ثورة أكتوبر أعظم فصل فى قصة تحرير النساء.

هوامش الفصل السادس

١- روتشيلد جولدبرج «الحركة النسائية الروسية ١٨٥٩- ١٩١٧» (أطروحة لرسالة دكتوراة، جامعة روشسعر ١٩٧٦) ص ٢٩- ٣٠.

٢- ل.ل. فيليبوفا «حول تاريخ تعليم النساء فى روسيا» من «فوبروسى إيستورى (فبراير ١٩٦٣) ص ٢٠٩

٣- ج. و. «النساء فى المجتمع السوفيتى» (بركلى ١٩٧٩) ص ٣١.

٤- روتشيلد جولدبرج، ص ٤٥-٤٦.

٥- و. ستايتس «حركة تحرير المرأة فى روسيا: الحركة النسوية والعدمية والبلشفية ١٨٦٠- ١٩٣٠» (نيوجيرسيى ١٩٧٨) ص ٦٩

٦- روتشيلد جولدبرج، ص ٧٥.

٧- روتشيلد جولدبرج، ص ٧٧-٧٨.

٨- ستايتس، ١٩٢

٩- ستايتس، ص ٦٥.

١٠- م.م. كولونتاى «سوتسيالنى أو سنوفى جينسكوجو فوبروسا» (سانت بطرسبورج ١٩٠٩) ص ٢١.

١١- روتشيلد جولدبرج، ص ٨٩

١٢- ستايتس، ص ١٩٩.

١٣- روتشيلد جولدبرج، ص ٩٦.

١٤- ف. بيلشاى «مكانة النساء فى الاتحاد السوفيتى» (موسكو ١٩٥٧) ص ١٦- ١٧.

١٥- روتشيلد جولدبرج، ص ١١٠- ١١١.

١٦- روتشيلد جولدبرج، ص ١٣٤- ١٣٥.

١٧- روتشيلد جولدبرج، ص ١٠٣.

١٨- اقتباس عند روتشيلد جولدبرج ص ١٤٤- ١٤٥.

١٩- روتشيلد جولدبرج ص ١٢٩.

٢٠- اقتباس عند ستايتس، ص ٢٠٢

٢١- روتشيلد جولدبرج، ص ١٤٥.

٢٢- ستايتس، ص ٢١٤- ٢١٥.

٢٣- روتشيلد جولدبرج، ص ١٣٠- ١٣١.

٢٤- ستايتس، ص ١١٦.

٢٥- ستايتس، ص ١٤٨- ١٤٩.

٢٦- ر. هـ. ماك نيل «النساء فى الحركة الراديكالية فى روسيا» من «يوميات التاريخ الإجتماعى» شتاء ١٩٧١- ١٩٧٢) ص ١٤٤، وم. بيير «التكوين الإجتماعى والبنية الأجتماعية للحزب الاشتراكى الثورى قبل عام ١٩١٧»، من «دراسات سوفيتية» (أكتوبر ١٩٧٢) ص ٢٣٧.

٢٧- ماك نيل، ص ١٥٥.

٢٨- م. فاينسود «كيف تحكم روسيا» (كامبردج، ماساشوستس) ص ٢٥٤.

٢٩- «مختارات من كتابات ألكسندرا كولونتاى» أعدها للنشر ألكس هولت (لندن ١٩٧٧) ص ٣٩- ٤٢.

٣٠- ر.ل. جليكمان «عاملة المصنع الروسية ١٨٩٠- ١٩١٤». من د. أتكنسون وآخرون النساء فى روسيا» (ستانفورد ١٩٨٧) ص ٨٠- ٨١.

٣١- ف. بيلشاى «ريشنى جينسكوجو فوبوروسا ف. س.س.س ر.» (موسكو ١٩٥٦) ص ٥٨.

٣٢- جليكمان، ص ٨٢.

٣٣- ف. جريتيفتش، «بروليستالتوى دفيجنى رابوتشيح ف. روسى»، (سانت بطروسبورج ١٩٠٨) ص ٢٧٨.

٣٤- جليكمان، ص ٨١.

٣٥- ل. تروتسكى،» «١٩٠٥» (نيويورك ١٩٧١) ص ٢٥٠.

٣٦- كولونتاى، «سوتسيالنى أو ستوفى»، ص ١٠٢- ١٠٦.

٣٧- أ.م.. كولونتاى «ألفعو بيوجرافيشكى أو تشرك» من «بروليتارسكايا ريفوليوتسيا»، العدد (٣)و ١٩٢١) ص ٢٦٨- ٢٧٠.

٣٨- روتشيلد جولدبروج ، ص ١٠٨.
٣٩- كولونتاى، «سوتسيالينى أوسنوفى» ص ١٠٢- ١٠٦.
٤٠- روتشيلد جولدبروج، ص ١٠٧.
٤١- كولونتاى «أفتو بيوجرافيشكى أو تشرك»، ص ٢٦١- ٢٧٠
٤٢- عقب الإنقسام بين البلاشفة والمناشفة فى عام ١٩٠٣ تذبذبت كولونتاى (١٨٧٢- ١٩٥٢) بين المجموعتين، وإن أقرت باتها بلشفية «المزاج». وفى عام ١٩٠٦ تحولت إلى المنشفية، ولكنها عادت وانضمت للبلاشفة. فى يونيو ١٩١٥، وفى مارس ١٩١٧ عادت إلى روسيا، وفى ٤ ابريل عبرت عن تأييدها لما طرحة لينين فى «موضوعات أبريل». وفى المؤتمر السادس للحزب (٢٦ يوليو- ٣ أغسطس) انتخبت غيابياً عضواً فى اللجنة المركزية للحزب البلشفى (حيث كانت حينئذ فى أحد سجون كيرنسكى).

وبعد ثورة أكتوبر أصبحت قوميسار وزارة الخدمة الإجتماعية ولكنها استقالت من المنصب احتجاجاً على صلح بريست ليتوفسك. وبعد عام ١٩٢٠ صارت واحدة من مؤسسى المعارضة العمالية واستمرت فيها حتى مطلع عام ١٩٢٢.

ومنذ أكتوبر عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٤٥ شغلت منصب سفير سوفيتى فى النرويج والمكسيك ثم النرويج ثانية، وقد التزمت الهدوء خلال سنوات القمع الستالينى للمعارضة، الذى نالت منه إلقاء القبض على حبيبها السابق ألكسندر شليابنيكوف ثم إختفاؤه، وإعدام زوجها اللاحق بافل ديبنكو رمياً بالرصاص. وحصلت على جوائز من ستالين لخدماتها. وقد توفيت بنوبة قلبية فى ٩ مارس ١٩٥٢.

٤٣- روتشيلد جولدبروج، ص ٩٩.
٤٤- كولونتاى، «سوتسيالنى أوسنوفى»، ص ٤٥.
٤٥- كولونتاى، أفتو بيوجرافيشكى أوتشرك»، ص٢٦٧- ٢٦٨.
٤٦- كولونتاى، أفتو بيوجرا فيشسكى أوتشرك»، ص ٢٧٢.
٤٧- ى.د.. ليفين «نوادى العمال فى بطرسبورج ١٩٠٧- ١٩١٤»

من «ماتريالى بويستورى بروليستالتوجو دفيجن ف روسى»، المجلد (٣) موسكو ١٩٢٤) ص ٨٨- ١١١.

٤٨- اقتباس عند روتشيلد جولدبروج، ص ١٧٣.

٤٩- روتشيلد جولدبروج، ص ١٨١.

٥٠- روتشيلد جولدبروج، ص ١٩٨.

٥١- كولونتاى «أيزموى جيزنى إى رابوتى» (موسكو ١٩٧٤) ص ١١٤.

٥٢- «فسجدا س. نامى» (موسكو ١٩٦٤) ص ١٥- ١٦.

٥٣- روتشيلد جولدبروج ص ١٨٣- ١٨٥.

٥٤- «ترودى بيرفوجو فسيروسيسكوجو جينسكوجو سيزدا برى روسكم جهنسكم أو بشستفو سانكت بطرسبورج ١٠- ١٦ ديكابريا ١٩٠٨» (سانت بطرسبورج ١٩٠٩) ص ٤٥٦- ٤٥٨.

٥٥- «ترودى بيرولوجو» ص ٣١٨.

٥٦- «ترودى بيرفوجو» ص ٣٤٠.

٥٧- «ترودى بيرفوجو» ص ٧٩٢- ٧٩٤ و٨٠٠- ٨٠١.

٥٨- ستايتس، ص ٢٣١.

٥٩- «ترودى بيرولوجو» ص ٤٩٦.

٦٠- ستايتس، ص ٢٥٢. لم تكن كولونتاى موجودة وقت الخروج الاحتجاجى للبلاشفة من المؤتمر النسائى الأول، فقد علمت الشرطة بوجودها فى المؤتمر خلال الأيام الأربعة الأولى وحاصرت قاعة الإجتماع فى اليوم الخامس، وتمكنت كولونتاى من الهرب.

٦١- أ. بوبروف، «البلاشفة والعاملات ١٩٠٥- ١٩٢٠» فى «دراسات سوفيتية» (أكتوبر ١٩٧٤) ص ٥٤٥

٦٢- روتشيلد جولدبروج، ص ٢٥٤- ٢٥٦.

٦٣- بوبروف، ص ٥٥١- ٥٥٣.

٦٤- بوبروف، ص ٥٥٤- ٥٥٥.

٦٥- أ. ف. أرتيوخيناو آخرون «جينشنى فى ريفوليوتسى» (موسكو

١٩٥٩) ص ٩٧.

٦٦- روتشيلد جولدبروج، ص ٣٤١- ٣٤٢.

٦٧- ر. ديل، «دور نساء بتروجراد فى الحرب والثورة والثورة المضادة ١٩١٤- ١٩٢١»، (أطروحة رسالة دكتوراة، جامعة نيوبرنسويك، ١٩٧٣) ص ١٠٤

٦٨- ديل، ص ٩٤- ٩٥.

٦٩- ف. دريزدو، «ناديجدا كونستانتينوفنا» (موسكو ١٩٦٦) ص ٣١-٣٤، مقتبس عند ديل، ص ١٠٢

٧٠- ديل، ص ١٠٤- ١٠٥.

٧١- أ.ف. بيسونوفا (معدة) حول تاريخ نشر جريدة «رابوتنيتسا» من «إيستوريشسكى أرخيف» (موسكو ١٩٥٥) ص ٣٧- ٣٩.

٧٢- أ. بالاتوف «حياتى كمتمردة» (بلومينجتون ١٩٧٣) ص ١٣٢- ١٣٣. وحين تكرر نفس الموقف بعد بضعة أسابيع فى المؤتمر الدولى للشباب، حيث وجدت بالاباتوف لينين جالساً فى نفس المكان الذى كان يوجه فيه تصيراته قبل بضعة أسابيع سألته ساخرة «فلاديمير إيليتش هل أتيت هنا لشرب الشاى أم من أجل القرارات؟» ورد هو بنظرة متضايقة.

٧٣- بوبروف، ص ٥٦٤- ٥٦٥.

٧٤- روتشيلد جولدبروج، ص ٣٤٦.

٧٥- ستايتس ص ٢٨٢

٧٦- ستايتس ص ٢٨٧.

٧٧- ستايتس ص ٢٨٨- ٢٨٩.

٧٨- بيلشاى «ريشنى جينسكوجو»، ص ٩٦.

٧٩- ف. كايوروف «ستة أيام فى ثورة فبراير»، من بروليتاريكايا ريفوليوتسيا» العدد (١: ١٣) (١٩٢٣)

٨٠- ف. و. هيل «النساء فى روسيا السوفيتية» (لندن ١٩٣٣) ص ٩١.

٨١- ل. تروتسكى «تاريخ الثورة الروسية» (لندن ١٩٣٤) ص ١٢٢.

٨٢- تروتسكى، ص١٠٩.

٨٣- روتشيلد جولدبروج، ص ٣٥٤.

٨٤- جليكمان، ص ٨١.

٨٥- س.م. كيتنجزبرى وم. فيرتشايلد «المصنع والأسرة والنساء فى الاتحاد السوفيتى» (نيويورك ١٩٣٥) ص ٨٠.

٨٦- أ.ل. سيدوروف وآخرون «فيليكايا أوكتايابرسكايا سوتسياليستشسكايا ريفوليوتسيا: دوكومنتى ى ماتريالى» المجلد (١) (موسكو ١٩٥٧) ص ٤٧٠- ٤٧١ و٤٩٠- ٤٩١، المجلد (٣)، ص ٢٠٨- ٢٠٩.

٧٨- كولونتاى، كتابات مختارة، ص ١٢٥.

٨٨- سيدوروف، المجلد (١)، ص ٣١٦، ٣٢١.٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣١.

٨٩- ف. س. لينين «ثورة ١٩١٧» من «الأعمال الكاملة» المجلد (٢٠) الباب الأول (١٩٢٩) ص ١٤٢، مقتبس عند كينجزبرى وفيرتشايلد، ص ٢٢.

٩٠- سيدوروف، المجلد الأول، ص ٥٥ و ٦٧، و٧٤- ٧٥ و٨٠.

الفصل السابع

الحركات النسائية فى إنجلترا

ذلك الحد الفاصل العميق الذى فرق بين العاملات والنسويات البرجوازيات فى كل من ألمانيا وروسيا، غاب فى إنجلترا، ولهذا عدة أسباب.

أولاً، فى كل من ألمانيا وروسيا كان الحزب الاشتراكي هو الذى أسس النقابات، وخلافاً لذلك فى بريطانيا كانت النقابات هى التى أسست الحزب، ولفترة طويلة ظلت أبواب هذه النقابات مغلقة أمام النساء، فيما عدا مجال صناعة القطن.

ثانيا، كانت الحركة السياسية للطبقة العاملة فى إنجلترا مشوشة ومحافظة

للغاية، حيث دأب قادتها على اعتناق خليط غير متجانس من الأفكار المحافظ والليبرالية مع نقابية ضيقة الأفق، «الماركسيون تجمعوا بصفة أساسية في «الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى» ذى النزعة الحلقية، وكان بعض قادتهم معادي للحركة النسوية (وعنصريين) متطرفين، أما الاشتراكيون المؤيدون للحرك النسوية فقد كانوا عموماً فى حزب العمال المستقل، وهو حزب مشوش كا، يسعى للتعاون مع الليبراليين ومن ثم تحمس ربما بقدر أكبر للتعاون بين نسا الطبقة العاملة والليبراليات، وحين تتلامس أكتاف العاملات مع اكتاف السيدا، الفخمات، من السهل أن نعرف من سيؤثر على من.

العاملات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر شاركت النساء فى الحركة النقابيـ غير الشرعية، ونشطن فى الحملات التى نظمت من أجل الغاء قوانين تكوي الجماعات*. وقد اتخذ التحريض من أجل الإصلاح، الذى بدأ وقت الثور الفرنسية وتجدد بعد الحروب النابوليونية، اتخذ طابعاً جماهيرياً فى بعض المناط الصناعية خاصة وسط عمال القطن فى لانكشاير. وقد ضمت هذه الحركة الكثي من النساء اللاتى شكلن نقابات نسائية سياسية لها لجانها الخاصة وموظفيها واشتركت النساء فى المظاهرة. الشهيرة من أجل الإصلاح البرلمانى فى حقو سانت بيتر فى مانشستر فى ١٦ أغسطس عام ١٨١٩(١)

وحين أسس روبرت أوين فى صيف عام ١٨٣٤ «النقابة الوطنية الموحد الكبرى» التى لم تعش طويلاً، وفتحت أبوابها للجميع بغض النظر عن المهنة أ الحرفة أو الجنس، انضمت إليها عشرات الآلاف من النساء، ومن المؤسف أنه تحللت بعد نحو خمس سنوات.

وفيما يتعلق بساسيات الطبقة العاملة، التى كانت تعنى خلال سنوا ١٨٣٧– ١٨٤٨ الحركة الشارتية، لعبت النساء دوراً مهماً أيضاً فقد شكلن عدداً من الاتحادات النسائية الشارتية، ونشطن بقوة أثناء الحملا

الشارتية الثلاث.

وفى أكبر اجتماع جماهيرى للحركة عام ١٨٤٢ فى برمنجهام، اشتركت خمسون ألف امرأة تقريباً بجانب عشرات الآلاف من الرجال. (٢) غير أن هذا كان فصلاً قصيراً فى التاريخ، سرعان ما أعقبته فترة طويلة من الرجعية فكما كتبت دوروثى تومسون فى مقالها الممتاز «النساء والسياسة الراديكالية فى القرن التاسع عشر: بعُد مفقود»:

«كان مصير مكاسب الحقبة الشارتية، من وعى وثقة بالنفس، وخطوات فى اتجاه نوع من النشاط السياسى أكثر مساواة وتعاوناً، يخطوها الرجال والنساء معاً، هو الضياع فى السنوات التى سبقت منتصف القرن مباشرة وإحدى خسائر الحقبة الفيكتورية هى إمكانية مساهمة نساء مجتمع الطبقة العاملة فى السياسة والمجتمع بصفة عامة»(٣).

وحين أقيم هيكل رسمى للنقابات الناشئة فى فترة نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر، انفرد العمال المهرة بتنظيم أنفسهم، مخلفين وراءهم العمال غير المهرة عموماً، بما فى ذلك النساء. الاستثناء الوحيد صنعته نقابة عمال القطن فى لانكشاير، إذ لم تكتف بجهودها الجادة والناجحة فى تنظيم النساء ودفعهن للنشاط، بل وتفاوضت حول الأجور على أساس مبدأ «الأجور على قدر العمل» وليس حسب جنس العامل الذى يؤدى العمل. (٤) وقد ساعدت على استبعاد النساء من النقابات الأخرى حقيقة أنهن، - خارج صناعة القطن- كن مبعثرات فى أماكن عمل صغيرة جداً: كخياطة الثياب فى الورش المعروفة بظروفها المستنزفة أو فى المنزل، وصناعة المخرمات وشرائط الزينة، وفى مصنوعات الفخار الصغيرة، الخ، وكلها يصعب التنظيم فيها.

بدأت إمـا باترسـون (١٨٤٨- ١٨٨٦) تنظيم أولئك النسـاء اللاتى لاتتعهدهن النقابات، كانت إبنة لمعلم وتزوجت صانع أثاث، وفى عام ١٨٧٤ أسست «رابطة حماية وتدبير شئون النساء» التى أصبحت هى السكرتير الفخرى لها، وكانت الرابطة تحالفاً بين المترفات ونساء الطبقة العاملة ممن تشغلهن مشاكل العاملات. ولم يستخدم إسم «نقابة» عن قصد لأنه يرجح أن يستعدى النصيرات من الطبقة المتوسطة. وكانت المنظمة «حريصة على التنصل من أى آراء عدائية تجاه مستخدمى العاملات»، واستنكرت الإضراب باعتباره

* قوانين للحد من قدرة العمال على الانضمام لنقابات.

«عملاً متهوراً وخاطئاً» ودعت إلى اللجوء إلى التحكيم. (٥) وبينما كانت تجربة «مساعدة» السيدات البرجوازيات للعاملات على التنظيم، ناتجة عن التقسيم الجنسى وسط الطبقة العاملة، فقد كانت هى ذاتها عاملاً إضافياً على التفتيت، إذ أعطت الكثير من رجال الطبقة العاملة المبرر الأمثل لتبنى آراء رجعية حول حق العمل والاقتراع.

كان هدف الرابطة إنشاء نقابات مقصورة على النساء، ولكن إنجازاتها كانت هزيلة، فبين عامى ١٨٧٤ و١٨٨٦، أنشئت مايتراوح بين ثلاثين وأربعين جمعية نسائية فى إنجلترا واسكتلندا، القليل منها هو الذى بلغ عدة مئات أو دام أكثر من بضع سنوات، والأكثر نجاحاً فيها، مثل «نساجات صوف ديوزبرى» و«حائكات ليسستر»، انضمت لنقابات الرجال فيما بعد، وفى عام ١٨٨٦ كان مجموع عضوية هذه الجمعيات مجتمعة يقل عن ألفين وخمسمائة. وخلال نفس الفترة زادت العضوية النسائية فى نقابات صناعة القطن بصورة مضطردة من ١٥ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً فى عام ١٨٨٦ وشكاركت النساء الرجال فى التحسن المتواصل فى الأجور. (٦) ولم يتجاوز مجمل عضوية الرابطة أكثر من ٧ فى المائة من مجموع النساء المنظمات.

أدى هذا الفشل بإما باترسون إلى أن تأخذ انعطافاً كاملاً فى ثمانينيات القرن الماضى، فتسعى للتعاون مع نقابات الرجال. وحدث نفس الانعطاف فى موقفها وموقف الرابطة فى موضوع آخر وهو المتعلق بقانون يحمى النساء والأطفال بتقصير يوم عملهم، وقد أيد الكثيرون من العمال فكرة هذا القانون وحاربت من أجلة النقابات عموماً فى سبعينيات القرن، لأن الرجال اعتقدوا أنهم سيفيدون من هذا التغيير، حيث افترضوا أن تلك القيود ستضع مصاعب فى وجة استخدام النساء، ومن ثم لاينافسنهم على الشغل.

وهذا هو مالم يحدث، فبعد العمل بأول قانون يخفض ساعات العمل للنساء والفتيات فى صناعة النسيج فى عام ١٨٤٧، زادت نسبة النساء والفتيات ممن تجاوزن الثالثة عشرة سناً فى هذه الصناعة من ٧ . ٥٥ فى المائة إلى ٥٧ فى المائة، بينما انخفضت نسبة الرجال البالغين من ٥ . ٢٦ فى المائة إلى ٨ . ٢٥ فى المائة. (٧) والإنجاز الذى حققة قانون الحماية بالفعل هو خفض ساعات العمل للرجال أيضا، ويصوغ هذه الحقيقة توماس آشتون سكرتير اتحاد عمال غزل أولدهام بشىء من التلوين: «لقد خضنا معركة تقليل ساعات العمل للبالغين

عامة من وراء معاطف النساء»(٨)

وعارضت تصيرات الحركة النسوية من بنات الطبقة المتوسطة فى الرابطة قانون الحماية لأنه ينطوى على تمييز ضد النساء، وبالطبع فلقد حظى هذا الموقف من الرابطة بالتأييد الحار لأصحاب العمل.

النقابية الجديدة

حتى ظهور النقابات الجديدة لم يكن منظماً من العمال سوى أقلية ضئيلة، فكانت عضوية النقابات عام ١٨٨٨ تبلغ ٧٥٠ ألفاً، أى مايعادل حوالى خمسة فى المائة من مجموع العاملين بالأجر، وبلغت هذه النسبة فى صفوف البالغين من العمال اليدويين حوالى عشرة فى المائة.

فى عامى ١٨٨٨ و١٨٨٩ اجتاحت البلاد موجة من الاضطرابات العمالية، جلبت معها فورة جديدة من المنظمات النقابية شاملة هذه المرة العمال غير المهرة والنساء. وكان إضراب سبعمائة من عاملات صناعة الكبريت فى مصنع «بريانت وماى» فى إيست لندن هو «الشرارة الصغيرة التى أشعلت حريق الثورة ونشرت النقابية وسط العمال غير المهرة كالنار فى الهشيم»(١١)

فى مارس عام ١٨٨٩ أنشأ «ديل ثورن» «النقابة الوطنية لعمال الغاز العموميين»، ودون حتى إضراب واحد حصلت النقابة على يوم عمل من ثمانى ساعات، ونمت النقابة نمواً عملاقاً. ففى سبتمبر ١٨٩٠ كان قد أصبح لديها ٨٩ فرعاً بينها اثنان نسائيان. وإجمالى عضوية يبلغ ستين ألفاً (١٢) وكان لكفاحية عمال الغاز أثرها على عمال أحواض السفن. ففى عام ١٨٨٩ بدأ إضراب لهم بعشرة آلاف عامل حتى بلغ مائة ألف، وزادت عضوية النقابات التى كانت حينئذ لاتزيد على ثمانمائة حتى وصلت ستين ألفاً.

لم تستبعد النقابات الجديدة النساء من عضويتها منذ البداية، إلا أنها وقد اتجهت للتنظيم أساساً وسط عمال النقل والأعمال الشاقة، كانت بذلك تتحرك فى مدار لاتدخل فى إطاره سوى قلة من النساء. ومع ذلك فقد ألهمت روح النقابية الجديدة النساء، فانخرطن فى نشاط عمالى كبير فى عام ١٨٨٨ وماتلاه، فكانت تحركات عفوية لنساجات البطاطين فى «هكموندويك»، وعاملات صناعة السيجار فى نوتنجهام وعاملات صناعة القطن والجوت فى دندى فى عام

١٨٨٨ ، وأضربت العاملات فى مصنع للعلب الصفيح فى لندن وحين استمر بعض العمال فى العمل رموهن بالدقيق وبمواد الطلاء الأحمر(١٣)

فى عام ١٨٨٩ ظهرت فى لندن نحو عشر جمعيات صغيرة للعاملات، ومثلها فى الأقاليم، ثم جاء إضراب «حائكات ليدز» ليزيد عضوية إحدى المنظمات العمالية المحلية من مجرد حفنه إلى ألفين خلال بضعة أسابيع.(١٤)، وقد انضمت عشرات الآلاف من العاملات إلى النقابات فى عامى ١٨٨٨-١٨٨٩.

ولكن مع نهاية عام ١٨٨٩ بدأ أصحاب العمل هجوماً مضاداً شاملاً فهزم إضراب لعمال أحواض السفن فى ليفربول هزيمة سيئة، وفى لندن فى بداية التسعينيات أرغمت نقابة عمال أحواض السفن على الخروج من موقع الأحواض(١٥) وانخفضت عضويتها من مائة ألف عام ١٨٨٩ إلى ٦٥ ألفاً عام ١٨٩٠، ثم إلى ٩١٣ . ٢٢ عام ١٨٩٢، ثم إلى عشرة آلاف عام ١٨٩٦. وحدث تطور مماثل فى النقابة الوطنية لعمال الغاز والعمال العموميين، حيث تراجعت عضويتها من ستين ألفاً عام ١٨٩٠ إلى ٣٦.١٠٨ عام ١٨٩٢، ثم إلى ٢٩.٧٣٠ عام ١٨٩٦، أما النقابة الوطنية الموحدة للبحارة وعمال الإطفاء التى كانت تضم نحو ٥٩ ألفاً فقد حلت عام ١٨٩٤.

وتكرر الشئ نفسه مع الاتحاد العام للعمال الذى كان يضم ستين ألفا عام ١٨٩٠. (١٦). واختفت النساء تقريبا من النقابات العامة.

ولكن رغم هذا الجزر، بقى الاتجاه العام نحو تنظيم النساء فى النقابات فى تصاعد ، وبصفة أساسية من خلال فتح أبواب نقابات الرجال أمام النساء. وتزايدت العضوية النسائية فى مجمل النقابات من ٣٧ ألفا عام ١٨٨٦ الى نحو ١١٨ ألفا عام ١٨٩٦، وحوالى ١٦٧ ألف فى عام ١٩٠٦. ومن هؤلاء كانت ١٤٣ ألف عضوة ينتمين الى نقابات النسيج، و١٢٥ ألفا من الأخيرات عضوات فى نقابات صناعة القطن وبالمقارنة لم تزد عضوية النقابات النسائية البحتة فى ذلك الوقت عن خمسة الاف عضوة (١٧)

الاتحاد الوطنى للعاملات

اتخذت الرابطة النقابية النسائية وضع المنظمة الجامعة التى توحد النقابات

النسائية البحته من جميع المهن، وقد تعاونت معها النقابات المختلطة أيضا، بحيث تحصل على خدمات إحدى النساء المنظمات فيها مقابل دفع رسم انتساب ضئيل، ولكن بسبب من الاختلاط الطبقى فى عضويتها، لم تستطع الرابطة الاندماج فى الحركة النقابية والانتساب الى مؤتمر النقابات . (١٨)

لهذا السبب، قررت مارى ماكارثر، التى صارت سكرتيرة الرابطة عام ١٩٠٣، أن تؤسس الاتحاد الوطنى للعاملات فى عام ١٩٠٦، وقد تشكل على غرار نموذج النقابة العمالية العامة وفتح أبوابة لجميع النساء فى المهن التى ليس لهــا تنظيم نقــابى أو اللاتى لم يسمح لهن بالانضمام للنقابة المعنية بمهنتهن. (١٩)

عارضت مارى ماكارتر فصل النساء عن الرجال «لقد تطلعت دائما إلى اليوم الذى تصبح فيه النساء جزءا من هيئة كبيرة قوية تمثل الرجال والنساء معا» (٢٠) لذلك فقد تعاون الاتحاد بأقصى ماوسعه مع نقابات العمال المهرة، وقدمت عضواته مساندة فعالة لسياسة التنظيم المشترك للرجال والنساء العاملين فى نفس المهنة، حتى أن كثيرا من فروعه تحول إلى نقابة للرجال تفتح أبوابها للنساء.

قام الاتحاد الوطنى «بتنظيم النساء»، وخاض بهن إضرابات، ورسخ النقابية فى صفوفهن، كما لم تفعل أى منظمة أخرى» كان:

«مرتبطا ارتباطا عميقا بأفكار النقابات العمالية العامة الأولى وطابعها الكفاحى، وفى نضالة من أجل تحسين الأجور وظروف العمل، كان يجد فى الاضراب عادة السلاح الوحيد فى متناوله، وليس سجلة- فى الفترة بين ١٩٠٦ و١٩١٤ سوى سجل إضرابات فى قسطة الأعظم» (٢١)

فيما بين عامى ١٩٠٤ و١٩١٤ ازدادت عضوية الاتحاد من ألفين الى عشرين ألفا، (٢٢) وفى هذا العام بلغ إجمالى العضوية النسائية فى النقابات ٣٥٧٫٩٥٦ بينهن ٢١٠٫٢٧٢ فى نقابات صناعة القطن، (٢٣) أى بزيادة ١٩٠ ألفا خلال ثمانى سنوات.

شهدت الأعوام ١٩١٠-١٩١٤، التى كانت من فترات المد النضالى العمالى، توثق العلاقات بين العاملات ونضالات العمال عما كان عليه الحال فى عامى ١٨٨٨-١٨٨٩. فى تلك الفترة اندلعت إضرابات ضخمة وسط عمال المناجم والبحارة وعمال أحواض السفن وعمال السكك الحديدية والمهندسين وعمال

النقل. وفى الوقت نفسه أضربت عاملات صناعة السلاسل فى كرادلى هيث بيرمنجهام وشمل الإضراب نصف قوة جميع العاملات فى هذه المهنه، وبعد منعهن من دخول أماكن العمل لمدة عشرة أسابيع نجح الاضراب، وزادت عضوية نقابة عمال صناعة السلاسل فى فترة وجيزة الى ألف وسبعمائة.

وكان مفعول هذا النصر دراميا، فقد شمل كل مناطق وسط انجلترا فلقد اندفع الى التمرد عمال صناعة الطوب، وصناعة الآنية المعدنية المفرغه وآلاف من العمال غير المهرة وغير المنظمين الذين كانوا يعملون، مقابل مايقل عن جنيه استرلينى فى الأسبوع، فى المصانع والورش القذرة الكئيبة فى بلاك كنترى وحصلوا جميعا ، مثل نساء كرادلى هيث، على نظام أجور ثابت ومعترف به وعلى منظمات نقابية .(٢٤)

فى صيف ١٩١١، أضربت خمس عشرة ألف عاملة غير منظمة فى واحد وعشرين مصنعا تابعة لشركات بيرموندس، وانتهى الأمر بالحصول على التنظيم النقابى فى ثمانية عشر مصنعا منها: عاملات صناعة المربى والمخلل، وعاملات صناعة البسكويت، وعاملات تغليف الشاى وعاملات صناعة الكاكاو، وعاملات صناعة الغراء والمواد اللاصقة ، وعاملات صناعة العلب الصفيح وغسالات الزجاجات. ونتج عن هذه الموجه النضالية تزايد سريع فى عضوية النقابات، فقد تضاعفت فى الفترة من ١٩١٠ الى ١٩١٤. (٢٥)

ومع ذلك، فرغم المنجزات الكبرى للعاملات فى سنوات ١٨٨٨-١٨٨٩ و١٩١٠-١٩١٤، بقيت حركتهن متخلفة كثيرا عن حركة العمال، والسبب الرئيسى هو الطبيعة العامة للحركة العمالية البريطانية.

النزعة المحافظة للحركة العمالية البريطانية

فى بريطانيا كانت عملية التصنيع بطيئه، فلم يتح التنظيم فى البداية إلا للعمال المهرة، وشجعهم هذا الوضع على أن يستبعدوا من عداهم، خلافا لما حدث فى ألمانيا حيث أدى التصنيع السريع الى تنظيم سريع فى النقابات العامة التى شملت العمال المهرة وغير المهرة ، والرجال والنساء. ففى الفترة من عام ١٨٩١

إلى عام ١٩١٠ ازدادت عضوية النقابات البريطانية من ١٠٩٠٠٠ر١ إلى ٥٦٥٠٠٠ر٢، أو تضاعفت مرتين ونصفا. وفى نفس هذه الفترة زادت عضوية النقابات الحرة الألمانية من ٢٧٨ ألفا الى مليونين و١٧ ألفا، أو تضاعفت سبع مرات، متخطية الفارق مع البريطانيين. (٢٦)

وهكذا استغرقت جمعيه المهندسين المتحدة خمسين عاما قبل أن تسمح للعمال نصف المهرة بالانضمام اليها، وفى أغسطس عام ١٩١٤ كان هؤلاء يشكلون ١ر٦ فى المائة فقط من عضويتها .(٢٧) أما نقابة عمال التعدين الألمانية، فرغم حداثة عهدها فكانت منظمة تتجاوز بكثير حجم نظيرتها البريطانية ، ففى عام ١٩١٤ كانت جمعية المهندسين المتحدة تضم ١٧٤ ألف عضو فقط، بينما ضمت نقابة عمال التعدين ٥٤٥ ألفا (٢٩) وبينما لم تكن الأولى تضم امرأة واحدة حتى عام ١٩٤٣، بلغت العضوية النسائية فى الأخيرة ٥٥١ر٢٢ فى عام ١٩١٤، (مايعادل سبعة فى المائة من إجمالى العضوية) ثم بلغت ٢٦٦ر٨٣ عضوة فى عام ١٩١٧ (أو ٢١ فى المائة من إجمالى العضوية) (٣٠)

ورغم أن نقابات العمال المهرة اضطرت- كى تحقق استقرارا اقتصاديا لهم- لخوض معارك مريره ضد أصحاب العمل، فإنها- مأخوذه فى السياق التاريخى العريض- أنزلت ضررا فادحا بالطبقة العاملة ككل، رجالا ونساء. فهؤلاء الرجال المهرة فى نقاباتهم القوية، «ارستقراطية العمال» ، كانوا يتمتعون فعليا بعمل مستديم بينما كانت غالبية العمال تعيش فى سوق عماله مريح للغاية للمشترين من أصحاب العمل. وقد تمتع هولاء الرجال المهرة بوضع أعلى فى الدخل والتعليم والثقافة، كانوا من الناحية الاجتماعية أقرب للشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة منهم للطبقة العاملة. ومن هذا الوضع أثروا على الطبقة العاملة ككل، إذ أوجدوا تقاليد النزعة المحافظة ضيقة الأفق، التى صارت حصنا ضد الماركسية له قوته فى بريطانيا (بل لقد تشوهت «الماركسية» التى تمكنت من ايجاد موطن قدم لها فى الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى).

وحين تأسس حزب عمالى آخر الأمر عام ١٨٩٣ فى شكل حزب العمال المستقل، بذل قادته كل مافى وسعهم للتعميه على الخلافات بينهم وبين الأحزاب الرأسمالية السافرة. أى الليبراليين والمحافظين. لذلك ففى المؤتمر الثانى للحزب عام ١٨٤٩، وخوفا من انفضاض القادة النقابيين، رفض قادة الحزب مشروع قرار

يلزم الأعضاء:

«بتأييد والاقتراع لصالح المرشحين الذين يتبنون أهداف وسياسة وبرنامج حزب العمال المستقل فقط فى أى انتخابات، على ألا يكونوا أعضاء... أو مرشحين للأحزاب: الليبرالى والراديكالى والمحافظ والاتحادى والايرلندى الوطنى» (٣١)

فى عام ١٩٠٠ خرجت من رحم حزب العمال المستقل والحركة النقابية «لجنة تمثيل العمال» التى صارت فيما بعد حزب العمال. ويلخص رالف ميليباند بصورة صحيحة نشاطها بأنه «تاريخ المناورات السياسية من أجل التوصل إلى تفاهم انتخابى مع الليبراليين»(٣٢)

وفى عام ١٩٠٦ رفض مؤتمر حزب العمال باغلبية ساحقة مشروع تعديل فى برنامجه ينص على «الإطاحة بنظام المنافسة الرأسمالى الحالى وإقامة نظام الملكية العامة» كهدف يحدد هوية الحزب. وتساءل كيرهاردى« أمن المطلوب إخراج الأعضاء الإشتراكيين من مجلس العموم؟» وقد استمرت مغازلة الليبراليين دون انقطاع حتى الحرب العالمية الأولى.

فى بريطانيا كان ذلك الجمع الفريد بين التعاون الطبقى واللامبالاة تجاه العمال غير المهرة عامة والنساء خاصة فى سياسة القادة العماليين، هو الذى أدى الى ظهور منظمات مثل «الرابطة النقابية النسائية» و«الاتحاد الوطنى للعاملات»، فلم تكن مثل هذه المنظمات لتظهر فى روسيا أو ألمانيا لأن هوة طبقية كبيرة كانت تفصل المنظمات الاقتصادية والسياسية للعمال عن منظمات أصحاب العمل، لم يكن هناك متسع لسيدات الطبقة الراقية فاعلات الخير كى ينظمن النساء فى نقابات نسائية.

والفوارق ملحوظة بقدر أكبر فى المجال السياسى، ففى ألمانيا وروسيا كان العمال أعداء ألداء للدولة لأن معظم المنظمات العمالية فيهما كانت غير مشروعة وتتعرض طوال الوقت لقمع وحشى من الدولة، ولذا كانت قضية الإقتراع فى كلا البلدين قضية ذات طابع طبقى واضح ، فطالبت جميع الأحزاب الاشتراكية بالاقتراع العام لكل البالغين، ولم يخطر لأحد أن يقصره على الرجال.

اختلفت هذه الأمور فى بريطانيا اختلافا جذريا، فهنا منح الرجال حق الاقتراع عبر عملية تدريجية بطيئة: فى عام ١٨٣٢ حصل عليه رجال الطبقة المتوسطة، وفى عام ١٨٦٧ حصل عليه كثير من العمال المهرة، وفى عام ١٨٨٤

حصل علية جميع العمال المهرة وأعضاء النقابات. ولكى يمنح الرجل حق الاقتراع كان عليه أن يقدم إثبات ملكية ما: كملكية منزل، أو حق ملكية مطلق لأرض أوعقار، أو حيازة، أن يكون مستأجرا يدفع عشرة جنيهات استرلينية ، أو حاصل على درجة جامعية أو مؤهل مماثل، وحسب أحد التقديرات فإن هذا الشرط استبعد نحو سبعين فى المائة من السكان البالغين فى انجلترا وويلز من الاقتراع، بمافى ذلك جميع النساء والأبناء الذين يعيشون مع الوالدين وخدم المنازل الذين يعيشون مع مستخدميهم والجنود الذى يعيشون فى الثكنات، مما استبعد ٤٢ فى المائة من الرجال (٣٣) وكان الشرط الأخير للحصول على حق الاقتراع هو أن يكون المرء مسجلا فى مكان واحد لمدة اثنى عشر شهرا، وهو شرط موجه ضد المقترعين من الطبقة العاملة، خاصة فى لندن، حيث كان من الشائع ان يغير العامل سكنة ليكون قريبا من مقر عمله فى زمن كانت تكلفة المواصلات تمثل عبئا جديا. (٣٤)

أما أولئك الذين دافعوا عن منح النساء حق الإقتراع فكان أمامهم خياران، إما النضال من أجلة على نفس الأساس والشروط المطبقة على الرجال، أو النضال من أجل حق الإقتراع العام لكل البالغين.

ويعنى الخيار الأول أن أقلية ضئيلة من النساء هى التى ستحصل على هذا الحق فى الواقع الفعلى، وهو ما شرحته سيلفيا بانكهورست.

« إذا ماطبق حق الإقتراع على أساس نفس الشروط (المطبقة على الرجال) لن تكون للأم من الطبقة العاملة الأهلية له، لأن زوجها ، وليس هى، سيمارس الحق الوحيد الممنوح لهما كمالكين لمنزل والعامل ضعيف الأجر الذى يسكن بالايجار ، نادرا مايمتلك قشة يؤثث بها حجرة، حتى لو كان إيجارها مرتفعا بما يكفى لمنحه حق الاقتراع، وفى المقابل، فإن زوجات وبنات وأمهات الأغنياء سيسهل عليهن استيفاء المؤهلات المطلوبة للحصول على حق الاقتراع. » (٣٥)

وقدرت مارى ماكارثر أن أقل من خمسة فى المائة من النساء العاملات سيجوز لهن الإقتراع فى حال تطبيق نفس الشروط المطبقة على الرجال. (٣٦)

أما الخيار الثانى فلم يلاق قبولا لدى الكثيرين فى حزب العمال، فطالما أن خمسى الرجال ليس لديهم حق الإقتراع فإن الدعوة «المستحيلة» لمنحه للجميع- بما فى ذلك النساء- فيها قضاء على فلسفة الحزب «التدريجية»، كما ارتأوا.

كان هناك بالطبع موقف ثالث: وهو الرفض التام لمنح النساء حق الاقتراع، وقد تبنت هذه المواقف الثلاثة قطاعات مختلفة من حزب العمال المستقل وحزب العمال والاتحاد الاشتراكى الديمقراطى والنقابات.

وفى عام ١٩٠٥ دافع كيرهارى وفيليب سنودن فى مؤتمر مندوبى حزب العمال عن مشروع قرار يطالب بمنح النساء حق الإقتراع على أساس نفس الشروط المطبقة على الرجال، استنادا الى أنه «ليس من المحتمل» بلوغ حق الإقتراع لكل البالغين. (كان سنودن أحد الرواد المؤسسين لحزب العمال المستقل، وأصبح فيما بعد وزيرا للخزانة فى الحكومتين العماليتين فى عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٩، ثم انضم للحكومة الوطنية مع المحافظين ومعه رامسى ماكدونالد).

وعارض مشروع القرار هارى كويلش مندوب مجلس المهن فى لندن وعضو الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى، حيث قال أن القرار على هذا النحو سيكون فى صالح النساء البرجوازيات، ومن ثم سيزيد الفرص الانتخابية للمحافظين والليبراليين، وأدخل كويلش تعديلا على مشروع القرار ليطالب بحق الإقتراع لكل البالغين، وأجيز بأغلبية ٤٨٣ صوتا مقابل ١٧٠ صوتا. وفى مؤتمر الحزب لعام ١٩٠٦، تجددت الموافقة على موقف كويلش ولكن بأغلبية ضئيلة هذه المرة. ومن أبطال قصة الاقتراع للبالغين أيضا مارى ماكارثر ومرجريت بوندفيلد وهى عضو بارز فى نقابة مستخدمى المحال.

فى عام ١٩٠٦ تكونت «جمعية الإقتراع للبالغين» لتقوم بتنسيق المعارضة لصدور قانون إقتراع مقيد، وترأستها مارجريت بوندفليد. إلا أنها كانت عديمة الفعالية تماما.

وقد عبر بعض قادة الحركة العمالية عن معارضة سافرة لمنح النساء حق الإقتراع، ومن أكثرهم تطرفا بلفورت باكس وهو «منظر» فى الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى (يجب أن نؤكد هنا أن كثيرين فى الاتحاد كانوا يعارضون بشدة نزعة معاداة المرأة عند باكس وعنصريته، كان هناك ثوريون اشتراكيون كثيرون فى الحزب يؤمنون ايمانا عميقا بتحرير المرأة). وسوف نكتفى هنا بإيراد بعض عبارات باكس المهوله:

«.....بينما تعفى المرأة فى انجلترا فعليا من أى مسئولية عن إعالة زوجها، يمكن أن يجبره القانون البائس على إعالتها تحت طائلة عقوبة ثلاثة

---

* بالفرنسية فى النص "DO"COR V EE" وهو يوم العمل المجانى الذى كان يقدمه الفلاح الفرنسى للاقطاعى. المترجمة

أشهر من الأشغال الشاقة.... أعتقد إذن أن احدا لايستطيع إنكار أن قوانين الزواج الحالية هي باختصار «مكيدة» للاستيلاء على مال الرجل وقهره. (٣٧)

«الرجل مجبر، بحكم العرف والقانون، على «العمل مجانا»، أو التنازل عن قسط معلوم من مكسبه ليمكن زوجته من أن تعيش حياة مريحة..... المرأة تملك احتكار... وسائل الإشباع الجنسي، أي جسدها، ويعطيها القانون مقابل السماح له بحق الاستخدام، الحق في المطالبة بإيجار ورسوم في شكل طعام وملبس ومأوى، باختصار الاعالة حسب الوضع الذي يشغله في الحياه وغدها، أي الزوج، دون أي استنفاذ للطاقة من جانبها». (٣٨)

ولكي «يبرهن» بلفورت باكس على عدم صلاحية النساء للادلاء بأصواتهن، ناقش الموضوع منطلقا من فرضية أن النساء، مثلهن في ذلك مثل الأجناس السوداء من عينة أدنى:

«.... إن علاقة الاجناس الأدنى بالأجناس الأرقى هي نفس علاقة الأطفال بالبالغين، فعقولهم مختلفة إختلافا بينا عن الأخيرين، حتى أن الأساس العضوي للمقارنة منعدم».

ويطبق هذا على النساء فيقول:

«أعتقد أنه من الواضح إذن أن لنا عذرنا إذا مامنعنا أي فئة من الأشخاص من ممارسة الإقتراع إذا كانوا- كفئة- يحملون علائم دونية قائمة على فروق عضوية، من شأنها أن تجعل من تعاونهم في الحياة السياسية أو الادارية خطرا أو ضررا يلحق بالمجتمع ككل ... وهنا يثور السؤال، هل سنعتبر النساء اشخاصا يحملون فروقا عضوية عميقة الجذور، تنطوي على دونية، بالمقارنة بالرجال؟ وإذا كان الأمر كذلك سنكون منطقيين في معارضتنا لإقتراع المرأة، على أساس أن خير المجتمع ككل سيتعرض للخطر من جراء ذلك» (٣٩)

إن حركة محافظة ومتخلفة على مستوى مثقفيها كالحركة العمالية البريطانية، هي وحدها القادرة على إنجاب أمثال بلفورت باكس.

مشاكل تواجه نساء الطبقة العاملة

أضرت سياسات التحالف مع الليبراليين بمصالح العاملات ربما بقدر يفوق

الرجال، فقد أعيقت قدراتهن الكامنة على النضال وشوهت ولم يتح لها النمو أبدا، بينما كان يجرى دفعهن الى التحالفات الطبقية والنزعة المحافظة. والإمكانية التى تحققت بالفعل فى طاقاتهن الكفاحية، يمكننا التعرف عليها من إلقاء نظرة على قصة حركة النضال من أجل الاقتراع فى صفوف عاملات صناعة القطن قرب نهاية القرن، وترويها لنا «جيل ليدنجتون» و«جيل نوريس» فى كتابهما الممتاز «يد واحدة مقيدة لظهورنا» (٤٠)

فى عام ١٨٩٣ نظمت إستر روبر حملة من أجل حق الاقتراع وسط عاملات النسيج فى لانكشاير، كان لها أثر كبير على جمعيات الاقتراع الأقدم ولجنة تمثيل العمال الصاعدة، حتى بلغ تأثيرها البرلمان، ومنذ مطلع عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٠٦ اكتسبت الحملة قوة متزايدة وتوصلت الى نجاحات مدهشة.

ففى أول مايو عام ١٩٠٠ بدأت حملة توقيعات على عريضة بهذا الشأن فى لانكشير، وفى الربيع التالى كان عدد نساء الطبقة العاملة الموقعات عليها قد بلغ ٢٩٫٣٥٩ عاملة وفى ١٨ مارس توجه وفد من خمس عشرة مندوبة من عاملات صناعة القطن الى لندن لتقديم العريضة الى مجلس العموم، وأشعل هذا النجاح حماس عضوات جمعية شمال انجلترا فقررن توسيع مجال نشاطهن إلى عاملات صناعة الصوف فى يوركشاير وعاملات صناعة القطن والحرير فى شمال شيشاير. (٤١) وفى فبراير ١٩٠٢ قدم وفد من عاملات النسيج فى يوركشاير وشيشاير عريضة جديدة لمجلس العموم.

وكانت تسعون ألف عاملة عضوات نقابة صناعة القطن ويمثلن فى عام ١٨٩٦ مالا يقل عن خمس أسداس مجمل العاملات المنظمات فى نقابات- هن العمود الفقرى للحركة. وقد طالبن بالإقتراع العام للبالغين، كجزء من مجموعة من المطالب الاجتماعية والأقتصادية:

«..... لم يكن مهتمات بالحصول على حق الاقتراع كرمز للمساواة، وإنما أردنه من أجل تحسين ظروف نساء مثلهن... فما الفكرة فى الاقتراع اذا لم يكن هناك أى تصور عن كيفية استخدامه؟ ولقد كن جميعا وبلااستثناء منخرطات فى حملات أوسع تخص العاملات فقد حاولن بوصفهن نقابيات تحسين أجور النساء وظروف عملهن، ونظمن حملات من أجل رفع مستوى تعليم بنات الطبقة العاملة، وتحسين الخدمات المقدمة للأمهات من الطبقة العاملة ولأطفالهن (٤٢)

كان الطريق الذى أخترنه متأصلا فى خبرة الطبقة العاملة: «.... كانت

طرائقهن هى تلك التى تعلمنها فى مواقع أخرى فى الاجتماعات التى تعقد على بوابات المصانع ، وتمرير القرارات المتعلقة بالاقتراع فى فروع النقابة، والتنظيم من خلال المجالس المهنية»(٤٣)

ومما يؤسف له أن الحركة، اذ لم تحصل على المساندة التى تستحقها من الحركة العمالية الأوسع، واجهت عدة عقبات فوق طاقتها، ثم سقطت فى أحضان الحركة النسوية البرجوازية، وبعد بضع سنوات لفظت انفاسها.

النقابة الاجتماعية والسياسية النسائية

المنظمة التى تركت الانطباع الأكبر فى كتب التاريخ هى تلك التى اسستها مسز إميلين بانكهورست واستمرت بها ابنتها كريستابل. وإميلين هى زوجة د. ريتشارد بانكهورست المحامى بالمحاكم العليا وعضو الغرفة التجارية فى مانشستر ومؤسس الاتحاد الليبرالى لمانشستر. فى عام ١٨٩٢ تركت إميلين صفوف الليبراليين لتنضم الى حزب العمال المستقل الناشئ، وفى نهاية عام ١٨٩٤ انتخبت مرشحة للحزب إلى «مجلس أوصياء تشورلتون» ، وفى العام التالى أدارت حملة لانتخاب زوجها مرشحا لحزب العمال المستقل عن جورتون فى الانتخابات العامة. وفى عام ١٨٩٨ مات دكتور بانكهورست.

خلال تسعينيات القرن الماضى وحتى أواخر عام ١٩٠٣، كانت مسز بانكهورست مشغولة بتحسين ظروف العمال أكثر منها بحق الإقتراع للنساء ، وفى ذلك العام انتخبت فى اللجنة التنفيذية العامة لحزب العمال المستقل وانضم له جميع أبنائها كريستابل وسيلفيا وهارتى وأديلا ، وفى ذلك العام نفسه تقدمت بالتماس مع ابنتها الأقرب اليها «كريستابل» من أجل منح المرأة حق الاقتراع ، لأنه سيدفع للأمام بقضية ظروف عمل النساء.(٤٤) وفى ١٠ أكتوبر عام ١٩٠٣، وعقب شهور من البطالة المتزايدة والعمل لفترات قصيرة مؤقتة فى صفوف العاملات، أنشأت مسز بانكهورست - حرصا منها على تحسين الوضع المقدر على العاملات- جماعة صغيرة معظمها من العاملات المناصرات لحزب العمال المستقل، وكانت هذه هى «النقابة الاجتماعية والسياسية

النسائية»(٤٥)

«كانت تنوى القيام بعمل اجتماعى وسياسى، وفى ذهنها تقديم إعانات للأمومة وماشابه ذلك لأعضاء المنظمة الجديدة، التى كانت تنوى فى الوقت نفسه تشكيلهن من النساء العاملات أساسا، ليصبحن منظمة نسائية مقابلة لحزب العمل المستقل، وإن يكن مع التركيز على حق الاقتراع فى المقام الأول.(٤٦)

«وفى الفترات الأولى من تاريخ النقابة الاجتماعية والسياسة النسائية، كان هناك إتجاه لتبنى مشروعات أخرى غير حق الاقتراع، للمعاونة الجدية لحركات الأصلاح»(٤٧).

اهتمت النقابة، وتصرفت باسم العاطلات عن العمل، والمضربات فى يوركشاير، و«الأهالى» فى ناتال وقضايا أخرى بجانب حق الاقتراع، وتمثل نشاطها الرئيسى فى مخاطبة اجتماعات حزب العمال المستقل والنقابات والمجالس المهنية والكنائس العمالية ونوادى الكلاريون. ورغم أنها لم تكن تنتسب رسميا لحزب العمال المستقل، فقد كانت تعتمد عليه فعليا فى الدعاية وتوفير المنصات وجلب الجمهور.

ولكن منطق المنظمة النسائية البحتة ، التى أخذت تكرس طاقاتها لقضية الاقتراع على نحو متزايد، بدأ يضعف المحتوى الاجتماعى لأنشطتها .ففى نوفمبر عام ١٩٠٣، تكلمت كريستابل، التى كانت أول من سعى إلى التركيز على ذلك الموضوع الواحد، فى جمعية الاقتراع لنساء شيفيلد المشكلة حديثا، فحثت النساء «ألا ينقسمن، أن يضممن صفوفهن حول قضية واحدة، الاقتراع»(٤٨)

وشهد شهر يوليو ١٩٠٥ مسيرة ألف امرأة من حى ايست إند بلندن الى وستمنستر، وفى نوفمبر سارت أربع آلاف امرأة من زوجات العاطلين عن العمل يرفعن مطالب «الغذاء لأطفالنا» و«العمل لرجالنا» ويهتفن «ياعمال العالم اتحدوا» (٤٩)

فى عام ١٩٠٦ انتقلت قيادات النقابة الاجتماعية والسياسيه النسائية الى لندن، حيث واصلن فى البداية التركيز على نساء الطبقة العاملة، وفى ذلك العام نفسه نظمن أول مظاهرة تطالب بالإقتراع للنساء. وفى ١٩ فبراير، وبعد مسيرة ثلاثمائة امرأة من إيست إند، عقد اجتماع ودخلت النساء إلى البرلمان لاقناع الأعضاء بقضيتهن حيث حضرت أيضا سيدات ثريات، ارتدت بعضهن

ملابس خادماتهن كى لايتعرف عليهن أحد. وفى ٢٧ فبراير اقترعت «عاطلات ساوث وست هام» بالموافقة على ان يصبحن فرع النقابة الاجتماعية والسياسية النسائية فى «كانتج تاون» أول فرع لها فى لندن.(٥٠)

إلا أن كريستابل، التى أصبحت الشخصية المهيمنة فى النقابة، سرعان ماقررت أن حركة العاملات لاقيمة لها، لأنهن القسم الأضعف فى جنس النساء «من الخطأ بالتأكيد استخدام الأضعف للنضال! نحن نريد نسوة منتقاة، الأقوى والأذكى على الإطلاق»(٥١)

وأعطت كريستابل تعريفاً جديداً لأهداف النقابة، على النحو التالى:

«ليست حركتنا حركة طبقية على الإطلاق، إننا نضم الجميع، الأعلى والأدنى، الأغنى والأفقر، ومايربطنا هو أننا نساء! يكافح الاشتراكيون ضد شرور يعتقدون أنها راجعة لروح الظلم بين الرجل والرجل، ولست واثقة على الإطلاق، من أن النساء لو أتيحت لهن الفرصة المناسبة للتأثير منذ البداية، ماكن ليجلبن أحوالاً مختلفة كلياً... والخلاصة، أن على الرجال أن يسيروا قاربهم هم، وعلينا أن نسيرّ قاربنا نحن»(٥٢)

كانت البنسات والشلنات التى تجمعها مئات وآلاف الفقيرات فيما بينهن لاتقاس بالمبالغ الضخمة التى بدأت تهبها المرفهات القادرات للنقابة الإجتماعية والسياسية النسائية، وعلى سبيل المثال فقد تعهدت إحداهن فى اجتماع عام فى ألبرت هول فى ١٩ مارس ١٩٠٨ بأن تقدم ألف جنية استرلينى سنوياً حتى تحصل النساء على حق الاقتراح وقدمت اثنتا عشر سيدة أخرى مائة جنية استرلينى كلاً على حدة، وحتى مسئول صندوق النقابة مستر بشويك لورنس نفسه وعد بتقديم ألف جنية استرلينى سنوياً.(٥٣) وفى ذلك الوقت كانت قيمة الجنية أعلى من قيمته الحالية ثلاثين مرة، لذلك فقد كانت المبالغ المتاحة طائلة، وقد ازداد دخل النقابة زيادة ضخمة فمن ثلاثة آلاف فى ١٩٠٦-١٩٠٧ إلى ذروة بلغت ٣٧ ألف جنية استرالينى فى ١٩١٣- ١٩١٤، ولاتوجد منظمة يمكن مقارنة مواردها بذلك ولا حتى حزب العمال.(٥٤)

وأصبحت المنظمة تدار بديكتاتورية تامة، فلم تسمح إميلين وكريستابل بعقد أى مؤتمر عام للنقابة بعد سبتمبر/ أكتوبر ١٩٠٧، وأنفردتا بالإدارة بالاشتراك مع مستر ومسز بشويك بدون أى لجنة حتى أكتوبر ١٩١٢، حين طردتهما إميلين وكريستابل بأسلوب يخلو من اللياقة.

وهكذا تبين لنساء الطبقة العاملة أن وجود هن غير مرغوب فيه فى النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية، وفضلاً عن ذلك فإن شعار «حق الاقتراع للنساء» كما فسرته إميلين وكريستابل ليعنى الاقتراع بنفس الشروط المطبقة على الرجال، وصفته النقابيات بأنه «حق الاقتراع للسيدات الراقيات» واستنكرنه مراراً.

الطريق إلى نهاية مسدودة

منذ نهاية عام ١٩٠٦ وعلى امتداد عام ١٩٠٧ كثرت مظاهرات النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية فى العديد من المدن بالإضافة للندن، وزاد حجمها، وكانت اعتقالات واسعة النطاق تعقب كل مظاهرة: ٥٣ معتقلة فى ١٣ فبراير، فى ١٩٠٧ . ٧٤ فى ٨ مارس، ٦٥ فى ٢١ مارس. ومع ذلك ازداد عدد المتظاهرات، ففى ١٥ يوليو عام ١٩٠٨ اشتركت عشرون ألف متظاهرة فى المظاهرة التى نظمتها النقابة فى كلا بهام كومون بجنوب لندن، وفى ١٩ يوليو جاءت ١٥٠ ألفاً منهن إلى هيتون بارك فى مانشستر وفى ٢٦ يوليو تظاهرت مائة ألف أخريات فى وودهاوس مور فى ليدز وقد ذكر تقرير النقابة النسائية عن الفترة من أول مارس ١٩٠٧ حتى ٢٩ فبراير ١٩٠٨، أنها عقدت «مايزيد على خمسة آلاف إجتماع جماهيرى» خلال العام، اجتذب أربعمائة منها مايزيد على ألف من الحاضرين.

وبلغت المظاهرات التى نظمتها النقابة ذروتها فى ٢١ يونيو عام ١٩٠٨، حين إجتمع حشد هائل فى هايدبارك، وقدرت صحيفة التايمز عدد الحاضرين بما يتراوح بين ٢٥٠ ألفاً و ٥٠٠ ألف، بينما قالت صحيفة النقابة «الإقتراع للنساء»: .... ليس من المبالغة القول أن عدد الحاضرين هو أكبر عدد يجتمع فى بقعة واحدة وفى وقت واحد فى التاريخ. العالمى»(٥٥)

ولكن كل ذلك لم يؤد إلى شيء بكل أسف، فحكومة الليبراليين لم تحرك ساكناً بشأن موضوع الإقتراع للنساء، ولم تجرؤ عائلة بانكهورست على تكرار مظاهرة ٢١ يونيو فى هايدبارك، بتقدير صائب لاستحالة قيام مظاهرة أكبر. وبفعل الإحباط، أقدمت عضوتان فى النقابة النسائية على تحطيم نوافذ فى ١٠

داونتج ستريت فى ٣٠ يونيو ١٩٠٨، مما أوقف اجتماعات الحزب الليبرالى.
واعتباراً من أغسطس عام ١٩٠٩ بدأت عضوات النقابة تكتيكاً جديداً، هو الإضراب عن الطعام لكل من يلقى القبض عليهن، وردت الحكومة باستخدام أساليب «القط والفأر»، فتبدأ بالإطعام بالقوة، ثم إطلاق سراح السجينة التى تدهورت صحياً إلى حد خطير.. وبعد أن تتحسن صحتها يلقى القبض عليها من جديد.

فى الوقت نفسه كانت سياسات النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية تتخذ منحى معادياً للطبقة العاملة بصورة متزايدة، فعقب مصرع ثلاثة من العمال المضربين فى أغسطس عام ١٩١٥- إثنان منهما بالرصاص- أثناء إضرابات عمال النقل فى ليفربول ولينلى، علقت صحيفة «الإقتراع للنساء» بإشارة موجزة إلى «وقوع بضعة قتلى»، لتستطرد بعدها قائلة أن المطالبات بحق الإقتراع عندهن ما هو أدعى للثورة من الرجال، لأن هؤلاء يملكون حق الإقتراع، ومن ثم «يمكنهم تحسين أوضاعهم دون اللجوء للإضرابات». وحين سجن كل من توم مان وجى بومان وفريد كراوسلى بسبب دعوتهم للجنود ألا يطلقوا النار على زملائهم المضربين، علقت النقابة النسائية ببرود قائلة أن هذه المخالفة أخطر كثيراً من أي مخالفة ارتكبتها المطالبات بحق الإقتراع، وأنها كان يجب أن تعاقب بشدة أكبر.(٥٦)

وعند وفاة الملك إدوارد عام ١٩١٠، نافست كريستابل الصحف المحافظة فى التعبير عن ولائها للعرش، وأوقفت النقابة النسائية كل أشكال الدعاية وفرضت على نفسها حداداً طويلاً على الملك فى صحيفتها.(٥٧)

وفيما يتعلق بقضية منح إيرلندا الحكم الذاتى، فلأن القوميين الأيرلنديين فى مجلس العموم لم يبدوا أى تأييد لمطالب النقابة النسائية، نظمت حشداً أمام البرلمان يرفع لافتات كتب عليها شعار «لااقتراع للنساء إذن لاحكم ذاتى»، وفى المقابل قدمت تأييدها لأنصار الوحدة من أولستر، الذين وافقوا على مطلب الإقتراع للنساء فى سبتمبر ١٩١٣.

و أدى استمرار الفشل إلى تكيتكات أكثر يأساً، ففى ٢١ نوفمبر عام ١٩١١ نظمت إميلين وكريستابل حملة تحطيم نوافذ فى وست إند بلندن، وفى عام ١٩١٣ بدأتا حملة طويلة من أعمال الإحراق العمد الموجهة ضد الشخصيات الثرية البارزة. وفى ٣ يونيو ١٩١٣ جاءت إملى ويلدينج دافيسون إلى سباق

ديربى، واقتحمت مسار الخيول فاصطدمت بحصان الملك الذى قتلها.

فى الوقت نفسه توقفت كليا تقريباً كل أشكال النشاط الجماهيرى كالمؤتمرات الجماهيرية والمظاهرات، وانتحت النقابة النسائية جانباً أثناء الإضرابات الضخمة وإغلاق المصانع فى وجه العمال على نطاق واسع فى الفترة الحرجة من ١٩١٠ إلى ١٩١٤.

كذلك ازدهرت أثناء هذه الحملة نفسية متطرفة فى معاداة الرجل، وقد وضعت كريستابل أفكارها فى كتاب بعنوان «سوط العقاب العظيم وكيف نوقفه» و«السوط العظيم» هو الأمراض الجنسية، التى يلتقط عدواها «كما يسلم الكثيرون فى الأوساط الطبية المسئولة» مايتراوح «بين ٧٥ فى المائة إلى ٨٠ فى المائة من الرجال» قبل الزواج، «وهو مايعنى أن رجلاً واحداً من كل أربعة رجال يستطيع الزواج دون أن يشكل هذا مخاطرة للعروس»، وعلاج الأمراض الجنسية إذن هو «حق الاقتراع للنساء»، الذى سيوفر لهن قدراً أكبر من الاعتماد على النفس ووضعاً إقتصادياً أقوى، كما سيعلم الرجال العفه» و«على الشابات.. أن يحذرن من حقيقة أن الزواج سيظل خطراً كبيراً، حتى يأتى الزمن الذى تتغير فيه المعايير الأخلاقية للرجال تماماً.»(٥٨)

ونظمت النقابة النسائية حملة أسمتها «الحملة الصليبية الأخلاقية» للدعاية لأفكار كريستابل.

وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا عام ١٩١٤ كانت النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية قد أصبحت ربما المنظمة الأكثر شوفينية فى البلاد، فأعلنت كريستابل أن «نجاح الألمان سيكون كارثة على حضارة العالم، فضلاً عن الإمبراطورية البريطانية». وخلال الأشهر التالية نظمت الأم والإبنه بانكهورست حملة قومية لتجنيد النساء للعمل فى صناعة الذخيرة، وفى ١٥ أكتوبر غيرتا إسم صحيفة النقابة إلى «بريتانيا» وأصبح عنوانها الجانبى يقول: «من أجل الملك، ومن أجل الوطن، ومن أجل الحرية».

وفى عام ١٩١٥ شنت النقابة النسائية «حملة للسلام القومى فى الصناعة» بمساندة مالية ومعنوية من شخصيات صناعية بارزة (وبعض هؤلاء ممن تعرضت قصورهم الريفية للإحراق على أيدى نصيرات آل بانكهورست قبل عام أو عامين فحسب)، وعينت للحملة موظفات بالأجر، غالبيتهن من النشيطات سابقاً فى المطالبة بحق الإقتراع للمرأة. أدانت الحملة النقابيين «البلاشفة» الذين يسعرون

نيران الصراع الطبقى، وطالبت النساء أن يقدمن البرهان الأقوى فى مواجهة النظريات الأجنبية، فيأخذن على عاتقهن التأكد من أن الرجال يفهمون خطورة الخزعبلات الاشتراكية وافتقارها للنضج، ويعرفون أين مصالحهم الحقيقية وواجبهم الحقيقى وركزت الحملة على مناطق الاضرابات العمالية الكبرى، فى

* التعصب القوى. المترجمة.

شمال إنجلترا وجلاسجو ومناطق التعدين فى جنوب ويلز. وكانت ترسل تقارير دورية عن مدى التقدم فى هذه المهمة إلى رئيس الوزراء.(٥٩)

ولقد كانت النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية هى التى ابتدعت تقليد إرسال ريشات بيضاء للمدنيين الذين لم يتطوعوا للإنضمام للقوات المسلحة.

وفى أول يونيو عام ١٩١٧ طلبت مسز بانكهورست من رئيس الوزراء لويد جورج أن يبعث بها إلى روسيا وهناك قابلت كيرنسكى وطلبت منه أن ينتهج سياسة حازمة مع البلاشفة، واستعرضت الكتيبة النسائية «كتيبة الموت» التى أنشأها كيرنسكى فى محاولة يائسه أخيرة لإثارة الروح الوطنية وإثارة نخوة الرجال كى يقاتلوا، واعتبرتها «أعظم شىء فى التاريخ منذ جان دارك»، (٦٠) وقد كانت هذه الكتيبة هى المدافع الأخير عن قصر الشتاء ضد البلاشفة فى أكتوبر. ودعت إميلين بانكهورست النساء الروسيات إلى الانقضاض على البلاشفة فى كل مكان فى روسيا، وإرغام رجالهن على مساندة كيرنسكى والحكومة المؤقته، وإن كانت تقول فى جلساتها الخاصة أن كيرنسكى رجل ضعيف وأنه لن يستطيع إنقاذ روسيا سوى الجنرال كورنيلوف المعادى للثورة.(٦١)

سيلفيا بانكهورست

الوحيدة التى احتفظت بنشاطها وسط الحركة العمالية هى سيلفيا بانكهورست، التى قدمت إسهاما كبيراً فى نضالات الطبقة العاملة فى إيست إند بلندن، وللأسف فقد تأثرت بالنزعة المحافظة فى الحركة العمالية والحركة النسائية التى يهمين فيها العنصر البرجوازى، ويبدو من كتاباتها العديدة أنها لم تتعرف بأى قدر على أفكار المفكرين الثوريين من ماركس فصاعداً.

فى كتابها «المطالبات بحق الإقتراع»، المنشور عام ١٩١١ فى ذروة نشاط

النقابة النسائية، أغدقت المديح بلا تحفظ على النقابة، وتجاهلت كل المنظمات الأخرى التى اكتفت ببضع ملاحظات غير مدروسة عنها. واعترضت على حملات تحطيم النوافذ والإحراق وإن خففت من حدة نقدها هنا - وفيما بعد أوضحت السبب الذى منعها من الانفصال عن والدتها وشقيقتها فى ذلك الوقت فى كتابها «حركة المطالبات بحق الإقتراع» المكتوب عام ١٩٣١:

«كنت أعتقد، ومازلت، أن الحركة تحتاج مخاطبة القطاعات العريضة لتنضم إلى النضال، اكثر مما تحتاج الكفاحية العالية لدى القلة. ولكننى لم أكن لأنتقد أو أجادل، فقد كنت أفضل الموت على أن أقول كلمة ضد عمل أولئك الذين يتحملون مشقة النضال». (٦٢)

عارضت سيلفيا بانكهورست تأييد النقابة النسائية لقانون يعطى النساء الإقتراع مشروطاً بحجم الدخل، «وقد اعترفت مسز بانكهورست بصحة وجهة نظرى فى الخلاف، ولكنها قالت أن الأمر قد تقرر وأن الوحدة ضرورية، وقد شعرت بأن الحجة الأخيرة لها قوتها». (٦٣)

ورغم جهودها من أجل التوافق، فقد طردت سيلفيا بانكهورست من النقابة الإجتماعية والسياسية النسائية، وضد رغبتها، فى يناير عام ١٩١٤، عقب كلمة ألقتها فى مؤتمر جماهيرى فى قاعة ألبرت هول وأيدت فيها عمال دبلن المضربين، وكان المتحدث الرئيسى فى المؤتمر جيمس كونوللى.

وبينما سكنت مسز بانكهورست وابنتها كريستابل فى وست لندن وقضتا أوقاتهما فى الأوساطة الراقية، بدأت سيلفيا فى عام ١٩١٢ تقوم بالتنظيم فى حى إيست إند، من خلال «اتحاد المطالبات بحق الإقتراع فى إيست لندن» وفى ١٨ مارس عام ١٩١٦ تحولت هذه المنظمة إلى «اتحاد العمال للإقتراع»، ثم إلى «اتحاد العمال الاشتراكى» فى مايو عام ١٩١٨. وحتى الثورة الروسية كانت سيلفيا تكرس كل جهودها من أجل الحصول على حق الإقتراع، وفى العدد الأول من صحيفتها الأسبوعية «مدرعة النساء» الصادر فى ٨ مارس ١٩١٤، حددت مهمتها كما يلى:

«تصدر مدرعة النساء عن اتحاد المطالبات بحق الإقتراع فى إيست لندن، وهى منظمة مكونة من النساء العاملات أساساً، وسيكون واجب الصحيفة الأساسى هو معالجة قضية الإقتراع من وجهة نظر المرأة العاملة، ونشر أنباء نشاط الحركة النسائية من أجل الإقتراع فى إيست لندن إلا أن الصحيفة ستبذل

جهدها لتغطية كل نشاط حركة تحرير النساء». (٦٤)

وقد كرست سيلفيا بانكهورست ستة آلاف كلمة تكون الإفتتاحية لموضوع الإقتراع علاوة على ثلاث صفحات من ثماني صحفات لكل الصحيفة، وقد كتبتها بنفسها جميعاً. وحتى حين تناولت قضية الدعارة، ورغم أنها رأت أسبابها في انخفاض الأجور والفقر، كان الحل الذى اقترحته هو حق الإقتراع للنساء. ولم تشر بأى ذكر ليوم المرأة العالمى الذى واكب صدور العدد الأول من الصحيفة.

وفي الفترة التي نشط فيها سير إدوارد كارسون في إثارة معارضة بروتستانتية للحكم الذاتي لأيرلندا، نشرت الصحيفة مقالاً بعنوان «النساء وأولستر»* ولكن لم يتضمن أى كلمة نقد «لقوة متطوعى أولستر*» وفي ٢٢ يناير ١٩١٦ خصصت الصحيفة ٣٥٠ كلمة لنشر «أنباء من منطقة كلايد» تتناول اضطهاد النقابيين في صناعة الذخيرة في جلاسجو، بينما خصصت ١١ ألف كلمة أو أربعة أخماس العدد فعلياً، لقضية الإقتراع.

حين غيّر «اتحاد المطالبات بحق الإقتراع في إيست لندن» إسمه إلى «اتحاد العمال للإقتراع»، تحدد برنامج المنظمة على النحو التالي «إن هدف الاتحاد هو التوصل إلى اقتراع إنساني: أى توفير صوت لكل امرأة ورجل بالغين، والعضوية مفتوحة لكل امرأة ورجل فوق سن الثامنة عشرة» وذلك هو كل شيء. (٦٥)

عارضت سيلفيا بانكهورست الحرب العالمية الأولى تماماً، من منظور سلمي يأمل في تحقيق السلام عن طريق التوصل إلى اتفاق بين القوى الإمبريالية المتنافسة ولذلك فقد أبدت حماساً كبيراً في «مدرعة النساء» في ٣ أبريل و٥ مايو ١٩١٥ إزاء مؤتمر السلام الوشيك في لاهاي، ودعت في ١٦ ديسمبر ١٩١٦ لعقد «مفاوضات سلمية» و«إقامة محكمة دولية»، وفي عدد الصحيفة الصادر في ٢٧ يناير ١٩١٧ نجد ترحيباً مفتوناً بشروط السلام التي طرحها الرئيس الأمريكي ويلسون.

إلى جانب السياسات محدودة الأفق الخاصة بمطلب الإقتراع للنساء والموقف السلمي، كان هناك تركيز على الخدمات الإجتماعية المحلية خلال العامين الأولين من الحرب. فقد أقامت سيلفيا بانكهورست مطعماً شعبياً «يقدم طعاماً من الدرجة الأولى بسعر التكلفة» في القاعة الخاصة «باتحاد المطالبات بحق

الإقتـراع فى إيست لندن» فى أولد فوردرود.(٦٦) وكانت حوالى مائة أم مرضعة تتسلم ربع جالون من اللبن وعشاء كل مساء من الاتحاد. (٦٧) وفى عام ١٩١٥ كان نحو ألف أم وطفل يترددون على عيادات الاتحاد، الذى كان ينفق حينئذ حوالى ألف جنية استرالينى على اللبن.(٦٨) كذلك فتح الاتحاد حضانة تضم أربعين طفلاً، وورشتان تنتجان الثياب واللعب، وكانت ورشة اللعب تشغل ٥٩ شخصاً. وكانت احتفالات الكريسماس والعام الجديد المخصصة للأطفال تستهلك الكثير من الجهد.

وسعت سيلفيا للحصول على تمويل لهذا النشاط من فاعلى خير أثرياء، وفى هذا الإطار أمضت يوم عطلة مع المحافظين الليدى أستور ورئيس الوزراء السابق آرثربلفور فى كليفدين، وتعطينا الوصف التالى عن المقابلة:

«حدثتهم عن الحياة الشاقة الرمادية فى حى إيست إند، وعن النساء والفتيات اللاتى يصنعن اللعب فى مصنعنا الصغير، عن الكادحات والفتيات ممن يوصلن السلع للمنازل والخادمات اللاتى نعلمهن رسم اللعب، ومعبئات السجق اللاتى يتعلمن التصميم. حاولت أن أكشف لهم عن النفس الخالدة داخل فقيراتنا التى تسعى إلى التحرر من سجنها الكئيب.. سلموا التبرع، واندفع الحشد إلى بوفية محمل بمأكولات فاخرة».(٧٠)

وضمن نفس هذا الإطار لأفكار سيلفيا، اتجهت وسط الحرب للضغط على يمينى متطرف من حزب المحافظين هو اللورد نورث كليف، كى يساعد فى النضال من أجل منح المرأة حق الإقتراع. ٧١)

ومن المفيد أن نقارن موقف سيلفيا بانكهورست من العمل الإجتماعى بموقف البلاشفة فى نفس الفترة. فى سبتمبر عام ١٩١٦، أى قبل فترة طويلة من الثورة، قرر المجلس البلدى لبطرسبورج افتتاح تسعة كانتينات تستوعب طاقتها اليومية ثمانية آلاف شخص، وهو مشروع يتجاوز كثيراً أى شيء شرعت فيه سيلفيا، واعتبره البلاشفة مجرد مسكن، فمرروا فى المصانع القرار التالى:

«... إن كل الوسائل الجزئية لمحاربة أزمة الطعام (مثل النقابات، ورفع الأجور والكانتينات) لاتفعل سوى ان تخفف بصورة محدودة من آثار الأزمة، ولاتزيل الأسباب..

* أولستر هى إيرلندا.

* كلايد، نهر فى غرب اسكتلندا، المترجمة.

إن الوسيلة الوحيدة الفعالة فى مكافحة الأزمة هى النضال ضد الأسباب التى تولدها، النضال ضد الحرب والطبقات الحاكمة التى تآمرت فأوجدتها، وإذ نأخذ كل ذلك في الاعتبار، فإننا ندعو الطبقة العاملة الروسية وكل الديمقراطيين إلى انتهاج طريق النضال الثورى ضد الملكية القيصرية والطبقات الحاكمة، تحت شعار فلتسقط الحرب». (٧٢)

كذلك حاول «اتحاد المطالبات بحق الإقتراع فى إيست لندن» تحسين ظروف العمل فى الورش المنهكة غير الصحية العديدة فى إيست إند دونما جدوى كبيرة، كما نشط فى دعم الإضرابات عن دفع الإيجارات، وحقق نجاحاً فى منع عمليات الإخلاء، وفرض سحب دعاوى لزيادة الإيجار.

وفى عامى ١٩١٥و١٩١٦ بدأت سيلفيا بانكهورست تنخرط فى نشاط عمال التعدين بجنوب ويلز، وأصبحت «مدرعة النساء» صحيفة جيدة الإطلاع على النضالات الجماهيرية هناك إلا أن أعمال التمرد الواسعة فى (شيفيلد) و(مانشستر) و(بلفاست) و(بارو إن فيرنيس) لم تلق أصداء قوية.

وقد أدت انتقائية سيلفيا بانكهورست إلى بعض الأنشطة الغريبة، فقد أرادت أن تقلد «جيش المواطنين الأيرلنديين» الذى نظمة جيمس كونوللى، فأنشات «جيشاً شعبياً» فى أغسطس عام ١٩١٣، «منظمة يستطيع الرجال والنساء الانضمام إليها كى يناضلوا من أجل الحرية، وولكى يجهزوا أنفسهم ليصلحوا للتعامل مع وحشية موظفى الحكومة». (٧٣) وكان الجيش يتدرب كل مساء أربعاء عقب اجتماعات الاتحاد فى باو، يشاهده مئات من الرجال والنساء ويهتفون له، وكان التدريب يتمثل فى سير مايتراوح بين ثمانين ومائة شخص فى تشكيل يحملون هراوات، ويفيد أحد التقديرات أن سبعمائة امرأة اشتركن فيه فى ذروة نجاحة. (٧٤)

كان تركيز سيلفيا الدائم على قضية الإقتراع العام، الذى اعتبرته غاية فى حد ذاته، يحكم عليها بالعجز عن وضع استراتيجية فعالة، فلم تفهم ماكان واضحا تماما لدى لينين وروزا لكسمبورج، وهو أن النضالات حول إصلاحات محددة قيمتها ليست فى ذاتها وإنما فى كونها وسيلة لرفع وعى العمال وثقتهم بأنفسهم، ولذلك فقد فاتها إدراك أهمية النضالات الأخرى لنجاح النضال ضد وقف الحرب، وخاصة حركة ممثلى النقابات فى المصانع الهندسية.

ورغم معارضتها القوية للحرب، لم تفهم طبيعتها كحرب تمليها المنافسة بين قوى الرأسمالية على السيادة على الأضعف كما أدرك لينين، الذى قال أن العمال لامصلحة لهم فى النضال من أجل «بلدهم»، ولكن لهم كل المصلحة فى النضال من أجل طبقتهم، وطالبهم بوضع نهاية للحرب عبر إعلان الحرب الأهلية ضد حكوماتهم بالذات. كان مثل هذا الموقف غريبا على سيلفيا بانكهورست، التى كانت نظرتها للنضال الطبقى نظرة أخلاقية أساسا، تحكمها أمنية رفع المعاناة عن الناس وتصحيح الأخطاء. ولذا لم يكن بوسعها أن ترى فى الحرب العالمية، كما رأى لينين، فرصة هائلة للإطاحة بالنظام بأسرة، ومن ثم تحقيق السلام عبر الثورة العمالية. ليس من الغريب إذن أن تاريخ سيلفيا بانكهورست كإشتراكية، كان قصيرا وحافلا بالارتباك.

أثر الثورة الروسية

كانت الثورة الروسية نقطة تحول كبرى فى حياة سيلفيا بانكهورست، فقد نظم الاتحاد اجتماعين حماسيين فى إيست إند احتفالا بيومى ٢٤و٢٥ مارس ١٩١٧، وحضر أولهما سبعة آلاف شخص (٧٥) وحينئذ أعلنت سيلفيا «إننى لفخورة بأن ادعو نفسى بلشفية»، (٧٦) ولكن حتى فى تلك اللحظة ظل موقفها ينطوى على تناقضات وعدم اتساق، فقد كتبت «مدرعة النساء» فى ٢ يوليو ١٩١٧ فى تقرير لها حول مؤتمر «اتحاد العمال للأقتراع»:

«يرى المؤتمر أن الحروب الحديثة وليدة الرأسمالية، وطالما بقيت المنافسة التجارية الخاصة، لن يزول خطر الحرب. وبينما نعمل على بلوغ نظام تعاونى فى المجتمع يجعل الحروب مستحيلة، فان المؤتمر يدعو إلى:

أ- اقامة محكمة دولية لتسوية الشئون الدولية...

ب - أقامة تجارة دولية حرة وإلغاء مناطق النفوذ وتدويل طرق التجارة والمضايق وحرية البحار».

الحرب نتاج الرأسمالية... ولكن الحل هو المحكمة الدولية وحرية التجارة، تدابير فى إطار الرأسمالية!

ومع ذلك يبقى صحيحا أن سيلفيا بانكهورست مرت بتحول راديكالى مع

ثورة أكتوبر ،ففى ٢٨ يوليو ١٩١٧ غيرت إسم صحيفتها من «مدرعة النساء» إلى «مدرعة العمال»، «حيث أدركت العضوات أن التضامن بين الرجال والنساء أساسى إذا كان لهم أن يحرزوا النصر فى نضالهم». (٧٧) ، كما أصبح لها عنوان جانبى جديد «الاشتراكية، الأممية، حق الاقتراع للجميع»، وأصبحت الصحيفة الأكثر إطلاعا فى بريطانيا فيما يتعلق بالسياسات البلشفية، وكانت أول صحيفة ثورية بريطانية تدرك المغزى الكامل للثورة الروسية، ففى ١٧ نوفمبر كتبت سيلفيا بانكهورست فى مقال لها بعنوان «ثورة لينين»:

«لو كانت الثورة قد توقفت عند ترأس كيرنسكى للوزارة وعند سياسته، لما زاد مغزاها للإنسانية على صدى للثورة الفرنسية، ولكنها تعد الآن بشئ أكبر كثيرا.... فالثورة الروسية ثورة اشتراكية».

وتختتم مقالها بالقول:« إننا نأمل بكل قلوبنا أن يتحقق النجاح العاجل لبلاشفة روسيا: فلتواتهم القدرة على أن يفتحوا الباب المؤدى إلى حرية شعوب كل الأرض»، وامتلأت الصحيفة بمديح البلاشفة الذين عارضت بهم البرلمان :«البرلمانات كما نعرفها مقدر عليها أن يطويها النسيان، كى تأخذ مكانها منظمات للشعب مبنيه على أساس وظيفى» وتقصد السوفيتيات.

ومع ثورة أكتوبر أختفت قضية الإقتراع من الصحيفة عمليا، ومعها كل تحريض من الطراز الشائع فى الحركة النسوية وبدلا من ذلك سادت مواضيع الحرب وروسيا وأنباء الاضرابات.

وبالإضافة لعلاقة الاتحاد بعمال التعدين فى جنوب ويلز ونساء إيست إند، فقد أقام علاقات وثيقة مع حركة ممثلى النقابات فى المصانع فى لندن اعتبارا من عام ١٩١٨، وأخذت تصله تقارير من مختلف أنحاء البلاد، ومنذ مارس ١٩١٨ بدأ ينشر بانتظام معلومات جيدة عن الأوضاع العمالية فى كل أنحاء البلاد، وذلك فى صحيفة و.ف.واتسون «مذكرات الورشة» بصفة أساسية.

وفى مؤتمر اتحاد العمال للإقتراع السنوى لعام ١٩١٨، أقر برنامجا من سبع نقاط:

١) «تغيير اسم المنظمة الى اتحاد العمال الاشتراكى.

٢) معارضة كل الحروب وإلغاء القوات المسلحة.

٣) الإعتراف بالحكومة السوفيتية والبدء فى مفاوضات سلام فورا على أساس رفض الضم وحق تقرير المصير.

٤) عقد مؤتمر اشتراكى دولى فورا ليصوغ شروط السلام.
٥) حق تقرير المصير للهند وايرلندا.
٦) إلغاء النظام الرأسمالى، وتنظيم العمال على أساس الصناعة وإقامة جمعية وطنية من اللجان العمالية المحلية
٧) إطلاق سراح المسجونين المناهضين للحرب» (٧٨)

وأنشئت فروع جديدة لاتحاد العمال الاشتراكى فى العديد من المناطق بانجلترا وجنوب ويلز، فبلغ عددها فى نهاية عام ١٩١٨ سبعة عشر فرعا فى لندن وثلاثة وعشرين فى الأقاليم وتشكلت عضوية كل من اتحاد المطالبات بحق الاقتراع فى إيست لندن واتحاد العمال الاشتراكى من كل من النساء والرجال، غير أن الرجال صاروا يشكلون الآن الغالبية الأكبر (٧٩) واعتبارا من ٢٠ يوليو ١٩١٨ تغير العنوان الجانبى «لمدرعة العمال» إلى «من أجل الاشتراكية الدولية».

وقد لعبت سيلفيا بانكهورست دوراً مهما فى نشر رسالة ثورة أكتوبر، ليس فقط عبر «مدرعة العمال» وإنما كذلك عن طريق مكتب الاعلام عن الشعب الروسى الذى أسسته فى يوليو عام ١٩١٨. وحين تأسس الكومنترن فى مارس عام ١٩١٩، عينت سيلفيا بانكهورست مراسله انجليزية لصحيفته الشهرية «الأممية الشيوعية».

إلا أن سيلفيا بانكهورست من الناحية الأساسية لم تفهم طبيعة البلشفية، وحين أجرت اتصالات مع لينين فى يوليو عام ١٩١٩ أصبحت القطيعة حتمية.

ففى ٦ يوليو عام ١٩١٩ كتبت الى لينين تقول أن جماعتها واتحاد العمال الاشتراكى والجمعية الاشتراكية فى ويلز هى الوحيدة الشيوعية حقا بين جميع المنظمات البريطانية التى أعلنت تأييدها للشيوعية، لأنها الوحيدة التى عارضت الاشتراك فى انتخابات البرلمان واتخذت موقف الابتعاد عن حزب العمال، وجاء رد لينين نقديا فى ١٨ أغسطس، يقول أن معارضة النزعة البرلمانية شئ، ورفض الاشتراك فى انتخابات البرلمان شئ مختلف تماما:

«نحن الروس، الذين عشنا ثورتين عظيمتين فى القرن العشرين، ندرك جيدا أية أهمية يمكن أن تكون للبرلمانية، بل تتسم بها بالفعل خلال فترة ثورية بصفة عامة، ووسط الثورة ذاتها بصفة خاصة».

وقال أن علينا أن نستعمل الساحة البرلمانية، «يمكن، ويجب القيام بالدعاية

السوفيتية فى البرلمانات البرجوازية ومن داخلها».
واستحال إقناع سيلفيا بانكهورست، كانت تعارض الاشتراك فى الانتخابات البرلمانية من حيث المبدأ ، وأى عمل مشترك مع حزب العمال، وتريد مقاطعة النقابات القائمة. وحين انعقد مؤتمر الوحدة لتأسيس الحزب الشيوعى لبريطانيا العظمى فى يوليو عام ١٩٢٠ لم تشارك فيه سيلفيا بانكهورست، وبدلا من ذلك استبقت الأمور وغيرت إسم اتحاد العمال الاشتراكى الى «الحزب الشيوعى، الفرع البريطانى للأممية الثالثة»، وواجه لينين ذلك بتوبيخ عنيف فى رسالة الى أعضاء المؤتمر المنعقد، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا استحال رأب الصدع.
وفى ٣ يوليو عام ١٩٢٠ نشرت مدرعة العمال «قرارات مؤقتة نحو برنامج للحزب الشيوعى- الفرع البريطانى للأممية الثالثة» جاء فيها: «إن الحزب الشيوعى، إذ يعتقد أن مؤسسات التنظيم والهيمنة الرأسمالية لايمكن استخدامها فى أغراض ثورية، يحجم عن الاشتراك فى البرلمان وفى نظام الحكم المحلى البرجوازى». وشن لينين هجوما عنيفا على اتجاه التطرف اليسارى وسط الشيوعيين البريطانيين، وخاصة سيلفيا بانكهورست ووليام جالاشر فى كتابة«الشيوعية اليسارية- مرض طفولى».
لم تكن القطيعة بين سيلفيا بانكهورست ولينين وليدة الصدفة، إذ لم تكن لها ابدأ نظرة ماركسية للعالم، ومن ثم فرغم أن مساندتها لمطلب الإقتراع لجميع البالغين تتطابق شكلا مع موقف لينين، إلا أن طرائقهما فى النظر إلى الموضوع اختلفت اختلافا بينا. فعلى مدى عقدين ظلت سيلفيا بانكهورست تنّظر لفكرة أن اعطاء البرلمان حق الإقتراع للنساء أمر حيوى بحد ذاته، بينما رأى لينين أن جميع المطالب الديمقراطية تخضع لنضال العمال الطبقى من أجل السلطة والاشتراكية، ولذلك. لم يحدث أن رفع مسألة الاقتراع الى مستوى مطلق، كما كان عليه لدى سيلفيا بانكهورست، التى كان يمثل لها، حتى ثورة أكتوبر/ ضرورة مطلقة، طوطما مقدسا ثم من بعدها أمرا مبغضا بصورة مطلقة، تابوها محرما. وحين كان طوطما برر لسيلفيا بانكهورست تعاونها مع الحركة النسوية البرجوازية لسنوات طويلة، وحين أصبح تابوها محرما برر قطيعتها مع لينين، الذى ظل ينظر الى النضال من أجل الإقتراع نظرة متسقة لاكمبدأ، بل كتكتيك.
خلال السنوات الثلاث التالية، كرست «مدرعة العمال» نفسها كليا تقريبا

للهجوم على لينين والأممية الشيوعية فمن يوليو ١٩٢١ وحتى سبتمبر ١٩٢٢ نشرت سلسلة من المقالات تكيل المديح لشخصيات فوضوية بارزة ، وبعضها بأقلامهم، وتهاجم لينين. واختفت متابعة النضالات العمالية من الصحيفة تماما ، وبدلا منها بدأت اعتبارا من ٢٦ نوفمبر عام ١٩٢١ تعطى دروسا منتظمة فى لغة الاسبرانتو (أو اللغة العالمية) بوصفها اداة مهمة فى مكافحة التعصب القومى (بل كتبت سيلفيا بانكهورست كتابا صغيرا حول الموضوع بعنوان «دلفيات * ، أو مستقبل اللغة العالمية»).

ولعل أفضل مؤشر لفقدان الاتجاه التام الذى حل بسيلفيا بانكهورست بعد قطيعتها مع الكومنترن، تقدمه لنا التغيرات فى العناوين الجانبية للصحيفة ففى ٢ ديسمبر عام ١٩٢٢ أزيل العنوان الجانبى من أجل الشيوعية الدولية»، ليتغير بصفة مستمرة بعد ذلك، مثلا إلى «من أجل استقلال الفكر ووحدة العمل» و«لاضرائب فى ظل الشيوعية» أوحتى «السعداء دائما طيبون».

فأى تخبط! ولقد توقفت «مدرعة العمال» عن الصدور بعد العدد الصادر فى ١٤ يونيو عام ١٩٢٤، ولكن سيلفيا بانكهورست زادت أسفارها. وقد أنهت حياتها مدافعة عن الأمبراطور الطاغية الرجعى هيلا سيلاسى، وأهدت إليه عام ١٩٥٥ كتابا بعنوان «التاريخ الثقافى لاثيوبيا»، وحمل الإهداء ثناء لامعا على:« حامى الثقافة، ورائد التقدم، والزعيم المدافع عن شعبه فى الحرب والسلام.»

النساء البريطانيات يحصلن على حق الأقتراع

فى عام ١٩١٨ حصل جميع الرجال على حق الاقتراع عند بلوغ الحادية والعشرين، والنساء عند بلوغ الثلاثين، وحصلت النساء أيضا على حق الترشيح للبرلمان، وفى عام ١٩٢٨ تساوت النساء بالرجال فى حق الاقتراع فى سن الحادية والعشرين. فهل كان قانون عام ١٩١٨ ثمرة نشاط المطالبات بحق الاقتراع، نساء من أمثال إميلين بانكهورست وبنتها كريستابل وسيلفيا ؟

* الأشارة الى مدينة دلفى اليونانية القديمة. المترجمة

على الأطلاق! فالطبقات المالكة، اذ رأت الموجات الثورية التى أعقبت الثورة الروسية، قررت أن تحاول قطع الطريق على سلطة العمال بتحويل الكفاحية المتزايدة الى الطريق البرلمانى. فلقد واجه الجيش البريطانى سلسلة من التمردات ، واضطرت الحكومة إلى إرسال الدبابات إلى جلاسجو لسحق حركة «الإضراب لأربعين ساعة» الجبارة وكان لويد جورج غير مطمئن الى ماإذا كان يسعه الاعتماد على القوات فى عمليته القذرة .فإذا كانت الاصلاحات الهامة كما رأى لينين، هى بصفة عامة النواتج الثانوية للنضال الثورى، فقد كانت إقامة جمهورية فيمار فى ألمانيا ومنح الإقتراع العام الشامل فى المانيا والنمسا والمجر وبولندا ودول البلقان.... وبريطانيا، هى النتاج الثانوى للنضال الثورى للعمال، وإجراء يستهدف قطع الطريق على هذا النضال. لقد منحت النساء حق الإقتراع ردا على نضال ملايين العمال بقيادة لينين وتروتسكى وروزا لكسمبورج وليبكنخت، وليس نتيجة لضغط المطالبات بحق الإقتراع فى بريطانيا أو الحركة النسائية فى ألمانية.

الخلاصة

أن قصة الحركة النسائية فى بريطانيا عند منعطف القرن، وكذلك حركة تنظيم نساء الطبقة العاملة نقابيا وسياسيا، ليست بالقصة السعيدة، فلقد أضرت النزعة المحافظة والنقابية الضيقة، والنزعة الحلقية التى سادت الحركة العمالية أفدح الضرر بالطبقة العاملة ككل، وبالنساء فيها خاصة وكانت النتيجة تخبطا فظيعا، فلقد أرغمت نساء الطبقة العاملة على التحالف مع السيدات الليبراليات، بينما تلدن فى الوقت نفسه كل شرور بيروقراطية النقابات وحزب العمال، وتعرضت قدراتهن النضالية للتعويق والتشويه الى أبعد حد، وحتى سيلفيا بانكهورست الأكثر تقدما بين الزعيمات الاشتراكيات، لم تستطع الارتفاع فوق التشوش الفكرى السائد فى الحركة العمالية البريطانية، وانتهت جهودها وشجاعتها العظيمتين الى لاشئ.

هوامش الفصل السابع

١- د. تومسون «النساء والسياسة الراديكالية فى القرن التاسع عشر: بعد مفقود» من ج ميتشيل وأ. أوكلى (محدين)«اين أصابت النساء وأين أخطأن» (لندن ١٩٧٦) ص١١٦.

٢- تومسون، ص١٢٤

٣- تومسون ص١٣٨

٤- س. بوسطون «العاملات والنقابات» (لندن ١٨٠) ص٢٣.

٥- ب. دريك «النساء فى النقابات» (لندن ١٩٢٠) ص١١.

فى بعض الحالات كانت للقيادات النسائية البرجوازية مصلحة مباشرة فى إبقاء النساء غير منظمات وضعيفات. من هذه النماذج مسز ميلليسنت جاريت فاوست، زوجة هربر فاوست الوزير فى وزارة جولد ستون، التى كانت أبرز قيادة نسائية برجوازية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، واستمرت تمارس نشاطها حتى الحرب العالمية الأولى. كانت شريكة فى ملكية شركة بريانت وماى لصناعة الكبريت ولاعجب أنها عارضت إضراب عاملات مصانع الكبريت عام ١٨٨٨ (م. راملسون،«تمرد النساء» لندن ١٩٧٦، ص١٠٧) وقد كتبت تعارض أجر الأسرة:«أنا واحدة من أولئك الذين يعتبرون مسئولية الوالدين عن إعالة أطفالهما، جزءا عظيم الأهمية من تربية الرجل أو المرأة العاديين، فرفعها عنهما سيضعف- بصورة خطيرة- الحافز على الإقتصاد الدءوب وضبط النفس... وفى الوقت نفسه سيكلف الدوله، التى ترزح بالفعل تحت وطأة الضرائب الباهظة، بما يصل الى مئات الملايين سنويا» (د. ميتشيل،«نساء على طريق الحرب» لندن ١٩٦٦،ص١٦٥).

٦- دريك، ص٢٢

٧- ب. ل. هتشينز وأ. هاريسون «تاريخ تشريعات المصانع» (لندن ١٩٦٦) ص١١٠

٨- هتشينز وهاريسون، ص١٨٦

٩- دريك. ص٢١

١٠- هـ. أ. كليج وأ. فـوكس وأ. ف. تومـسـون«تاريخ النقـابات البريطانية منذ ١٨٨٩» مجلد (١) (أكسفورد ١٩٦٤) ص١-٢

١١- ى. كـاب «إليـا نور/مـاركس»، المجلد الثـانى (لندن ١٩٧٩) ص٢٧٠.

١٢- كاب، ص٣٨٢.

١٣- س. روبوتام «محجوبات عن التاريخ» .(لندن ١٩٧٤) ص ٦١.

١٤- دريك، ص٢٧.

١٥- كليج وفوكس وتومسون، ص ٧٠-٧١.

١٦- كليج وفوكس وتومسون ،ص٨٣

١٧- دريك، ص٣٠

١٨- دريك، ص٣٠

١٩- دريك، ص٤٥

٢٠- بوسطن ص١٤٩.

٢١- بوسطن ص٦٠-٦٢

٢٢- بوسطن ص٦٨.

٢٣- دريك، الملحق، جدول (١).

٢٤- م.أ. هاميلتون، «مارى ماكارثر» (لندن ١٩٢٥) ص٩٦.

٢٥- دريك ، ص٥٠ و الملحق ، جدول (١).

٢٦- هـ . بللينج، «تاريخ النقـابية البـريطانية» (لندن ١٩٦٣) ص٢٦٢، ألبريخت ، ص٤٧

٢٧- ج. هينتون، «أول حركة للمتحدثين باسم النقابات فى المصانع» (لندن ١٩٧٣) ص٧٢، احتـاجت النقابة ٩١ عـاما منذ انشائها قبل أن تسمح بانضمام النساء! وقد شكلت النساء عام ١٩٤٢ مايعادل ٣١٫٩ فى المائة من مجـموع العـاملين فى الصناعـات الهندسـية البـريطانيـة (ر. كروشر«المهندسون فى حرب ١٩٣٩- ١٩٤٥» لندن ١٩٨٢ . ص١٤٥) لقد تداعى أسلوب الإقصـاء فى نقابة الصناعات الهندسـية- وهى من أشد النقابات نزوعا لضيق الأفق النقابى- بسبب خوفها من أن تغلبها فى المنافسة النقابات العامة التى كانت قد بدأت فى ضم النساء قبلها بكثير.

٢٨ أ. س.ي. «الصحيفة الشهرية» (ديسمبر ١٩١٥).

٢٩- دير د.م.ف. من «زالن» (برلين ١٩٣٤) س١٢٢

٣٠- دير. د.م.ف من «زالن» ،ص١٢٢.

٣١- كليج وفوكس وطومسون، ص٢٩٢.

٣٢- ر. ملليباند «الاشتراكية البرلمانية» (لندن ١٩٦١) ص ١٩-٢٠.

٣٣- ر. بعلر وج. فريمان «وقائع سياسية بريطانية ١٩٠٠-١٩٦٧ » (لندن ١٩٦٨) ص ١٥٥.

٣٤- ه. بيللينج «الجغرافيا الاجتماعية للانتخابات البريطانية ١٨٨٥- ١٩٠٠» (نيويورك ١٩٦٧) ص٨.

٣٥- س. بانكهورست، «حياة إميلين بانكهورست » (لندن ١٩٣٥) ص٤٩.

٣٦- محاضر، الرابطة النقابية الوطنية للنساء، الولايات المتحدة، (١٩١٩) ص٢٩.

٣٧- ى. بلفورت باكس، «مقالات في الاشتراكية» (لندن ١٩٠٧) ص١٠٩.

٣٨- باكس-ص١٢١.

٣٩- باكس ١٢٤- ١٢٥

٤٠- ج ليدلجعتون ونوريس «يد واحدة مقيدة الى ظهورنا» (لندن ١٩٧٨).

٤١ - ليدلجعتون ونوريس ،ص ١٤٩

٤٢- ليدلجتون ونوريس ص ٢٥ و٢٩.

٤٣- ليدلجعتون ونوريس ص ٢٦.

٤٤- أ. روزن «انهضن يانساء! حملة النقابة الاجتماعية والسياسية النسائية»

٤٥- روزن ، ص٣٠

٤٦- س. بانكهورست «حركة المطالبات بحق الاقتراع» (لندن ١٩٧٨) ص١٦٨.

٤٧- بانكهورست ، ص ٢٤٤

٤٨- ليدلجتون ونوريس، ص١٧٧.

٤٩ - روزن ، ص٥٩

٥٠- روزن، ص٦١

٥١- بانكهورست، ص ٥١٧.

٥٢- ميتشيل، ص٣٥.

٥٣- روزن، ص ١٠٠-١٠١.

٥٤- و.ل. أونيل «حركة المرأة: الدعوة النسائية فى الولايات المتحدة وانجلترا» (لندن ١٩٦٩) ص٨٢

٥٥- روزن، ص ١٠٤-١٠٥

٥٦- بانكهورست، ص ٣٦٦

٥٧- بانكهورست، ص ٣٣٦-٣٣٧.

٥٨- روزن، ص ٢٠٧

٥٩- ميتشيل، ص ٥٢.

٦٠- م. ماكنزى «كتفا الى كتف» (لندن ١٩٧٥) ص ٣١٤.

٦١- أنهت كل من إميلين وكريستابل بانكهورست حياتيهما نهاية مؤسفة، فقد كفتا عن الكلام فى منابر نسائية، وسافرت مسز بانكهورست فى جولة عبر كندا لتدين الشرين التوأمين: الأمراض التناسلية والأفتقار للعفة، ثم عادت الى انجلترا لتنضم لحزب المحافظين وتوفيت عام ١٩٢٨. وكان القسم الأخير من حياة كريستابل العامة أسوأ، فقد انتقلت الى تبنى قضية ظهور المسيح ثانية، الذى اعتقدت أنه وشيك بسبب من الأوضاع المتدهورة فى العشرينيات والثلاثينيات، ثم توفيت فى كاليفورنيا عام ١٩٥٨ حائزة على لقب قائد فى الامبراطورية البريطانية (اليدجيتون ونوريس ص٢٥٨). وهاجرت أديلا، أصغر بنات أسرة بانكهورست الى استراليا ، حيث أنضمت للحزب الشيوعى، ولكنها أنهت حياتها عضوة فى الحركة الفاشية (متيشيل، ص ٢٦٧، ٢٦٨).

٦٢- بانكهورست، ص٤٠١-٤٠٢

٦٣- بانكهورست ص ٣٣٩.

٦٤- بانكهورست «حياة إميلين بانكهورست» ، ص ١٤١.

٦٥- «مدرعة النساء» ، ١٨ مارس ١٩١٦

٦٦- س. بانكهورست«الجبهة الداخلية» (لندن ١٩٣٢) ص٤٣

٦٧- مدرعة النساء، ١٩ أغسطس ١٩١٤.
٦٨- ميتشيل، ص ٢٨٠-٢٨١
٦٩- مدرعة النساء، ٢ يناير ١٩١٥.
٧٠- بانكهورست «الجبهة الداخلية» ص١٤٣.
٧١- بانكهورست «حركة المطالبات بحق الاقتراع» ص ٥٩٨.
٧٢- أ. شليابنيكوف «عشية ثورة ١٩١٧» (لندن ١٩٨٢) ص٢٠٦-٢٠٨.
٧٣- بانكهورست «حركة المطالبات بحق الاقتراع» ص٥٠٥
٧٤- «ديلى هيرالد» ، ٢٩ أكتوبر ١٩١٣.
٧٥- مدرعة النساء، ١٣ مارس ١٩١٧.
٧٦- مدرعة العمال، ١٧ نوفمبر ١٩١٧.
٧٧- مدرعة العمال ١٩ مارس ١٩٢١
٧٨- مدرعة العمال، أول يونيو ١٩١٨
٧٩- ج. ماكفرلين «الحزب الشيوعى البريطانى: أصوله وتطوره حتى عام ١٩٢٩» (لندن ١٩٦٦) ص ٣١، ٤٦.
٨٠- لينين ، الأعمال الكاملة، المجلد (٢٩) ص ٥٦٤.
٨١- لينين، الأعمال الكاملة، المجلد (٣١) ص ٢٠٢.

الفصل الثامن:

قصة فرنسا المحزنة

من مفارقات تاريخ حركة نساء الطبقة العاملة، السجل الحزين للإشتراكية الفرنسية فى تنظيم النساء، رغم دورهن البطولى الرائع فى ثورة ١٧٨٩ الكبرى، وفى كوميونة باريس عام ١٨٧١.

عند نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت المشروعات الصغيرة هى السائدة فى الإقتصاد الفرنسى، ويبين إحصاء أجرى عام ١٨٩٦ أن متوسط عدد العمال المستخدم لدى «المنشآت الصناعية» ، ومجموعها ٥٧٥ ألفا، كان يبلغ ٥ر٥ عاملا لكل منها، وأن ١٥١ منشأة فقط كانت تستخدم

ألف عامل أومايزيد، بينما لم تتجاوز ٤٠٠ ألف منها عاملا أو اثنين، وأن ثمانين ألفاً منها كانت تستخدم ثلاثة عمال أو أربعة. وإجمالا ،من المجموع البالغ ٥٧٥ ألف منشأة كان ٥٣٤ ألفا يستخدم أقل من عشرة عمال (١) وحتى فى باريس العاصمة ومركز الصناعة الرئيسى كان معظم العمال فى نهاية القرن التاسع عشر يعملون فى ورش صغيرة أو لحسابهم الخاص (٢)

وانعكس هذا التخلف فى ضعف النقابات ضعفا يثير الرثاء، حتى فى فروع مثل التعدين والسكك الحديدية التى كانت على درجة عالية من التنظيم فى دول أخرى. وحتى زمن متأخر يرجع لعام ١٩٠٠ لم يكن منظما فى نقابات سوى ٩ر٢ فى المائة من العمال الذين يحق لهم الانضمام لنقابة، ثم ٩ر٤ فى المائة عام ١٩١١، (٣) وتشمل هذه الأرقام النقابات الكاثوليكية أو «الصفراء» التى كانت تضم فى عام ١٩١٤ خمسى العمال المنظمين فى نقابات (٤) وكان هؤلاء مبعثرون فى عدد كبير من النقابات الصغيرة (أو السنديكات). وكان معدل عضوية السنديكات المنتسبة للاتحاد العام للعمال يبلغ مائة فقط لكل منها فى عام ١٩٠٢، وزاد الى مائتين فى عام ١٩١٤. وفى اللوار كان ٣٤٩٧ عاملا فقط منظمون من أصل ١٧ر٦٦٣ عاملا فى عام ١٨٩٧، وكان هؤلاء مقسمون بين عشر نقابات مختلفة، يضم أكبرها ١١٢٧ عضوا ،(٥) وكان عمال البناء البالغ عددهم ثلاثون ألفا منظمين فيما لايقل عن ٣٥٧ نقابة مختلفة(٦)

لم تكن النقابات الفرنسية صغيرة وحسب، بل وكذلك فقيرة وغير مستقرة، ففيما عدا عمال الطباعة ، لم يكن لدى معظمها أموال تكفى للإنفاق على مصاريفها الإدارية. وحتى عام ١٩٠٨ لم تؤمن المعونة المنتظمة للمضربين سوى فى ٤٦ إضرابا من أصل ١٠٧٣ أضراباً ، ولم تقدم هذه المعونة نقدا الا فى ٣٦ إضرابا منها. (٧)

أما الاتحادات العامة للنقابات فلم يكن لها وجود تقريبا حتى نهاية القرن التاسع عشر، وقد كانت بالمثل فقيرة وضعيفة، عمال الطباعة وحدهم انفردوا بمنظمة فعالة على النطاق الوطنى، وقد تأسس الاتحاد العام للعمال- معادل اتحاد النقابات البريطانى- فى عام ١٨٩٥، وكان هيئة ضعيفة تفتقر للأنضباط، فكان لكل نقابة نفس حقوق التصويت بغض النظر عن حجمها، ومثلا كان لأصغر ست نقابات، وأعضاؤها ٢٧، نفس عدد الأصوات التى لأكبر ست نقابات

وتضم ٩٠ ألف عضو واحتفظت اللجنة التنفيذية للاتحاد العام للعمال بحوالى ثلث الأصوات بالوكالة عن النقابات الصغيرة التى لاتستطيع الإنفاق على ارسال ممثليها للمؤتمر. وقد بلغ دخل الاتحاد ٢٠ ألف فرنك (٨٠٠ جنية استرلينى) فى عام ١٩١٠، وحين دعا لجمع تبرعات لمساندة إضراب أول مايو عام ١٩٠٦، تلقى مبلغا هزليا هو خمسة آلاف فرنك (٢٥٠ جنية إسترلينى) (٨)

كان تمثيل النساء فى النقابات سيئا ،ففى عام ١٩١١ كن يشكلن حوالى ٣٨ فى المائة من مجموع العاملين بالأجر. وهى نسبة عالية إذا قورنت بدول أخرى (٩) ورغم أن نسبة عضوية النساء فى النقابات فى فرنسا (٧.٨ فى المائة عام ١٩١٤) كانت هى نفس النسبة الموجودة فى ألمانيا (٩ر٨ فى المائة عام ١٩١٣)، فبسبب ضعف مجمل الحركة النقابية فى فرنسا ضعفا بالغا بالقياس إلى ألمانيا ، كان تنظيم النساء هزيلا (٨٩ر٣٦٤ عضوة عام ١٩١٤).(١٠)

وكان عدد كبير من هؤلاء منظما فى نقابات نسائية خالصة: فقد بلغت نسبتهن ٣ر١٥ فى المائة عام ١٩٠٠، و٩ر٢٤ فى المائة عام ١٩١١، (١١) والمقارنة مع ألمانيا هنا تأتى فى غير صالحهن، حيث لم توجد فيها نقابات للنساء فقط من الناحية الفعلية. وحينما شاركت النساء الرجال نفس النقابة، كما فى صناعة النسيج ، كن يبدين كفاحية لاتقل عن الرجال، إلا أن نسبة النساء المشاركات فى الاضرابات كانت تقل كثيرا عن نسبتهن فى الفرع المعنى من الاقتصاد.(١٢) ومع ذلك فحين كانت تندلع بالفعل حركات إضرابية كبيرة، كانت تزداد نسبة النساء المشاركات فى الاضراب.

الثقل الميت للتقاليد الجمهورية

ظل الانقسام الأيدولوجى والتنظيمى علامة مميزة للإشتراكية الفرنسية حتى فترة متقدمة من القرن العشرين، وقد حاولت الأممية الاشتراكية الثانية فى عام ١٩٠٥ توحيد جميع الأحزاب والجماعات الاشتراكية فى فرنسا، ونتج عن ذلك اندماج الجماعات الاشتراكية الست المشكلة على المستوى القومى، وعدد من المنظمات الاقليمية فى «الحزب الاشتراكى الموحد، الفرع الفرنسى من الأممية».

كان هذا الحزب خاضعا لتأثير جان جورية الى حد كبير، وكان هو اصلاحيا الى أبعد الحدود، وقد لخص جان جورية وجهة نظره كمايلي:

«لايجوز أن ينشأ العدل عن التحريض العنيف والمنفرد بنفسه لهذا الفصيل الاجتماعي أوذاك، بل عما يمكن أن يكون حركة وطنية.. يجب أن تتحد الجماهير والبرجوازية العاملة من أجل ازالة امتيازات الرأسمالية ومساوئها»(١٤)

وعلى ذلك «دخلت الحزب أنماط إجتماعية بالغة التنوع، حرفيون وعمال مصانع، وحتى أصحاب المحال الصغيرة (١٧ فى المائة من أعضاء الحزب، وحوالى نصف هؤلاء من أصحاب الحانات) وفلاحون (٧ فى المائة من العضوية، وثلثهم ملاك» (١٥) ولكن حتى بعد الاندماج لم ينجح الحزب الاشتراكى فى كسب قاعدة شعبية، فبين عامى ١٩٠٥ و١٩١٤ زادت العضوية من ٣٤٫٦٨٨ عضوا الى ٩٣٫٢١٠، وهى صورة تشحب أمام الحزب الاشتراكى الألمانى الذى كان لديه فوق المليون عضو فى عام ١٩١٤.

كانت التقاليد الجمهورية التى منها انبعثت الاشتراكية الفرنسية معادية للحركة النسائية بصفة أساسية، استنادا الى خشية قديمة من خضوع النساء لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية، اذ يبدو أن بطولة النساء العاملات الثوريات فى أعوام ١٧٨٩-١٧٩٣، و١٨٤٨ و١٨٧١، قد محتها من الذاكرة ثورة النساء المعادية للثورة والموالية للكنيسة الكاثوليكية بعد أن عضتهن المجاعة فى عام ١٧٩٥، وبعدها بفترة وجيزة فى عام ١٧٩٦ قبل جراكوس بابوف فى «بيان الأنداد» بالجنس، كالسن، أساسا لحجب الحقوق السياسية فى الجمهورية الشيوعية التى تصورها.

وبعد قرن من هذا التاريخ تكلمت عضوة الكوميونة «بول مينك» ضد إعطاء النساء حق الاقتراع طالما يخضعن لنفوذ الكنيسة (١٧) لقد جر الثقل الميت للتقاليد الجمهورية تنظيم النساء الى الوراء بصفة عامة.

وقد أعاق تشرذم الأحزاب الاشتراكية قبل عام ١٩٠٥ تنظيم النساء بصفة مستمرة على نحو يفوق الرجال سوءاً. فقد وجدت أولى الاشتراكيات أنفسهن معزولات عن بعضهن بانتسابهن لكثرة من الجماعات الحلقية التى ميزت الاشتراكية الفرنسية فى طور تكونها، وفى كل مرة دخلت جماعة نسائية صغيرة انشقاقا، كلفها ذلك وجودها، بينما لم يكن يكلف الأحزاب إلا أعضاء.

كذلك أعاق التكوين الاجتماعى للأحزاب الاشتراكية تجنيد النساء ، فقد شكل الأفق الضيق لعامل الورشة الصغيرة موقفة من المرأة ، وكانت البرودونية (١٨) هى الأيدولوجية التى لاءمت أولئك العمال أفضل ملاءمة، وسادت الحركة العمالية الفرنسية لعقود طويلة بعد وفاة صاحبها، وقد سادت أيضا أفكار برودون الرجعية بصدد النساء فى الحركة العمالية الفرنسية.

حين انعقد المؤتمر العمالى الفرنسى الأول فى باريس فى أكتوبر ١٨٧٦، كانت قضية عمل النساء هى الأولى فى جدول الأعمال، وكان الرجال فى المؤتمر واضحون فى موقفهم. فالنساء يجب أن يعتمدن على أزواجهن «إن الرجل بوصفه الأقوى والأكثر عافية يجب أن يكسب ما يكفى لأعالة بيته» ، ولكن حيث أنهم ، كما أقروا، غير قادرين على كسب مايكفى، فقد رأوا السماح للنساء بالعمل، ولكن فقط فى البيت، أعمالا بالقطعة. وعلى ذلك قررت اللجنة المشكلة بخصوص الموضوع (وشملت أمراتين) أن عمل النساء فى المصانع يعنى «تدمير الأخلاق ، التى هى عند العمال دين».(١٩)

وخرج المؤتمر الثانى، الذى انعقد فى ليون فى فبراير عام ١٨٧٨، بنفس النتائج، فالمرأة عليها أن تحول نفسها لتكون مستقلة، ولكن هذا فقط «حتى ذلك اليوم الذى تقوم فيه بدور آخر، فتصبح أما وزوجة، امرأة بجانب مدفأة البيت، الذى تعطيه العناية والعمل اللذان يعادلان على الأقل عمل الرجل، وهو ماسيحتاج اليوم (كله) لتغطية عمل البيت»(٢٠)

وبعد عشر سنوات أخرى فى عام ١٨٨٨ أقر الاتحاد الوطنى للسنديكات قرارا يدعو عمل المرأة «وحشية»، ولم يتغير شئ بعد عشر سنوات أخرى وتشكيل الاتحاد العام للعمال. وفى عام ١٨٩٨ إقترح الاتحاد العام للعمال بالموافقة على مبدأ أن «الرجال يجب أن يطعموا النساء»(٢١) ولم يقبل الاتحاد العام للعمال مبدأ المساواة إلا فى عام ١٩٣٥.

الحركة النسوية البرجوازية ، تحد ضعيف

كانت الحركة النسوية البرجوازية فى المانيا تحديا واجه الحزب الاشتراكى

الديمقراطى الألمانى وحفزه على تنظيم النساء، فقد كانت منظمتها تباهى بمئات الآلاف من النصيرات وفى بريطانيا أيضا استطاعت المطالبات بحق الإقتراع حشد مئات الآلاف فى المظاهرات. أما فرنسا فلم تشهد مثيلا لهما، حيث كانت الحركة النسوية البرجوازية هزيلة.

تأسست أول منظمة نسائية، وهى «جمعية المطالبة بحقوق النساء» فى عام ١٨٦٦، وبعد أربع سنوات حلت محلها «جمعية تحسين نصيب النساء» التى تراوحت عضويتها بين ١٥٠و١٦٠ عضوة، بينما لم يتجاوز عدد الحاضرات فى اجتماعاتها ١٠:١٢ فقط، وقد حلتها السلطات فى عام ١٨٧٥. وفى عام ١٨٨٢ جرى احياؤها تحت اسم جديد «الرابطة الفرنسية لحقوق النساء» التى حتى عام ١٨٨٣ لم تتجاوز عضويتها ١٩٤ عضوة، منهم ٩٦ رجلا هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى نشاطها وفى عام ١٨٨٥ انشق عليها فرعها الوحيد خارج باريس فى نانت، وتركها الكثير من الرجال، وفى عام ١٨٩٢ كان مجموع العضوية ٩٥ منهم ٣٣ رجلا.(٢٢)

تأسست منظمة أخرى أكثر راديكالية فى عام ١٨٧٨ بقيادة أوبرتين أوكلير باسم (جمعية الاقتراع للنساء)، ولكنها حتى عام ١٨٨٠ لم يكن لديها من العضوات الملتزمات بدفع رسم اشتراك سوى ١٨ (١٣) وفى عام ١٩٠٤ بلغت عضويتها ١٢٥ حسب أحد تقديرات الشرطة . وفى عام ١٩٠٩ تأسست منظمة نسوية برجوازية جديدة هى «النقابة الفرنسية لإقتراع النساء» وقد ضمت عشرة آلاف عضوة عام ١٩١٣، وإن كان الرقم يشمل ائتلافا من عدد من الجمعيات واتحادات مكافحة شرب الخمور ونقابات البائعات وعاملات البريد والبرق، أما فروع النقابة فكانت مكونة أساساً من الطالبات بإذن منها من أكثر من مدينة ولكن بعضوية لاتزيد كثيراً على أفراد.(٢٤)

نتائج هزيلة

خلال نصف القرن الواقع مابين بدايات الأحزاب الاشتراكية فى أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر والحرب العالمية الثانية، كانت المنجزات فى مجال

تجنيد النساء فى الحركة الاشتراكية لاتذكر. ويذكر س. ميلار مؤرخ حزب العمل الفرنسى، وهو أكبر الأحزاب الاشتراكية، أن عدد النساء العضوات به فى الفترة ١٨٩٠- ١٨٩٣ كان عشرين، و٥٣ فى سنوات ١٨٩٤- ١٨٩٩، يمثلن ٣ فى المائة و٢ فى المائة على التوالى، ونصف هؤلاء كن زوجات وبنات الأعضاء.(٢٥)

وليس هناك مايدعو للإعتقاد بأن الأحزاب الاشتراكية الأخرى كانت لديها نسبة أعلى من النساء، وعلى العكس فقد كان حزب العمل الفرنسى أكثر جاذبية للنساء من باقى الأحزاب.

ويقول المؤرخ بوكسر أنه عند بداية القرن العشرين لم يكن عدد الاشتراكيات النشيطات فى باريس يزيد على المائة، ولا على الخمسمائة فى كل البلاد، «إذا استبعدنا الزوجات وبنات الأعضاء كما يظهر من أسمائهن فى قوائم العضوية أو وسط المندوبين للمؤتمرات».(٢٦) وفى عام ١٩١٢ تشكت «اشتراكية شابة» من عدم وجود شابات اشتراكيات فى الأقاليم، وأن الموجود منهن فى باريس قليل «حتى أن المرء يخجل من ذكر العدد».

وحين أجرى الحزب الاشتراكى أول إحصاء رسمى لعدد عضواتة فى عام ١٩٣٢، كان قد زاد إلى ٢٨٠٠ فقط، أو مايعادل ١.٢ من إجمالى العضوية وهى أدنى نسبة فى أوربا.(٢٧) إن تاريخ الاشتراكيات فى فرنسا، هو تاريخ أفراد معزولين بالأساس، لم يتمكنوا من تشييد منظمة كبيرة مستقرة أبداً، فضلاً عن حركة جماهيرية.(٢٨)

كانت فرص النجاح فى فرنسا محاصرة، فضدها إئتلف الضعف البالغ للحركة النقابية والتراث الضار الجمهورى والبرودونى. ونساء الطبقة العاملة، وهن القسم الأضعف من طبقتهن، لايستطعن وحدهن التغلب على مايعيق تقدم الطبقة ككل، ويأتى فى الصدارة التقسيم الجنسى للطبقة، وكانت نزعة الانفصال النسائية- وهى رد فعل طبيعى على معاداة النساء البرودونية- دلالة ضعف، ولم تساعد بحال على تجاوز عوائق تنظيم النساء فى الحركة الاشتراكية.

هوامش الفصل الثامن

١- ج. هـ. كلا بهام «التطور الاقتصادى فى فرنسا وألمانيا، ١٨١٥-١٩١٤» (كامبردج ١٩٢٨) ص ٢٥٨.

٢- ت. زلدين «فرنسا ١٨٤٨- ١٩٤٥» المجلد [٢] (أوكسفورد ١٩٧٩) ص ٣٧٩.

٣- م. جيلبرت «النساء والتنظيم النقابى قبل عام ١٩١٤» (باريس ١٩٦٦) ص ٢٨.-٤- حتى عام ١٩٣٥ كان ٦ فى المائة فقط من عمال القطاع الخاص منظمون فى نقابات. (زلدين، ص ١١).-٥- زلدين، المجلد [١] ص ٢٢٢-٦- زلدين، ص ٢٢٩.-٧- ريدلى، ص ١٧.-٨- ريدلى، ص ٢٣٤ و ٢٣٩.-٩- جيلبرت، ص ١٤- ١٠- جيلبرت ص ٢٩ -١١- جيلبرت ص ٣٨.-١٢- جيلبرت ص ٢٠٦.-١٣- جيلبرت ص ٢٠٧-١٤- زلدين، المجلد [٢] ص ٢٩٩.-١٥- زلدين، المجلد [٢] ص ٣٨٣.

١٦- ر. وول «الشيوعية الفرنسية قيد التكوين، ١٩١٤- ١٩٢٤» (ستانفورد ١٩٦٦) ص ٢٩٩.

١٧- س. ساورواين «النساء والاشتراكية فى فرنسا ١٨٧١- ١٩٢١» (أطروحة رسالة دكتوراة، جامعة ويسكنسون ١٩٧٣) ص ٤٦. هذا هو العمل الأكثر إفادة الذى رجعت إليه فى هذا الفصل.

١٨- انظر الفصل الثالث.-١٩- ساورواين، هـ ٥.-٢٠- ساورواين، ص ٧.-٢١- ساورواين، ص ١١٣.-٢٢- ر. ج. إيفانز، «الحركة النسوية» (لندن ١٩٧٧) ص ١٢٩- ١٣٠.-٢٣- ساورواين، ص ٢٨.

٢٤- إيفانز، ص ١٣٣- ١٣٤.-٢٥- س. ويلارد «أنصار بول جيست: الحركة الاشتراكية فى فرنسا، ١٨٩٣- ١٩٠٥» (باريس ١٩٦٥) ص ٣٧٦.

٢٦- ج. م.. بوكسر «الاشتراكية فى مواجهة الدعوة النسائية فى فرنسا ١٨٧٩- ١٩١٣» (أطروحة رسالة دكتوراة. جامعة كاليفورنيا ١٩٧٥) ص ١٩٠.

٢٧- ساورواين، ص ١٩٧- ١٩٨.

الفصل التاسع

الثورة والثورة المضادة فى روسيا

«الثورات هى أعياد المقهورين والمستغلين، ففى زمنها وحدة يتاح لجماهير الشعب أن تطرح نفسها بفاعلية بالغة كخالقة لنظام إجتماعى جديد». (ف. ى.. لينين) .

بلغت الحركة العالمية للعاملات، مثلها فى ذلك مثل الطبقة العاملة ككل، ذرى لم يسبق لها مثيل مع الثورة الروسية لعام ١٩١٧. لقد كانت حجر زاوية فى تحرير النساء: فلأول مرة توضع على جدول أعمال التاريخ، المساواة التامة للنساء إقتصادياً وسياسياً وجنسياً، وبسيطرة العمال على الإنتاج، دخلت قضية تحكم العاملات التام فى ظروف تجديد النوع البشرى حيز التنفيذ.

واستهدفت قوانين جديدة سياسية ومدنية واقتصادية ومتعلقة بالأسرة محو لامساواة القرون بضربة واحدة. فمنحت الحكومة الجديدة النساء الحق الكامل فى الأقتراع وأقرت قوانين مدنية ومتعلقة بالطلاق تجعل من الزواج علاقة طوعية، وتزيل التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين، ووضعت قوانين عمالة تساوى حقوق النساء بالرجال، وتساوى بينهما فى الأجر، وأخرى تعطى للأمهات إجازة مدفوعة الأجر، وألغيت من قانون الجنايات جرائم الخيانة وعلاقات المحارم والجنسية المثلية. وفى يوليو عام ١٩١٩، كان بوسع لينين أن يكتب مفاخراً عن حق:

«ولنأخذ مثلا وضع المرأة، ففى هذا المجال لم يفعل حزب ديمقراطى واحد فى العالم، ولاحتى فى أكثر الجمهوريات البرجوازية تقدماً، على مدى عقود مايوازى واحد على مائة مما فعلناه فى أول سنة لنا فى السلطة. لقد قضينا قضاء تاماً على القوانين الشائنة التى تجعل النساء فى موضع اللامساواة والمقيدة للطلاق التى تحيطة بشكليات مغثية، ولاتعترف بالأطفال الذين جاءوا عن غير طريق الزواج، وتفرض البحث عن آبائهم، الخ، وبقايا عديدة لقوانين مازالت توجد فى جميع الدول المتحضرة، لما فيه خزى البرجوازية والرأسمالية». (١)

وفى الذكرى السنوية الثانية للثورة أعلن لينين بفخر: «خلال عامين للسلطة السوفيتية فى واحدة من أكثر بلاد أوربا تخلفاً، عملت من أجل تحرير المرأة، لجعلها مساوية «للجنس القوى»، أكثر مما عملته خلال المائة وثلاثين عاماً الماضية كل الجمهوريات المتقدمة، المستنيرة، «الديمقراطية»، فى العالم مجتمعة». (٢)

وبعد ١٩ عاماً من ثورة أكتوبر، كان بوسع تروتسكى وهو يلقى نظرة على الماضى، أن يكتب:

«لقد قامت الثورة بجهد بطولى لكى تدمر مايسمى ببيت الأسرة، تلك المؤسسة العتيقة، الكئيبه، الراكدة التى تؤدى فيها المرأة من الطبقات الكادحة عمل العبيد من طفولتها إلى مماتها... وكان من شأن امتصاص مؤسسات المجتمع الاشتراكى تماماً لوظائف العمل المنزلى فى الأسرة، أن يعطى المرأة، ومن ثم الحبيبين، حرية حقيقية من أغلال عمرها ألف عام». (٣)

بعد ستة أسابيع من الثورة حل الزواج المدنى محل قانون الكنيسة، وقبل

انقضاء العام عليها كان قد صدر قانون يقوم على المساواة الكاملة فى الحقوق بين الزوج والزوجة، وكذلك بين الأطفال الشرعيين و «غير الشرعيين». ويسّط المرسوم الصادر فى ١٩ ديسمبر ١٩١٧ إجراءات الطلاق إلى أبعد حد: فإذا كان بناء على موافقة الطرفين، تم على الفور. وفى حال طلب أحد الطرفين تعقد المحكمة جلسة استماع قصيرة، وهنالك لاحاجة للخوض فى الأسباب، ولادفوع، ولا أدلة أو شهود، ولاتوصيات مريرة مؤلمة علناً، وبذلك أصبحت روسيا السوفيتية البلد الوحيد فى العالم الذى يؤمن حرية الطلاق كاملة. وفيما يتعلق بالإسم الذى سيستخدمة الزوجان نص المرسوم الصادر فى أكتوبر عام ١٩١٨ على أن «يستعمل المتزوجون إسم أسرة مشترك.. وللزوجين أن يختارا فى عقد الزواج ما إذا كانا سيستعملان إسم أسرة الزوج أو إسم أسرة الزوجة، أو إسم الأسرتين معاً».(٤)

وقد اختار تروتسكى أن يستعمل إسم زوجته (ناتاليا سيدوف) فى أوراق المواطنة، كما حمل ابنهما أيضاً إسمها. ويضيف القانون الجديد:

«يعتبر الأصل الفعلى أساساً للأسرة، دون أى تفرقة بين العلاقات القائمة بزواج قانونى أودينى والعلاقات القائمة خارج الزواج. والأطفال الذين جاءوا من أبوين يربطهما زواج غير مسجل لهم حقوق مساوية لأولئك المنحدرين من أبوين زواجهما مسجل».(٥)

ومنذ البداية رأى البلاشفة أن تحرير النساء يقتضى قدراً من تحديد حجم الأسرة عبر تحديد النسل، وكان لينين قد هاجم القوانين المناهضة للاجهاض أو لتوزيع نشرات طبية حول وسائل منع الحمل، باعتبارها رياء من الطبقات الحاكمة. «لاتشفى هذه القوانين علل الرأسمالية، وإنما فقط تجعلها أكثر أذى وصعوبة على الجماهير المقهورة».(٦) وصدر مرسوم حول تشريع الإجهاض فى نوفمبر ١٩٢٠. (٧) وبذلك أصبحت روسيا السوفيتية أول دولة فى العالم تشرع الإجهاض: ولحماية صحة النساء نص المرسوم على «...أن تجرى هذه العمليات مجاناً ودون أى مقابل فى المستشفيات السوفيتية، حيث تتوافر الظروف لتقليل أضرار العملية إلى الحد الأدنى».(٨)

غير أن القوانين وحدها كانت أقل كثيراً من كافية كى تحقق للنساء مساواة حقيقية، كان ينبغى الانقضاض على الأساس الاقتصادى للأسرة التقليدية، وجرت محاولة لذلك فى مجموعة من القوانين التى تلغى حق التوريث وتنقل

ملكية المتوفى إلى الدولة، التى كان عليها أن تتولى «عمل النساء» عبر مؤسساتها الجماعية: دور رعاية الأمومة، والحضانات، وروضات الأطفال، والمدارس وحجرات الطعام الجماعية، والمغاسل الجماعية ومراكز إصلاح الملابس، إلخ وقد شرح لينين ذلك:

«بالرغم من جميع القوانين التى تحرر المرأة، فإنها تظل عبده منزلية، لأن الأعمال المنزلية التافهة تسحقها وتخنقها وتخبلها وتهينها، إذ تغلها إلى المطبخ وغرفة الأطفال، حيث تبدد وقتها فى أعمال غير منتجة وتافهة ومحطمة للأعصاب، ساحقة ومبلدة للعقل. ولن يبدأ الانعتاق الحقيقى للنساء إلا حيث وحين يبدأ نضال شامل (بقيادة البروليتاريا التى تسيطر على سلطة الدولة) ضد هذا الشغل المنزلى التافة، أو بالأحرى حين يبدأ التحول الشامل إلى إقتصاد اشتراكى يقوم على الإنتاج الكبير».(٩)

وقالت كولونتاى فى كتاب لها بعنوان «عمل النساء فى التنمية الإقتصادية»، صادر فى عام ١٩٢٣:

«... لقد استقر الأكل الجماعى عند سكان المدن كعنصر فى الحياة، ففى بتروجراد خلال ١٩١٩- ١٩٢٠ أصبح تسعين فى المائة من السكان يأكلون فى مطاعم جماعية، وفى موسكو تبلغ نسبة المسجلين فى قاعات الطعام ستون فى المائة، وإجمالاً فى عام ١٩٢٠ كان اثنا عشر مليوناً يطعمون بصورة أو بأخرى فى مراكز التغذية الجماعية.

«إن فصل المطبخ عن الزواج، إصلاح لايقل أهمية عن فصل الكنيسة عن الدولة، على الأقل فى تاريخ المرأة...

«كذلك لعبت ظروف الإسكان الجديدة التى أوجدتها جمهورية العمال دورها فى تغيير ظروف معيشة النساء، فبيوت الشباب والمساكن الجماعية للأسر وخاصة للعزاب أخذت تتكاثر، ولاتوجد بيوت الشباب بهذه الكثره فى أى بلد كما هى فى جمهورية العمال، ويجب الإشارة إلى أن الجميع متلهفون على المشاركة فى السكن الجماعى.. والمساكن الجماعية أفضل دائماً فى تجهيزاتها من الشقق الخاصة، فهى مزودة بالكهرباء والتدفئة، وغالباً ما تكون مزودة بالماء الساخن وبمطبخ مركزى وينظفها عمال محترفون، وبعضها مزود بمغسلة مركزية،

والبعض الآخر بحضانة للأطفال...

«سوف تموت البيوت الأسرية موتاً طبيعياً مع تزايد عدد المنازل الجماعية المتنوعة فى نماذجها لتلائم مختلف الأذواق... ما إن تكف الأسرة عن أن تكون وحدة استهلاكية، حتى تعجز الأسرة عن أن توجد فى شكلها الحالى، ستتهاوى أشلاءً، سوف تصفى...

«ولكن... العناية بالأطفال وتربيتهم كانت عبئاً آخر لايقل إبهاظا للمرأة يقيدها للمنزل، ويستعبدها فى الأسرة... لقد أصبح ينظر للأمومة من زاوية جديدة: فالحكومة السوفيتية تعتبرها التزاماً إجتماعياً، وانطلاقاً من هذا المبدأ حددت عدداً من الإصلاحات التى تهدف إلى رفع عبء الأمومة عن أكتاف الأم ونقله إلى الدولة».(١٠)

الجينوتديل

قام البلاشفة بحملة للتعبئة السياسية للنساء، كى ينقلوا لهن القيم الجديدة المجسدة فى القوانين المدنية الجديدة وغيرها من القوانين التى تنشر مساواة النساء فى الحياة الإقتصادية والسياسية والأسرية. وفى سبتمبر عام ١٩١٩ أعلن لينين أن «تحرير العاملات أمر يقع على عاتق العاملات أنفسهن».(١١) وكتبت إينيسا أرمان فى نفس الاتجاه تقول: «إذا كان يستحيل التفكير فى تحرير النساء بدون الشيوعية، فكذلك يستحيل التفكير فى الشيوعية بدون التحرير الكامل للنساء».(١٢)

وفصّل لينين رأية حول الموضوع فى حديث مع كلارازتكين: «إننا لانستطيع أن نمارس ديكتاتورية البروليتاريا دون أن تكون إلى جانبنا ملايين النساء، ولايمكننا كذلك أن ننخرط في البناء بدونهم، يجب أن نجد سبيلاً للوصول إليهن، يجب أن ندرس ونبحث من أجل أن نعثر على هذا السبيل...

«إننا نشتق أفكارنا التنظيمية من مفاهيمنا الأيدلوجية، ولانريد إذن منظمات مستقلة للشيوعيات! فالشيوعية تنتمى لحزب مثلما ينتمى الشيوعى، لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات، ولامجال للخلاف حول

هذا الموضوع، ولكننا يجب ألا نغمض عيوننا إزاء الحقائق، يجب أن تكون للحزب مؤسسات تنطق بلسانه- جماعات عمل وهيئات ولجان وأقسام أوايا ما كان اسمها- غرضها المحدد هو استنهاض جماهير النساء، وصلهن بالحزب وإبقاؤهن تحت تأثيرة، وهو مايقتضى بطبيعة الحال القيام بعمل منتظم فى صفوف النساء». (١٣)

عقد البلاشفة أول مؤتمر نسائى بعد ثورة أكتوبر فى ١٩ نوفمبر ١٩١٧، وحضرته خمسمائة مندوبة يمثلن ٨٠ ألف امرأة من المصانع والورش والنقابات ومنظمات الحزب. وقد جرت الدعوة للمؤتمر خصيصاً لحشد الأنصار للبلاشفة فى انتخابات الجمعية التأسيسية.

وبعد عام فى ١٦ نوفمبر ١٩١٨ عقد الحزب البلشفى أول مؤتمر للعاملات فى عموم روسيا، ونظمته لجنة مكونة من إينيسا أرمان وألكسندرا كولونتاى وكلافيديا نيكولايفيا وياكوف سفير ديلوف (سكرتير الحزب البلشفى)، قامت بإرسال محرضين إلى الأقاليم للإعداد للإنتخابات المحلية للمندوبات.

وفى قاعة النقابات بالكرملين تجمعت ١١٤٧ امرأة، عاملات وفلاحات من أقاليم بعيدة فى البلاد. وكان البرنامج المعروض على المؤتمر باهراً: كسب تأييد النساء للسلطة السوفيتية، إدخال النساء إلى الحزب والحكومة والنقابات، محاربة العبودية المنزلية، وازدواجية المعايير الأخلاقيه، إقامة وسائل معيشة جماعية لإطلاق النساء من أسر الاعمال المنزلية الشاقة، حماية عمل النساء وأمومتهن، القضاء على الدعارة، تغيير النساء فى اتجاه أن يصبحن عضوات فى مجتمع المستقبل الشيوعى. وترأست المؤتمر نيكولاييفا، ورحب سفير ديلوف بالمندوبات، وألقت الكلمات الرئيسية ألكسندرا كولونتاى وإينيسا أرمان، وتحدث لينين إلى المؤتمر فى اليوم الرابع، وبعد أن تحدث عن الإجراءات التى اتخذتها الحكومة السوفيتية بالفعل لتحسين ظروف النساء، دعاهن إلى لعب دور أكثر فعالية فى السياسة.

«لقد بينت تجربة جميع حركات التحرير أن نجاح ثورة ما يتوقف على إلى أى حد شاركت النساء فيها».

أسفر المؤتمر عن إنشاء لجان للتحريض والدعاية فى صفوف العاملات، وصاغت كولونتاى الطرق الخاصة للعمل السياسى لهذه اللجان فى المؤتمر الثامن للحزب المنعقد فى مارس ١٩١٩، وقد أوضحت أنه بسبب من تخلف النساء

السياسى، لم يحقق الحزب نجاحاً كبيراً فى محاولته الاقتراب منهن وتجنيدهن على أساس من المخاطبة السياسية العامة، وأضافت أن اضطهاد النساء هو الذى أدى إلى افتقارهن للإهتمام بالحياة السياسية، حيث سلبت هموم الأسرة والبيت ومشاغلها العاملة ووقتها وطاقتها ومنعتها عن ممارسة اهتمامات سياسية وإجتماعية أوسع. واقترحت كولونتاى لجذب النساء إلى البلشفية ربطهن بمشروعات مفيدة إجتماعياً، مثل الحضانات، وقاعات الطعام العامة، ودور رعاية الأمومة، التى ستفيد فى تحرير النساء فى حياتهن اليومية.

«يجب أن نخوض نضالاً ضد الظروف التى تقهر المرأة، من أجل تحريرها كزوجة وأم، وذلك هو افضل مدخل للنساء، ذلك هو التحريض لابالكلمات فحسب، بل وكذلك بالأفعال». (١٤)

وقد كان هذا المبدأ فى التنظيم السياسى، الذى أصبح يعرف «بالتحريض بالأفعال» هو السمة المميزة لنشاط المنظمة النسائية البلشفية فى تلك الفترة المبكرة. (١٥)

فى سبتمبر عام ١٩١٩ غيرت اللجنة المركزية البلشفية «لجنة التحريض والدعاية فى صفوف العاملات» إلى «القسم النسائى بالحزب» (أو جينوتديل)، ليصبح جزءاً من سكرتارية اللجنة المركزية تحت قيادة إينيسا أرمان. وكانت الفروع المحلية لهذا القسم مرتبطة بلجان الحزب فى كل مستوى، وتعمل فيها متطوعات مجندات فى الحزب، مكلفات بتنظيم نشاط وسط النساء غير المنظمات فى المصانع والقرى، لاجتذابهن إلى الشئون العامة.

ووضعت إينيسا أرمان قائمة بمبادىء موجهة للجينوتديل، قدمتها للمؤتمر الدولى الأول للشيوعيات الذى انعقد فى موسكو فى يوليو عام ١٩٢٠. وكان الجينوتديل يسعى لجذب النساء غير العضوات فى الحزب البلشفى، محاولاً التغلب على النقص فى عضوات الحزب، حيث كان عددهن عام ١٩٢٠ يبلغ ٤٥٫٢٩٧ فقط أو مايعادل ٧٫٤ فى المائة من مجموع الأعضاء.

وكانت الوحدة المنظمة الأساسية هى «مؤتمر مندوبات العاملات والفلاحات»، وقد تشكل المؤتمر على غرار السوفيتيات، حيث تجرى الانتخابات وسط العاملات، والفلاحات لاختيار مندوبات- واحدة لكل خمس عاملات أو خمس وعشرين فلاحة- وتحضر هؤلاء إجتماعات وفصول دراسية خاصة بالحزب وتحت إشرافة، ثم يتم تكليفهن بالعمل فى هيئات مختلفة فى الدولة والحزب والنقابات

والتعاونيات. وكانت المندوبات يعملن فى تنظيم مؤسسات جماعية لتقديم الطعام، وللمستشفيات ودور رعاية الأمومة وبيوت الأطفال والمدارس، كذلك اشتركت المندوبات فى المحاكم الشعبية، وأحياناً بصفة قاض- لمدة شهرين أو ثلاثة عادة، وكان عدد النساء المشتركات فى هذا النشاط كبيراً. وفى النصف الثانى من عام ١٩٢٣ بلغ إجمالى عدد المندوبات حوالى ٥٨ ألفاً حسب تقارير الجينوتديل. (١٧)

علاوة على ذلك، نظم الجينوتديل حملات لتعبئة النساء لدعم العمل فى الحرب الأهلية، فأدت النساء خدمات طبية وعملن فى الأقسام السياسية فى الجيش الأحمر، وفى الاتصال، وفى ألوية العمل فى يومى السبت والأحد، ونظمن حملات لمكافحة الفرار من الجيش والأمراض الوبائية، وقدمن المساعدة لأسر جنود الجيش الأحمر والأطفال المشردين. (١٨)

ومن أهم الأنشطة التى كانت تقع على عاتق كل جينوتديل محو الأمية، وقد قال لينين بهذا الصدد «إن الشخص الأمى يبقى خارج السياسة، إذ يجب أن يتعلم أولاً ألف بائه، وبدون ذلك يستحيل أن تكون هناك سياسة، ستكون الشائعات والثرثرة والحواديت والأفكار المسبقة، ولكن ليس السياسة.». (١٩) ولم تقتصر مدارس محو الأمية على تعليم القراءة والكتابة، بل أصبحت أدوات هامة لنشر العمل السياسى والنقابى والتعليمى العام.

من قيادات حركة محو أمية النساء ناديجدا كروبسكايا، وكانت قبل الثورة تعلم العمال فى مدارس مسائية، وقد أخذت الآن تولى اهتماماً أكبر لهذا النشاط.

كانت مديرة الجينوتديل، المسئولة أمام سكرتارية الحزب، تشرف ليس فقط على كل الشئون الداخلية للجينوتديل وحدها، بل وتمد نشاطها إلى كل ركن فى الحياة يتعلق بالنساء.

وقد ضمت القائدات البلشفيات نشاطهن إلى نشاط الجينوتديل، بتخصص كل منهن واهتماماتها، مثل ف. ب. ليبيديفا (الأمومة) وكروبسكايا (التعليم) وماريا أوليانوفا (الصحافة)، وبذلك امتدت الحركة النسائية البلشفية إلى أبعد من نطاق الشبكة الوطنية للجينوتديل. (٢٠)

وصدرت صحيفة خاصة بالجينوتديل باسم «الشيوعية» تطبع ٣٠ ألف نسخة فى عام ١٩٢١، وشملت هيئة تحريرها بوخارين وإينيسا أرمان

وكولونتاى.

أجهدت إينيسا أرمان نفسها وهى تعمل ست عشرة ساعة يومياً أو يزيد، فأمرها الحزب بأن تأخذ راحة فى القوقاز، وهناك أصابتها عدوى الكوليرا وماتت فى أكتوبر عام ١٩٢٠. ووقع الاختيار على كولونتاى لتخلفها، إلا أن دورها انتهى بعد عام مع انضمامها للمعارضة العمالية، ثم عينت فى منصب ديبلوماسى فى النرويج فى عام ١٩٢٢.

الحقيقة القاسية

من الواضح أن العمل التقليدى للنساء- التمريض ورعاية الأطفال والطهى- بقى نصيبهن أثناء الحرب الأهلية، ومن جهة أخرى اقتصرت المهمة الرئيسية فى ذلك الوقت، أى النضال العسكرى، على الرجال فى معظمها.

وفى الجيش الأحمر عملت النساء فى الخدمات الطبية، كما اشتركن فى أعمال الدعاية والتجسس وأعمال الشرطة، أقلية ضئيلة هى التى حملت البنادق وقادت فى القطارات المصفحة، ووقفت على المدافع، وقد قامت تلك الأقلية بأعمال الشرطة فى المدن الصغيرة، وبأعمال القتال فى وقت الحصار. وقامت حفنة بأعمال المقاومة، والنموذج المشرق الأشهر هو لاريسا رايسنر. ولعبت النساء دوراً مهماً فى أعمال الدعاية فى الجيش، فكذلك تركت كولونتاى الحكومة بعد أن خدمت فيها فترة قصيرة، وألقت بنفسها فى نشاط الدعاية فى الجيش بطاقة هائلة، كانت تذرع الجبهة فى قطار معد ومجهز خصيصاً للتحريض. وكان العمل السياسى فى الجيش الأحمر يتم من خلال أقسام سياسية فى كل وحدة، وكان التنسيق المركزى بينها مسئولية فاريا كاسباروفا.

إلا أن العدد الإجمالى للنساء المقاتلات فى الحرب الأهلية كان صغيراً نسبياً، ويفيد أحد التقديرات عن عام ١٩٢٠ أنه بلغ ٧٣.٨٥٨ ألفاً وأن عدد القتلى والجرحى منهن بلغ ١.٨٥٤.(٢١) وقد كان إجمالى عدد جنود الجيش الأحمر عام ١٩٢٠ يبلغ ثلاثة ملايين، جرح وقتل منهم مليونان على الأرجح.

لم يكن بالإمكان التغلب على التقسيم الجنسى للعمل، شأنه فى ذلك شأن التقسيم بين العمل الذهنى واليدوى، فى مجتمع يخرج من بربرية روسيا القيصرية، تطبعة بصمات قرون من التخلف، ويقينا فإن ظروف الحرب الأهلية

القاسية لم تكن هى الظروف المواتية للتغلب على هذا التراث، فكما يقول ماركس:

«لايبنى البشر لأنفسهم عالماً جديداً «بالخيرات الدنيوية» كما تعتقد الخرافة المبتذله، وإنما بالمنجزات التاريخية للعالم القديم الموشك على نهايته. وفى مجرى التطور يقع عليهم وحدهم البدء فى إنتاج الظروف المادية لمجتمع جديد، وليس بوسع أى جهد للعقل البشرى أو الإرادة الإنسانية أن يطلقهم من هذا القدر» (٢٢)

اصطدمت موجة المثالية العارمة لدى البلاشفة، وشجاعتهم وآمالهم المحلقة، بالتخلف المريع لروسيا. فقد جاء التاريخ القاسى بتناقض حاد بين الطموحات الشامخة للعمال وفقرهم الفعلى مادياً وثقافياً. لقد خرجت روسيا من الحرب الأهلية فى حالة من الانهيار الإقتصادى، «لامثيل لها فى تاريخ البشرية» كما كتب مورخ إقتصادى لتلك الفترة، فقد بلغ الإنتاج الصناعى نحو خمسى الحجم الذى كان عليه عام ١٩١٤ وانكمش عدد السكان فى المدن، ففيما بين نهاية عام ١٩١٨ ونهاية عام ١٩٢٠ قضت الأوبئة والجوع والبرد على تسعة ملايين روسى، وقتلت الحرب العالمية أربعة ملايين من كل القوميات. (٢٣)

وعانت الطبقة العاملة من تدهور خطير فى أخلاقياتها ووعيها السياسى، وتسرب فى الرمال حلم النساء فى التحرر الذى مثلته مراسيم الحكومة وأنشطة الجينوتديل، فقد كان لابد أولاً من الحفاظ على البقاء.

أثناء فترة شيوعية الحرب (١٩١٨- ١٩٢٠) اعتبر أمراً مسلماً به أن العمالة الكاملة ستسود، وإذا حدث وظهرت البطالة فعلاً فسيكون ذلك بصورة مؤقته وعلى نطاق صغير، ومع هذه الإفتراضات كان النضال من أجل حق المرأة فى العمل لا لبس فيه، وعلى ذلك ففى البداية، عقب ثورة أكتوبر مباشرة تعاملت النقابات بمساواة حقيقية بخصوص حق المرأة فى العمل، وفى إبريل ١٩١٨ وجه مجلس نقابات بتروجراد النداء التالى لجميع العمال فى لجان المصانع:

«لقد جابهت مسألة كيف تحارب البطالة النقابات بصورة حادة، وفى العديد من المصانع والمحال تحل المسألة بكل بساطة... إفصلوا النساء وضعوا رجالاً فى مكانهن... إن الإجراء الوحيد الفعال لمكافحة البطالة هو استعادة القوى الإنتاجية للبلاد، وإعادة التنظيم على أساس اشتراكى... ينبغى أن نقرر بشأن

كل حالة على حدة وليست المسألة ما إذا كان العامل رجلاً أم امرأة، وإنما ببساطة درجة الحاجة».(٢٤)

وتبنت هذا الموقف باقى النقابات والمنظمات الحكومية. غير أن «السياسة الإقتصادية الجديدة» (١٩٢١- ١٩٢٨) أدت إلى بطالة واسعة النطاق، فزادت من ١٧٥ ألفاً في يناير ١٩٢٢ إلى ٦٢٥ ألفاً في يناير ١٩٢٣ ومليون ومائتين وأربعين ألفاً في يناير ١٩٢٥.(٢٥) وحيث أن أول من سرحوا من العمل كانوا هم العمال غير المهرة، ومعظم النساء منهم، فقد كنّ القطاع الأكثر تضرراً بها.

« في مارس عام ١٩٢٣ كانت النساء تمثل ٥٨.٧ في المائة من مجموع العاطلين في بتروجراد و٦٣.٣ في المائة منهم في إيفانوفو فوجنسنسك حيث مركز صناعة النسيج، وفي صناعة النسيج ذاتها مثلن مايتراوح بين ٨٠ و٩٥ في المائة من العاطلين في موسكو وبتروجراد وإيفانوفو فوجسنسك. وبناء على الحاح الجينوتديل أصدرت القوميسارية العمالية مرسوماً ينص على أنه في حالات تساوى مهارة الرجال والنساء لاتكون النساء أول من يفصل، ولكن الجينوتديل أقر باستحالة فرض نسب في الاحتفاظ بالنساء في القوة العاملة. بل لقد رأى بعض أعضاء الحزب الشيوعي أن تشغيل النساء حسب مبدأ مساواة الأجر عن العمل المتساوى غير إقتصادى لأن القوانين الكثيرة التي تحمى العمالة النسائية تجعل استخدام النساء عالي التكلفة. (وفي بداية عام ١٩٢٤ وافق الجينوتديل على رفع الحظر عن العمل الليلي للنساء كي يحد من الحجج التي يتعلل بها أصحاب العمل لفصل النساء).(٢٦)

ولم تجر مراعاة مبدأ الأجر المتساوى عن العمل المتساوى والقوانين التي تحمى العاملات حتى في المشروعات الحكومية.

وجهت البطالة ضربة عنيفة لمحاولات تحرير النساء. ودعمت اعتماد النساء على الرجال إقتصادياً، واكتسبت الاتجاهات الرجعية القهرية قوة، بينما راحت تتوقف المؤسسات الجماعية الكثيرة- المطابخ الجماعية وقاعات الطعام الجماعية وبيوت الأطفال ودور الحضانة- مع سعى الحكومة لخفض الإنفاق. وتفيد التقديرات أنه في نوفمبر عام ١٩٢٥ كانت «الوجبات العامة» تقدم لعشرين ألف عامل فقط في موسكو، ولخمسين ألفاً في لينينجراد، ولسبعة وستين ألفاً في الأقاليم، بمجموع ١٣٧ ألفاً. ولم يتوافر مكان في الحضانات إلا لثلاثة

أطفال بين كل مائة والباقى جميعاً يربون فى كل أسرة على حدة.

ودفعت النساء ثانية إلى العبودية المنزلية، وأضافت محنة الأطفال إلى أعباء النساء. وأنجب التشرد والفقر الناجمين عن الحرب والحرب الأهلية جيشاً ضخماً من الأطفال الذين لا أهل لهم، والذين اتجه الكثيرون منهم إلى الجريمة، وقد قدر عدد الأطفال المشردين عام ١٩٢٢ بتسعة ملايين طفل.(٢٧) وكان عددهم يتزايد مع عجز الوالدين عن إعالة أطفالهم.

وكان الضغط، على النساء أساساً، لحماية بيت الأسرة كملاذ للأطفال، كاسحاً. وبسبب من ظروف هذا الزمن، أصبحت حرية الطلاق تعنى، حين يكون هنالك أطفال، «أن تبقى المرأة مغلولة إلى.. أنقاض بيت الأسرة، بينما بوسع الرجل أن يغادره خالى البالى يصفر».(٢٨)

ولذا لم يعد الطلاق يبدو للمرأة فقط، أو حتى أساساً، بشيراً بالحرية، بل نذير إملاق، وكان الرجال مستعدون للطلاق أكثر من النساء بكثير. وقد بين استطلاع للرأى وسط عينة من خمسمائة شخص حول الأسر التى تحطمت نوقش فى مؤتمر منطقة فيبورج، أن سبعين فى المائة من حالات الانفصال وقعت بمبادرة من الرجال من جانب واحد، وأن سبعة فى المائة فقط من الحالات تمت بموافقة الجانبين.(٢٩)

وفى العشرينيات أصبحت مسألة حق المطلقات فى نفقة، التى لم يرد حتى ذكرها فى قانون الأسرة عام ١٩١٨، مسألة حيوية للنساء. ودار نقاش عام طويل أثناء عام ١٩٢٥، اقتنعت الحكومة بعده بضرورة سن تشريع جديد للأسرة يضمن حق النفقة، فإذا ما أمكن إرغام الرجال على أعالة أسرهم، فلعلهم لايهجرون النساء بهذه الكثرة، أو ينجبون أطفالاً لايريدونهم. وقد أعطى القانون المقترح الزوجة حق النفقة، حتى فى حالات الزواج غير المسجل، حسب قوانين الزواج العادية. كما أكد حق الزوجة فى اقتسام الملكية التى اكتسباها أثناء الزواج.

وجاء الضغط الأكبر من أجل الحفاظ على الأسرة التقليدية من الفلاحين، الذين كانوا يشكلون نحو أربعة أخماس السكان فى البلاد، وكان هؤلاء يتطلعون إلى استقرار الأسرة من أجل حماية المزرعة، فكذلك قالت امرأة أثناء مناقشة القانون الجديد المقترح للأسرة:

«هناك الكثير من تلك الطلاقات، ولكن فكروا، هل يفيدوننا على أى نحو؟ سيتفق كل واحد منا، كل رجل أو امرأة، على أنها لاتفيد. فمثلاً، يقع الطلاق بين رجل وامرأة، لديهما منزل صغير وبقرة وثلاثة أطفال، وها هما يقسمان ملكيتهما الصغيرة نصفين، والمرأة لن تترك الأطفال بالطبع مع الأب، فالأطفال دائماً أعز على الأم، فماذا هى فاعلة الآن بأطفالها؟ الزوج لاخطر عليه، فسوف يجد امرأة أخرى يعيش معها، ولكن حياة الزوجة فى هذة الظروف تغدو صعبة فظيعة، ونتيجة كل ذلك هى الفقر، ونحن لدينا منه مايكفى وزيادة فى الحقيقة». (٣٠)

وتشكت امرأة أخرى:

«إن تحميل الأسرة بأكملها عبء دفع النفقة سيوثر بالطبع على زراعتنا، إننى أعتبر ذلك غير عادل، ولن يؤدى إلا إلى حملة ضغينه على النساء. فإذا كان مثلاً ثلاثة أشقاء يعيشون معاً ويملكون بقرة واحدة، وقررت المحكمة أن تدفع الأسرة كلها النفقة، هل ستقسم البقرة إلى قطع صغيرة؟ لن يأتى خير من قرار كهذا، ولكن المزرعة ستكون قد دمرت». (٣١)

خلال الظروف الاقتصادية الصعبة فى العشرينيات، كان المزيد من الحرية فى الجنس والزواج يترتب عليه استغلال النساء والإساءة إليهن (وكذلك الأطفال). وقد أيد تروتسكى قانون الأسرة لعام ١٩٢٦ كشر لابد منه، آخذاً فى الاعتبار الظروف الواقعية، فقد كان شكلاً من أشكال حماية النساء، رغم أنه كان تراجعاً كبيراً عن قانون الأسرة لعام ١٩١٨.

كذلك تجلى التدهور الكبير فى وضع النساء فى العشرينيات، فى عودة الدعارة إلى الظهور، وكانت قد اختفت تماماً تقريباً أثناء فترة شيوعية الحرب، ففى عام ١٩٢١ زاد عدد العاهرات إلى ١٧ ألفاً فى بتروجراد وإلى ١٠ آلاف فى موسكو، حسب الإحصاءات الرسمية. وفى العام التالى تقفز الرقم فى بتروجراد إلى ٣٢ ألفاً، مشيراً إلى الحقيقة القاسية وهى أن أبعاد المشكلة بدأت تسترجع حجمها السابق على الثورة. وخلال عام واحد، من أبريل ١٩٢٤ إلى أبريل ١٩٢٥ ألقى القبض على ٢٢٢٨ من القوادين وأصحاب بيوت الدعارة فى جرائم متعلقة بالدعارة.

كانت حملة التصنيع الكثيف والتحويل القسرى إلى الزراعة التعاونية فى عامى ١٩٢٨-١٩٢٩ نقطة تحول فى تاريخ روسيا، فقد حولت البلاد الى نظام رأسمالية الدولة. (٣٢) ،وأدت التعبئة واسعة النطاق للطبقة العاملة الى عدد من التغيرات الجذرية فى ظروف النساء العاملات، فسرعان ماجرت تعبئة ملايين النساء فى قوة العمل.

عدد العاملات والموظفات فى الفترة ١٩٢٢-١٩٤٤

عام	عدد الموظفات والعاملات	النسبة المئوية من الاجمالى
١٩٢٢	١ر٥٦٠ر٠٠٠	٢٥
١٩٢٨	٢ر٧٩٥ر٠٠٠	٢٤
١٩٣٢	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٧
١٩٤٠	١٣ر١٩٠ر٠٠٠	٣٩

إن التشغيل الكثيف للنساء يمثل إمكانية تحررهن، ولكنه فى حد ذاته ليس تحررا، بل قد يحملهن بالأحرى عبئا مضاعفا. والحقائق التى نوردها فيما يلى من مقال بعنوان «الاشتراكية والأسرة» منشور فى عام ١٩٣٦ فى صحيفة سوفيتية جادة، تستحق الاستنكار لا التهنئة:

« تلعب النساء دورا محدودا للغاية فى صناعة التعدين فى المجتمعات الرأسمالية، فنسبة النساء الى العدد الإجمالى فى صناعة التعدين تبلغ فى فرنسا (١٩٣١) ٧ر٢ فى المائة وفى إيطاليا (١٩٣١) ٨ر١ فى المائة، وفى ألمانيا (١٩٣٢) واحد فى المائة وفى الولايات المتحدة ٦ر فى المائة، وفى بريطانيا العظمى ٦ر فى المائة. أما فى الاتحاد السوفيتى فتبلغ نسبة النساء ٢٧ر٩ فى المائة من إجمالى العاملين فى صناعة التعدين.» (٣٤)

وقد أدى طراز التصنيع الستالينى، بتركيزة المفرط على الصناعة الثقيلة، إلى إهمال تلك القطاعات الإقتصادية تحديدا التى كان من شأنها التخفيف من أعباء النساء العاملات مثل الأدوات المنزلية والسلع الاستهلاكية.

كذلك فقد دعم النظام الستالينى المواقف المحافظة، فالآن صارت السلطات

تجد الأسرة ذات نفع، ليس فقط لأنها توفر مالا توفره الدولة، أي العمل المنزلى والعناية بالأطفال، وإنما ايضا لأنها تقوى ماتحتاجه الدولة من دعائم محافظة فى المجتمع وهو ما صاغة تروتسكى بدقة عام ١٩٣٦ فى كتابة «الثورة المغدورة:
«إن الدافع الأكثر إلحاحا وراء عبادة الأسرة الحالية هو بلاشك حاجة البيروقراطية الى علاقات مراتبية مستقره... »

وفى عام ١٩٣٤ صدر قانون يجعل من الجنسية المثلية جريمة جنائية تصل عقوبتها الى السجن ثمانى سنوات، وبدأت حملة قومية شنت بحمية ضد العلاقات الجنسية غير الشرعية والزواج السريع السهل، والخيانة.

وأصبحت الأمومة موضوعا أساسيا فى الدعاية ،«إن المرأة التى لا أطفال لها تستحق رثاءنا، فهى لم تعرف بهجة الحياة كاملة. لقد وهبت نساؤنا السوفيتيات - المواطنات الأصيلات فى أكثر بلاد العالم حرية- نعمة الأمومة» (٣٥)

وفى عام ١٩٣٦ ألغى الإجهاض القانونى، فيما عدا حالات تهديد الحياة أو الصحة أو احتمالات وجود مرض وراثى خطير.

كذلك فرضت قوانين عامى ١٩٣٥ ،١٩٣٦ عقوبات على الطلاق، وهى رسم خمسين روبل عن أول طلاق، ومائة وخمسين عن الطلاق الثانى وثلاثمائة عن الثالث. والأمر الأكثر أهمية هو إضافة واقعة الطلاق فى الوثائق الشخصية (٣٦) وهوجمت الحرية الجنسية بقسوة مقابل تمجيد الأخلاقية التطهرية، وقد كتب مراقب إنجليزى مكث فى روسيا فترة طويلة:

«الأخلاق الجنسية السوفيتية اليوم تطالب الشباب بكبت الرغبة الجنسية حتى الزواج، وتربط الجنس بالأطفال والأسرة، وويل لعامل المصنع أو طالب الكلية الذى يكتشف أن له علاقة خارج الزواج، حينئذ يجرى إعلان الواقعة، وتسدد الى المذنب كل أشكال التوبيخ اللاذع والاخزاء أو القرارات التى يمكن أن يصدرها الكومسومول (رابطة الشبيبة الشيوعية)» (٣٧)

ويروى المراقب قصة محزنة عن «جالينا» التى اتهمت بارتكاب سلوك «لا أخلاقى مع شاب متزوج، فلجأت الى منظم الكومسومول فى المصنع ليساعدها فى إخماد الشائعات، فكان اقتراحه «أن تذهب الى عيادة وتحصل على شهادة عذرية وتريها للجميع» (٣٨)

وأخذ النظام يروج لقدسية الأسرة «إن الزواج هو... اتحاد مدى الحياة...

وعلاوة على ذلك ، يكتسب الزواج قيمته الكاملة لدى الدولة فقط فى حال وجود النسل، كما يتمتع الزوجان بالسعادة العليا للأبوة» (٣٩) وأوجدت كباش فداء للانحلال الجنسى والزواج غير المستقر:

«لقد لطخ أعداء الشعب، المرتزقة الفاشيست الأدنياء، تروتسكى وبوخارين وكريلنكو وأتباعهم، الأسرة فى الاتحاد السوفييتى بالأوحال، إذ ينشرون نظرية زوال الأسرة، وفوضى العلاقات الجنسية فى الاتحاد السوفييتى، لكى يسيئوا للوطن السوفييتى»(٤٠)

ثم اتخذت خطوة أخرى فى الثورة المضادة الجنسية، وهى إلغاء التعليم المختلط فى عام ١٩٤٣، وكتب أ. أورلوف مدير إدارة التعليم الوطنى ببلدية موسكو، حول هذا الموضوع فى ١٠ أغسطس عام ١٩٤٣:

« ..... إن البرنامج التعليمى ومنهاج الدراسة يمكن، ويجب أن يختلف فى مدارس الأولاد عنه فى مدارس البنات. فمن الضرورى أن تضاف فى مدارس البنات مواد مثل التربية وأشغال الخياطة ، وعلوم التدبير المنزلى، والصحة الشخصية والعناية بالأطفال. وفى مدارس الأولاد، يجب أن يصبح التدريب على الحرف اليدوية جزءا من منهاج الدراسة.»

وشرح كاتب آخر لماذا يعد التعليم المختلط أمراً شائناً، فهو يؤدى إلى «التعمية على السمات الذكرية والأنثوية وهى التى تتسم بقيمة إجتماعية»...

«إن النظام الذى يجب العمل به الآن هو النظام الذى به تربى المدرسة الأولاد ليكونوا آباء جيدين ومقاتلين أشداء يدافعون عن الوطن الاشتراكى، وتربى البنات اللاتى سيصبحن أمهات ذكيات قادرات على تربية جيل جديد» (٤١)

وبلغت الردة الستالينية فى مجال الأسرة ذروتها مع صدور قانون فى ٤ يوليو ١٩٤٤ يفرض عقوبات شديدة على الطلاق ، بداية أصبح الطلاق يتم بمجموعة إجراءات قضائية ، ثم زيدت الرسوم زيادة كبيرة تتراوح بين خمسمائة وألفى روبل، وهى مبالغ تجعل الطلاق مستحيلا إلا على الميسورين للغاية. وفيما يخص الاجراءات القضائية كان مطلوبا من المحكمة الابتدائية أن تبذل كل جهد ممكن للصلح، وإذا اتضح انه مستحيل، ترفع القضية إلى محكمة أعلى، هى التى تملك الحق الفعلى لمنح الطلاق. وتضمن القانون تجديدا أساسيا وهو حق المحكمة فى رفض الدعوى، كما أعاد هذا القانون التفرقة بين الأطفال الشرعيين

وغير الشرعيين، فليس من حق الأخيرين استخدام إسم الأب ولا الإرث ولا الإعالة. (٤٢)

ووضع نظام تدرجي بمدفوعات نقدية للأمهات لتشجيعهن على الانجاب، كما منحت الأمهات المكثرات في الأطفال أوسمة خاصة: «وسام الأمومة، من الطبقة الأولى والثانيه للأمهات المنجبات خمسة أو ستة أطفال ، ووسام الأمومة المجيدة من الطبقة الأولى والثانية والثالثة، للأمهات اللاتي أنجبن سبعة أو ثمانية أو تسعة أطفال، ووسام الأم البطلة لمن أنجبن وربين عشرة أطفال» وعوقب المواطنون العزاب وأصحاب الأسر الصغيرة بالزامهم بدفع ضريبة خاصة جديدة. (٤٣) وقد جرى الربط بين المثال الأعلى للأمومة وبين الوطنية الروسية العظمى المنتصرة ، وفكرة الوطن الأم.

بتحول روسيا الي نظام رأسمالية الدولة، توقفت الاشارة الى «مسألة المرأة» كموضوع متميز له أهمية سياسية وأيدولوجية. ويشير فهرست قرارات الحزب والمرسومات الصادرة عنة في السنوات ١٩١٧-١٩٦٧ إلى ٣٠١ بندا حول موضوع المرأة في الفترة ١٩١٧-١٩٣٠، وثلاثة فقط خلال السبعة وثلاثين عاما التالية.

لم تقتصر الثورة المضادة الستالينية على مجال العلاقات الجنسية، بل اكتسحت المجتمع بأسرة، فقد أقامت بيروقراطية دولة ضخمة مستقله وذات امتيازات واسعة، وقد تحدثت الصحافة السوفيتية عن ظاهرة «المليونيرات السوفييت» في الأربعينيات. وفي المصانع استتب نظام ادارة أتوقراطي عماده الرجل الواحد، وفي الجيش أصبح الأمر لجنرالات يتلقون مرتبات دسمة ثم معاشات ضخمة ، على جنود يتلقون مبالغ هزيلة. ونزعت ملكية ملايين الفلاحين وأرغموا على العمل في مزارع تعاونية واعتقل الملايين في معسكرات العمل حيث اشتغلوا عبيدا، وتكللت عمليات التطهير بالجملة بتلفيقات محاكمات موسكو في أعوام ١٩٣٥-١٩٣٨ التي انتهت بقتل جيل كامل من البلاشفة. وطبقت عقوبة الاعدام للسرقة على الأحداث. (٤٥)

لم يكن إخضاع النساء سوى واحد من وجوه الثورة المضادة الستالينية.

التفسير النسوى الراديكالي

يقدم التفسير النسوى الراديكالى وجهة نظر معارضة كليا للتحليل المقدم أعلاه، وعلى سبيل المثال تكتب شولاميت فايرستون:

«... يمكن تبين فشل الثورة الروسية فى بلوغ مجتمع بلاطبقات فى محاولاتها الفاترة لازالة القهر الجنسى وقهر الأسرة. وهذا الفشل بدوره، نجم عن محدودية التحليل الثورى المبنى على التحيز الذكرى، إذ يجعل الطبقة الاقتصادية وحدها أساسه، ولايأخذ فى اعتباره الأسرة بصورة كافية ، حتى كوحدة إقتصادية» (٤٦)

ويقدم أخصائى الشئون الجنسية الشهير فيلهلم رايح. تفسيرا مختلفا: فقد رأى أن الاتحاد السوفيتى لو لم يلغ خطته الأولى لتغيير نظام الاسرة وتحرير الجنس فقط، لما هزمت الاشتراكية.

هنا تضفى على الوعى قوة تفوق قوة الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، فعند مثل أولئك الكتاب لايمثل تخلف روسيا ولاخسائرها الصناعية أثناء الحرب الأهلية أو الضعف العددى للطبقة العاملة، ولافشل الثورة الأوربية، لايمثل كل ذلك شيئا بالقياس الى السياسة الجنسية التى اتبعها حكام روسيا. ولكن ماهى جذور سياسة حكام روسيا فى الجنس والأسرة؟ ماالذى شكلها؟ وماالذى جعلها تتغير؟

الى الصحراء.....

أدت هزيمة الطبقة العاملة الروسية على أيدى البيروقراطية الستالينية الى هزائم كارثية للطبقة العاملة على المستوى الدولى،فلحقبة تاريخية كاملة تراجعت حركة الطبقة العاملة ككل، وكان نصيب نسائها من التراجع أكبر ، واذا كان التقدم الاجتماعى يمكن قياسه بتقدم النساء كما ذكر ماركس، فكذلك التقهقر، لقد رفعت قضية تحرير المرأة من جدول الأعمال لنصف قرن آخر.

وفى الوقت نفسه ماتت الحركة النسوية البرجوازية، فما إن حصلت

البرجوازيات على حق الاقتراع، حتى توقفن عن التحريض ضد امتيازات الرجال، وفى مواجهة الأزمة العامة للرأسمالية، أصبحن سندا للرجعية.

هوامش الفصل التاسع

١- ف.ى. لينين «حول تحرير النساء» (موسكو ١٩٧٧)

٢- ف.ى. لينين«السلطة السوفيتية ووضع النساء»، الأعمال الكاملة،مجلد (٣٠) ، ص ٤٠.

٣- ل. تروتسكى «النساء والأسرة» (نيويورك ١٩٧٤) ص٦١

٤- ر. شلزينجر «مواقف تغيرت فى روسيا السوفيتية: الأسرة فى الاتحاد السوفيتى» (لندن ١٩٤٩)ص٣٥.

٥- شلزنجر ،ص٣٧-٦- اقتباس عند شلزنجر، ص٣١٠

٧- شلزنجر، ص٤٤-٨- شلزنجر، ص ٤٤-٩- لينين، «حول تحرير النساء» ص٦٥-٦٦

١٠- مقتبس عند شلزنجر، ص ٤٨-٥٣ -١١- لينين، «حول تحرير النساء»، ص ٧٢

١٢- مقتبس عند ب.ى. كليمنت «زعيمة نسائية بلشفية: حياة الكسندار كولونتاى » (بلومينجتون ١٩٧٩) ص١٥٥.

١٣- لينين، «حول تحرير النساء»، ص١١١ و١١٠.

١٤- اقتباس عند س. ى . هايدن «الجينوتديل والحزب البلشفى» من «التاريخ الروسى»، المجلد ٣: ٢ (١٩٧٦) ص ١٥٦.

١٥- هايدن ، ص ١٥٧.

١٦- ت. هـ. ريجنى، «عضوية الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ١٩١٧-١٩٦٧» (برينستون ١٩٦٨) ص٣٦.

١٧- هايدن، ص ١٨٦.-١٨- هايدن، ص ١٥٩.

١٩- لينين، الأعمال الكاملة، المجلد (٣٣) ص٧٨.-٢٠- ستايتس،

ص٣٣٥-٢١- سعاتيس، ص ٣٢١-٣٢٢

٢٢- ك. ماركس، «الناقد الأخلاقى والاخلاق النقدية» مساهمة فى تريخ الحضارة الألمانية، ضد كارل هاينسن، من التراث الأدبى لماركس وانجلز ولاسال» (شتوتجارت ١٩٠٢) مجلد (٢) ص٤٥٦.-٢٣- كليف، «لينين»، مجلد (٤) ص١٢١-٢٤- ج. سميث. «النساء فى روسيا السوفيتية» (نيويورك ١٩٢٨) ص ١٥-١٧.-٢٥- هايدن، ص١٦٩.

٢٧- ك.هـ. جايجر «الأسرة فى روسيا السوفيتية» (كامبريدج، ماساتشوستس ١٩٦٨)ص٧٣.-٢٨- جايجر، ص٦١-٦٢.

٢٩ - ستايتس ص ٣٧١.-٣٠- شلزينجر، ص ٩٩.-٣١- شلزينجر، ص ١٤١.

٣٢- انظر مناقشة هذه الفكرة فى. ت. كليف «رأسمالية الدولة فى روسيا» (لندن ١٩٧٤) وخاصة الفصل (٤).

٣٣- ج.و. لابيدوس «النساء فى المجتمع السوفييتى بيركلى ١٩٧٨) ص١٦٦.

٣٤- مقتبس عند شلزينجر ،ص ٢٨٧-٣٥- مقتبس عند شلزينجر ،ص٢٥٤-٣٦- شلزنجر، ص٢٧٨

٣٧- مقتبس عند د. وف. ميس «الأسرة السوفيتية» (لندن ١٩٦٤) ص٨٦.-٣٨- ميس، ص ٨٧

٣٩- «سوتسيا لتشسكايا زاكونوست» (١٩٣٩) العدد (٢)،مقتبس عند ن. تيماشيف «محاولة إلغاء الأسرة فى روسيا» من «الاسرة» (نيويورك ١٩٦٠) ص٥٩.

٤٠- جايجر، ص ١٠٤.

٤١- مقتبس عند شلزينجر، ص ٣٠٤، ٣٩٣-٣٩٤.

٤٢- شلزينجر، ص ٣٧٣-٣٧٤.

٤٣- شلزينجر، ص ٣٦٧- ٣٧٣

٤٤- ر. هـ . ماكنيل، «دليل إلى قرارات الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييت ١٩١٧-١٩٦٧» (تورنتو ١٩٧٢)

٤٥- للتحليل الموثق انظر كليف «رأسمالية الدولة فى روسيا»

٤٦- ش. فايرستون «جدليات الجنس» (نيويورك ١٩٧٠) ص ١٩٨.

الفصل العاشر

فشل النجاح: حركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة

عادت قضية تحرير المرأة إلى جدول الأعمال فى الستينيات، فى هذه الفترة كان قد أصبح هناك تحد متزايد للستالينية فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، وفى الغرب كانت تتعمق ببطء أزمة فى الرأسمالية العالمية. كذلك كانت قد زادت أعداد النساء اللاتى يعملن بالأجر، الأمر الذى ساعد عليه انتشار التعليم العالى من جهة ، وتحديد النسل بصورة أكثر فعالية من جهة أخرى.

فى سبتمبر عام ١٩٧٨ كتبت صحيفة تحرير المرأة البريطانية «الضلع

الزائد»: «إن حركة تحرير المرأة الأمريكية هي أمنا جميعا» والأمر كذلك بالفعل، فقد كانت الأولى في الظهور في الساحة واحتفظت بأسبقيتها على المستوى الدولي، لذلك سيبدأ بحثنا في الحركة النسائية الحديثة بالولايات المتحدة.

حركة الحقوق المدنية

ولدت حركة تحرير المرأة الأمريكية من رحم حركة الحقوق المدنية، حدث ذلك في الماضي، حين اكتسبت حفنه من نساء الطبقة المتوسطه من البيض في الجنوب، أثناء العمل على توفير العدل للعبيد السود في حركة إلغاء العبودية في الفترة من ثلاثينيات القرن الماضي حتى سبعينياته، اكتسبن خبرة في تنظيم العمل الجماعي، ومعها إيمان بحقوق الانسان، التي استخدمنها في إسباغ الشرعية على المطالبة بالمساواة لأنفسهن . وتكرر هذا المسار مع حركة الحقوق المدنية التي ترددت أصداؤها في الستينيات وانبثقت عنها حركة تحرير المرأة. وهناك رواية شيقه لقصة نمو الحركة النسائية في كتاب ساره إيفانز «السياسة الشخصية: جذور حركة تحرير المرأة في حركة الحقوق المدنية واليسار الجديد». (١) وأنا مدين لها بالكثير هنا، ولكن بما أنها ليست ماركسية، بل نسوية راديكالية فلايسعني الاتفاق مع تفسيرها للأحداث.

لعب الطلاب دورا فاصلا في تنظيم حركة الحقوق المدنية في ولايات الجنوب الأمريكي ، وكانت منظمتهم الأساسية هي «لجنة التنسيق الطلابية للعمل اللاعنيف»، وقد نظمت عمليات لتسجيل الناخبين* في أعماق الجنوب، واعتصامات واسعة تضم مئات الآلاف من غير الطلاب، تطالب بإنهاء التمييز العنصري في الأماكن العامة مثل المطاعم والموتيلات ومحطات الأتوبيس. وتكتب سارا إيفانز عن تلك الفترة:

«بدت الحرب مع المجتمع الأبيض شامله ، وفي هذا السياق.

«.... وعندما حل شتاء عام ١٩٦١ ، كان أعضاء لجنة التنسيق الطلابية قد بدأوا يمشون ويتكلمون ويلبسون بطريقة الفلاحين والمؤاجرين السود الفقراء في ريف جورجيا والميسيسبي .... ومنذ البداية كرست مجموعة من الشابات

البيض حياتهن لثورة الشباب السود .

« وكانت معظم النساء البيض اللاتى شاركن فى حركة الحقوق المدنية فى سنواتها الأولى من الجنوب ، وقد أتت كل تلك الجنوبيات البيض دون استثناء الى الحركة عبر الكنيسة أولا ».

بين عامى ١٩٦٣ و١٩٦٥ توجهت مئات من الشابات البيض من بنات الطبقة المتوسطة والعليا إلى الجنوب، إلا أن الفوارق العميقة فى الأنتماء الطبقى واللون والجنس لم تمكن النساء البيض اللاتى عملن من أجل السود من الاندماج معهم . وتصرفت لجنة التنسيق الطلابية نيابة عن السود، دون أن تفلح فى بناء حركة جماهيرية، واذ افتقرت لجذور وسط الطبقة العاملة يصنع لحمتها الانتاج الجماعى، كانت الانقسامات حتمية، ولاغرابة أن كان اللون أول دواعيها ، فاصلا البيض عن السود « كان وجود مئات من الشبان البيض من الطبقات الوسطى والعليا وسط حركة من السود الريفيين الفقراء أساسا لاشتعال التوترات العنصرية والجنسية الكامنة الى ماوراء نقطة الانفجار، »كما كتبت سارا ايفانز. وقالت احدى النساء السود عن ذلك« أن كانت لدى النساء البيض فى لجنة التنسيق الطلابية مشكلة، فلم تكن هذه نسائية/ ذكرية فحسب... بل كانت أيضا مشكلة امرأة سوداء/ امرأة بيضاء، لقد كانت مشكلة عنصرية أكثر منها مشكلة نسائية». وسؤلت امرأة بيضاء عما إذا كانت تلاقى أى عداوة من النساء السود، فردت « أطنان وأطنان»، فقد وضعت علاقاتها الجنسية مع الرجال السود حاجزا بينها وبين النساء السود (٤)

وكان لهذه التجربة أثر عميق على النساء البيض، لقد فر جزء منهن على الفور، غير أن غالبيتهن وفت بالتزامها ، وعادت الى الشمال مكتوية بتجربة مثلت نقطة تحول فى حياتها.(٥)

إلا أن الصراع الذى فرق لجنة التنسيق الطلابية لم يكن فقط بين النساء والرجال السود والنساء البيض، بل وأيضا بين الرجال البيض والرجال السود ، مع انصراف الأخيرين المتزايد عن مفهوم اللاعنف، وعمل «الأسود والأبيض معا» فحين حل عام ١٩٦٥ كان الطريق إلى «القوة السوداء» قد تحددت معالمه بوضوح. و«غدا الترحيب بالبيض أقل فأقل فى كل جزء من حركة الحقوق المدنية» (٦)

---

* كان المواطنون السود يحجمون عن تسجيل انفسهم كناخبين بسبب ارهاب البيض- المترجمة.

كانت هناك حركة موازية وسط طلاب ولايات الشمال. فحين بدأ الطلاب السود موجة اعتصامات فى ربيع عام ١٩٦٠، جاوبهم مايتراوح بين ٦٠ و٨٠ ألفا من طلاب الشمال مؤيدين (٧) ومرة أخرى كان هؤلاء «من أسر الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة العليا» فى غالبيتهم. (٨) وأنشئت منظمة «الطلاب المنادون بمجتمع ديمقراطى» استجابة لهذه الحركة، وبدأت نشاطها التنظيمى فى المدن الشمالية فيما بين عامى ١٩٦٣ و١٩٦٥ ، متخذة من لجنة التنسيق الطلابية للعمل اللاعنيف نموذجا لها.

لم يكن بين الطلاب المنادين بمجتمع ديمقراطى كثيرون مؤهلون لمجابهة حقائق العمل التنظيمى فى الحياة اليومية، فقد اختاروا التنظيم فى صفوف «حركة الزنوج و... الفقراء غير المنظمين»، وهو قطاع من المجتمع يفتقر للوعى الجماعى والاستعداد للتنظيم ، اذا قورن بسود الجنوب، فهو ذلك الذى وصفه ماركس «بالبروليتاريا الرثة» ، وبالتالى فقد غدا أسلوب المنادين بمجتمع ديمقراطى فى التنظيم مصدرا للضجر والأحباط والقلق. وقد تمثل هذا الأسلوب فى التوجه الى حى من الأحياء والطرق على أبوابه واحدا إثر الآخر، أملا فى أن يبدى المجيب، كائنا من كان، استعدادا للتحدث مع غريب، ثم يبحث القادم عن أى إمكانيات واردة للعمل الجماعى ، ويقدم مساندته الشخصية ، ويكسب الثقة(٩)

إلا أنه تبين أن أولئك الذين حاول الطلاب تنظيمهم من «أشخاص يتسم دورهم الاقتصادى فى المجتمع بالهامشية وعدم الاستقرار»- لاحول لهم ولاقوة، وأنه يستحيل تنظيمهم على أساس ثابت. إن الثورة الاجتماعية لاتعتمد على الفقر وحده، وإنما تتطلب أيضا التنظيم الجماعى، المستند الى العمل الجماعى فى الانتاج، فى المصانع ومواقع العمل، وذلك هو مايفتقده القسم الأكثر فقرا فى المجتمع، بما أنه إما عاطل أو يعمل فى أشغال هامشية.

ولكن الطلاب البيض أبناء الطبقة المتوسطة، الذين ينتمون للشعب بالمشاعر وحسب، كانوا يضفون عليه طابعا مثاليا، وفى مقدمته السود. وقد اتضح هذا النزوع خاصة فى انحناء الحركة أمام العفوية، فقد كان الشعار المطبوع على أحدى شاراتها- وهو أقرب شئ لديها لما يمكن تسميته بالنظرية- يقول «فلندع الشعب يقرر»، ولم يكن للمنظمين أن يلعبوا دورا قياديا، وإنما فقط أن يعكسوا رغبات الناس، وكانوا يعتبرون وضع خطة واضحة تلاعبا بالناس

لايتفق مع روح المشاركة الديموقراطية. علاوة على ذلك كان الفقراء غير معتادين على الإجتماعات ولم تكن بالضرورة لتعجبهم، وهكذا كانت تتعاقب الاجتماعات التى لايحضرها أحد سوى المنظمين أنفسهم (١٠)

حققت النساء فى منظمة الطلاب المنادين بمجتمع ديمقراطى نجاحا أكبر بكثير من الرجال. فبينما حاول الرجال- دون نجاح- تنظيم العاطلين حول شعار «عمل أودخل الآن» ، ركزت النساء على «قضايا نسائية» مثل وسائل الترفية والحضانات والمدارس وإضاءة الشوارع والاسكان والخدمات الاجتماعية . «وشرعت النساء فى إنشاء منظمات مستقرة للأمهات المعتمدات على المعونة الاجتماعية (١١)، واكتسبن ثقة عالية بالنفس. فلأول مرة أصبحت للنساء فى منظمة المنادين بمجتمع ديمقراطى أرض مستقلة تقدم لهن أساسا لاحترام الذات ولمطالبة الآخرين به » (١٢)

ترافقت مع انفصال نشاط الرجال والنساء فى منظمة الطلاب المنادين بمجتمع ديمقراطى ، توترات متزايدة الحدة بين الجنسين ، فقد تأثر الذكور فى المنظمة بالوسط الذى يعملون فيه الى أبعد حد. كانت أفقر أقسام المجتمع محرومة الى حد أن «العنف والعدوان الجسدى أصبحا طريقة عادية فى الحياة، وخاصة للذكور الشبان»، ومن أهم أشكالهما العدوان الجنسى (أو الماتشيزمو) (١٣)، الأمر الذى كان له تأثير كبير على قيادة الحركة السوداء. فكذلك على سبيل المثال يصف الدردج كليفر الذى أصبح منظرا لمنظمة الفهود السود، فى سيرته الذاتية «روح فى التخزين *» كيف انغمس فى شبابه فى عمليات الإغتصاب ، بادئا بالنساء السود ثم البيض، على سبيل تأكيد الذات، وسماه «عملا من أعمال الثورة»(١٤) وكان زعيم أسود آخر، هو ستوكلى كارمايكل ، صاحب العبارة الشهيرة سيئة الصيت التى قالها فى مؤتمر للجنة التنسيق الطلابية عام ١٩٦٤:«إن الوضع الوحيد الملائم لنساء لجنة التنسيق الطلابية هو الانبطاح».

وشرح أحد منظمى الطلاب المنادين بمجتمع ديمقراطى لجمع كبير فى جامعة واشنطن كيف كان شباب الجامعة البيض يقيمون صلة ألفة مع البيض الفقراء الذين يعملون معهم، كمايلى:

«قال أن الرجال كانوا أحيانا بعد تحليل الأمراض الإجتماعية، يمضون وقت الفراغ معا بالاشتراك فى مضاجعة فتاة، وقال أن تلك الأنشطة كان لها فضل كبير فى تقدم الوعى السياسى للشبان البيض الفقراء، فتساءلت امرأة من

الجمهور وماذا فعل ذلك فى وعى الفتاة؟» (١٥)

وقد تبنى كثيرون من رجال الطلاب المنادين بمجتمع ديمقراطى هذا الموقف الجنسى. وقاربت العلاقات بين الرجال والنساء فى المنظمة على نقطة القطيعة.

الحركة النسائية تنبعث من تحلل حركة الحقوق المدنية والحركة الطلابية

نمت الحركة المناهضة لحرب فيتنام من قلب حركة الحقوق المدنية ثم انتشرت بين الطلاب انتشارا هائلا ذا وقع مثير، فقد «اشتعل الحرم فجأة فى كل الجامعات التى تشير فيها «الروح» الى السود فى تراثهم الخاص. بالاحتجاج» بعد أن بدأ الرئيس جونسون يجند الشبان بأعداد كبيرة للقتال. فى ١٧ أبريل عام ١٩٦٥ تجمع مايزيد على عشرين ألف متظاهر فى واشنطن للاحتجاج على الحرب، ورأى الطلاب أنفسهم فى معارضة «النظام»، فهم مقهورون كطلاب، ووقود محتمل للمدافع. ونمت منظمة الطلاب المنادون بمجتمع ديمقراطى نموا كبيرا، وأصبحت الاعتصامات، التى تعلمها الطلاب من حركة الحقوق المدنية، تندلع الآن كلما جاء المجندون للقوات المسلحة، أو حين ترفض الجامعات الاستجابة للمطالب الخاصة بتقديم أسماء الطلاب الذين حل دورهم فى القرعة أو بزيادة أجور الأساتذة، أوعمال الجامعة أو إصلاح المناهج. (١٦).

ونشطت النساء بقوة فى الحركة الجماهيرية الطلابية، ولكنهن شعرن بعد عام ١٩٦٦ بأنهن يدفعن إلى الهامش، فقد أصبح الموضوع الرئيسى الآن هو التجنيد.

«الرجال يجندون، وهو مالايحدث للنساء، وبوسع الرجال أن يقاوموا التجنيد، فهم يحرقون بطاقات التجنيد ويجازفون بالذهاب الى السجن، فدور النساء اذن هو مساندة الرجال، الفتيات يقلن نعم للرجال الذين يقولون لا!، كما يقول أحد الشعارات الشهيرة للحركة». (١٧)

واذ انتقل الطلاب من النضال «من أجل الآخرين» الى النضال من أجل تحررهم الخاص داخل الحرم الجامعى، راحوا يبتكرون «نظرية» تقول أن الطلاب هم العنصر المحورى فى الطبقة العاملة الحديثة، حيث أنهم يتدربون كمحترفين فى مجتمع تسوده التكنولوجيا المتطورة، وبذلك أصبح الطلاب هم «البروليتاريا البديلة»، وبقى على الجامعات أن تصبح «قواعد حمراء». وتكتب

*ترجمة حرفية لـ SOUL ON ICE، المترجمة.

سارا ايفانز عنهم:

«صار الطلاب ميالون لتأمل الذات بصفة عامة... وكان هؤلاء «الهيبيز»... يمجدون الوداعة والحب والجماعة والتعاون، ويزدرون المنافسة والحرفية المصقولة فى العمل، والمادية وبعد فترة تحولت طرائقهم المميزة الى مناسبات عامة. مثل «التجمع لممارسة الذات» و«التجمع للحب»، وكذلك عبارات مثل «تلم دماغك» و«تعمل الشئ التابع منك أنت». وتكمن بعض من أهم مقومات حركة تحرير المرأة اللاحقة فى هذا الموقف الثقافى المضاد، الرافض لمعايير الطبقة المتوسطة وأنماط حياتها، والمتميز بالتركيز على الأمور الشخصية، فهو الذى جعل بعض المؤسسات المحددة لوضع المرأة كالزواج والأسرة، موضع التساؤل، مؤكدا فى الواقع أفضلية الحياة الجماعية». (١٨)

على هذا النحو ظهر الى الوجود واحد من الميول الأساسية فى حركة تحرير المرأة الأمريكية: وهو التركيز على العالم الداخلى للمرء، حول نمط حياته، وحول ماسمى فيما بعد «برفع الوعى».

فى عام ١٩٦٧ كانت «الحركة» قد أخذت فى التشرذم الى جماعات كثيرة، وفى محاولة لتوحيدها عقد «اليسار الجديد» «المؤتمر القومى للاتجاهات السياسية الجديدة» فى أغسطس عام ١٩٦٧، واجتمع ألفان من مزاولى النشاط السياسى من مائتى منظمة، ومعظمهم مخضرمون شبان من حركة الحقوق المدنية والحركة المناهضة لحرب فييتنام، وكانت فكرة «القوة السوداء» فى ذروتها والأمل فى الوحدة ضعيف.

كان المندوبون السود فى المؤتمر يتوقون لأن يصبوا على رؤوس البيض فيه كل غضبهم من العنصرية الأمريكية، وفى المقابل بدا البيض مستميتون على استرضاء السود كى يعطوا المشروعية لنشاطهم. أخذ المندوبون السود يصيحون «إقتلوا البيض»، وأصروا على أن تكون لهم خمسون بالمائة من أصوات المؤتمر ونصف مقاعد اللجنة، رغم أنهم لايزيدون على سدس المندوبين، ومع كل استسلام من المؤتمر لمطالب السود، كان يرتفع تصفيق غالبيته، في موافقة واضحة على هذا الانكار لهم.

وانتقلت عدوى منطق النزوع الانفصالى للسود الى المندوبات فى المؤتمر، فقد توصلن بعد مناقشات مطولة الى مشروع قرار يطالب بمنح النساء ٥١ فى المائة من أصوات المؤتمر والتمثيل فى اللجنة، بما أنهن يمثلن ٥١ فى المائة من مجموع

السكان (١٩) غير أن الرجال البيض الذين أذعنوا لدعاة القومية السوداء، لم يكونوا على استعداد لتقديم أى تنازلات للنساء، وبدلا من ذلك سخروا منهن وعاملوهن بتعال ورفضوا إعطاء وقت لمناقشة مشروع القرار. وقد نجحت النساء فى إضافته فى آخر جدول الأعمال، نتيجة خشية المؤتمر من أن يستهلكن وقته فى إشكالات اجرائية، غير أن مشروع القرار لم يناقش أبدا. فقد رفض رئيس الجلسة إعطاء الميكروفون لأى من النساء الواقفات على مقربة منه رافعات أيديهن طلبا للكلمة ، وحين دعا بدلا منهن أحدا ما ليتحدث عن «الأمريكى المنسى، الأمريكى الهندى» اندفعت خمس منهن الى المنصة طلبا لتفسير، ولكن الرئيس اكتفى بأن ربت على رأس إحداهن قائلا «هدئى نفسك يافتاتى الصغيرة، فلدينا ماهو أهم من مناقشة مشاكل النساء».

كانت تلك الفتاة الصغيرة هى شولاميث فايرستوف، مؤلفه «جدليات الجنس» (٢٠) فيما بعد وقد رفضت أن تهدأ. (٢١)

ولا حقت السخرية الحركة النسائية الوليدة فقد نشرت مجلة «المتاريس» التى أصبحت فيما بعد مجلة راديكالية ناجحة، صورة فى يناير عام ١٩٦٨ لجذع امرأة ترتدى ملبس بهلوان ولا رأس لها، وتتدلى من أحد ثدييها شارة لواء جانيت رانكين، ووضعت لها عنوان «القوة النسائية»، وكان التفسير الذى خلفته فى الأذهان عامة هو: «حلمتان، إذن لارأس»، وأرفقت الصورة بمقال مفرط فى التعالى، وقد رفضت نشر رد. (٢٢)

وفى المظاهرة الضخمة المناهضة لحرب فيتنام التى أقيمت فى واشنطن فى يناير عام ١٩٦٩ طلبت النساء الكلمة، وبعد اعتراضات كثيرة وافق الرجال المنظمون للمظاهرة على إعطائهم وقتا قصيرا لكلمتين ، وحين بدأن فى الكلام قاطعهن الصياح: أنزلها من على المنصة وضاجعها » وأصبح الانفصال عن الرجال حتميا.

إن التعالى الجنسى المفرط لدى رجال اليسار الجديد الأمريكى هو بالتأكيد واحد من أسوأ النماذج فى تاريخ الانحياز الذكرى من قبل رجال يعتبرون أنفسهم «يساريين»، لقد كان أسوأ كثيرا مما يمكن أن تتوقعه النساء مثلا فى اجتماع نقابى. وقد قدمت الأصول الطبقية لأنصار اليسار الجديد بالإضافة لتجاهلهم للطبقة العاملة المنظمة بوصفها قوة التغيير الأساسية ، الأساس لجميع أنواع النخبوية، ومنها التعالى الجنسى. ولأنهم أسقطوا من الحساب الطبقة

العاملة، مالت سياساتهم دائما إلى الإصلاحية، مهما اتسمت خطبهم بالراديكالية وكان تدخلهم فى حركة الحقوق المدنية دائما بالنيابة عن الفقراء السود ، أما حملتهم ضد التجنيد فقد استندت إلى حجج ذات طابع أخلاقى وبالغ الفردية.

وقد كان تحول بعض النساء الى الحركة النسوية فى واقع الأمر رد فعل على المعاملة التى لقينها من اليسار الجديد، وقد احتفظت حفنة منهن بالأفكار الاشتراكية بالقول فقط، ولكن بسبب من تجربتهن فقد أصررن على التنظيم بصورة منفصلة عن الرجال. وبالطبع فقد تحولت تلك الفترة بأسرها الى جزء من ميثولوجيا الحركة النسائية، تدير اسطوانتها كل حين كتبرير للإنفصالية.

كذلك ساعدت الأصول الطبقية للنساء اللاتى اجتذبتهن الحركة النسائية فى بداياتها ومعظمهن من الطبقة المتوسطة، على أن يرين مشاكلهن من منظور التعالى الجنسى للرجال، فخلال الازدهار الإقتصادى الذى ساد فى الستينيات ، وتفتح فرص الوظائف أمام النساء ، كان من السهل أن يبدو التعالى الجنسى للرجال الذين ينافسونهن على وظائف مهنية لابناء الطبقة المتوسطة خاصة، الحاجز الرئيسى أمام النساء.

أوجد هذان العاملان وضعا صارت فيه الانفصالية مطروحة دائما ، وكان كلاهما نتاجا لوضع تاريخى خاص، مرتبط بفترة الازدهار الاقتصادى فى الستينيات وظهور حركة «يسارية» لاتربطها علاقة بتنظيم الطبقة العاملة.

وهكذا جاء ظهور الحركة النسائية ونموها من قلب تحلل حركة الحقوق المدنية وإفلاس الحركة الطلابية، ورد فعل على التعالى الجنسى المفرط لدى رجال اليسار الجديد.

قبل أن ننتقل الى الحركة النسائية ذاتها ، من المفيد أن نتتبع ماحدث لتلك الحركات التى خرجت منها. لقد شملت الحركة السوداء ملايين من الناس، وفى الفترة مابين عامى ١٩٦٤ و١٩٦٨ اهتزت المدن الأمريكية تحت وقع مئات الاضطرابات، وكذلك استطاعت الحركة الطلابية، خاصة حين تحولت الى حركة مناهضة لحرب فيتنام، حشد كتل جماهيرية ضخمة، ولكن أيا منهما لم تستطع تقويض النظام الرأسمالى الذى عارضتاه، لأنه لا الثوريين السود ولا الطلاب الراديكاليين كانوا قادرين على بناء حركة فى الموقع الذى يمكن منه تحدى الرأسمالية بصورة مباشرة وجماعية، أى فى المصانع وأماكن العمل التى يخلق

فيها العمال ثروة الرأسمالية ٠وقد قاد كلاهما حركته عبر طريق منفصل عن الآخر، وقد أدى كلا الطريقين الى الهاوية.

مع أفول حرب فيتنام فى مطلع السبعينيات قبيل انتهائها تراجعت الحركة الطلابية وعاد الطلاب الى دراستهم، ومع انهيار اليسار بصفة عامة، انهار أيضا اليسار الثورى الأسود. وقد أغتالت الحكومة الكثيرين من المناضلين السود، خاصة أولئك الداعين لإقامة السلطة السوداء، غير أن ماحسم مصير تلك الثورة هو الخرافة التى ألهمتها ثم تحولت الى جزء من السياسة التقليدية. ومن الحركة السوداء خرجت شريحة ضخمة من المهنيين من الطبقة المتوسطة، الذين اصبحوا يقومون بالوساطة بين الجيتوات السوداء ومؤسسات النظام: موظفو الخدمات الاجتماعية ومنظمو العمل الاجتماعى المحلى وسياسيون فى الحزب الديمقراطى يمثلون المناطق الحضرية المضمحله، ونواب عاجزون فى الكونجرس. (٢٣)

فى تاريخ الحركة النسائية الأمريكية- كما فى تاريخ حركة السود والحركة الطلابية- علينا أن نميز بين فترتين، من ١٩٦٨ الى ١٩٧٣ حين كان مستوى النضال مرتفعا بصفة عامة، ثم منذ عام ١٩٧٤ فصاعدا، حين صار مستوى النضال فى تراجع، والساحة السياسية تتجه يمينا.

النظرية النسوية الراديكالية

الفكرة المحورية فى حركة تحرير المرأة الأمريكية هى أن العدو هو الرجل، كذلك يعلن البيان النسوى الراديكالى فى نيويورك:

«إننا ندرك بوصفنا حركة نسويه راديكالية، أننا مشتبكون فى صراع قوة مع الرجال، وأن القوة التى تضطهدنا هى الرجل بقدر ما يتطابق مع امتيازات السيطرة فى الدور الذكرى ويمارسها... اننا نعتقد أن الغرض من التعصب الذكرى هو فى المقام الأول الحصول على إشباع نفسى للذات، وأنه لايتجلى فى العلاقات الاقتصادية إلا بصورة ثانوية... لهذا السبب فإننا لانعتقد أن الرأسمالية، أوأى نظام إقتصادى آخر هو السبب وراء اضطهاد النساء، كما

لانعتقد أن هذا الاضطهاد سيختفى نتيجة لثورة إقتصادية محضة. إن الاضطهاد السياسى للنساء له دينامياته الطبقية الخاصة، وهذه الديناميات يجب فهمها فى إطار كان يوصف من قبل بأنه لاسياسى، ونعنى بة السياسة المتعلقة بالذات (أو الأنا)..إن الذات الذكرية تؤكد هويتها عبر قدرتها على أن تحوز سيطرة على ذات الأنثى».

ومن هنا تستنتج جولييت ميتشيل ، التى تقتبس هذه الكلمات مؤيدة، الحاجه لوحدة النساء من جميع الطبقات:

«... ليست الفوارق الطبقية هى الأمر المهم، وإنما الأمر الحيوى هو أن ترى النساء كيف يجرى إخضاعهن ككل. إن الوظيفة الإجتماعية للنساء وهو يتهن الجسدية توجد فى البيت... وضع النساء كنساء هو الذى له الأولوية: إنهن مقهورات أياً كانت ظروفهن الخاصة، ومن هنا أهمية الوعى النسائى فى أية ثورة... ومن هنا تحرر النساء». (٢٤)

وتقدم شولاميت فايرستون فى كتابها «جدليات الجنس» تدعيماً نظرياً لفكرة أن الإضطهاد الجنسى هو **الأساس** بينما يشكل الإقتصاد البنية الفوقية. فتبدأ بان جذور بنية الأسرة- بما تشمله من طبقتين المرأة فيهما هى المضطهدة والرجل هو المضطهد- تكمن فى إعادة إنتاج الحياة بالمعنى الجنسى للكلمة. «خلافاً للطبقات الإقتصادية، نبعت الطبقات الجنسية من واقع بيولوجى: فقد خلق الرجال والنساء مختلفون، وليس متساوين.

«يقدم التنظيم الجنسى لإعادة إنتاج النوع فى المجتمع دائماً الأساس الحقيقى، الذى انطلاقاً منه وحدة يمكننا التوصل إلى التفسير النهائى لكل البنية الفوقية من مؤسسات اقتصادية وقضائية وسياسية وأيضاً الأفكار الدينية والفلسفية لفترة تاريخية بعنيها».

وتقول أن السبب الأصلى للإستغلال هو سبب نفسى جنسى: «إن الأسرة البيولوجية بطبيعتها ذاتها تنطوى على توزيع غير متساوى للنفوذ، والحاجة للنفوذ التى تؤدى إلى تطور الطبقات تنبع من التشكل النفسى الجنسى لكل فرد وفقاً لهذا اللاتوازن الأساسى». وتقول أيضاً أن «العنصرية هى امتداد للتعالى الجنسى الذكرى».

هذا التحليل البيولوجى الخالص يجعل من اللامساواة الجنسية أمراً محتماً، وتستنتج كثير من نصيرات النسوية الراديكالية من تحليل فايرستون أنه طالما

أن جميع التعاديات الطبقية العنصرية تنشأ من اللامساواة الأولية بين الرجال والنساء، فإن الإضراب في سرير الزوجية سيسدد ضربة ليس فقط إلى التعالى الجنسي، وإنما كذلك إلى نواتجة الثانوية من مجتمع طبقي وعنصرية.

بالطبقة المتوسطة، ومن أجلها.

كانت الحركة النسائية الأمريكية مكونة من بنات الطبقة المتوسطة في أغلبيتها الساحقة، ولاتزال. كذلك تصف جوفريمان، إحدى مؤسسات الحركة، تكوينها في بداياتها الأولى «نساء من بنات الطبقة المتوسطة البيض اللاتي تلقين تعليماً جامعياً، ويعملن كمهنيات». وبين عضوات أكبر منظمة نسائية، وهي «المنظمة الوطنية للنساء»، كانت ٦٦ في المائة حاصلات على شهادات جامعية في عام ١٩٧٤، و٣٠ في المائة حاصلات على شهادات علمية أعلى.(٢٦) ووجدت مارين لوكوود كاردن أن «٩٠ في المائة من عضوات جماعات الدفاع عن حقوق المرأة اللاتي استطلعت آرائهن يحملن شهادة بكالوريوس على الأقل وتحمل ثلثهن شهادة الدكتوراه في الفلسفة أو في الطب أو شهادات عليا في القانون».(٢٧)

وهو وضع تفصله هوة واسعة عن غالبية النساء. وقد تجلت هذه الهوة بين نصيرات النسوية أولئك وبين نساء الطبقة العاملة في محكمة العام الدولي للنساء التي نظمتها الأمم المتحدة في المكسيك عام ١٩٧٥. هنا التقى عالمان، نساء الطبقة المتوسطة من جهة بقيادة بيتي فريدان مؤسسة المنظمة الوطنية للنساء (NOW) وواحدة من أولى الداعيات للحركة النسائية في أمريكا، ونساء الطبقة العاملة من جهة أخرى، وبينهن دوميتيلاباريو وهي زوجة عامل مناجم من بوليفيا وأم لسبعة أطفال، وقد ظلت تنظم زوجات عمال المناجم على مدى خمسة عشر عاماً في نضالات لمعاونة أزواجهن المضربين- ونذكر هنا واحداً من المؤشرات لظروف هؤلاء العمال، وهي أن معدل العمر المتوقع لهم كان ٣٥ عاماً فقط- وقد نظمت دوميتيلا باريو إضراباً طويلاً عن الطعام للنساء، وذهبت للسجن عدة مرات وأجهضت حملها في إحداها نتيجة لظروف الاحتجاز. وقد وجهت نقداً مريراً لنصيرات النسوية الثريات اللاتي جئن إلى المؤتمر، فقالت

لرئيسة الوفد المكسيكى:

«ياسيدتى، لقد عرفتك على مدى أسبوع، فى كل صباح تظهرين بثوب مختلف. كل يوم تظهرين متجملة ومصففة الشعر مثلما يفعل شخص لديه الوقت الذى ينفقه فى صالون تجميل ويستطيع أن ينفق مالاً على ذلك، أما أنا فلا. وأرى بعد ظهر كل يوم سائقاً فى سيارة ينتظرك عند مدخل هذا المكان ليأخذك إلى المنزل، أما أنا فلا. ولكى تظهرى هنا بهذا المظهر، فلابد وأنك تعيشين فى بيت أنيق حقاً، وفى زى وجيه، أليس كذلك؟ ولكننا نحن زوجات عمال المناجم لدينا منزل صغير وحسب يقرضونه لنا، وحين يموت أزواجنا أو يمرضون أو يفصلون من الشركة يكون أمامنا تسعون يوما لنغادر خلالها البيت ثم نصبح فى الشوارع. والآن ياسيدتى اخبرينى: هل يشْبه وضعك وضعى على الاطلاق؟ هل يشبه وضعى وضعك؟ فأى مساواة إذن سنتكلم عنها معا؟ اذا كنا أنا وأنت لسنا متماثلتين؟ إذا كنا على هذا القدر من الأختلاف؟»

وقالت أن المرأة الغنية عمياء عن ظروف النساء من بنات جنسها:

«إنهن لايستطعن رؤية معاناة ناسى، لايستطعن أن يرين كيف يمص عمالنا رئتيهم شيئا فشيئا فى برك من الدم، لم يرين كم يعانى أطفالنا سوء التغذية. وبالطبع فإنهن لم يعرفن، كما نعرف نحن، ماهو الاستيقاظ فى الرابعة صباحا والذهاب للنوم فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلا، فقط لنتمكن من إنهاء كل العمل المنزلى، بسبب الظروف البذيئة التى نعيش فيها.»

ولم تستطع دوميتيلا أن تفهم قول بيتى فريدان أن «الرجال يلعبون بها وبزميلاتها».

«لقد شعرت أنى غير فاهمة بعض الشئ. فى حجرات أخرى، وقفت بعض النساء وقلن: الرجال هم العدو... الرجال يوجدون الحروب، الرجال يوجدون الأسلحة النووية، الرجال يضربون النساء... فما هى المعركة الأولى التى يجب خوضها لتنال النساء حقوقا متساوية؟ يجب أولا إعلان الحرب على الرجال». (٢٨)

وعارضت كلا من الانحياز الذكرى (أوالماتشيزمو) والحركة النسوية:

«أعتقد أن الماتشزمو سلاح إمبريالى تماما مثل الحركة النسوية، وأعتقد أن المعركة الأساسية ليست بين الجنسين، وانما هى نضال الزوجين، وحين أقول الزوجين، أضم أيضا الأبناء والأطفال، الذين يجب أن ينضموا للنضال من أجل

التحرر من وضع طبقى. أعتقد أن ذلك أساسى الآن».(٢٩)

لقد أضعف النزوع الإنفصالى عند الحركة النسائية فرص انضمام نساء الطبقة العاملة إليها ، سواء فى الولايات المتحدة أو غيرها. وأصبحت هذه الانفصالية فى النهاية جزءا من دائرة شريرة، تقضى على الحركة النسائية بالانغلاق داخل جيتو من شابات الطبقة المتوسطة المتعلمات.

وقد أدى الوسط الذى وجدت نساء الطبقة المتوسطة البيض من النشيطات فى الحركات النسائية أنفسهن فيه، أدى بالكثيرات الى الإنزلاق الى العنصرية السافرة. وقد عبرت الكاتبة الأمريكية السوداء «بيل هوكس» عن غضبها فى كتابها «أولست امرأة ؟ النساء السود والحركة النسوية» فكتبت: «جميع الحركات النسائية فى أمريكا منذ أصولها الأولى وحتى اليوم ، بنيت على أساس عنصرى.... لقد هيمنت نساء الطبقة المتوسطة والعليا البيض على كل الحركات النسائية فى الولايات المتحدة»(٣٠).

وقد نددت الزعيمة السوداء أنجيلا ديفيز بسوزان براون ميلر فى قضية إيميت تيل الشهيرة عام ١٩٥٣، لأنها ساوت بين الصفير الذى كان يطلقه صبى أسود عمرة ١٤ عاما مقلدا صوت الذئب على امرأة بيضاء، وبين ماتلاه من إعدام البيض له دون محاكمة..

الـهروبية والانقسام

مع هزيمة الحركة السوداء والحركة الطلابية، اقتنعت النساء بأن تحقيق التقدم لايعتمد على السياسة ولا الأحزاب السياسية، وانما يكمن فى تطوير الملكات الانسانية أو «تحرير الشخصى» كما سبق أن قال النارودنيون الروس (٣٢) ولم يمض وقت طويل قبل أن تتحول حركة تحرير المرأة الأمريكية بأسرها الى مجموعة من الجماعات الصغيرة، تتكون كل منها من ثمانى نساء، يتحدثن فيها معا عن تجاربهن الشخصية ويناقشنها معا. وكتبت جوفريمان تقول أن تلك الجماعات «أصبحت آليات للتغيير الإجتماعى بذاتها ولذاتها. إنها بنى أوجدت خصيصا بغرض تغيير مفاهيم الأطراف المشتركة فيها وتصوراتها ولتغيير المجتمع ككل، والوسيلة التى يتم بها ذلك تسمى «رفع الوعى». (٣٣)

هذا الاتجاه لأن تصبح جماعات رفع الوعي» غاية في حد ذاتها، لم يكن الاتجاه الوحيد في حركة تحرير المرأة في سنواتها الأولى، كما انتهت إليه الحال. وقد نظّرت نساء كثيرات، وخاصة من نصيرات الحركة النسوية الاشتراكيات في بريطانيا، لأهمية رفع الوعي، لا لأنه يحسن حياة النساء ولكن لأنه يمنح النساء الثقة بالنفس ليشاركن في النشاط السياسي. ولكنه للأسف لايفعل، فأنت لاتبني ثقتك بنفسك بأن تعزلها عن النضال الدائر في العالم من حولك، وحين تفعل ذلك فالعكس هو الذي يحدث: إذ لاتواتيك الفرصة أبدا لتطور المهارات والأفكار الجدالية اللازمة للنشاط السياسي. وكما بينت التجربة، تزايد نزوع النساء للتعلق بجماعاتهن الصغيرة، ومع انهيارها كن ينسجن تماما.

وبطريقة لاتخلو من غرابة، لايتحدى «رفع الوعي» الأفكار السائدة القائلة بأن الأسرة والعلاقات الشخصية منفصله عن المجتمع ككل، تحكمها قوانينها الخاصة. فهو في نهاية المطاف يريد أن يغير أفكار الأفراد المعنيين، استنادا إلى الاعتقاد بأن «الأفكار الصحيحة» ستمكنهم من أن يغيروا علاقاتهم الشخصية والجنسية والأسرية، ومنطق هذا التفكير هو أن العلاقات الشخصية تصوغها فقط الأفكار التي نحملها في رؤوسنا. وسوف نبين في موضع لاحق أن العلاقات الشخصية تنشأ عن مجمل العلاقات في المجتمع المحيط بنا وأن هذه العلاقات هي التي تصوغها، ويستحيل في النهاية تغييرها بمعزل عن هذا الواقع، ولكن دعونا أولا نرى الى أين قاد «رفع الوعي» الحركة النسائية.

في البداية تزايدت أعداد جماعات رفع الوعي النسائية بسرعة كبيرة، ولكنها لم تعمر طويلا، وقد كتبت جو فريمان تقول أنها «تتشكل وتنحل بسرعة لاتمكن أحدا من تتبع المعلومات الخاصة بها». (٣٤) وقد تحلل الكثير منها خلال بضعة أسابيع أو أشهر، واستمر البعض عامين أو أكثر، ولكن المتوسط المعتاد كان تسعة أشهر.

«سواء أغيرت المشاركات أفكارهن كثيرا أوقليلا نتيجة مشاركتهن، فإنهن جميعا يصلن الى نقطة لايكون لدى جماعة رفع الوعي ذاتها الكثير لتضيفه عندها، لقد (أدت الغرض منها)، ويمثل أدراك العضوات لهذه الحقيقة المؤشر لبلوغ الجماعة المرحلة الثانية من تطورها، حيث يحاولن من جديد تحديد أهدافهن المشتركة.... ونادرا مايتفقن على مايردن عمله، وبالتالي فنادرا ماتستمر الجماعة لتستكمل هذه المرحلة الثانية بل تتحلل في الغالبية العظمى

من الحالات: الجميع ذهب لقضاء عطلة الصيف، وحين عدنا، لم يبد ممكنا أن نبدأ مرة أخرى».(٣٥)

ولم تستمر فى النشاط سوى حفنة ممن بدأن، ففى وقت يرجع إلى عام ١٩٧٣ كتبت مارين كاردن:« تقدر المشاركات ان مايتراوح بين ٥و١٥ فى المائة من عددهن الأصلى استمر فى حركة تحرير المرأة»(٣٦) ومن المرجح اليوم أن نسبة عضوات الجماعات النسائية الباقيات فى حركة تحرير المرأة من أوائل السبعينيات تقل عن واحد فى المائه.

وكان مصير الجماعات النسوية الاشتراكية أسوأ، وهى لم تكن كثيرة فى أى وقت، ولاقوية للغاية، ولامتميزة بوضوح عن الاتجاه النسوى الراديكالى. وتقول ليندا جوردون مؤلفة كتاب «جسد النساء، حق النساء» أنه «حوالى عام ١٩٧٤ كانت هناك محاولات كثيرة فى جميع البلاد... لانشاء منظمات تعرف نفسها صراحة بأنها نسوية اشتراكية، ولكنها فشلت جميعا، ولم تبق منها واحدة» (٣٧)

لم يكن بين هذه الجماعات تنسيق ، ولاهيكل يجمع بينها أو يقودها، كان هناك «افتقار مقصود للتركيب الهرمى» كما تقول جوفريمان، ومن ثم «تعذر توجية الحركة أو ضبطها أو حتى إحصاؤها». ومن هذا الوضع المشتت تنشأ النخب تلقائيا.

«.... أدينت النساء اللاتى حققن شهرة لأى سبب بوصهن «نخبويات».... لقد أوجدت أيدولوجية رفض الهياكل التنظيمية، نظام نجوم، وشجع رد الفعل ضده نفس اللامسئولية الفردية التى طالما ادانها ولاتملك الجماعات أى وسيلة لفرض المسئولية على النخب التى تسيطر عليها، بل انها لاتستطيع حتى أن تعترف بوجودها.»(٣٨)

وطبيعى أن يقود هذا الوضع الى المشاجرات والانشقاقات والطرد والتوتر بين الجميع، ففى وقت مبكر يرجع الى بداية عام ١٩٧٠ كتبت مارلين ديكسون، وهى إحدى مؤسسات حركة تحرير المرأة: «لم يؤد مرور الزمن إلا الى تسعير العداوة وسوء التفاهم، اللذان يعنيان أن النساء ينفقن من طاقتهن فى التعارك معا، أو مجرد مصارعة التعصب الذكرى قدرا أكبر مما يوفرنه لتنظيم الحركة». (٣٩) وتصوغ تى جريس أتكنسون ، إحدى مؤسسات الحركة، ذلك على النحو التالى: «إن الإخاء بين النساء بالغ القوة: فهو يقتل الشقيقات»(٤٠)

وكانت النتيجة النهائية لهذا التشرذم هي تكاثر «الاضطهادات»، فالنساء السود يتهمن عضوات الحركة البيض باضطهادهن استنادا للون، والمساحقات يتهمن المتعاملات مع الرجال باضطهادهن، وهلم جرا. لقد نتج ذلك في المقام الأول عن الاعتقاد بأن مصدر الاضطهاد هو مجموعة من الأفراد، هم الرجال. وحين بقى الشعور بالاضطهاد عند نساء الحركة، رغم انفصالهن الآن عن الرجال، بحثوا عن مجموعة أخرى من الأفراد ليلقوا باللوم عليها. وبهذه الطريقة فانك تنتهي بلوم أولئك الذين تتفق معهم، وتترك النظام الإجتماعي- وهو المصدر الحقيقي للأضطهاد- بلامساس.

من الصراعات الأشد مرارة داخل حركة تحرير المرأة الأمريكية، الصراع بين المساحقات السياسيات والنساء العاديات (في موقفهن الجنسي) وينبغي أن نميز بين المساحقة كتوجه شخص والمساحقة السياسية، وبينما يمثل تحدي الاضطهاد الواقع على المساحقات (كما في حالة المثلية الجنسية بين الرجال) أمرا أساسيا لتحرير النساء، فإن هذا لايعني أن العلاقات المساحقة تفضل العلاقات بين الجنسين، أو أنها وسيلة ضرورية لتحرير النساء، وقد تحولت الكثيرات في حركة تحرير المرأة الأمريكية الى المساحقة السياسية، فالمساحقة:

«تطورت الى نظرة الى العالم تقول بأن النساء يجب الا يختلطن أو يعشن أو يقرن أنفسهن إلا بالنساء، ومن هذه المقدمة كان من السهل المضي الى القول بأن المساحقة هي طليعة الدعوة النسوية، وأن المرأة التي تعاشر رجلا هي على وئام واضح مع العدو ومن ثم لايمكن الثقة بها.... » إن أولوية علاقات النساء بالنساء، وخلقهن وعيا جديدا ببعضهن البعض معا، هي التي تمثل قلب عملية تحرير المرأة، وأساس الثورة الثقافية»(٤١)

وتقول جيل جونسون في كتابها « أمة المساحقات: الحل النسائي »أن: «حصول المرأة على الاشباع الجنسي بصورة مستقلة عن الرجل هو الشرط الالزامي للثورة النسوية... وإلى أن تصبح جميع النساء مساحقات، لن تكون هناك ثورة سياسية حقيقية». (٤٢) وقد تمتع الاتجاه النسائي المساحق بجاذبية قوية، حيث بدا أنه يقدم وسيلة شخصية للأقدام على فعل في مواجهة اضطهاد الرجال، يحقق نتائج مباشرة. وفيما يتعلق بحركة تحرير المرأة عامة «كان من الأسهل ان تنفق الواحدة طاقتها على الصراع بين المساحقات والعاديات بطابعة الشخصي أساسا، عن أن تتعامل مع القضايا السياسيه الأشق»(٤٣)

ولكن كان لابد أن يدفع أحد ثمن الدعوة النسوية المساحقة، وتحدده لنا جوفريمان:

«أولئك النساء اللاتى بقين على علاقة بالجنس الآخر (جنسيا) دون أن تكون لهن أى ارتباطات سياسية أخرى مررن بأزمات شخصية عنيفة، تشمل نوبات الإنهيار العصبى، وانسحبن من الحركة النسائية تماما، إذ لم يكن بوسعهن تكوين جماعات نسائية أخرى أو الانضمام اليها ،لأن هويتهن كعضوات فى الحركة النسوية الراديكالية دمرت.»(٤٤)

ذبول الحركة النسائية

مع الضعف السياسى العام لليسار الأمريكى- حتى فى لحظة إزدهاره- وتزايد الركود الإقتصادى فى السبعينيات (وهو حقيقة لايملك إنكارها أحد)، تبين مقدار عجز حركة تحرير المرأة الأمريكية، وهى المكونة من جماعات ضئيلة مبعثرة، تمزقها المشاجرات بين الحين والآخر. والنساء اللاتى لم يردن الإكتفاء بتأمل وعيهن، بل شيئا من الفعل، توجهن الى منظمات حقوق المرأة الوقورة ، المحافظة، وأبرزها المنظمة الوطنية للنساء- ففى عام ١٩٧٥ كتبت جوفريمان « كانت المنظمة الوطنية للنساء معظم الوقت هى المنظمة النسائية الوحيدة المتاحة المعنية بالعمل، حتى وإن كانت صورتها محافظة شيئا ما ». ومنذ كتابة هذه الكلمات، تسارع انهيار حركة تحرير المرأة الأمريكية، وأصبحت المنظمة الوطنية للنساء المنظمة النسائية الوحيدة فى الساحة فعليا. وقد زادت عضويتها من ألف عام ١٩٦٧ الى ٤٠ ألفا عام ١٩٧٤ ثم إلى ٦٠ ألفا عام ١٩٧٩ ثم ١٣٥ ألفا فى نهاية عام ١٩٨٠. (٤٦) ولقد كان انتقال النساء إليها جزءا من الانتقال العام فى اتجاه اليمين، الذى دعمه الكساد الاقتصادى.

وأسلوب المنظمة الوطنية للنساء فى العمل أسلوب تقليدى للغاية، فهى تميل إلى الحزب الديمقراطى، وتشجع النساء على الاعتماد على المحاكم والكونجرس فى تحقيق إصلاحات، وتعمل على إيجاد مجموعات ضغط لصالحها فى مجلس النواب والشيوخ، وذلك هو نشاطها الرئيسى وقد انخرطت عضواتها الأشد نمطية فى حملة من أجل السماح للنساء بالعمل قساوسة فى الكنائس، وخلال ثلاثة أعوام «شغلت أربعين امرأة وأكثر منصب الأسقف» وقد حضرت أحد مؤتمراتها

فى نوفمبر ١٩٧٧ - ١٥٠ ألف امرأة، بينهن ثلاث من «السيدات الأول»!

اثبتت المنظمة الوطنية للنساء عدم فعاليتها ، ليس فقط فى تحسين ظروف النساء، بل وحتى فى إيقاف الهجوم على حقوق النساء فى السنوات الأخيرة، وخاصة منذ أصبح ريجان رئيسا. ففشلت حملتها للتعديل الدستورى من أجل مساواة الحقوق فى عام ١٩٨٢، وهى الحملة التى أعلنت أولويتها وخاضت معركتها على حساب كل القضايا النسائية الأخرى، لأنها لم تحظ بموافقة عدد كاف من الولايات على التصديق على التعديل.

كذلك تعرضت حقوق الإجهاض لردة أيضا. ففى عام ١٩٧٣ كان قد أصبح مشروعا، ولكن فى عام ١٩٧٦ أوقف التشريع إنفاق الحكومة الفيدرالية على إجهاض النساء الفقيرات مالم تكن حياتهن معرضة للخطر. وانقسمت الحركة النسائية ازاء هذا الحدث: «...فنساء الطبقة المتوسطة لم يبادرن الى مساعدة أخواتهن الفقيرات... كان كل مايعنيهن هو أن الاجهاض ممكن طالما توفرت النقود، وكانت معظمهن تملكها». ووقع ارتباك آخر نتيجة حملة ذات طابع أخلاقى شنتها المناهضات للعنصرية فى حركة تحرير المرأة، ضد تنظيم النسل الاجبارى للنساء السود. من هذه الزاوية بدا الاجهاض طريقة فى تحديد النسل أكثر منه حقا للمرأة، شيئا يستحق المعارضة لا المطالبة به، وبذلك أصبح مطلب حق الاجهاض يبدو موضوعا يخص النساء «البيض» (أى الموسرات).

وبالطبع فقد كان المخرج من كل هذا التخبط هو الدعوة لحق المرأة فى الاختيار، حق اختيار الإجهاض أوعدم الاجهاض. ولكن حركة تحرير المرأة فى ذلك الوقت كانت قد مضت بعيدا فى تشرذمها وفى العمل بنظرة أخلاقية ضيقة، مما جعل «حق المرأة فى الأختيار» شعارا أجوف وحسب، وسقطت محاولات تعبئة حملة دفاعا عن حق الإجهاض فريسة هذا الوضع. وفى صيف عام ١٩٨١ أقرت لجنه من الكونجرس الأمريكى قانونا يجعل الاجهاض (وحتى بعض أشكال منع الحمل) فى حكم القتل(٤٩).

وفى عام ١٩٨١ نشطت المنظمة الوطنية للنساء فى حملة من أجل تعيين ساندرا داى أوكونور بالمحكمة العليا، رغم مناهضتها لحق الإجهاض وتأييدها لعقوبة الإعدام (٥٠)

وقد ظهر تحول المنظمة الى اليمين فى أجلى صوره فى كتاب من تأليف مؤسستها بيتى فريدان بعنوان «المرحلة الثانية». ومن بين مادافعت عنه فى هذا

الكتاب، إقامة تحالفات مع «فتيات الكشافة ورابطة الشابات والنوادى النسائية وجمعيات الاخوات فى الدين، كاثوليكية وبروتستانتية ويهودية». (٥١) وحين زارت أكاديمية «وست بوينت» العسكرية ذابت شاعرية لدى رؤية النساء يتدربن ليصبحن ضابطات فى الجيش الأمريكى، فقد جعلها ذلك تشعر بأنها «أكثر أمنا على نحو ما، لأن تلك الأسلحة النووية الجبارة القادرة على تدمير العالم... ستكون من الآن فصاعدا بين أيدى نساء ورجال يشقون الطريق- بمعاناتهم- نحو قوة جديدة»(٥٢)

وفى ميدان الأجور أيضا تعرضت النساء لنكسة، ففى عام ١٩٥٥ كان متوسط أجر العاملات لأسبوع عمل كامل يعادل ٦٤ فى المائة من أجر نظرائهن من الرجال، وفى عام ١٩٧٠ إنخفضت النسبة الى ٥٩ فى المائة وفى عام ١٩٧٦ إنخفضت الى ٥٧ فى المائة.

وقد تمكنت بعض الجماعات النسوية الراديكالية من الاستمرار عبر تكريس نفسها لتقديم خدمات خاصة مثل المراكز النسائية لتقديم العون لضحايا الاغتصاب ، والعناية بأمراض النساء، والاستشاره النفسية أو العناية بالطفل.

كذلك استطاعت الدعوة النسائية أن تحتل وضعاً راسخاً فى النشر، وكانت «إم. إس» هى أكثر دورياتها حداثة ومدعاة للإحترام، وقد بدأت شهرية فى يوليو عام ١٩٧٢ وبعد عام بلغ توزيعها ٣٥٠ ألف نسخة. وهناك بضع دور نشر نسائية وعدد من المكتبات النسائية فى الولايات المتحدة، وقد ركزت هذه الدور على نشر الروايات التى تسهم فى الإنشغال بالتجربة الفردية والعلاقات الشخصية.(٥٣)

وأصبحت الدراسات النسائية موضع الإحترام، وتفيد مؤسسة دوكارد أنه عند بداية عام ١٩٧٤ ، كانت برامج الدراسات النسائية تدرس فى ٧٨ مؤسسة، وكذلك ألفى مقرر فى خمسمائة كلية جامعية، «إن كل كلية وجامعة تقدم الآن مقررات فى الدراسات النسائية».(٥٣)

وبذلك انفتحت أبواب للنجاح أمام المؤلفات والمحاضرات، وهو ماتشكت منه كاثى ساراشيلد، وهى إحدى رائدات حركة تحرير المرأة،: «ما إن تحقق واحدة قدراً ضيئلاً من النجاح، حتى تنكب على عملها الخاص لتكون كاتبة نسوية فتعمل بتلك الطريقة البعيدة جداً عن المباشرة، بدلاً من أن تحافظ على صلتها بالمجموع».(٥٥)

ومن ذلك نستطيع أن نرى تناقضاً حاداً بين «نجاح» بعض النساء فى الحركة فى شق طريقهن الخاص، وفشل الحركة ذاتها فى تحسين وضع جمهرة النساء العاملات. ويتشابة مصير عضوات حركة تحرير المرأة فى الولايات المتحدة النشيطات سابقاً مع المصير الذى انتهى إليه معظم النارودنيين فى روسيا، فهؤلاء الذين أتوا من أسر ميسورة، بعد فترة من «الذهاب إلى الشعب» عادوا «ليستقروا فى النشاط البحثى والأدبى، بل وفى الأعمال التجارية فى غالبية الأحيان». (٥٦)

ولكن يجب ألا يأخذنا التشبيه بعيداً فلقد واجه النارودنيك المشانق والسجن والنفى فى سيبيريا، بينما أنفقت عضوات حركة تحرير المرأة معظم وقتهن فى «رفع الوعى».

هوامش الفصل العاشر

١- س. إيفانز، «السياسة الشخصية: أصول حركة تحرير المرأة فى حركة الحقوق المدنية واليسار الجديد» (نيويورك ١٩٨٠).

٢- إيفانز، ص ٤١

٣- إيفانز، ص ٣٥.

٤- إيفانز، ص ٨١.

٥- إيفانز، ص ٨٢.

٦- إيفانز، ص ٩٧.

٧- إيفانز، ص ١٠٦.

٨- إيفانز، ص ١٠٥.

٩- إيفانز، ص ١٣٢.

١٠- إيفانز، ص ١٣٢.

١١- إيفانز، ص ١٤١.

١٢- إيفانز، ص ١٤١.

١٣- س. بروان ميلر «ضد إرادتنا: الرجال، والنساء والاغتصاب» (نيويورك ١٩٧٥) ص ٨٠- ٨١.

١٤- س. كليفر «روح فى التخزين» (نيويورك ١٩٦٨) ص ١١- ١٤.

١٥- ج. فريمان «سياسات تحرير المرأة» (نيويورك ١٩٧٥) ص ٦٠.

١٦- إيفانز، ص ١٧٠.

١٧- إيفانز، ص ١٧٩.

١٨- إيفانز، ص ١٧٥.

١٩- إيفانز، ص ١٩٨.

٢٠- س. فايرستون «جدليات الجنس» (نيويورك ١٩٧٠).

٢١- فريمان، ص ٥٩- ٦٠.

٢٢- فريمان، ص ٦٠- ٦١.

٢٣- حالياً (١٩٨٣) هناك أكثر من مائتى عمدة أسود فى مدن الولايات المتحدة، منها ١٨ مدينة رئيسية (شيكاجو وديترويت ولوس أنجلوس ونيو أورليانز وأتلانتا وواشنطن العاصمة). فى الوقت نفسه ٤٥.٧ فى المائة من الشباب السود عاطلون عن العمل وكذلك ١٩ فى المائة من البالغين السود (أكثر من ضعف المعدل وسط العاطلين البيض). وتعلق «الإيكونوميست».... أصبح المتشددون وقورون مع التقدم فى السن، وتكريمهم فى الدوائر الجامعية، وحصولهم على الهبات من مؤسسات ليقوموا بأبحاث، وقد أقيمت آلاف المشروعات من أجل تقدم السود بتمويل من الحكومة الفيدرالية، أو حكومة الولاية، أو الحكم المحلى، وأيضاً من المؤسسات الخيرية والخاصة» (الإيكونوميست، ١٥ مايو ١٩٨٢)

٢٤- ج. ميتشيل «وضع المرأة» (لندن ١٩٧١) ص ٥١، ٦٣-٦٤-، ٧٣-٧٤، ١٨٢.

٢٥- فايرستون، ص ٥١-١٧، ٢٠-٢١، ١٠٥.-٢٦- فايرستون، ص ٩١-٩٢.

٢٧- م. ل. جاردن «الحركة النسائية الجديدة» (نيويورك ١٩٧٤) ص ١٩.

٢٨- دوميـــيــلا باريو، «دعــونى أتكلم!» (لندن ١٩٧٨) ص ١٩٨-١٩٩، ٢٠٢-٢٠٣.-٢٩- باريو، ص ٢٠٣و٢٣٤.

٣٠- ب. هوكس «أولست امرأة؟ النساء السود والحركة النسوية» (لندن ١٩٨١)، ص ١٢٤و١٨٨.

٣١- أ. ديفيز «النساء، والعنصر، والطبقة» (لندن ١٩٦٠) ص ٣٢٧.

٣٢- انظر ف. فنتورى، «جذور الثورة» (لندن ١٩٦٠) ص ٣٢٧

٣٣- فريمان، ص ١١٧-١١٨.-٣٤- فريمان، ص ١٠٣-١٠٤.

٣٥- جاردن، ص ٧١-٧٢.-٣٦- جاردن، ص ٧٣.

٣٧- «الضلع الزائد» (أكـــتـــوبر ١٩٧٨).-٣٨- فـــريمان، ص ١٢١-١٢٢.

٣٩- م. ديكسـون «حول تحرير النسـاء» من «أمريكا الراديكالية» (فبراير ١٩٧٠).

٤٠- «الضلع الزائد» عدد ٧].-٤١- فريمان، ص ١٣٦-١٣٧.

٤٢- م. إيفانز (إعداد) «قضية المرأة» (لندن ١٩٨٢) ص ٥٠-٥١.

٤٣- فريمان، ص ١٣٦-١٣٧.-٤٤- فريمان،ص ١٣٩.

٤٥- فـريمان، ص ٩٢.-٤٦- ب. فـريدان «المرحلة الثانية» (لندن ١٩٨٢) ص ٢٣٨.

٤٧- ب. دوكـارد «الحـركـة النسـائيـة» (نيـويورك ١٩٧٩) ص ٣٦٤-٣٧٤، ٣٩٥-٤٠٧.

٤٨- دوكـارد، ص ٢٨٣-٢٨٥.-٤٩- ديان سانت كلير «اليمين الجديد: انعطاف فى الاتجاه الخطأ فى الولايات المتحدة» من «الضلع الزائد» (سبتمبر ١٩٨١).

٥٠- ب. وينسلو، «لماذا خســرت إى آر. إيه.» من «العـامل الاشتراكى» الأمريكية (يوليو ١٩٨٢).-٥١- فريدان، ص ٢٣٨.-٥٢- فريدان، ص ٢٠٤.

٥٣- دوكـــارد، ص ٣٨٨-٣٩٠.-٥٤- دوكـــارد، ص ٣٨٥.-٥٥- «الضلع الزائد» (فبراير ١٩٧٩).

٥٦- فنتورى، ص ٢٥٣.

الفصل الحادى عشر:

الحركة النسائية في بريطانيا

تستحق المقارنة بين الظروف الإجتماعية والسياسية التى مثلت الخلفية التى نمت فى ظلها كل من الحركة النسائية البريطانية والأمريكية وقفة، فلقد كان لهذه الظروف أثرها على صوغ أوجه الإختلاف والشبه بين الحركتين ويصدق ذلك بصفة خاصة على مايتعلق بنساء الطبقة العاملة..

في بريطانيا تتمتع النقابات بقوة أكبر بكثير من نظيرتها الأمريكية، فهى تضم أكثر من نصف السكان حسب إحصاء عام ١٩٧٨ (٥٥ فى المائة)(١)، بينما ينضم عامل فقط من كل خمسة إلى النقابة فى الولايات المتحدة (١٩ فى المائة). ويصدق هذا الفارق بقدر أكبر على العاملات، حيث تبلغ نسبة المنظمات فى نقابات ٣٦٫٧ فى المائة فى بريطانيا (١٩٧٤) مقابل ١١٫٦ فى

المائة فقط فى الولايات المتحدة (١٩٧٨) والفوارق أكبر بين الولايات المتحدة وبريطانيا فى ميدان السياسة، ففى بريطانيا يوجد حزب عمالى يتمتع بقوة انتخابية كبيرة فى صفوف الطبقة العاملة، بينما لايوجد فى الولايات المتحدة سوى أحزاب برجوازية ديمقراطية صريحة. كذلك فإن الأحزاب الاشتراكية الثورية أقوى فى بريطانيا، ولها تأثير أكبر وسط الطبقة العاملة.

ورغم أن الحركة النسائية والحركة النقابية لم تندمجا فى أى وقت فى بريطانيا، فقد قامتا ببضع أعمال مشتركة تجدر الإشارة إليها.

النضال من أجل مساواة الأجر

مثلت مساواة الأجر قضية مهمة فى الستينيات وتفيد دراسة أجراها مؤتمر النقابات أنه فى عام ١٩٦٢ كانت هناك ١٩ نقابة تمثل ٢٠٠ ألف امرأة مبرمة عقودا بأجر متساو مع أصحاب العمل، وثلاثون نقابة بدون عقود من هذا النوع.

وكانت نقابات كثيرة تضغط لا من أجل الأجر المتساوى فحسب، بل وكذلك إجازة الوضع ومساواة شروط العمل وظروفه واتخذ مؤتمر النقابات قرارا فى عام ١٩٦٣ يدعو الحكومة العمالية التالية- التى تولت الحكم بالفعل فى العام التالى- إلى فرض مساواة الأجر بالقانون. وأتبعته اللجنة النسائية الاستشارية لمؤتمر النقابات «بميثاق صناعى للنساء»، يطالب بمساواة الأجر، ومساواة فرص التدريب، وتسهيلات لإعادة تدريب العاملات العائدات للعمل، وتضمن بنودا خاصة بالصحة والخدمة الإجتماعية للنساء العاملات، غير أن النتائج المباشرة للميثاق كانت قليلة.

ولكن عندما قاربت الستينيات على نهايتها أصبح هناك نضال عام من أجل زيادة الأجور من خلال الحركة النقابية، وصار النضال من أجل مساواة الأجور جزءا منه.

وقد وقع إضراب هام عام ١٩٦٨ للعاملات على ماكينات الخياطة فى مصنع فورد فى دجنهام تبعته عاملات الشركة فى مصنع هيلوود فى ميرسايد، وقد

نظمت العاملات بأنفسهن لجنتهن الاضرابية وأوقفن مصانع فورد، وقد حقق انتصارهن زيادة الأجور حتى بلغت ٩٢ في المائة من أجور الرجال، وإن لم يفلح في رفع مرتبتهن من مستوى «غير المهرة».

ألهم إضراب النساء في مصانع فورد كثيرا من العاملات ونشأت عنه «حملة العمل القومي المشترك من أجل مساواة حقوق النساء»، التي تبنت ميثاقا من خمس نقاط، ودعت مؤتمر النقابات إلى تنظيم حملة من أجل مساواة الأجور والفرص (٢) وفي مايو عام ١٩٦٩ نظمت الحملة مظاهرة من أجل مساواة الأجور ساندتها النقابيات من جميع أنحاء البلاد.

وبدأت النقابات تعد بأنها ستناضل من أجل مساواة الأجور خلال حملاتها لتجنيد الأعضاء، فتدفقت النساء على النقابات للإنضمام إليها، وخلال عشر سنوات من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٨ تضاعفت العضوية النسائية في نقابة الموظفين العامين ثلاث مرات، وفي نقابة موظفي الحكومة المحليين إلى أكثر من ضعفين، وفي نقابة العاملين في الخدمات الصحية إلى أربعة أضعاف، وفي نقابة العمال ذوي الياقات البيضاء إلى سبعة أضعاف. (٣)

كانت سنوات ١٩٧٠- ١٩٧٤ سنوات نضال جماهيري واسع للطبقة العاملة، شمل إضرابين لعمال المناجم على المستوى القومي، وإضرابا لعمال أحواض السفن عقب القبض على خمسة عمال أثناء تحريضهم العمال على الإضراب، وقد أطلق عليهم «خمسة البنتونفيل»، وكذلك مائتي عملية احتلال للمصانع. كما شهدت هذه السنوات مجموعة من الإضرابات النسائية التي تبعث على الإعجاب، ففي عام ١٩٧٠ ناضلت عاملات النظافة الليلية في لندن من أجل اعتراف النقابات بهن، وفي نفس العام أضرب ٢٠ ألف عامل (٨٥ في المائة منهم نساء) في مصانع ليدز للملابس وقام المحرضون المتنقلون بإغلاق المصانع البعيدة في يوركشير، كما أضرب عشرات الآلاف من المعلمين، وثلاثة أرباعهم من النساء من أجل زيادة الأجور لأول مرة منذ نصف قرن. وشهد عام ١٩٧١ نزاعا لعاملات التليفون في لندن، وإضرابا لعاملات مصنع صغير للترمومترات في كمبرلاند دفاعا عن منظمتهن النقابية، وفي عام ١٩٧٢ إنضمت النساء لعمليات إحتلال مصنعي «فيشر- بندكس» في ميرسايد وبريانت للطباعة الملونة في لندن، وفي نفس العام نجح إضراب للعاملات في مصنع جودمانز، وهو جزء من مجموعة ثورن للصناعات الكهربية، في تحقيق مساواة الأجر.

وفى عام ١٩٧٣ أضرب مئات الآلاف من عمال المستشفيات (ومعظهم من النساء) لأول مرة على النطاق القومي. وفى نفس العام أضربت مائتا عاملة فى (جى إى.سى) بكوفنترى لثمانية أسابيع من أجل رفع أجر العمل بالقطعة، وأضربت العاملات الآسيويات فى مصانع مانسفيلد هوسييرى احتجاجا على التمييز العنصرى، كما نظمت نقابة موظفى الحكومة المحليين إضرابا على النطاق القومى، ومعظمهم من النساء، ووقعت إضرابات نسائية أخرى كثيرة فى تلك الفترة التى تميزت بالنهوض الجماهيرى.

وبالتوازى مع هذه الحركة الإضرابية، حدث تقدم فى الحركة النسائية، وتكاثرت الجماعات التى كانت قد بدأت تظهر فى عام ١٩٦٩. أولى هذه الجماعات كانت «ورشة تحرير النساء فى لندن» التى تبعت النموذج الأمريكى فى العمل كشبكة لجماعات صغيرة تقدم خدمات خاصة بالمعلومات وقد قررت أن:

«الرجال يقودون ويسيطرون والنساء تتبع وتخضع. إننا نغلق إجتماعاتنا فى وجه الرجال لكى نرسى هذا النموذج، لنقيم جماعتنا الخاصة التى لاقيادة لها ولنلتقى معا حول خبرتنا المشتركة كنساء... لهذا السبب تتكون الوحدات الأساسية لحركتنا من مجموعات صغيرة بما يكفى لكى يشارك الجميع فى النقاش واتخاذ القرارات.. ولكى نوسع دورنا فى النضال من أجل التغيير الإجتماعى وتحويل المجتمع» (٤)

وأصدرت جماعة من نوع مختلف مجلة تحرير المرأة «السليطة» بصفة شهرية.

وبعد بضعة أشهر، فى فبراير عام ١٩٧٠، عقد أول مؤتمر قومى لتحرير المرأة فى كلية رسكين بجامعة أوكسفورد، وحضرته نحوّ ستمائة أمرأة، معظمهن من جماعات تحرير المرأة الجديدة، والبعض من «حملة العمل القومى المشترك من أجل مساواة حقوق النساء» والبعض الآخر من جماعات ماوية وتروتسكية.(٥) وتبنى المؤتمر شكلا تنظيميا يقوم على الجماعات النسائية الصغيرة حسب مواقعها المحلية، والعلاقة بينها فضفاضة يتم تنسيقها فى مؤتمرات عامة تبعث إليها كل مجموعة بمندوبتين كما أنشأ المؤتمر «لجنة تنسيق نسائية قومية».

وفى نوفمبر عام ١٩٧٠ أقتحمت نحو مائة من عضوات الحركة النسوية

مسابقة ملكة جمال العالم وأوقعنها فى الفوضى.

وفى ٦ مارس عام ١٩٧١ جرى الاحتفال بيوم المرأة العالمى لأول مرة فى لندن وليفربول، وقد حملت المتظاهرات فى راياتهن أربعة مطالب أساسية (وضعتها لجنة التنسيق النسائية): الأجر المتساوى الآن، والمساواة فى فرص التعليم والعمل، وتوفير موانع الحمل والاجهاض مجانا عند الطلب، وحضانات مجانية تعمل ٢٤ ساعة. (٦) وقد حددت هذه المطالب الأربعة بوضوح طبيعة هدف الحركة النسائية من حيث هو محاولة لإحداث تغييرات فى العالم الواقعى، وكانت مطالب سياسية من حيث هى مطالب موجهة للدولة، كما أنها كانت ملائمة تماما لحاجات نساء الطبقة العاملة.

بعيدا عن الحركة العمالية

مما يؤسف له أن عددا من العوامل دفع بالحركة النسائية الناهضة بعيدا عن الطبقة العاملة، وأولها تكوينها الطبقى إذ كانت عضواتها من الطبقة المتوسطة، وقد حددت شيلا روبوتام هذا التكوين الإجتماعى فى عام ١٩٧٩: «لقد عبأت حركة تحرير المرأة أساسا نساء من شرائح اجتماعية خاصة، المعلمات والعاملات فى الخدمة الإجتماعية وأمينات المكتبات والصحفيات أو المشتغلات بالأعمال الكتابية، وكذلك النساء اللاتى يشتغلن فى الأسرة». (٧)

ويحتاج هذا إلى مزيد من التحديد: فليس كل المشتغلات بالأعمال الكتابية وإنما فقط الشرائح العليا فيهن، وليس كل ربات البيوت، وإنما فقط أولئك اللاتى يتيح وضعهن إمكانية أن ينشغلن بتغيير نمط حياتهن، وقد لاحظت شيلا روبوتام هذه الظاهرة: «إن المشتغلات بالسياسة النسائية يمكن أن ينشغلن بأن يعشن حياة حرة أكثر من الانشغال بالتطور إلى حركة من أجل تحرير النساء»(٨) وعلقت إحدى عضوات الحركة النسائية التى كانت تعمل فى مصنع مع نساء أخريات: «إن التجريب فى العلاقات الأكثر «انفتاحا»، أو حتى العيش بصورة جماعية يستهلك كثيرا من الوقت والنقاش، وهما ببساطة ليسا فى متناول العاملات فى المصانع... والحياة الغريبة التى يحياها آخرون ليست

ممكنة لديهن.

«كان البيت والزواج هما الأمر الأهم لدى النساء العاملات على خط الإنتاج.. فبداية، أنت متعب للغاية بالعمل ووقتك محدود للغاية بحيث تحتاج إلى روتين مستقر ونظام عائلى يعتمد علية....»(٩)

وبالطبع يمكن للمرء أن يرد، ويجب أن يرد الاشتراكيون بالقول بأن القيم التى تتبناها تلك العاملات- وتنطوى على قبول بالصورة التقليدية للبيت والأسرة- هى القيم الخاطئة ومع ذلك يبقى واضحا أن نساء الطبقة العاملة لايستطعن التواؤم مع الحركة النسوية، فليس لديهن وقت «لرفع الوعى».

«كان الاسترخاء الوحيد الذى تعرفة معظمهن هو مشاهدة التليفزيون وقضاء سهرة بالخارج ليلة السبت. ومن لديهن أطفال ينهضن مابين الخامسة والسادسة صباحا ويتوجهن للنوم فى التاسعة والنصف مساء، ويعد مابعد العاشرة موعدا متأخرا، وأحيانا ماتنتهى الليلة مبكرا بالنوم فى السابعة أو الثامنة مساء»(١٠)

ويتضح مدى إحساس نساء الطبقة العاملة بالغربة وسط حركة تحرير المرأة فى رسالة بعثت بها إحداهن، «مارجريت كينج» إلى مجلة «الضلع الزائد» بعنوان «عجرفة ثقافية».

«أوافق تماما على ماجاء فى الرسالة التى تحدثت عن عجرفة المثقفين التى تبديها كثير من نساء الحركة... ولن أنضم لجماعات تحرير المرأة بعد ذلك لهذا السبب... آخر مرة ذهبت فيها إلى جماعة رفع الوعى كنت المرأة الوحيدة بينهن التى بدأت العمل بعد المدرسة مباشرة ولم تكمل تعليمها، وقد جعلنى ذلك أشعر بالدونية، وهو ماجعلنى فى وضع الدفاع، الأمر الذى يجب أن تكون النساء أقدر الناس على فهمه ونتيجه رد الفعل هذا من جانبى اقترحت إحدى العضوات أن انضم لمجموعة علاج نفسى جماعى! وقد غادرت الإجتماع وأنا أشعر باكتئاب حقيقى، وقررت الأ أعرض نفسى ثانية لتجربة كهذه مع من يدعين أخوات».(١١)

ويمكن قياس إبتعاد الحركة النسائية عن الطبقة العاملة من التغيرات فى برنامج مطالبها فكما سبق ورأينا كانت المطالب الأصلية فى عام ١٩٧١ (مساواة الأجر الآن، مساواة فرص التعليم والعمل، موانع الحمل والإجهاض مجانا عند الطلب، حضانات مجانية تعمل ٢٤ ساعة) تلائم حاجات نساء الطبقة العاملة،

وفى عام ١٩٧٥ أضيف مطلبان جديدان «الاستقلال المالى والقانونى» و«إنهاء جميع أشكال التمييز ضد الساحقات وحق المرأة فى أن تحدد ميلها الجنسى».
وفى آخر مؤتمر نسائى على النطاق القومى فى عام ١٩٧٨ أضيف المطلب التالى: «التحرر من التخويف بالتهديد أو باستخدام العنف أو القسر الجنسى، بغض النظر عن الحالة القانونية الزوجية وإنهاء العمل بجميع القوانين والافتراضات والمؤسسات التى تؤيد سيادة الرجال وعدوانهم على النساء».
كانت المطالب الأربعة الأصلية واضحة، وتهدف لإحداث تغيير فى العالم الواقعى وموجهة إلى الدولة، أما المطالب التى أضيفت فقد دخلت حيز «المواقف» و«الافتراضات» أو بتعبير آخر السياسة الشخصية.

كان عام ١٩٧٤ عام ذروة للنضال الطبقى فى بريطانيا لعمال المناجم ففيه أجبر إضراب شامل حكومة المحافظين على الدعوة لانتخابات عامة جديدة، وخسرتها وسرعان ماقامت حكومة جزب العمال الجديدة، بالتعاون مع القيادات النقابية بتثبيط الحركة العمالية بما فى ذلك كفاحية العاملات فى المطالبة بمساواة الأجور وفرص العمل. إلا أن مجئ حكومة لحزب العمال لم يخفف من الأزمة الإقتصادية المتفاقمة: فقد تضرر الأضعف أجرا من التضخم أكثر من الجميع (وهم عادة من النساء) ومع تزايد البطالة خرج من العمل الآف من عمال القطعة (وهم مرة أخرى من النساء عادة).

ولقد كان هذا الاتجاه العام إلى الهبوط هو الذى أخرج للعيان الضعف الكامن فى الحركة النسائية. وحتى عام ١٩٧٠ كان يمكن القول أن الحركة النسائية تضم ثلاثة اتجاهات، اتجاه متطرف هو الاتجاه النسوى الراديكالى الذى يمثل الرجال له «العدو»، وكان هذا هامشيا والخيار الواقعى الوحيد الذى بقى لعضواته هو الانسحاب وإقامة كوميونات لهن فى ويلز. وتطرف فى الاتجاه المضاد، حيث أولئك اللاتى عزمن على مراجعة بنى المجتمع الحالية لإفساح حيز للنساء، وهؤلاء هن الإصلاحيات والمهتمات بصنع نجاحهن الشخصى.

فى الوسط كانت نساء ممن سرن فى مظاهرات ضد حرب فيتنام ومن أجل حق الإجهاض، وربما ساندن إضراب عمال المناجم ضد حكومة المحافظين، واللاتى عارضن التمييز الذكرى فى العمل وفى وسائل الإعلام، ويمكن أن ندعو هؤلاء اتجاها «نسويا اشتراكيا» إذا استعملنا التعبير بمعنى فضفاض. كانت «المساواة» عند معظمهن مطلبا ثوريا- حتى وإن لم يرينه على هذا النحو طوال الوقت-

طالما أن النظام لم يكن يسعه تحقيق مثل هذه المساواة دون إجراء تغيير جذرى وأساسى.

تبدد الاتجاه «الاشتراكى» فى الحركة النسائية تدريجيا مع اضطراد الاتجاه للهبوط، وبقى لنا التطرفان. ودفع التراجع بالحركة النسائية بعيدا عن نضال النساء فى مواقع العمل ليستقر عند «السياسة الشخصية» أو «النساء ضد العنف». وتسارع هذا التراجع ذاته بفعل الإنقسامات داخل الحركة، والتى كانت تمثل بدورها إلى حد كبير استجابة للوضع متزايد السوء فى العالم الواقعى، ففى تلك الفترة الأخيرة فقط استطاعت «نظرية البطريركية»* التى ابتكرها الاتجاه النسوى الراديكالى، أن تزيح الأفكار الطبقية وكذلك «النضال النسوى» فى حزب العمال هو ظاهرة ترجع لتلك لفترة الأخيرة.

مابعد التشرذم

كما فى الولايات المتحدة، أدى غياب الهيكل التنظيمى فى حركة تحرير المرأة البريطانية إلى التعجيل بانحلالها، فبعد عامين ذهبت ثلاث من العضوات الموسسات فى «ورشة تحرير النساء فى لندن» إلى الهند ليجلس. عند قدمى ياجوان شرى راجنيش وعادت أربع أخريات إلى أمريكا. وتصف مجلة «الضلع الزائد» حالة الإنهيار المعنوى كمايلى:

«وهنت معنوياتنا، وعلى مدى أسابيع تحولت إلى أشهر، فقدت الإجتماعات انتظامها، حيث يأتى الناس متأخرون أولا يأتون بالمرة، وأصبح صعبا أكثر من أى وقت مضى أن نسترد الثقة المفقودة فى الجماعة، عبر تنظيم نشاط سياسى حى، إذ لم يكن حولنا أحد، والموجودون اعتراهم اليأس إزاء حالات الانسحاب الكثيرة...فى عام ١٩٧٣ أو ١٩٧٤ بدأنا نلتقى كل أسبوعين للعشاء فى بيت واحدة منا، كنا قد انتهينا كجماعة سياسية نشطة. كل ماكان بوسعنا تقديمة لبعضنا البعض هو شبكة من علاقات الود والمساندة المهمة لكل منا». (١٢)

وتروى لنا نفس القصة «لينى سيجال» إحدى مولفات «مابعد التشرذم»،

* الإشارة إلى مجتمع يتميز بسيطرة الرجال. المترجمة.

حول مركز «إسكس رود» النسائي في إيسلنجتون بشمال لندن، الذي افتتح في أغسطس عام ١٩٧٢. لم يتجه هذا المركز بالنظر إلى العاملات، وتعلق ليني سيجال على ذلك «لعل افتقارنا للهيكل التنظيمي أوجد صعوبة في أن تجد نساء الطبقة العاملة من خارج شبكات صداقاتنا طريقا للمشاركة معنا». (١٣) توجه المركز إلى النساء الهامشيات المضطهدات والمفتقرات للأمان: «السجينات والمشردات وصاحبات الدعاوى القضائية، الخ... ولكن البؤس لايعادل دائما الكفاحية، والمضطهدون أكثر من الجميع أحيانا مايكونون محطمين إلى حد يصعب معه عليهم أن يبدوا أي مقاومة على الأطلاق». (١٤) وعلى ذلك كانت النتيجة العملية لكل الجهد الذي بذل لاشئ. كان المركز يفتح أبوابة يومين مساء كل أسبوع، وكانت المترددات عليه يتوقفن عن المجئ بعد سنة تقريبا. (١٥)

لاتساعد الشبكة الفضفاضة من الجماعات الصغيرة على نقل الخبرة أو الاستمرارية، لذلك فحين كان ينبعث مركز جديد من بقايا القديم كان «يبدو وكأن كل شيئ يبدأ من الصفر ثانية، ولست واثقة من أن أحدا تعلم أي دروس» (١٦) كما تقول ليني سيجال.

وتستخلص سيجال استنتاجات أخرى من غياب الهيكل التنظيمي في الحركة النسائية، فبعد سنوات من كيل المديح «لديمقراطية المشاركة» كبديل للمراتبية الهرمية المفترضة في اللينينية «اتضح لي أنه أحيانا يكون من الأصعب مقاومة نزعة الزعامة داخل المجموعة الصغيرة، كما يزيد الميل للنظر إلى التفاعل بين عضواتها من منظور فردي وشخصي تماما، وليس كعملية تنتمي للسياسة». (١٧) وفي نفس الاتجاه تكتب شيلا روبوتام:

«إن مشاكل ديمقراطية المشاركة واضحة، فأنت إذا لم تتمكن من الحضور لايمكنك المشاركة، وأي شخص يحضر في المرة التالية يمكنه أن يقلب القرارات رأسا على عقب، وإذا حضر عدد قليل جدا يثقل بالمسؤليات، إنه وضع مفتوح للغاية ويوسع أي شخص عنده موهبة الابتزاز العاطفي أو قناعة بضرورة التدخل يمكنه أن يفعل مايريد دون أن يعيقة أي من الإجراءات المتفق عليها» (١٨)

وبهذا التكوين الطبقي من بنات الطبقة المتوسطة مع طريقة في التنظيم تفتقر للهيكل التنظيمي ومن ثم تفتح الطريق أمام ظهور الصفوة إعتباطا، صارت حركة تحرير المرأة جاهزة لنشاط مختلف المجموعات الحلقية لقد وصف

ماركس خصائص الحلقة عام ١٨٦٨ كالتالي: «ترى الحلقة مبرر وجودها، و«مناط شرفها» لا في المشترك بينها وبين الحركة الطبقية، بل في تلك الخزعبلات الخاصة التي تميزها عنها» (١٩) وأضاف على ذلك في عام ١٨٧١: «هناك دائما تناسب طردي بين تطور نظام الحلقات الاشتراكية وتطور الحركة العمالية الحقيقية»(٢٠)

لم يطل الوقت بلجنة التنسيق النسائية القومية، فانحلت عام ١٩٧١ لأن «إجتماعاتها تحولت إلى ساحة للمعارك بين الجماعات الحلقية». (٢١) وكان السماح باشتراك الرجال أول ضحايا المعركة، فبعد أن سمح بمشاركتهم في أول مؤتمرين قوميين لحركة تحرير المرأة، استبعدوا عقب مشاجرة بين امرأتين على الميكروفون اندفع فيها زوج إحداهما لعون امرأته. وكذلك استبعد الرجال من ورشة تحرير النساء في لندن.

فرق الصراع بين المساحقات والعاديات الحركة النسوية البريطانية، كما فعل في الحركة الأمريكية، ففي ابريل عام ١٩٧٤ أعلن المؤتمر الأول للاتجاه النسوى المساحق، وقوته ثلاثمائه، أن السياسة المساحقة محورية للحركة النسوية (٢٢) وفي سبتمبر عام ١٩٧٩ أصدرت جماعة ليدز النسوية الثورية بيانا بعنوان «المساحقة السياسية: الدعوى ضد العلاقة مع الجنس الآخر» وأعلنت فيه:

«نحن لانعتقد أن جميع نصيرات الحركة النسوية يمكن أن يكن مساحقات سياسيات أويجب أن يكن كذلك...إن الاختراق فعل له مغزى رمزى كبير، ففيه يدخل المضطهد جسد المضطهده، غير أنه ينطوى على ماهو أكثر من الرمز، فوظيفته وآثارة هي عقاب النساء والسيطرة عليهن... إن التخلي عن المضاجعة يعادل لعضوة الحركة النسوية أخذها السياسات التي تتبناها مأخذ الجد. إن النساء الاشتراكيات...ليقاومن شراء التفاح القادم من الكيب لأن أرباحه تذهب إلى جنوب أفريقيا، وواضح أن بعض عضوات الحركة النسوية يجدن صعوبة أكبر في التنازل عن الاختراق...»(٢٣)

ويقول بيان آخر لنفس المجموعة أن «الجنسية المخالفة»... أوجدها الرجال وأبقوها وفرضوها على النساء لأغراضهم هم. ومن بينها اضطهاد جميع النساء، في كل مكان، وأيما كانت أوصافهن»(٢٤)

وقد دفعت المساحقات السياسيات بكثير من ذوات الجنسية المخالفة خارج الحركة النسائية وتصف كوت وبياتريكس كامبل كيف شعرت كثير من

النسـاء:«أنهن لايستطعن المشاركة فى النشاط السياسى لحركة تحرير المرأة، بينما القضية الأساسية فيه هى ماإذا كان المرء مع الجنسية المخالفة أوضدها... وأصبحت المشاجرات بهذا الشأن جزءا من طقوس كل مؤتمر قومى للحركة، إلى أن عقد المؤتمر الأخير فى برمنجهام عام ١٩٧٨، فكان الانقسام مريرا وأليما إلى حد لم يعد معه أحد راغبا فى تنظيم تجمع آخر من هذا النوع»(٢٥)

من ضحايا هجوم الاتجاه النسوى المساحق، صحيفة «الضلع الزائد» وهى الصحفية الوحيدة التى كانت قد بقيت للحركة. (٢٦) كانت هذه الصحيفة فى بداياتها تخصص مساحات كبيرة للأخبار والتحقيقات المتعلقة بخبرات العملعند نساء الطبقة العاملة، ومنها مثلا تحقيق خاص على خمس صفحات مكون من شهادات العاملات المضربات بمصنع «سيل» فى هايوود، اللاتى أضربن أحد عشر أسبوعا فى شتاء عام ١٩٧٥ من أجل مساواة الأجر، وحمل الغلاف صورة واحدة من المحرضات على الإضراب. ولكن بعد عام ١٩٧٦ اختفت الموضوعات العمالية تماما، وبدلا من ذلك أخذت الصحيفة تعكس كل المشاكل الموجودة داخل حركة تحرير المرأة: أزدواج الحب والكراهية فى العلاقة مع الحركة العمالية التى يسودها الرجال، والبحث عن «نمط حياة نسائى» والعثور على خنادق لحركة تحرير المرأة داخل إطار النظام الاجتماعى والسياسى السائد.

فرق الإنقسام بين المساحقات والعاديات هيئة تحرير «الضلع الزائد» تماما، وتعترف إفتتاحية فى سبتمبر ١٩٨٠ بأنه «هناك صعوبة منذ فترة فى إنجاز العمل والتفاهم بروح أخوية و لخطورة الموضوع قررنا عقد مجموعة من الاجتماعات الخاصة تحت إشراف إستشارية متخصصة فى قيادة مجموعات نفسية، كى تساعدنا على حل مشاكلنا التنظيمية والشخصية». وفى خطاب استقالة من أماندا سباستيان، وهى واحدة من ست محررات استقلن من هيئة التحرير، تقول:«كنت أنا التى اقترحت استدعاء استشارية متخصصة، فقد إحتجت ستة أشهر من الغضب المسعور والتعاسة والضجر، كى أرى أننى أضيع وقتنا» (٢٧) وأصبحت الضلع الزائد، خاصة فى صفحات بريد القراء، ساحة معركة بين المساحقات وغير المساحقات فى الحركة النسوية (٢٨) وزاد الانقسام ضراوة فى الحركة فهاجمت النساء السود النساء البيض،وهاجمت العربيات اليهوديات وتجادلت الصحيفة شهورا حول عنصرية النساء البيض، ثم أخرجت

* الاشارة للميل الجنسى للجنس الآخر .المترجمة

«عددا» أسود ليعقبة شجار دام أربعة أشهر حول ماإذا كان هذا بديلا للعمل الحقيقى فى هذا الشأن.

من المجموعات الأخرى «حملة المطالبة بأجور لربات البيوت» وقد قرأت عنها سيلماجيمس كلمة فى المؤتمر النسائى القومى المتعقد فى مانشستر فى مارس ١٩٧٢ بعنوان «النساء والنقابات والعمل»، وفيها أعلنت أن المهمة الأساسية هى نضال نساء الطبقة العاملة ضد النقابة لأنها تماما كالأسرة، تحمى الطبقة على حسابها»(٢٩)

وطالبت سيلماجيمس بأن تستبدل بالمطالب الأربعة الأصلية للحركة ستة أخرى مختلفة يقول أول أثنين فيها:

١- «نحن نطالب بالحق فى أن نعمل أقل.

٢- نطالب بدخل مضمون للنساء والرجال، سواء كانوا يعملون أولا يعملون، متزوجون أو غير متزوجين... نحن نطالب بأجور لشغل البيت، فجميع من يعملون بالخدمة فى المنازل لهم الحق فى أجر (وكذلك الرجال منهم)»

وفى كراسة وضعتها ماريا روزا كوستا وسيلما جيمس عام ١٩٧٢، قالت أن النساء ينتجن فى البيت ومن ثم فهن إمكانية «لقوة إجتماعية»، فاذا كان إنتاجك حيويا للرأسمالية، فإن رفض الأنتاج، رفض العمل، هو إذن دعامة أساسية للقوة الأجتماعية»(٣٠)

«لذلك يجب أن ترفض شغل البيت باعتباره عملا نسائيا... يجب أن نخرج من البيت.. لنربط أنفسنا بنضالات كل أولئك الذين يعيشون فى جيتوات، سواء كان هذا الجيتو حضانة أو مدرسة أو مستشفى أو دارا للمسنين أو حيا فقيرا»(٣١)

وتضيف أن الحد الأدنى لأجر ربة البيت يجب أن يكون مساويا للأجر العادى فى المجتمع.

وهكذا ستنتظم فجأة ربات البيوت ويفرضن أجرا على شغل البيت! أولئك المعزولات عن بعضهن بالجدران الأربعة لبيوتهن، ويتحملن مسئولية رعاية أطفال صغار وربما أيضا أبوين مسنين، وتزيد أعباؤهن فى العناية بالصغير والكبير والمريض حين تخفض الدولة حجم الانفاق على الخدمات الاجتماعية والصحية! وذلك بينما لم تستطع بعد النساء المنظمات بالفعل فى نقابات الحصول على أجر متساو، وتتزايد أمامهن صعوبات الدفاع عن المكتسبات

الإجتماعية التى حصلن عليها بالفعل.

ركزت كثير من نساء حركة المرأة دائما على ما يفرق الرجال والنساء، الاغتصاب وضرب النساء والمطالبة بأجر لشغل البيت، بينما تجاهلن أو قللن من شأن حيز النضالات التى ترجع فيها إمكانية مساندة الرجال للنساء، مثل معارضة تخفيض ميزانية المستشفيات والمدارس، وحق الاجهاض، والمعارك فى مواقع العمل من أجل مساواة الأجر أو الحق فى الإنضمام لنقابة، ومثل هؤلاء النساء يرين أنفسهن كضحايا لسيادة الرجل، لاكمناضلات فى صفوف الطبقة العاملة. وبدلا من تركيز الجهد حيث النساء أقوى -حيث هن منظمات فى النقابات وفى مواقع العمل- انتهى المطاف بحركة تحرير المرأة إلى التركيز حيث النساء فى أضعف وضع لهن.

أنشأت إرين بيزى أول ملجأ للنساء اللاتى يتعرضين للضرب المستمر فى تشيزويك فى عام ١٩٧٢، وبلغ عدد اللاجئات مائتين فى عام ١٩٨٠، جاءت بهن عضوات فى الحركة النسوية أو أخصائيات اجتماعيات لاعلاقة لهن بحركة تحرير المرأة. وعقدت مؤتمرات قومية بهذا الشأن فى عامى ١٩٧٤ و١٩٧٥، وحضرت الأخير ٢٨ لاجئة مقيمة فى المركزو ٨٣ من النساء اللاتى يتعرضن للضرب ولكنهن لم يتركن بيوتهن بعد. (٣٢)

وانشئ أول مركز للمغتصبات فى شمال لندن فى مارس ١٩٧٦، وبعد خمس سنوات كان قد أصبح هناك ستة عشر مركزا مماثلا فى مدن بريطانية مختلفة. ونظمت مظاهرات «لاصلاح الليل» فى لندن وليدز ومانشستر ويورك بدءا من ١٢ نوفمبر عام ١٩٧٧، واشتركت فيها المئات اللاتى أخذن ينشدن ويقرعن بالمدى نوافذ محال بيع المصورات العارية وملاهى عروض الاستربتيز (٣٣)

وهناك أيضا مجموعة كاملة من المراكز الأخرى: لمعونة النساء، للدراسات النسائية، وجماعات نسائية للكتابة والنشر والصحة، والعلاج النفسى، والمشورة القانونية والعناية بالطفل، والتجارة وتمثل هذه المراكز «ثقافة نسائية بديلة كاملة» للمشاركات فيها.

ومن وجهه النظر الاشتراكية تعد الملاجئ للنساء اللاتى يتعرض للضرب وأطفالهن خدمة اجتماعية هامة تقتضى الدفاع عنها كالمستشفيات أو المدارس غير أنها لايمكن أن تزيد بحال على مسكنات أثرها هامشى على الحطام الانسانى الذى تخلفة الرأسمالية.

على طريقين مختلفين

بينما كانت الحركة النسائية تزداد سلبية وعجزا تستهلكها مشاحناتها وانقساماتها الداخلية، لم يتوقف نشاط النساء فى النقابات. وقد سبقت الاشارة إلى تأسيس حملة العمل القومى المشترك من أجل مساواة حقوق النساء عام ١٩٦٩ بميثاقها المكون من أربع نقاط، وكذلك حركة انضمام النساء للنقابات على نطاق واسع، والنضالات المثيرة للنساء فى أعوام ١٩٦٨-١٩٧٤.

اتسمت الاضرابات التى تخص العاملات بصعوبة خاصة بعد عام ١٩٧٤، وإن كان بعضها قد استمر لفترات طويلة، ونشير إلى :إضراب عاملات التريكو وجرنويكس شيكس ولى جينس: وموظفات الآلة الكاتبة فى ليفربول، على سبيل المثال لا الحصر. وفى ٢٢ يناير عام ١٩٧٩ تظاهر ٨٠ ألف عامل، معظمهم من النساء تأييدا لفكرة يوم العمل القومى من أجل ذوى الأجور المحدودة، وبعد فترة وجيزة وضعت نقابات القطاع العام برنامج عمل عملى للاحتجاج على كل من الأجور المحدودة وخفض الانفاق الحكومى على الخدمات. ولكن إضرابات النساء بعد عام ١٩٧٤ لقيت تجاهلا كاملا من حركة تحرير المرأة، ويمكن ملاحظة ذلك مثلا فى التغيير الذى طرأ على غلاف «الضلع الزائد».

حملة الاجهاض : تحالف قلق

خلال حملة الدفاع عن حق النساء فى الاجهاض تعاونت النقابات والحركة النسائية إلى حدما.

كانت هناك هجمات متصلة على قانون الإجهاض الصادر عام ١٩٦٧، وفى عام ١٩٧٥ شنت الحملة القومية من أجل الإجهاض ردا على إدخال تعديل على قانون الاجهاض. وفى يونيو عام ١٩٧٥ تظاهر ٤٠ ألف رجل وأمرأة استجابة لدعوة من الحملة، وظهرت فيها رايات كثير من نقابات العمال ذوى الياقات البيضاء ، ورايات قليلة لفروع عمال المناجم والبناء ، وعدد كبير من رايات الجماعات الإشتراكية والمنظمات النسائية.

وتتـالت قـرارات النقـابات فى مـؤتمراتهـا السنوية بتـأييـد حق النسـاء فى الإجهاض، واتخذ المؤتمر النسائى الذى نظمه مؤتمر النقابات عام ١٩٧٥ قرارا بأغلبية كبيرة يتعهد بتأييد مطلب الإجهاض «بناء على الطلب» وفى وقت لاحق من نفس العام اصدر مؤتمر «مؤتمر النقابات» قرارا مماثلا.، ولكن مشروع تعديل قانون الاجهاض لم يصل الى سجل القوانين أبدا، فقد سقط نظرا لعدم توافر الوقت الكافى لمناقشته فى البرلمان.

وحين تقدم عضو البرلمان جون كورى بمشروع قانون آخر يقيد الاجهاض عقب إنتخاب حكومة جديدة من المحافظين فى عام ١٩٧٩، نفذ مؤتمر النقابات القرار الذى سبق واتخذه مؤتمره إقتداء بقرار المؤتمر النسائى الذى نظمه، ودعا إلى مظاهرة ضخمة، وبالفعل فى ٣١ أكتوبر عام ١٩٧٩ سار ٨٠ ألف رجل وأمرأة من ماربل آرش إلى ميدان ترافلجار فى لندن، وكانت «أكبر مظاهرة عرفتها النقابات من أجل قضية تتجاوز نطاق المساومة الجماعية التقليدى، كما كانت أيضا أكبر مظاهرة عرفتها حركة الدفاع عن الاجهاض»(٣٤) وخرجت على المظاهرة مائتان من شابات الاتجاه النسوى الراديكالى لينظمن احتجاجا غاضبا، إصرارا على أن تقود النساء المسيرة، وقد وجهت لهن لجنة تنشيط الحملة القومية للدفاع عن الإجهاض توبيخا عنيفا، وقالت أن هناك نساء:

«يعترضن على أى مشاركة لمؤتمر النقابات من الأساس. إن واقعة تنظيم مؤتمر النقابات للمظاهرات ليست مصادفة، ولاهى انتهازية كما قال البعض...لقد ناضلنا قاصدين لكى تأتى المظاهرة من قبل مؤتمر النقابات لأننا نعتقد أن تلك هى أفضل طريقة لتجميع أوسع عدد من الناس فى مواجهة قانون كورى، فبدون النقابات لم يكن هناك أمل فى الوصول إلى النساء خارج الدائرة المحدودة للحركة النسائية (وقراء صحيفة الجارديان)...

«لقد بدأنا التنظيم بهذا الغرض فى مظاهرة العاملات التى نظمها مؤتمر النقابات فى عام ١٩٧٥ وكنا نهتف «أتخذ موقفا يامؤتمر النقابات، الاجهاض مجانا عند الطلب» وقد أنفقنا السنوات الأربع التالية فى إقناعهم بأن يفعلوا ذلك وحسب...

«لقد كانت النساء اللاتى ناضلن لأجل إدخال هذه السياسات فى نشاط فروع النقابات هى اللاتى عملن فى الصف الأمامى على جبهة النقابات، وكان انتقال الموضوع من أيديهن إهانة لهن، أفتراضا بأنهن أقل حقا فى أن يكون هناك من

غيرهن من النساء اللاتى لم يشتركن مباشرة فى الحملة على الإطلاق» (٣٥)
وبينما كانت عضوات الاتجاه النسوى الراديكالى على خطأ فى دعوتهن الانفصالية، والحملة القومية للدفاع عن الاجهاض فى المقابل مفرطة فى الخضوع أمام البيروقراطية النقابية، فإن أهم ماتضمنته الحملة الخاصة بالاجهاض هو الدور الفاصل الذى لعبته النقابات والاشتراكيون، نساء ورجال معا.

حركة تحرير المرأة فى مواجهة هجمات المحافظين

عانى جميع العاملين بالأجر من هجمات حكومة المحافظين برئاسة مارجريت ثاتشر فى مجالات الصحة والتعليم والخدمات والاجتماعية ويصدق هذا على النساء خاصة فالبطالة وخفض الإنفاق على خدمات الأمومة والطفولة يقع عبئهما بقدر أكبر على النساء. وتقل منحة الانجاب للأم فى بريطانيا أضعافا عنها فى معظم الدول الأوربية ،فهى تبلغ ٢٥ جنيها استرلينيا، بينما تبلغ فى فرنسا ٥٢٥ جنيها استرلينيا عن الطفل الأول و٧٥٢ جنيها استرلينيا عن الثانى وتقفز إلى ١٫٠٤٨ جنيها استرلينيا عن الثالث. (٣٦) ولايعدو قانون الأجر المتساوى والقانون الخاص بالتمييز الجنسى أن يكونا حروفا ميتة ،فمتوسط أجور النساء عن العمل لوقت كامل الذى كان فى عام ١٩٧٧ يعادل ٧٥٫٧ فى المائة من قيمة أجور الرجال، انخفض فى عام ١٩٨٢ إلى ٧٣٫٩ فى المائة منها. وفى عام ١٩٨١ انخفض عدد الدعاوى المنظورة لمساواة الأجر إلى ٥٤ فقط، وصدر الحكم بتأييد الدعوى فى ست منها فقط. (٣٧)
وفى مواجهة هجوم المحافظين وأصحاب العمل يغدو كل عمل حلقى عبثا لاجدوى منه، فكما كتبت فى خريف عام ١٩٧٩:
«إن المحافظين سيختبرون قوة تنظيم طبقتنا العاملة، ومن هنا ضرورة النظر إلى كل هجوم فى إطار الهجوم العام، يعنى ذلك أنه من الحيوى حشد أكبر مساندة ممكنة لكل جماعة عمالية تناضل، وربط نضالهم بما يحدث على جبهة الحكومة من هجوم. يجب أن تكتسب المعركة كلها وجهة سياسية واضحة، أى طبقية عامة واشتراكية ومناهضة للحكومة» (٣٨)
فى السنوات الساخنة ١٩٦٨- ١٩٧٤ كانت الأمور سهلة، وحتى الأعمال

الحلقية كان يمكن أن تكون مؤثرة، وفى تلك الفترة نمت الحركة النسائية، ولكن حين غدت الاحوال صعبة انغلقت على نفسها يائسة. وتكتب ليزهيرون الكاتبة النسائية فى عام ١٩٨٠ أن «ضمور التفاؤل الراديكالى... أفضى إلى التراجع إلى الشخصى» (٣٩) وقالت كاتبة أخرى هى روز اليند كوارد أن هناك «أزمة تشرذم، ولدت حنينا هائلا لأيام الحركات النسائية» (٣٠) وفى مقال حزين بجريدة الضلع الزائد تحت عنوان «إلى أين بعد؟» تلقى ميشلين واندور نظرة على مشهد الثمانينيات المعتم، وتقول أنه لم يعد بالإمكان الحديث عن حركة تحرير المرأة، وإنما فقط عن الدعوة النسوية. ولكن العقد السابق لم يكن فشلا كله كما تقول: «فقد بنت الحركة النسوية لنفسها بعض الخنادق المهمة فى المجال المهنى».

وهى على حق، فقد جنت عدة نساء من الطبقة المتوسطة خيرا من وراء حركة تحرير المرأة، فى مجالات التعليم والصحافة والتليفزيون. ومن أفضل الأبواب التى فتحت أمام المهنيات منهن تأسيس الدراسات النسائية، فحاليا تدرس مقررات للدراسات النسائية فيما لايقل عن ثلاثين جامعة، علاوة على المقررات الخاصة بتعليم البالغين.

وتسلم ميشلين واندور بأن واقعة حصول الحركة النسوية على بعض المواقع الهامة فى المجال المهنى ليست كافية بحال لجمهور النساء، وتقر بأن «الثاتشرية» ستدفع بنساء الطبقة العاملة وبعض نساء الطبقة المتوسطة ممن فقدن وضعهن الطبقى إلى النقابية والأحزاب الاشتراكية.

ولعله من المناسب أن نختم هذا الجزء «بنعى» نشرته صحيفة «وركرز كرونيكل» (صحيفة المجلس المهنى فى نيوكاسل) فى يناير عام ١٩٨١.

«ننعى لكم بكل أسى وفاة اللجنة الفرعية لميثاق النساء العاملات التابعة للمجلس المهنى فى نيوكاسل. فبعد مايقرب من خمس سنوات من النشاط استسلمت اللجنة الفرعية للفشل فى التزود بالمؤيدين وفقر الاهتمام الفعال، ولفظت أنفاسها فى بداية ديسمبر...

«وكان نشاط اللجنة الفرعية يرتكز على التعليم وأعمال الدعاية، ومن منجزاتها العديدة فى هذا المجال تجدر الاشارة إلى: فيلم فيديو حول النقاط العشر لميثاق النساء العاملات،وبرنامج تلفزيونى مماثل، وسلسلة من عشر برامج عن الراديو المحلى، وإصدار «نضال النساء» وهى نشرة أنباء محلية، ومقالات

فى وركرز كرونيكل والصحافة المحلية- وخاصة إيفننج كرونيكل، وتنظيم مدارس نهارية، وقيادة نقاشات فى المدارس والكليات.. «ومن سخريات الظروف أن تسلم اللجنة الفرعية الروح فى وقت يشتد فيه الهجوم على النساء»

دروس عنيفة من حركة تحرير الجاى*

إن اضطهاد الجاى والمساحقات هو نتاج ثانوى لاضطهاد النساء لأنهما يكسران تنميط أدوار الرجال والنساء الذى يفرضه المجتمع الرأسمالى، لذلك جاء تحدى هذا التنميط من جانب حركة تحرير المرأة حافزا على ظهور حركة لتحرير الجاى إلا أنها كانت أقل استقرار وأكثر تمزقا بالتناقضات الداخلية من حركة تحرير المرأة ذاتها. وسوف يساعدنا رسم

صورة مقتضبة لملامحها على إلقاء مزيد من الضوء على طبيعة الحركة النسائية. تأسست جبهة تحرير الجاى فى خريف عام ١٩٧٠ فى لندن،و قدمت تعبيرا نموذجيا حيا عن حركة الجاى الجديدة كما كتب جيفرى ويكس مؤرخ النشاط السياسى للجاى فى بريطانيا. وفى ٢٨ أغسطس ١٩٧١ نظمت الجبهة مظاهره كانت حدثا تحت شعار «كرامة الجاى» وشارك فيها ألفان من الرجال والنساء فى لندن. وفى عامها الأول، باعت الجبهة ٨ آلاف شارة فى زمن كان ارتداء شارة جاى فيه عملا شجاعا بحد ذاته(٤٢)

ومع ذلك فبعد وهلة قصيرة جدا بدأت حركة الجاى تترنح وسرعان ما انهارت أشلاء. فحيث أن جذور اضطهاد الجاى تكمن فى الرأسمالية ذاتها، فلكى تنجح أى حركة ضد هذا الاضطهاد، لابد وأن تصبح جزءا من الحركة العامة ضد الرأسمالية، وبدون ذلك فإنها تسقط فى عزلة جيتو الجاى ذاته، بكل ماينطوى عليه من محدودية وعجز، وذلك هو ماحدث فى الواقع. ويكتب أوبرى والتر أنه خلال بضعة أسابيع فقط «هبطت الفورة الحماسية الواسعة التى ميزت عام ١٩٧١ كله، تحت وطأة أول سلسلة الانقسامات المريرة المدمرة التى تلت، وبدأ الإنهيار فى جبهة تحرير الجاى» (٤٣) وقد أوجز الموقف جيفرى ويكس بعد ستة

* gay هو الاسم الذى يطلق على الشواذ جنسيا فى الغرب، ولايوجد له مرادف عربى ولكن استخدامه ضرورى لمن لايعتبرهم «شواذا» كما يفعل الكاتب المترجمة.

أعوام، حين قال أن جبهة تحرير الجاى «كانت آخر نتاج كبير لفورة أواخر الستينيات، وقد انهارت حين انقضت تلك الفورة» (٤٤)

ومنذ البداية نشبت صراعات داخلية عميقة فى حركة الجاى، وأولها الصراع بين الرجال والنساء، وعن ذلك كتب أوبرى والتر :«علاوة على التفوق العددى للرجال هنا، احتفظ الكثيرون منهم بموقف متعال متعصب تجاه النساء... ومع نمو الوعى النسائى، قل صبرهن- لأسباب مفهومة- فى التعامل مع تعصب كثير من الجاى».

وعلى ذلك تركت النساء جبهة تحرير الجاى فى فبراير عام ١٩٧٢. ثم، ومن جهة أخرى «شعر كثير من الجاى أنهم كى يناضلوا ضد امتيازات الذكور، يجب أن يعملوا كل ماهو ممكن ليبينوا استعدادهم للتنازل عن هذا الامتياز بشخصهم»، كان هؤلاء هم المتحولون (إلى الجنس الآخر) والذين يرتدون ملابس النساء «وقد أكدوا أنهم مضطهدون من الجانبين فى الجبهة، النساء والرجال معا» (٤٥)

ووقع انقسام آخر بين الاشتراكيين وأولئك الذين دافعوا عن نمط حياة جديد خاص بمجتمع الجاى ويقول جيفرى ويكس:

«بدا أن كوميونات الجاى.. تقدم بديلا جنينيا للأسرة النووية، ولكنها كانت طوباوية أيضا.. فلقد كانت فى مواجهتها قوانين حديدية بشأن الملكية، ومشكلة العيش معا والعمل معا فى انسجام ودون منافسة داخل بيئة إقتصادية واجتماعية معادية. كذلك انطوت الكوميونات على صراع حاد مع التكوين العاطفى لمعظم أعضائها... مع الحاجة إلى الرابط الثنائى.. غير أن تجارب الكوميونات أكدت وجود إزدواجية مهمة بين التحرر الشخصى من جهة والعمل السياسى من جهة أخرى، فنادرا ما اجتمع الإثنان»(٤٦)

اعتقدت حركة تحرير الجاى أنهم يشكلون إمكانية لقوة جماهيرية من قوى التغيير الثورى، ولكن أقلية ضئيلة منهم هى التى انضمت للحركة- ألفان فى أقصى تقدير من أصل مليونين فى بريطانيا (والرقم مأخوذ عن التقدير المتحفظ لكنزى القائل بأن الجاى يمثلون واحدا من كل عشرين من السكان)- ولذا فقد كانت تلك القناعة وهما. ذلك أن جميع الجاى غير مرئيين، خلافا للنساء أو السود، يمكن أن «يمروا» كعاديين وفى الواقع تتمكن غالبيتهم الساحقة من العيش كأزواج وآباء، هذا أولا، وثانيا، لايربط بين الجاى ولاء

الأقليات كما فى حالة السود أو اليهود وغيرهم من الجماعات العرقية،« ... الجاى هو العضو الوحيد فى أسرته، إنه يكبر محتفظا بانحرافه سرا يحوطه الإحساس بالذنب! مخفى عن الجميع وعن أقرب الناس إليه خاصة. وهو يعيش فى خوف دائم من أن يفضحة الجاى الآخرون» (٤٧) وهو واقع مأساوى لكنه حقيقى، إن الغالبية العظمى من الجاى لايتغلبون أبدا على الإحساس الداخلى بالذنب الذى يقضى به عليهم المجتمع الراهن وثالثا، ليست بين الجاى روابط إقتصادية إجتماعية، فهم ينتمون لجميع الطبقات.

بذلك أظهرت حركة الجاى عجزا عن احتواء جمهرة الجاى، ممن ينتمون للطبقة العاملة ويتخفون بحياة جنسية عادية. وأضافت انفصالية حركة الجاى إلى مصاعبها، فقد أدت ليس إلى إبعاد المتعاملين مع الجنس الآخر وحسب، بل وكذلك الجاى الذين لم يصرحوا بميولهم وهو مارآه ليونيل ستارلينج عضو حزب العمال الاشتراكى على النحو التالى:

« ....يبعد غير ذوى الجنسية المثلية بطريقة منهجية أو غير مباشرة عن نضالات الجاى، وفى الوقت نفسه، لاتأخذ مشاركة كل الجاى مداها، بل يجرى تثبيطها على جبهتين، فمن الواضح أن غير الانفصاليين منهم يبعدون، وأن الجاى الذين لم يعلنوا عن هويتهم إجتماعيا يحرمون الفرصة لاكتساب الثقة بالمشاركة فى نضالات الجاى دون أن يعلنوا أولا أنهم جاى لذلك فان سياسة حركة الجاى تتسم بالانغلاق على الذات وتحكم عليها بالانحدار إلى عصبة لاتتطلع الا إلى الداخل» (٤٨)

لم يوجد الجاى الجيتو الذى انعزلوافيه، تماما كما لايتحمل السود مسئولية الانعزال فى جيتو خاص بهم، وفى كلتا الحالتين لايستطيع من هم بداخل الجيتو تحطيم أسواره بعمل منفرد من جانبهم بدون عمل جماعى من الأغلبية الموجودة خارجة لهدم هذه الأسوار.

أفادت منظمات عديدة من حركة الجاى، فهناك التكتل البرلمانى الإصلاحى «حملة مساواة الجاى» الذى يسعى إلى المساواة القانونية للجاى، وقد أصبح أكبر منظمة للجاى فى البلاد، حيث زاد من خمسمائة عضو من خمس عشرة جماعة فى عام ١٩٧٠ إلى نحو خمسة آلاف عضو فى عام ١٩٧٦. وهو يركز على النشاط الإجتماعى وقد زاد أيضاً عدد جماعات المساعدة الذاتية للجاى مثل جماعة «جاى سويتش بورد».(٤٩) «وهم يلتزمون فى كل حالة بتقديم

المساعدة والمعلومات بحيث يتسنى لفرد ما العثور على حل فردى (مع فارق طفيف فى حالة الجماعات الصغيرة التى يكونونها بهدف كسر التحرج من الوضع المعلن).. وأدت جمعيات الجاى فى الجامعات والكليات نفس الوظيفة بذات الأثر المحدود والفردى».(٥٠)

إلا أن أكبر المستفيدين جميعاً كان تجار الجنس فقد ملأت صور الجاى الواثق من نفسه، المترف، صفحات مجلات «أخبار الجاى» و«هو» و«زيبر» التى أزدحمت بالإعلانات عن كتب الجاى وأفلامهم وأدوات تجميلهم وأفلام الفيديو والخدمات المخصصة لهم، وتزايد الحديث فى أوساط منفذى الإعلان عن «سوق الجاى».

ويمكننا القول أن المنظمات من هذا النوع، ذات الهدف الضيق، المباشر، بقيت مستقرة، أما منظمات الجاى الأكثر راديكالية فقد اختفت، وانكمشت جمعياتهم فى الكليات فى عددها وحميتها. وبينما تغيرت المواقف من الجنسية المثلية إلى حد بعيد خلال السنوات العشر الماضية بحيث زادت إمكانية جمع مؤيدين، انحسر الضغط المنظم من الجاى أنفسهم.

لقد كانت حركة تحرير الجاى، إبنة الحركة النسائية، أضعف بنية من أمها إلا أن عضوات الحركة النسائية لم يستفدن دروساً من فشلها.

النساء وحركة السلام

توفرت للحركة النسائية مهلة أخرى للحياة بنهوض حركة السلام التى تمحورت حول «جرينهام كومون» وهى القاعدة الجوية المخصصة للصواريخ النووية «كروز» فى بيركشاير. ونجد تلخيصاً لفلسفة حركة السلام فى كلمات إحدى المخضرمات فيها وهى دوراً رسل: «على الرجال أن يحاربوا، وعلى النساء أن يبكين، وذلك هو حكم القضاء الذى لايرد.. لقد استغرقنا قروناً لنكتشف أن الصوت الذى يطلق هذا التأكيد المتعجرف، إنما يصدر عن أحد نصفى الجنس البشرى فقط». وتكتب عضوة أخرى فى حركة السلام أن: «الصورايخ النووية تعبير عن القيم الملتوية لمجتمع هيمنة الرجال.. إننا نعتبر الأسلحة النووية والطاقة النووية من النتائج المريضة بصفة خاصة لسيطرة الرجال».

والدعوة السلمية، كما تعترف نساء جرينهام، لاترى فى الأسلحة النووية ثمرة للمجتمع الطبقى الرأسمالى بتركيزه الهائل للقوة الإقتصادية والسياسية والعسكرية، وهى وجهة النظر التى يترتب عليها أن الطريق الوحيد للتخلص من الأسلحة هو الإطاحة بالرأسمالية بتسليح العمال ونزع سلاح الرأسماليين. ولكن هذه الأفكار غريبة تماماً عن نزعة استبدال النشاط الرمزى بالعمل الجدى لدى نساء حركة السلام، كما يتبين من الوصف التالى لشبكة مكونة من النساء تحلقت حول البنتاجون: «راح الجنرالات يخطرون وسط الشبكات التى كونتها النساء.. وفى النهاية التفت جديلة طويلة منهن حول البنتاجون، وانتشرت تشكيلات عند جميع المداخل، ثم كونت النساء اللاتى لم يلق القبض عليهن حلقة فى طقس ختامى للمظاهرة».

كذلك تعطى حركة السلام النسائية اهتماما كبيراً للحياة الداخلية لعضواتها، «حيز» يستطعن التطور فية. وتكتب إحداهن عن ذلك،

«... بالرغم من التباين بين هذه الجماعات، يدهشك حجم ما هو مشترك بينها، فهى جميعا تؤكد أهمية التفكير فى الحاجات الشخصية لعضواتها، أو تقديم المساندة الوجدانية.. وهى تؤكد باستمرار على الإيجاب: «النساء يقفن إلى جانب الحياة على الأرض»، « الأطفال يحتاجون الإبتسامة»، وأن عالماً نسائياً سيكون لدية طعام صحى واختيارات مثمرة إلخ. وتؤكد على أهمية الخيال وتستخدم رموز.. المشاعر الذاتية كدليل للعمل».

وعضوات هذه الجماعات «معظمهن من الطبقة المتوسطة» كما تفيد إحداهن وقد عاشت كثيرات منهن «نمط حياة بديل» حيث التشارك فى السكن وعدم الأنتظام فى وظيفة ثابتة، إلخ.(٥١)

وإذ اعتقدت نساء «جرينهام كومون» و«الحملة من أجل نزع السلاح النووى» أن الرأى العام بحد ذاته قادر على وقف الإنزلاق نحو حرب نووية، فقد عملن بمنطق التكيف مع الرأى العام. ثم إنهن لايربطن النضال ضد صواريخ «كروز» و«ترايدنت» بالنضالات اليومية لجمهور العاملين من أجل الحصول على عمل، وتحسين الأجور والرعاية الصحية والإسكان، ولهذا ليست لهن جذور فى حياة الجماهير الواسعة. فإذا كان المرء غير قادر على الدفاع عن سبل معاشة،كيف يمكنه الدفاع عن الحياة؟ إذا كنا لانستطيع وقف إغلاق مصنع فى مدينتنا ذاتها، فكيف يمكننا التأثير على أعمال الرئيس الأمريكى ريجان ورئيسة

الوزراء تاتشر البعيدين عنا بمئات أو آلاف الأميال.

تراجعت نساء جرينهام كومون تراجعا كبيراً عن الشعار القديم لحركة تحرير المرأة «النساء غاضبات»، ليقبلن «بالصفات الأنثوية الأصيلة» مثل «السلبية» و«الركون للحياة العائلية» التى تحدتها الحركة النسائية فى بداياتها محقة فى ذلك.

الانزلاق نحو حزب العمال

بسبب من قوة الحركة العمالية فى بريطانيا فإن نفس النزوع للإندماج فى المؤسسات القائمة الذى يدفع الحركة النسائية الأمريكية نحو المنظمة الوطنية للنساء، هو الذى يجذب الحركة النسائية البريطانية نحو حزب العمال. وقد استهل تونى بن هذا الاتجاه، ففى مؤتمر عقد فى سنترال هول بوستمنسترفى ١٧ مارس عام ١٩٨٠، وحمل التسمية المضللة (موضوع جدل هذا العقد)، واشترك فيه تونى بن وطارق على وهيلارى وينرايت، تكلف تونى بن جهداً خاصاً ليكيل المديح لهيلارى وينرايت: «لقد طرح هيلارى وينرايت، فى رأيى القضية الأكثر أهمية على الإطلاق.. وأعتقد أن هناك علاقة مهمة هنا بين ماقاله وما أقوله أنا.. وماقاله عن الحركة النسائية بالغ الأهمية». وقدم رئيس المؤتمر «بيترهاين» سكرتير لجنة التنسيق العمالية هيلارى وينرايت باعتباره «... أحد مؤلفى الكتاب الذى يشعر الكثيرون منا أنه ينطوى على مقدمات تطور اليسار» وهو (مابعد التشرذم).(٥٢)

وفى نوفمبر عام ١٩٨٠ استولى الحماس على بن بشأن بنية الحركة النسائية:

«إن البنى مهمة بالفعل...... والجماعية الأكثر شيوعاً فى الحركة النسائية منها فى حركة الذكور تقدم مثالاً أساسياً فى هذا المجال، ففكرة أنك تستدير بمقعدك ولاتكتفى ببناء منصة يعتليها القياديون على درجة كبيرة من الأهمية أيضاً».(٥٣)

وانطلقت عدة شخصيات بارزة فى الحركة النسائية تردد نفس النغمة، ولنأخذ مثلاً كتاب أناكوت وبياتريكس كامبل «الحرية الحلوة: النضال من أجل تحرير

النساء»، إنه لايشتمل على تحد للبنية الرأسمالية القائمة للمجتمع، بل يدعو لمزيد من مشاركة النساء في هذه البنية- في البرلمان والمجالس المحلية والأحزاب السياسية والنقابات. ولايدعو إلى تغيير في التوازن القائم بين الأجور التى تذهب للعمال والأرباح التى تذهب لطبقة المستخدمين، بل فقط إلى تغيير التوازن بين أجور النساء وأجور الرجال. وهو يقر «السياسة الإقتصادية البديلة» التى يطرحها حزب العمال، ولكنه يضيف إليها الحاجة إلى سياسة نسائية فى الأجور، لاتسعى إلى زيادة نصيب الأجور من ثروة الأمة- ومن ثم إلى غالبية النساء- بل تسعى فقط إلى إعطاء النساء قسطاً أكبر من الأجور القائمة.

غير أن التجربة تبرهن على أنه كلما زادت أجور العمال المتمتعين بوضع قوي، كعمال المناجم مثلاً، كلما اتسعت فرصة العمال الذين هم في وضع أضعف فى تحسين أجورهم هم أيضاً، وهو ماظهر واضحاً هنا فى بريطانيا فى أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات، حين فتح الطريق عمال الصناعات الأقوى وخاصة عمال المناجم والصناعات الهندسية وبعدهم استطاع باقى الطبقة العاملة، نساء ورجال- أن يحسنوا أجورهم فى إثرهم.

وتلخص أناكوت وبياتريكس كامبل استراتيجيتهما من أجل المساواة فى الكلمات التالية: «إن العقبة الكبرى فى رأينا لاتتمثل فى العثور على موارد الثروة اللازمة، وإنما فى إقناع الرجال بتقليص امتيازاتهم» ليس إقناع الطبقة الرأسمالية بتقليص إمتيازاتها الضخمة على الطبقة العاملة، بل فقط «الرجال»! (فى الواقع هاجمت بياتريكس كامبل النقابات فى مقال للجارديان بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٨٢- أثناء اضراب للمستشفيات كان انتصاره كفيلاً بتحسين مجموعات أجور آلاف من النساء والرجال- حيث اتهمت النقابات بأنها «نظام بطريركى» يضطهد الرجال بواسطته النساء، ووصفت الإضرابات بأنها أسلوب فى ممارسة النزاعات عفا علية الزمن، موروث عن الحركة العمالية فى القرن التاسع عشر التى كانت واقعة تحت سيطرة الرجال).

وتدعو كوت وكامبل إلى «إعادة توزيع العمل والثروة فى الأسرة»، مؤكدتين بذلك على استمرار الأسرة الفردية كوحدة تتم فيها رعاية الأطفال وأعمال المنزل.

وهما لاتتحديان البيروقراطيات النقابية، بل تدعوان للتمييز الإيجابى، أى أن تحصل النساء على وظائف ثابته فى الإدارة العليا للنقابات وفى وظائفها

العادية، كذلك يعنى التميز الإيجابى زيادة العضوية النسائية فى البرلمان، بعض النظر عن علاقة ذلك بحاجات نساء الطبقة العاملة- بينما لاتكاد ترد إشارة فى الكتاب إلى الإضرابات النسائية التى خاضت بها آلاف النساء معركتهن من أجل الحصول على حقوقهن.

وتتحدثان أخيراً عن محاولات زيادة التمثيل النسائى فى حزب العمال مؤيدتان. «تتزايد أعداد النساء ممن هن فى العشرينيات أو الثلاثينيات من عمرهن، اللاتى يجعلن من حزب العمال محوراً لنشاطهن كعضوات فى الحركة النسوية مثلما هو محور نشاطهن كاشتراكيات».(٥٥)

لماذا تنجذب بقايا الحركة النسائية نحو اليسار العمالى؟ هناك فى الواقع تشابه قوى بين من يدعون أنفسهم بالاشتراكيين فى الاثنين. أولاً فى التكوين الإجتماعى، فالأولى مكونة من نساء مهنيات ومن العاملات ذوات الياقات البيضاء، وكذلك اليسار العمالى وإن كان يتميز بتواجد العمال اليدويين فيه بصورة محسوسه، وكذلك بتأييد الآلاف من العمال اليدويين. ثانياً، عند الاشتراكيات فى حركة تحرير المرأة واليسار العمالى، لا تتشكل الأفكار فى النضال الطبقى الجماعى للعمال، وإنما ترى ببساطة كجدال بين أفراد. ثالثاً، خلافاً للمنظمات الإشتراكية الثورية التى لابد وأن تطلب من أى عضوة فى الحركة النسائية أن تقف ضد تحليلات هذه الحركة وأسلوب عملها، لايفرض حزب العمال مطالباً على أى طرف يتعامل معه، حيث يعتبر نفسه «كنيسة متحررة»، رابعاً، حتى فيما يتعلق بالهيكل التنظيمى، هناك من أوجة الشبه بين غياب الهيكل التنظيمى والفيدرالية الفضفاضة فى الحركة النسائية والمستنقع البيروقراطى العمالى، أكثر مما يوجد بين أى منهما وبين المركزية الديمقراطية لحزب اشتراكى ثورى، فلايوجد انضباط حزبى إلا حينما يجد اليمين البيروقراطى ضرورة لذلك.

الخلاصة

تذبذبت الحركة النسائية فى بريطانيا بين طريقين: التحالف مع الحركة العمالية- أى مع النضالات العمالية والنقابات أو المضى فى طريق انفصالى

خاص بها. وقد اتجهت بصورة متزايدة إلى الإنكفاء على ذاتها بعيداً عن العمل الجماعى والسياسة الطبقية، ونحو السياسة المنشغلة بنمط الحياة، و«رفع الوعى» والانفصالية، بعيدا عن النضال من أجل الحاجات الجماعية للنساء- الأجر المتساوى والحضانات وحقوق الأجهاض والإضرابات النسائية- وفى اتجاه الموضوعات التى تكون النساء فيها ضحايا لاضطهاد الذكور- الإغتصاب والعنف وتجارة العرى.

وحين تبذل عضوات الحركة النسائية محاولة جادة لربط نشاطهن بمطالب محددة للنساء العاملات، يقعن فى الشرك الإصلاحى المتمثل فى اقتراح «سياسة نسائية فى الدخول» ويستهدفن زيادة نصيب النساء فى الموارد القائمة بينما يقل مايقدمة المجتمع شيئاً فشيئاً لجميع من يعملون أما المحور الثانى فى استراتيجيتهن، أى التمييز الإيجابى لصالح النساء فى النقابات وحزب العمال، فليست له أى علاقة بالحاجات الحقيقية لنساء الطبقة العاملة وطموحهن وهن المغتربات تماماً عن البيروقراطية النقابية- الذكرية والنسائية على السواء- وعن أعضاء البرلمان الذين يعيشون حياة مأمونة حافلة بالامتيازات.

هوامش الفصل الحادى عشر

١-برايس وج. س. بن «عودة لبحث نمو النقابات: ١٩٤٨-١٩٧٤ على التوالى» من «الصحيفة البريطانية للعلاقات الصناعية» (نوفمبر ١٩٧٦).

٢- أ. كوت ون. كامبل «الحرية الحلوة. النضال من أجل تحرير النساء» (لندن ١٩٨٢) ص ١٨.

٣- ج.. هنت وس. آدامز «النساء والعمل والتنظيم النقابى» (لندن ١٩٨٠) ص ١٥

٢- «الضلع الزائد» (ابريل ١٩٧٨).

٥- كوت وكامبل، ص ٢٠-٢١

٦- «الضلع الزائد» (ابريل ١٩٨٧).

٧- س. روبوتام، ول. سيجال، وهـ وينرايت «مابعدالتشرذم» (لندن ١٩٨٠) ص ٤٥

٨- روبوتاو آخرون ، ص٤١

٩- «لاعودة للوراء: كتابات من حركة تحرير المرأة، ١٩٧٥-١٩٨٠» (لندن ١٩٨١). قارن ذلك بالعبارة التالية: «الزواج مؤسسة قهر لكل من المتزوجين وغير المتزوجين، ويقدم الدعامة القانونية الأساسية لشكل الأسرة الحالى. إننا نعتقد أنه يجب على الاشتراكيين ودعاة الحرية النسائية ألا يتزوجواهم أنفسهم وألا يحضروا أو يؤيدوا زواج أى شخص يمكن إقناعة بتقدنا للأسرة.. يجب ألا يتخذ أحد زوجة ربة بيت، فلا أحد يحتاج ربة بيت دائمة، سواء كان رجلاً أو طفلاً أو مريضاً أو امرأة، وليس لأحد الحق فى أن يتخذ واحدة، إن شغل البيت غير مدفوع الآجر أدنى من حيث المبدأ من توفيرة إجتماعياً، ومن الأفضل للقادرات مالياً أن يستأجرن شخصاً ما لينظف البيت ويطهو الوجبات، بدلاً من أن يكون هذا واجباً على أحد أعضاء الأسرة» (م. باريت م. وم.ماكينتوش «الأسرة المضادة للمجتمع» (لندن ١٩٨٢، ص ١٤٣-١٤٤)

١٠- «لاعودة للوراء» ص ١٢٣-١٢٥.

١١- «الضلع الزائد (سبتمبر ١٩٨١).

١٢- «الضلع الزائد» (أبريل ١٩٧٨)

١٣- روبوتام وآخرون، ص ١٩٧

١٤- روبوتام آخرون ص ١٦٤

١٥- روبوتام وآخرون، ص ١٧٦

١٦- روبوتام وآخرون، ١٨٠

١٧- روبوتام وآخرون ص، ٢٠٥

١٨- روبوتام وآخرون، ص، ٧٦

١٩- كارل ماركس وفردريك إنجلز «مراسلات مختارة» (لندن ١٩٤١) ص، ١٥٠-١٥١.

٢٠- ماركس وإنجلز «مراسلات مختارة» ص٣١٥

٢١- كوت وكامبل، ص ٣٥

٢٣- «لاعودة للوراء»،ص ١٧٠

٢٣- «أحبوا أعداءكم؟» (لندن ١٩٨١) ص ٥-٦.٨

٢٤- «أحبوا أعداءكم؟» ص ٥٦

٢٥-كوت وكاميل، ص ٢٢٥

٢٦- انتهت صحف كثيرة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: «السليطة»، «المرأة الإشتراكية»، «الحرقة الحمراء»، «أنباء النساء» «مفكرة نضالات النساء»، «التحول الأحمر» «كلنا»، «النساء الآن»، «ساسيات الجسد»، «ليفياثان»، «مجلة تحرير النساء»، «صحيفة النساء»، «صحيفة قوة النساء»، «صوت النساء»

٢٧- «الضلع الزائد» (ديسمبر ١٩٨٠)

٢٨- من مظاهر موقف كراهية الرجل وسط فريق المساحقات فى الحركة النسائية استعمالهن طريقة خاصة بهن فى نطق «امرأة» و«نساء»، وكذلك كلمة «تاريخ» لتصبح «تاريخها»، رغم أن أصل الكلمة اليونانى الذى يعنى «اكتشاف»، هو فى الواقع كلمة مؤنثة.

٢٩- ى. مالوس (إعداد) «سياسات شغل البيت» (لندن ١٩٨٠) ص ٢٢.

٣٠- مالوس، ص ١٦١

٣١- سيلماجيمس، قالت أنجيلا سينجر فى حديث مع «الجارديان»: «يجب أن نقبض مقابلاً عن كل شغل البيت الذى نقوم به.. بما فى ذلك الجنس» (الجارديان، ٢٤ فبراير ١٩٨٢)

٣٢- كوت وكاميل ص ٤١

٣٣- كوت وكاميل، ص ٤٣

٣٤- كوت وكاميل، ص ١٤٧

٣٥- «الضلع الزائد» (ديسمبر ١٩٧٩)

٣٦- «ديلى ميرور» (٢١ يناير ١٩٨٣)

٣٧- س. أتكنز فى «الجارديان» (٢٨ مارس ١٩٨٣)

٣٨- ت. كليف «توازن القوى الطبقية فى السنوات الأخيرة» فى «الاشتراكية الدولية» ٢:٦ (١٩٧٩) ص ٤٧

٣٩- «تايم أوت» (٢١-٢٧ نوفمبر ١٩٨٠) مقتبس فى «لاعودة للوراء»، ص ١٤٠

٤٠- «جاى لفت» العدد ١٠ (١٩٨٠) مقتبس فى «لاعودة للوراء» ص ١٠٠

٤١- أ. أو كلى «نساء خاضعات» (أو كسفورد ١٩٨١) ص ٣١٨-٣١٩

٤٢- ج. ويكس «الخروج للعيان: سياسات الجنسية المثلية فى بريطانيا من القرن التاسع عشر حتى الآن» (لندن ١٩٧٧) ص ١٩١و ١٦٩

٤٣- أ- والتر. «التجمع: سنوات تحرير الجاى ١٩٧٠-١٩٧٣» (لندن ١٩٨٠) ص ٢٨

٤٤- ويكس، ص ٢٠٦

٤٥- والتر، ص ٣١-٣٢

٤٦- ويكس، ص ٢٠٢

٤٧- أ. كارلن «الجنسية والجنسية المثلية» (لندن ١٩٧١) ص ٥١٧ و٥٣٠،

٤٨- ل. سعار لينج «سعيد بأن يكون جاى: حركة الجاى واليسار» فى «سوشياليست ريفيو» (مايو/يونيو ١٩٧٨)

٤٩- ويكس، ص ٢١٠، ٢١٣، ٢٦٧.

٥٠- ج. ليندساى، «ثقافة مهمتها الإحتواء» (لندن ١٩٧٨) ص ٥

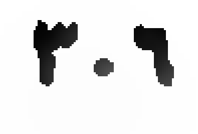
٥١- ل. جونز (إعداد) «الإبقاء على السلام: الدليل لسلام النساء» (لندن ١٩٨٣) ص ٩ (المقدمة) ٣، ٢١، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٥٦.

٥٢- ل. هاين (إعداد) «جدال العقد: أزمة اليسار ومستقبله» (لندن ١٩٨٠) ص ٢٣، ٤٥، ٤٩، ٥٢

٥٣- «الضلع الزائد» (نوفمبر ١٩٨٠)

٥٤- كوت وكامبل، ص ٢٤٧

٥٥- كوت وكامبل، ص ١٣٦-١٣٧



الفصل الثانى عشر

الجذور الطبقية للحركة النسائية

كما رأينا فى الفصلين العاشر والحادى عشر، اقتصرت الحركة النسائية فى الولايات المتحدة وبريطانيا إلى حد كبير على طالبات وخريجات الجامعات ومعاهد العلوم التطبيقية، ومصير غالبية خريجى الجامعات والمعاهد التطبيقية هو أن يصبحوا من العمال ذوى الياقات البيضاء، حيث يعمل أكثرهم معلمون فى المدارس، وتصل قلة منهم إلى مناصب نظار المدارس أو رؤساء الأقسام، وهؤلاء الأخيرون أعضاء فى الطبقة المتوسطة الجديدة، ومن وجهة النظر الماركسية ينتمى هؤلاء للبرجوازية الصغيرة، التى يأتى موقعها بين الطبقتين الأساسيتين فى المجتمع، البرجوازية أو الطبقة الحاكمة، والبروليتاريا أو الطبقة

العاملة.

كانت البرجوازية الصغيرة فى رأى ماركس مفارقة تاريخية محكوم عليها أ تختفى، وقد كتب عن ذلك «إن حقبتنا، حقبة البرجوازية... بسطت التناحرا الطبقية. فالمجتمع ككل يتجه بصورة متزايدة إلى الأنقسام إلى معسكري كبيرين متعادين، إلى طبقتين كبيرتين فى مواجهة مباشرة إزاء بعضهما البرجوازية والبروليتاريا» (١)

إلا أنه منذ منعطف القرن أصبح واضحا أن شريحة طبقية متوسطة جديد من المتعلمين والعاملين بالأجر، قد انبعثت وانتشرت انتشارا سريعا، وهى التر كثيرا ماتدعى الطبقة المتوسطة الجديدة. وتتكون هذه الطبقة من جماعات مثل صغار رجال الأعمال والمديرين والمهنيين من كل نوع، كالمشرفين والأطبا والباحثين والصحفيين والتقنيين وأساتذة الجامعة وكبار الموظفين فى الحكوم والحكم المحلى، ويتمتع هؤلاء بدرجة من التحكم فى ظروف تشغيلهم، وربما فى ظروف عمل غيرهم أيضا.(٢)

وليس كل العمال ذوى الياقات البيضاء من الطبقة المتوسطة الجديدة(٣)، فكما يبين بريفرمان فى كتابة «العمال ورأس المال الاحتكارى»، فإن ظروف القسم الأكبر من العمال ذوى الياقات البيضاء- ومعظمهم من العاملات فى المكاتب- من حيث العمل والأجر، تقبل المقارنة مع ظروف العمال اليدويين، فعلاقتهم بوسائل الانتاج مماثلة لعلاقة العمال اليدويين بها، وتتطابق مصالح المستخدمين فى الحالتين فى خفض أجورهم ورفع إنتاجيتهم.(٤) ومعظم من يدخلون مصاف العمال ذوى الياقات البيضاء هم من الشبان الذين يشتغل آباؤهم عمالا يدويين.

ويبلغ حجم الطبقة المتوسطة الجديدة فى الولايات المتحدة، حسب أحد التقديرات، مايتراوح بين ٢٠و٢٥ فى المائة من عدد السكان، بينما يتراوح حجم الطبقة العاملة بين ٦٥و٧٠ فى المائة منه. أما الطبقة المتوسطة القديمة (مثل أصحاب المحال والحرفيين والمزارعين) فيتراوح بين ٨ و ١٠ فى المائة من مجموع السكان، والطبقة الحاكمة مابين واحد واثنين فى المائة. (٥)

ومثل الطبقة المتوسطة القديمة، تجد الطبقة المتوسطة الجديدة نفسها خاضعة لرأس المال، ولكن فوق الطبقة العاملة، التى تفصلها عنها هوة. وعلى سبيل المثال، لاتستطيع بلوغ العمل المهن إلا أقلية ضئيلة من أبناء العمال، تبلغ ٨ر١

فى المائة في الولايات المتحدة، ونسبة العمال الذين يتحولون إلى العمل لحسابهم الخاص لاتتجاوز ٨ر فى المائة.(٦)

كذلك تتميز الطبقة المتوسطة الجديدة ثقافيا عن الطبقة العاملة، ويشترك أعضاؤها فى خلفية ثقافية واحدة ونمط استهلاك ونمط حياة واحد. وكذلك تندر نسبيا حالات الزواج من «أسفل» من الطبقة العاملة، أو من «أعلى» من الطبقة الحاكمة.(٧)

تفتقر الطبقة المتوسطة الجديدة للتجانس، فأقسامها المختلفة صائرة إلى اتجاهات مختلفة، إقترابا من أو ابتعادا عن رأس المال أو العمال، وعلى سبيل المثال يدفع ضغط مزدوج بكثير من جماعات الطبقة المتوسطة الجديدة إلى التنظيم فى منظمات مهنية أو نقابات: فقد يأتى الضغط من أعلى- كما يحدث مع المحاضرين فى الجامعات والمعاهد التطبيقية ليزيدوا حجم العمل- أو يأتى من أسفل- كما يحدث حين يتمكن العمال ذوى الأجر المحدود من زيادة أجورهم على حساب العاملين فى الإدارة.(٨)

والطبقة المتوسطة الجديدة ممقوتة من العمال الذين يتعرضون للمضايقة والاذلال على أيدى أعضائها، وليس على يدى الطبقة الحاكمة التى ليست لهم بها صلة تذكر.

فى الوقت نفسه يشعر أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة باغتراب متزايد عن الرأسمالية، حتى أولئك البعيدون منهم عن الطبقة العاملة، وهو مايعرضه آل تسيمانكسى كمايلى:

«لايملك العلماء اتخاذ القرار حقا بشأن نوع الأبحاث التى سيقومون بها أو الكيفية التى ستستخدم بها بسبب من تمويل الشركات للأبحاث وتوجيهها لها، ويتعرض أساتذة الجامعة لضغوط كبيرة لكى يخرجوا طلابا بالجملة دون إثارة نقد جوهرى لما تجرى عليه الأمور، والأخصائيون الاجتماعيون يرغمون على التصرف كرجال شرطة، ويفرض على المهندسين المعماريين تصميم أشياء فظيعة تنهار ومصانع تنشر التلوث...»(٩)

ويشترك رجال ونساء الطبقة المتوسطة الجديدة فى هذا الاحساس بالإغتراب، وإن يكن مضاعفا لدى النساء بسبب من التمييز المتصل ضدهن فى الترقى الوظيفى، الأمر الذى يسد الطريق على صعودهن الاجتماعى بالمقارنة بالرجال. وعلى ذلك تعمل ١٩ فى المائة من خريجات الجامعات و٧ فى المائة ممن

حصلن على درجات علمية أعلى عاملات فى المكاتب أو المبيعات أو المصان
مرافق الحكومة (١٠) أما المناصب اللامعة والمربحة فى المهن ومجال الأعم
فيشغلها الرجال فى الغالبية العظمى من الحالات.

الكلية وحرم الجامعة يعدان المرأة بالمساواة المهنية مع الرجال، ويوفران الفر
لعلاقات شخصية جديدة بعيدا عن سطوة الأسرة، الأمر الذى يؤدى بكثير
فيما بعد إلى الاعتراض على دورهن المنتظر فى بنية الأسرة التقليدية. و
النسـاء لم يعـدن النسـاء اللاتى يذهبن من بيت أبيهن إلى بيت زوجهن، إ
يذهبن إلى الكلية أولا، وهناك تسود علاقات أكثر مساواة.

بوجه عام، تتميز خريجات الكليات بتطلعات أكبر من غيرهن من النس
ولكن فرصهن فى تحقيقها أقل. فاذا كن مدربات فى مهنة من المهن، خاصة ت
التى يسودها الرجال، يكون «حرمانهن النسبى» ملموسا تماما كانخفا
أجورهن عن الرجال. وقد قال أدلاى ستيفنسون نائب الرئيس الأمريكى فى
١٩٥٥ عن ربات البيوت من خريجات الجامعات «ذات يوم كن يكتبن الشع
والآن لاشئ سوى قائمة الغسيل»، وقال أن بوسع نساء الطبقة المتوسطة أن يند
الاحتمالات المفقودة لشخصيات نسائية فذه على غرار «اينشتاين وشفايت
وروزفلت وإديسون وفورد وفيرنى وفروست».

وتختلف خبرة الطبقة العاملة اختلافا كبيرا فى هذا الشأن. فرجالها ونساؤ
كلاهما يعانون من التقدم الخانق للمثقفين على حسابهم ومن الروتين والضج
وفكرة المساواة مع الرجال لها معنى مختلف تماما عند امرأة من الطبقة العامل
فكاتبة الاختزال والعاملة فى محل تجارى وعاملة النظافة، وغيرهن ممن يعمل
فى وظائف روتينية مشابهة لاتنطوى على إمكانيات تذكر للتقدم فى العمل
يصعب أن تراودهن رغبة المهنيات فى المساواة مع الرجال، فى الرضاعن الذا
من خلال الوظيفة، فهذا يفترض عند صاحبه الإحساس «بالقيمة الجوهر
للعمل». أما نساء الطبقة العاملة فيعملن جميعا لسبب واحد فقط، هو اكتسا
الأجر. ووظائفهن لاتقدم إمكانيات لماهو أكثر من ذلك. المرأة المهنية يحبطه
العمل المنزلى الروتينى، الذى لاتستخدم فيه مهاراتها المكتسبة، ولكن نسا
الطبقة العاملة لايلحظن فارقا كبيرا بين روتين العمل فى البيت وخارجه، وليس
واردا أن يأكلهن الحسد على وضع الرجل خارج المنزل، فلن تفضل الواحدة منهن
عملا مملا موترا كالوقوف أمام جهاز النقل فى مصنع للسيارات. وأمراض النسا

المرتبطة بشغل البيت تتوازى مع امراض الرجال المرتبطة بعملهم.(١٠)

حين تقول نصيرات الحركة النسوية أنهن يردن المساواة مع الرجال، فإنهن يتجاهلن حقيقة أن الرجال ليسوا متساوين فى المجتمع الرأسمالى، وفى معظم الحالات لاتتجاوز المساواة التى يتطلعن إليها البنية الطبقية الحالية، أى المساواة للأوفر حظاً.

كما هى الحال فى الطبقة المتوسطة الجديدة، لاتتصف الحركة النسائية بأنها منسجمة، ويمكن تقسيمها إجمالا إلى جماعتين، حركة الدفاع عن حقوق المرأة، وحركة تحرير المرأة. ونساء الحركة الأولى كما تصفهن جوان كاسل التى كتبت دراسة عن الحركة النسائية الأمريكية، أغلبهن مرشحات للوصول إلى وظيفة مهنية أو لديهن أزواج وأسر من الطبقة المتوسطة، ولهن نصيب فى «النظام». أما نساء حركة تحرير المرأة فهن أميل للوضع الانتقالى، الطالبات والخريجات الجدد والمساحقات السياسيات، ونساء يعملن فى وظائف محدودة الأجر بينما يحلمن بمهن مرتفعة الأجر ولها مكانة، أو مطلقات يبحثن عن هوية جديدة لأنفسهن وطرق جديدة فى الحياة.(١١)

عضوات حركة الدفاع عن حقوق المرأة «لايبذلن أى محاولة للاستغناء عن المكانة الاجتماعية والمراتبية الاجتماعية»، إنهن لايسعين إلى تغيير أنفسهن أو تغيير عالمهن، بل يردن تحسين وضعهن بحيث يصبح أقرب شبها بوضع الرجال الذين يجولون بخاطرهن حين يفكرن فى المساواة، فيدافعن عن «وضع أعلى للنساء فى هيكل السلطة والسيطرة» الذى يحتكره الرجال، يردن أن تصعد النساء إلى أعلى فى السلم الاجتماعى القائم (١٢) وتكسب كثيرات من نساء الصفوة هؤلاء مرتبات كبيرة، مثل أزواجهن، ولذلك فبمقدورهن شراء خدمات من آخرين، معظمهم من النساء، ليقمن بأعمال المنزل لهن ويرعين أطفالهن وكذلك تقول سينثيا إبشتين فى كتابها «مكانة المرأة» نقلا عن إحدى الدراسات، أن حوالى نصف النساء اللاتى يعملن فى وظائف مهنية ثابته أو فى مجال الأعمال- ممن أجرى الإستطلاع بينهن- لديهن خادمتان أو أكثر تشغتلان وقت عمل كامل فى العناية بالبيت والأطفال.(١٣)

أما حركة تحرير المرأة فتسعى وراء أهداف أخرى: «كانت النساء اللاتى تقل البدائل أمامهن فى العالم الخارجى يرغبن فى تحويل جماعتهن النسائية إلى طريقة فى الحياة. وبدلا من محاولة تغيير المؤسسات القائمة فى المجتمع الواسع،

وهو مايعنى دخول هذا المجتمع والاشتباك معه، كان على الجماعة أن تصبح بديلا له... عليها أن تصبح أسرة، وملاذا وطريقة فى الحياة وآلية لكسب العيش، وباختصار أن تحل الجماعة النسوية محل الدور التقليدى للزوج والأسرة النووية، وبدلا من أن تساعد الجماعة عضواتها على تغيير حياتهن خارجها، أصبح عليها أن تكون هى تلك الحياة. (١٤)

لقد سبق وقالت إحدى الشخصيات البارزة فى الحركة النسوية الألمانية عند منعطف القرن أن «الحركة النسائية هى نتاج تيار تاريخى فردى وليبرالى.. إنها الإعتقاد.... بنعم الحرية الفردية التى... أتاحت للنساء السعى إلى تحرير أنفسهن من القيود العقلية والإقتصادية والقانونية» (١٥)

وهكذا تركز عضوات الحركة النسوية على الفردى. وفى مواجهة ذلك كان ماركس قد عرّف «الطبيعة البشرية» بأنها «جماع العلاقات الاجتماعية»(١٦)

«كلما بعدنا إلى الوراء فى التاريخ، كلما بدا الفرد، ومن ثم أيضا الفرد المنتج، تابعا، منتميا لكل أكبر منه... إن الكائن البشرى حيوان سياسى بكل حرفية معنى الكلمة، ليس مجرد حيوان من الحيوانات التى تعيش فى قطعان، بل حيوان لايستطيع أن يحقق فرديته إلاوسط مجتمع. والأنتاج من فرد معزول خارج المجتمع... خرافة تعادل القول بتطور اللغة بدون أفراد يعيشون معا ويتحدثون الى بعضهم البعض.»(١٧)

وكتب فى أواخر حياته:«لايبدأ منهجى فى التحليل من الانسان بل من الفترة المعطاة إقتصاديا لمجتمع ما»

كانت جذور الفردية البرجوازية الصغيرة القديمة تكمن فى التطلع إلى المحافظة على وضع الاستقلال الذى يكون المرء فيه سيد نفسه، أما عند البرجوازية الصغيرة الجديدة فتكمن فى التطلع إلى صنع مستقبل مهنى. وحين تكون هناك إمكانية للحراك الى أعلى، تتركز آمال من لاثروة لهم على التقدم الفردى وليس على العمل الجماعى، ومن ثم فإن الفكرة المسيطرة وسط الطبقة المتوسطة الجديدة هى أن تحقيق أهداف الفرد يتوقف على التعليم والأرادة والجهد.

على العكس من ذلك تركز مواقف الطبقة العاملة على التماثل، حيث مكانة الفرد يحددها سلفا تراث، تحددها الطبقة التى ولد منها. وينضم العامل إلى منظمات- نقابات- ليحسن وضعه من خلال الجماعة التى ينتمى إليها (أو

تنتمى إليها)، بينما ينضم رجال ونساء الطبقة المتوسطة الجديدة إلى جماعات - اتحادات مهنية ونوادى الصفوة- بهدف تدعيم مكانتهم الفردية وكوسيلة لتعزيز وتحسين صلاتهم المهنية. وحتى حين ينضمون لنقابات صرفة، مثل النقابة الوطنية للمعلمين أو نقابة موظفى الحكم المحلى فى بريطانيا، يقع الكثيرون من كبار أعضائها فى تناقض بين الطموحات الجماعية إلى تحسين ظروف الجميع، والطموحات الفردية إلى صعود السلم المهني.

وحتى أكثر عضوات حركة تحرير المرأة راديكالية، أولئك اللاتى يعتبرن أنفسهن اشتراكيات، يركزن على التقدم الفردي أكثر من الجماعى كشرط مسبق للحرية الفردية، وذلك هو مادعاه ماركس «بالاشتراكية البرجوازية الصغيرة»، وقد امتدح فى «البيان الشيوعى» قدرتها على انتقاد الرأسمالية، ولكنه بين أن اسهامها الإيجابى ضعيف فبسبب من نزعتها الفردية « تنتهى فى جبن إلى نوبة من الاكتئاب»(١٨)

وتسعى عضوات الأتجاه النسوى الراديكالى اليوم إلى فصل المثل الأعلى البرجوازى للحرية الفردية عن الواقع غير الحر للمجتمع البرجوازى: يسعين إلى سحب الفردى من الإجتماعى، وهو مايتضمنه شعار حركة تحرير المرأة القائل بأن «الشخصى سياسى»، الأمر الذى يحول السياسة إلى موضوع شخصى، ويضع لها تعريفا جديدا على هذا الأساس، يلغى العمل الجماعى الهادف إلى التغيير السياسى.

والفكرة السائدة فى الحركة النسائية هى أن على النساء تحرير أنفسهن من المواقف الأبوية القمعية، كما فى كتاب جيرمين كرير «الثورة فى غرفة النوم» مثلا.

ويرد الماركسيون بأن المواقف ليست هى التى تتحكم فى حياتنا بل الظروف الإجتماعية، والقوة الواقعية للرأسمالية والدولة الرأسمالية، وهى التى يجب أن تتحرر منها النساء وأيضا الرجال والأطفال.

من الأجزاء المهمة فى «السياسة الشخصية» مايتصل «برفع الوعى»، فمن حيث تتسم عضوية الطبقة المتوسطة الجديدة بأنها «لاتولد مجتمعا، ولاارباطا قوميا ولاتنظيما سياسيا» (إذا استخدمنا وصف ماركس لفردية الفلاحين)(١٩)، يلعب رفع الوعى دورا مفيدا هنا إذ يلحم مابين جماعات مشكلة من طبقات مختلفة ولا أساس لتبلورها. وتفسر ذلك جوان

كاسل:« ..يتسم تعبير الوعى بالغموض، مشيرا إلى تجربة شخصية، ذاتية، وربما كان هذا الغموض مصدر قوة الحركة النسائية، حيث يكون بوسع المشاركات فى اللقـاءات الإجمـاع على أن الوعى آخـذ فـى الارتفـاع، دونما ضـرورة تلزم بفحص محتويات هذا الوعى الفردى التى ربما كانت متباينة. ففى حركة وارد فيها التباين الكبير فى آراء الأعضاء، تكون الوحدة أسهل عبر مناقشة رفع الوعى، منها لو جرى التحقق من محتوى هذا الوعى»(٢٠)

«رفع الوعى» غريب على رجال ونساء الطبقة العاملة، فهم لا يدخلون فى السياسة لكى يفهموا أنفسهم ويرفعوا وعيهم، وإنما ينضمون لمنظمة ما لأنهم يسعون إلى القوة الجماعية ليغيروا ظروفهم، ليغيروا العالم.

كذلك من مظاهر «السياسة الشخصية» التركيز على تغيير نمط الحياة: رفض الزواج وإقامة«كوميونات محررة» والتجريب فى الحب الحر. وهذا يفصل أولئك النساء عن معظم نساء الطبقة العاملة، فعند هؤلاء يتقرر «نمط الحياة المحُرر» بحجم مبلغ الأجر، وبتكاليف الضروريات وظروف الاسكان.

وحيث تفصل «السياسة الشخصية» المرأة كفرد عن المرأة ككائن إجتماعى، تبلغ النسَويات المساحقات الذروة، إذ ينشئن مستعمرات معزولة ليس للرجال فيها وجود.

إن حركة تحرير المرأة، إذ تفتقر لمرسى من الطبقة العاملة المنظمة، وفى غياب نضال عمالى واسع، تنزلق إلى المنحدر بسرعة، حيث تحتمى فى العلاقات الشخصية، أو فى حالة قلة محظوظة،فى الإبداع أو العمل الأكاديمى وتتخلى عن أى محاولة لتغيير العالم الذى تأخذ بخناقة الأزمة. ويتلاقى الإتجاهان فى الحركة النسوية، الانفصالى والإصلاحى، فالانفصاليات اللاتى يخترن الخروج من البنية الاجتماعية القائمة، يسعين لإقامة واحات محررة داخل النظام ذاته، والإصلاحيات يتكيفن معه، سعيا لاجراء تغيير فى النظام الرأسمالى يفسح مكانا فى القمة لقلة من النساء.

إن العامل الذى ينضم للإشتراكية إنما يتطابق مع طبقته (أوطبقتها)،أما أن ينضم عضو الطبقة المتوسطة للإشتراكية، أن يقطع صلاته بالوسط الإجتماعى للطبقة المتوسطة وينضم الى البروليتاريا روحا وجسما، فتلك مهمة صعبة لايقدر عليها إلا قليلون.

حتى تلك الأقسام من الحركة النسائية التى تتحدث عن الطبقة العاملة،

عادة ماتحيلها إلى دور ثانوى ملحق بحركتها هى، تنظر للصراع الطبقى كاستعراض جانبى خارج الساحه العريضة للحركة النسائية أو الحركة السوداء وخلافة. ولاتمثل الطبقة العاملة لهن ذاتا للتاريخ، وإنما هى فى أحسن الأحوال أحد عناصر الخليط المتنوع للتجمعات اليسارية. واليوم يصدق على الحركة النسوية بأسرها، وحتى على أكثر عناصرها راديكالية، الاستنتاج الذى توصل إليه تحليل «البيان الشيوعى» للإشتراكية البرجوازية الصغيرة، وهو أنها عدو الاشتراكية البروليتارية.

ولايؤدى اللجوء إلى الطرح الأخلاقى للأمور إلا إلى زيادة اليأس والعجز السائدين فى مواجهة دولة رأسمالية تزداد استبدادا.

هوامش الفصل الثانى عشر

١- ماركس وانجلز، الأعمال الكاملة، مجلد (٦)، ص ٤٨٥.

٢- ى.ف. رايت «الطبقة والأزمة والدولة» (لندن ١٩٧٨) ص ٦١-٦٣. كى تكون دقيقين يجب ألا نشير لهذه المجموعة من الشرائح باعتبارها طبقة: فالطبقة تتحدد قبل كل شئ عبر صراعها مع طبقات أخرى، وهو ماصاغة ماركس وانجلز كمايلى: «يشكل الأفراد طبقة فقط بقدر مايتعين عليهم خوض معركة مشتركة ضد طبقة أخرى» (ماركس وانجلز» الأيدولوجية الألمانية» الأعمال الكاملة، مجلد (٥)،ص٧٧). بهذه الإضافة سنواصل استعمال تعبير «الطبقة المتوسطة الجديدة» حيث لم نجد تعبيرا أفضل، انظر ايضا أ. كالينيكوس، «الطبقة المتوسطة الجديدة والسياسة الاشتراكية فى الاشتراكية الدولية» ٢:٢٠ (١٩٨٣).

يقول نيكوس بولانتزاس، غير محق، بأن جميع العمال ذوى الياقات البيضاء، والتقنيين والعاملين فى وظائف إشرافية، ينتمون «للبرجوازية الصغيرة الجديدة» (ن بولانتزاس «الطبقات فى الرأسمالية المعاصرة «لندن ١٩٧٥).

٤- انظر على سبيل المثال، تحليل ماركس للموظفين فى النشاط التجارى فى «رأس المال»، المجلدين (٢) و(٣).

٥- ب. وح. إيرنريش «طبقة المديرين المحترفين» فى ب. ووكر «بين العمل ورأس المال» (لندن ١٩٧٩) ص١٤. تقدير الأخوين إيرنريش للطبقة المتوسطة الجديدة مبالغ فيه، حتى بالرجوع إلى تعريفهما لها. انظر م. آلبرت ور. هانيل «تذكرة للركوب: مواقع جديدة فى الخريطة الطبقية» فى ووكر، ص١٥٥.-٦- ر.سينيت وج. كوب «الجراح الخفية للطبقة» (كامبردج ١٩٧٢) هو ٢٢٩.-٧- الأخوين إيرنريش، فى ووكر، ص ٩٢.-٨- «فاينانشيال تايمز» (٢٢ نوفمبر ١٩٨٢).-٩- أ. سيما نسكى، «نقد وإضافة عن طبقة المديرين المحترفين» فى ووكر، ص ٥٧.

١٠- فريمان، ص ٣٣.-١١- ج. كاسل «جماعة تدعى النساء» (نيويورك ١٩٧٧) ص١٠٤-١٢- كاسل، ص ٩٨و١٨٤.-١٣٠- س. إبشتين «مكانة النساء» (لندن ١٩٧١) ص١٣٨. كارل فريدان، الزوج السابق لبيتى فريدان، مؤلفة كتاب «السر الأنثوى» الذى يعد الكتاب الرائد فى الدعوة النسوية الحديثة، هتف ذات مرة فى غيظ:«لقد كنت أعول «السر الأنثوى»، فقد كان لديها الوقت لكتابته لأنها أقامت فى سكن يطل على نهر هدسون، وكانت لديها خادمة مقيمة، وكنت أتحمل نفقاتها كاملة.... لم تغسل فى بيتى مائة طبق خلال عشر سنوات من الزواج» وتصف هى نفسها الأحوال التى كانت تتوقف فيها عن الكتابة:«لإعداد كأس مارتينى حين يصل زوجى إلى البيت، أو لأعداد العشاء، أو المناقشة، أو الذهاب للسينما أو ممارسة الحب، أو الذهاب مع مجموعة الى السوبر ماركت أو إلى مزاد ريفى يوم السبت، أو لنزهة على الشاطئ......»(وذا ليفلر» ٩-٢٢يوليو ١٩٨٢).-١٤- كاسل، ص١٧٥-١٧٦.-١٥- أ. هاكيت «الحركة النسوية والليبرالية فى ألمانيا ويلهلم ١٨٩٠-١٩١٨» فى ب. أ كارول (إعداد) «تاريخ تحرير النساء» (شيكاجو ١٩٧٦) ص ١٢٨.

١٦- ماركس وإنجلز ، الأعمال الكاملة، المجلد (٥)، ص٤-١٧- ك. ماركس «الجروندريسة» (لندن ١٩٧٣)ص٨٤

١٨- ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد (٦)، ص٥٠٩-٥١٠.

١٩- ماركس وإنجلز، الأعمال الكاملة ،المجلد (١١)،ص١٨٧.

٢٠ - كاسل، ص ١٧.

الفصل الثالث عشر

بقاء الأسرة

تكررت فى كتابات فريدريك انجلز وكارل ماركس فكرة أن الأسرة فى الطبقة العاملة ستذوى فى ظل الرأسمالية، ولم يحدث ذلك. فقد احتفظت مؤسسة الأسرة بوجودها، وليس ضد رغبات العمال، بمافى ذلك النساء.

لقد طرح إنجلز وماركس سببين لتوقعهما إختفاء الأسرة. أولاً أن الملكية الخاصة ومايتصل بها من حقوق الإرث ليس لها شأن فى حياة الطبقة العاملة فى المدن.وثانياً، أن تشغيل النساء والأطفال على نطاق واسع فى المصانع سيلغى اعتماد النساء إقتصادياً على الرجال.

وقد كتب ماركس فى «الأيديولوجية الألمانية» (١٨٤٥): «ولقد زالت

الأسرة فعلياً... مع ظهور البروليتاريا... وعندها لاوجود لمفهوم الأسرة على الإطلاق».(١) وفى البيان الشيوعى المنشور عام ١٨٤٨، كتب إنجلز عن أثر الرأسمالية الصناعية على الأسرة:

«على ماذا تقوم الأسرة الحالية، الأسرة البرجوازية؟ على رأس المال، على المكسب الخاص... إلا أن هذه الحالة التى عليها الأمور تكتمل بالغياب الفعلى للأسرة وسط البروليتاريين.. إن الرياء البرجوازى بشأن الأسرة والتعليم، والعلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء، يغدو اكثر مدعاة للإشمئزاز مع التدمير الذى تلحقه الصناعة الحديثة بجميع الروابط الأسرية بين البروليتاريين، وتحويل أطفالهم إلى سلع عادية للتجارة وأدوات للعمل».(٢)

وبعد نحو أربع عقود أخرى فى عام ١٨٨٤، كرر إنجلز فى كتابة «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» برهانه:

«... حيث أن الصناعة الكبيرة قد نقلت المرأة من البيت إلى سوق العمل والمصنع، وجعلتها- فى حالات كثيرة بما فيه الكفاية- مررد رزق الأسرة، فقد فقدت آخر بقايا السيادة الذكرية فى البيت البروليتارى كل أساس لها»(٣)

فى السنوات المبكرة للصناعة، حين كانت تنمو على نطاق ضخم، بدا مرجحاً أن تسير الأمور على هذا النحو، فقد كانت النساء والأطفال يستخدمون بأعداد هائلة فى مصانع النسيج، وكان المستخدمون يتهافتون بالفعل على استخدام النساء:

«... كان من الأصعب سوس الرجال، وكان الاحتمال أكبر أن يثيروا المتاعب بتجمعاتهم. ولم يكن يعوض هذه العيوب إنتاج أعلى، حيث أن النول الذى يعمل بقوة البخار جعل كل العمال فى مستوى واحد. وبالتالى... كانت تفسر عمل النساء حقيقة أن السيد إذ يجد أن الطفل أو المرأة خادم أكثر طاعة له، وعبد لآلته على نفس الدرجة من الكفاءة، يميل إلى استبدالهما بالعامل الذكر البالغ...»(٤)

فى بريطانيا عام ١٨٥٦، حيث تحددت لأول مرة أنماط التطور الصناعى، شكلت النساء ٥٧ فى المائة من مجمل عمال النسيج، والأطفال ١٧,٢ فى المائة، والرجال ٢٥,٨ فى المائة فقط.(٥)

ولكن بعد منتصف القرن التاسع عشر انقلب هذا الاتجاه، فقد تراجعت الأهمية النسبية لصناعة النسيج تراجعاً هائلاً، ليصبح إنتاج الحديد والصلب،

الصناعة الثقيلة وتطوير السكك الحديدية أهم عناصر الإقتصاد البريطاني، وهي الصناعات التي استخدمت عمالاً فقط وعندما حل عام ١٩٠٧ كانت النساء قد أصبحن لايمثلن أكثر من ٣ في المائة في أهم الصناعات، وهي الصناعات الهندسية.(٦) وفي عام ١٩١١ كانت ٩.٦ في المائة فقط من المتزوجات يعملن خارج بيوتهن.(٧)

لماذا حدث ذلك؟ تقول جميع عضوات الاتجاه النسوي الراديكالي بأنه نتج من معاداة العمال لاستخدام النساء. وينطوي هذا القول على قدر من الحقيقة فيما يتعلق بالعمال المهرة، فقد إستخدموا نقاباتهم في استبعاد النساء من بعض الأشغال، كما استخدموها في استبعاد كثيرين من الرجال أيضاً، وهم العمال المهاجرين وغير المهرة، إلا أن هذا لايقدم التفسير الكامل لما حدث، فالعمال المنظمون في نقابات كانوا أقلية في تلك السنوات بلغت ٢ ١١ في المائة عام ١٩٨٢ مثلاً .

رد فعل على فظائع الثورة الصناعية

يكمن السبب الرئيسي في رد فعل العمال- رجالاً ونساء- على الفظائع البؤس اللذان ارتبطا بالثورة الصناعية.(٩) وفيما يلي وصف لعمل النساء في مناجم الفحم:

«في أحوال كثيرة جداً كانت النساء تقوم بأعمال رفع كسارة الصخور الأجزاء الشاقة من العمل، ويحتملن ظروفاً يضج منها الرجال. وتخضع النساء للعمل في أماكن لايقبل رجل أو حتى صبي بالعمل فيها، فهن يعملن في طرق رديئة وسيقانهن في الماء حتى الركبتين، في وضع انثناء كامل تقريباً، كما يقول رئيس للعمال. والنتيجة الطبيعية لهذا الإذعان هي أن عمل النساء كان يكثر في أسوأ المناجم، حيث يتحملن كدحاً بالغ المشقة في جوفاسد، يسحبن أحمالهن عبر طرق واطئة لزجة تنتشر فيها الحفر المليئة بالماء...»

وقال مفوض وهو يصف حال العمال أثناء عملية «الحط» أو «الهرولة» التي يعمل فيها العدد الأكبر من النساء والشبان من الجنسين: «مصفدون بالسلاسل السيور مثل الكلاب في عربات الجر، ملطخون بالسواد ومتشبعون بالماء،

وأكثر من نصف عراة، يزحفون على أياديهم وأقدامهم جارين أحمالهم الثقيلة خلفهم، وفى كل ذلك يقدمون صورة شاذة ومثيرة للإشمئزاز تفوق الوصف». (١٠)

وإليكم وصفا لنتائج ظروف العمل فى مصانع النسيج فى أولدهام:

«فى أوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كانت الوفيات فى أولدهام بفعل السل، المرض المميز للعمل فوق الطاقة، تزيد على ضعف المعدل القومى، وبلغ هذا المعدل ثلاثة أضعافه وسط النساء فيما بين الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين من العمر، وهن اللاتي قدمن أكبر عدد فى عمالة صناعة القطن، وقد ماتت امرأة من كل ثمانية فى أولدهام من هذه المجموعة العمرية، بينما ثلثهن يعمل فى المصانع». (١١)

وفى نفس الفترة علق الطبيب ويليام آكتون:

«إذا قارنا مومساً فى الخامسة والثلاثين من العمر بأختها التى ربما تكون زوجة وأما لأسرة، أو كانت تعمل لسنوات عبدة فى المعامل مفرطة الحرارة الشائعة هذه الأيام، فنادراً ماستجد الفظائع الصحية التى يعتقد عادة أنها نتائج ملازمة للدعارة، تفوق تلك المرتبطة بأعباء الأسرة والكدح المضنى للقلب فى العمل الشريف». (١٢)

وفوق رؤوس كل من يعملون كان معلقاً التهديد الرهيب لدار الفقراء، ففى عام ١٨٣٤ صدر قانون جديد للفقراء، يلغى «راحة الشوارع» ويرغم من يسقطون فى العوز على دخول دور العمل، أو العمل فى وظائف أجورها ضعيفة للغاية، إن استطاعوا الحصول عليها، وكانت دور العمل تفصل الزوج عن الزوجة والأم عن إبنها، ويسجل مايكل أندرسون أن جمهور السكان فى لانكشاير يتحدث عن دار العمل بالإجماع تقريباً باعتبارها «الباستيل»، ويقول أن أفظع النعوت التى يدمغ بها المرء هو وصف «معوز»(١٣) ويكتب شاهد عام ١٨٥٧:

«يفتك البؤس بالقسم الأكبر من هذه المنطقة... وقد عزم الفقراء على أن يموتوا ولايذهبوا لدور العمل، وليس لدى أى شك فى أن العديدين منهم يفضلون الموت جوعاً على أن يذهبوا إلى هناك، ومن المؤكد أنهم يقاومون الجوع حتى تهلك أجسام أطفالهم الأكثر ضعفاً، أو تضعف إلى حد يستحيل بعده أن تستعيد صحتها». (١٤)

عزز البؤس الولاء مابين أفراد الأسرة، ففى غياب الخدمات الإجتماعية التى تدعمها الدولة، كان على أفراد الأسرة أن يعتمدوا على بعضهم البعض، وتبين باربرا تايلور فى دراستها اللامعة «حواء والقدس الجديدة» كيف اتجهت النساء، على العكس من أحلام الاشتراكيين الطوباويين فى مطلع القرن التاسع عشر بشأن تحرير النساء، إلى الأسرة كملاذ فى عالم قاس، وتطلعت الكثيرات إلى الزوج كعائل. ومن الزواج القائم على القانون غير المكتوب الذى كان منتشراً فى صفوف الطبقة العاملة عند مطلع القرن التاسع عشر، انتقلت نساء الطبقة العاملة اعتباراً من منتصف القرن فصاعداً إلى البحث عن الأمان فى الزواج القانونى:

«أدى الأثر المزدوج للضغط من أعلى وتغير البيئة الإجتماعية من أسفل إلى تضييق الخيارات أمام النساء وجعلهن أكثر عرضه للإساءة الجنسية وفى ظل هذه الظروف اهتمت النساء عامة بفرض التزامات الزواج لابإلغائها، وأصبح الهدف هو العلاقات الآمنه لا العلاقات الحرة. ولعل هذا يفسر جزئياً توجة كثير من النساء إلى الكنيسة، املاً فى أن تفرض قانونها فى الزواج على الرجال....

«وفى فترة تميزت بسوء الاحتمالات أمام النساء خارج إطار الزواج، وبوقوع عبء لايحتمل فى إعالة الأسرة على الكثيرات داخل الزواج، ليس من المدهش أن تتطلع النساء أنفسهن إلى وجود يرتكز على البيت، الذى يعوله ذكر يعتمد عليه فى كسب الرزق، وأن يكون ذلك هدفاً مرغوباً، أو ربما من الأدق أن نقول أنهن وجدن استحالة فى تخيل أى بديل آخر، عدا الواقع الراهن من انعدام الأمن الإقتصادى والإرهاق بعمل فوق الطاقة»(١٥)

والمشهد الذى يبين بأقصى حدة كيف خدم الدفاع عن أسرة العامل مصلحة كل أعضائها، الرجل والمرأة والطفل، هو المصير الذى لقيته أسر العبيد السود فى الولايات المتحدة. فقد كان الزواج القانونى ممنوعاً على العبيد، واستحال استمرار وتوطيد العلاقات، فقد كان من الشائع أن تباع العبدة فتبعد عن رجلها أو أطفالها والعكس بالعكس، وهناك روايات عديدة للعبيد عن الأحداث الدرامية التى أحاطت بالفصل الإجبارى بين الزوجين أو الآباء والأبناء.

لقد سحقت العبودية إنسانية الرجل الأسود وإنسانية المرأة السوداء على حد سواء، فقد كالت لهما القظائع بوحشية متساوية. وتلخص هذا الوضع أنجيلا ديفيز:

«صارت مساوية للرجل بالقوة المحضة للأشياء... ورغم أن الطبقة الحاكمة كانت من الذكور ومتهوسة فى تعصبهالهم، فلم يكن نظام العبيد يسبغ على الرجل الأسود مظهر صاحب الوضع المتميز على المرأة، فلم يكن بوسع العبد أن يكون السيد بلامنازع فى «الأسرة» أو فى مجتمع، لأنه لاوجود أصلاً لما يدعى «عائل الأسرة» بين العبيد فقد كان تحقيق الأهداف الأساسية من العبودية يتوقف على الاستفاده بأقصى قدر وبأقصى وحشية من القدرات الإنتاجية لكل رجل وامرأة وطفل، كان على هؤلاء جميعاً أن «يعولوا» السيد. ولقد أدمجت المرأة السوداء تماماً فى القوة المنتجة.(١٦)

«... كذلك لم يشجع نظام العبيد على تسيد الرجال السود، لأن الأزواج والزوجات والأباء والبنات كانوا جميعاً يخضعون على قدم المساواة للسلطة المطلقة لسادة العبيد، وكان شيوع سيادة الذكور بين العبيد يحمل تهديداً بشرخ خطير فى تسلسل جهات إصدار الأمر». (١٧)

حطم ملاك العبيد «أسرة» العبد لكى «يسحقوا كل رمز للإنسانية والود والعطف عند العبيد». (١٨)

وفى مواجهة ذلك كافح العبيد كفاحاً شاقاً للدفاع عن «الأسرة»، وتتحدث لاندر عن روايات تاريخية عديدة عن العبيد الذين تمردوا على العبودية بسبب من أثرها اللاإنسانى على أسرهم وتقول أنه رغم «تفريق شمل أسر لاحصر لها من العبيد قسراً» عبر «بيع الأزواج والزوجات والأطفال بلا تمييز، فقد صمدت روابط الحب والود والأعراف الثقافية التى تحكم العلاقات الأسرية، وكذلك الرغبة الغلابة فى البقاء معاً، لهجوم العبودية المدمر»(١٩) وترى أنجيلا ديفيز أن الأسرة برهنت على حيوية أكبر من كل القساوات اللا إنسانية للعبودية، وتقول أن هناك «شواهد آسرة على نمو الأسرة واكتسابها متانه أثناء العبودية»(٢٠)

كذلك إذن لعب الدفاع عن الأسرة فى حالة العبيد أيضاً دوراً هاماً فى نضالهم الطبقى.

إعادة بناء أسرة العامل

أدرك ماركس بوضوح أن هيكل تشغيل الأسرة من الطبقة العاملة، كان

محورياً فى تحديد قيمة قوة عمل أى عامل صناعى، فقد أدى تشغيل الرجال والنساء والأطفال إلى توزيع قيمة قوة العمل على جميع أفراد الأسرة العمالية، ومن ثم إلى خفض قيمة قوة عمل كل منهم على حدة. وعلاوة على ذلك ازدادت المنافسة على فرص العمل حدة. وعلى هذا النحو بين كتاب «النضال الطبقى والثورة الصناعية» لجون فوستر، أن الأجور فى صناعة الأحذية فى نوتنجهام انخفضت بصورة جذرية فى عشرينيات القرن الماضى نتيجة جرّ النساء والأطفال إلى العمل فى المصانع، حتى أن إجمالى أجور كل أعضاء الأسرة صار أقل من الأجر الذى كان الرجل يكسبة وحدة قبل تشغيل النساء والأطفال(٢١)

أدركت الطبقة العاملة أن تشغيل النساء والأطفال أدى إلى خفض مستوى المعيشة ورفع درجة الاستغلال، وأنه يمكن مكافحة هذا الاتجاه بشن حملة من أجل «أجر الأسرة»، أى أجر للرجل يكفى زوجته وأطفاله معه دون أن يعملوا، ونجد هذا الإدراك منعكساً فى الاقتباس التالى من صحيفة «تريدز» فى عدد ١٥ أكتوبر عام ١٨٢٥:

«يستحيل أن تهبط الأجور عن المبلغ اللازم لتنشئة عدد العمال الذى يريده الرأسماليون. إن النساج وزوجته وأطفاله يكدحون جميعاً ليحصلوا على هذا المبلغ، بينما يحصل عليه الحداد والنجار بجهدهما المنفرد...

«يجب أن يعود الرجال الكادحون فى هذه البلاد، من كل الطبقات، إلى الطريقة القديمة المألوفة، فيعولوا زوجاتهم وأطفالهم بعملهم هم، ويجب أن يطالبوا بأجور كافية لهذا الغرض.. إننى أنصح زملائى العمال بما أعتبرة أفضل الوسائل لتقليل عدد من يعملون للحصول على أجر، وهو أن يمنعوا زوجاتهم وأطفالهم من منافستهم فى السوق، مما يضرب سعر العمل»(٢٢)

كذلك تقول جين همفريز، محقة، أن عمل النساء من المنزل حيث ينتجن أشياء لهاقيمة، يرفع دخل الأسرة إلى مستويات أعلى مما لو عمل جميع أفرادها.

ويقدم تيلى وسكوت فى كتابهما «النساء والعمل والأسرة» أدلة وافرة على مكاسب النساء من الإنجاز الذى فعله «أجر الأسرة»:

«من العوامل التى أثرت على أجور عمل المتزوجات مايتصل بالتحسن فى الأجور الحقيقة، فقد حسنت زيادة مستوى المعيشة مستوى الغذاء والصحة عند البالغين من أبناء الطبقة العاملة وكذلك أطالت أعمارهم. ومع تراجع حوادث

المرض والوفاة قل عدد النساء المتزوجات اللاتى تسوقهن هذه الظروف إلى الانضمام لقوة العمل وعلى امتداد حياة الزوجة قلت الطوراىء التى تحولها إلى العائل الوحيد للأسرة ».

وبالطبع كان « أجر الأسرة » وتراجع النساء عن العمل ضربة للمساواة الجنسية للنساء، ومن ثم عاملاً مهماً فى اضطهاد النساء. فارتباط القيمة بالنقود علاوة على اعتماد النساء إقتصادياً على الرجال، كان من المحتم أن يؤديا إلى الهبوط بقيمة العمل فى البيت وإلى الدونية الإجتماعية للنساء وهو ماتشير إلية مارجريت بنستون كما يلى « فى مجتمع تتحدد القيمة فية بالنقود، تكون النساء جماعة تعمل خارج إقتصاد النقود. ليس هناك معادل مالى لعملهن، ومن ثم لاقيمة له، وليس إذن عملاً حقيقياً ».

أصبحت النساء مربوطات بالزواج، بأن يصرن زوجات و أمهات، ومع هذه المهمة تواردت كل ملحقات الأنوثة المتعارف على قبولها : الخضوع والسلبية والعاطفية وحمل الهموم، كذلك صارت النساء أغرضاً سلبية يفوز بها أو يأخذها الذكور الأقوياء.

كانت هذه التغيرات نتائج محتمة للانسحاب الجماعى للنساء من الاكتساب بالعمل، ولكن فى ظل ظروف القرن التاسع عشر لم يكن هناك سبيل آخر للدفاع عن الحاجات الأولية البدنية والمعنوية للنساء والأطفال والرجال فى الطبقة العاملة الصناعية.

ويمكن على المستوى المجرد بالطبع القول بأنه ربما كان ممكناً النضال من أجل توفير تسهيلات لرعاية الأطفال وإجازة وضع ومساواة الأجر، وتردد هذه الفكرة هيدى هارتمان:

« بدلاً من النضال من أجل مساواة أجور الرجال والنساء، سعى الرجال وراء « أجر الأسرة » ليحتفظوا بخدمات زوجاتهم فى البيت. فى غياب البطريركية كان يمكن أن تواجه الرأسمالية طبقة موحدة، ولكن العلاقات الإجتماعية البطريركية قسمت الطبقة العاملة، بحيث جرى اقتداء قسم منها (الرجال) على حساب القسم الآخر (النساء) »(٢٤)

هذا هراء، حيث أن الطبقة العاملة فى ذلك الوقت كانت بعيدة جداً عن أن تمتلك السوط اللازم لتحقيق أى جزء من هذه الخطة الطوباوية، وتجيب جين همفريز على أنصار نظرية البطريركية بصورة جيدة جداً:

«... إن أى تحليل يتناول النساء العاملات كمجرد ضحايا سلبية فى مواجهة الرأسمال ومواقف الرجل، إنما يجعل منهن مخلوقات أشبه بالنعاج عاجزة عن الإدراك والدفاع والتصرف بإزاء حتى مصالحهن الأساسية للغاية.»
يحرم هذا نساء الطبقة العاملة «أى شبه بمن له عزيمة شخصية وكرامة».(٢٥)

جددت الأسرة وجودها فى الطبقة العاملة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر باشتراك طرفيها، وإن لم يكن على نحو ودى عادة. بينما تنازعت المرأة المقاومة والتكيف مع اضطهادها. وبينما أعطت الأسرة الرجل امتيازات، فقد أعطت المرأة- إذ أزاحتها من العمل المنتج- إحساساً بالكرامة والأمان، خاصة عبر دورها كأم. وتعطى ليندا جوردون وصفاً ممتازاً لذلك:

«فى القرن التاسع عشر احتاجت النساء الزواج لما هو أكثر من الرجال. فإذ كن يفتقرن للاستقلال الإقتصادى احتجن أزواجاً ليعولونهن، أو على الأقل يحرروهن من الاعتماد الإقتصادى على الاباء وهو أكثر إذلالاً. وفى المدن خاصة، حيث كانت غالبية النساء معزولة بلا محيط إجتماعى، ومحرومة من الدعم الإقتصادى والنفسى بشبكة علاقات الأقارب والأصدقاء والجيران، كان احتمال حلّ الأسر النووية بدورها اللاحم مخيفاً. ففى حالات كثيرة كان الأطفال، وإمكانية إنجابهم يلعبان هذا الدور... كذلك كانت النساء.. معتمدات على أطفالهن فى إعطائهن عملاً له معنى، وكان للاعتقاد بأن تحقق المرأة هو فى الأمومة أساس مادى: فغالباً ما كان هذا النشاط هو الوحيد الخلاق والمستنفر لقدراتها على امتداد حياتها، جزءاً حيوياً من اعتدادها بذاتها».(٢٦)

ومن الصحيح أن أول من ثبت فكرة الأسرة التى لاتعمل المرأة فيها خارج البيت، هو الطبقة الرأسمالية ذاتها، وكان تدفق العمال على المدن الجديدة التى قامت مع الثورة الصناعية، قد أسفر عن الدمار النهائى للأسرة الفلاحية القديمة.

«علاوة على الاغتراب والاستغلال فى العمل، كان على البروليتاريا أن تجابه التشرذم والاغتراب، حيث أصبحت أشكال الحياة الجماعية الريفية القديمة مهددة فى المدن... وقد شاع القول بأن الأطفال البروليتاريين يربيهم الشارع لا الأسرة».(٢٧)

إنشغل المهتمون بالأعمال الإنسانية فى القرن التاسع عشر بارتفاع تكاليف إعالة الأطفال المشردين الواقعة على عاتق الدولة، وبمشاكل الأمراض و«الرذيلة»

و «الفوضى» التى ظهرت فى مناطق التركز العمالى الكثيف فى مدن مثل مانشستر.

وكان الحل هو تحويل نساء الطبقة العاملة إلى زوجات يؤدين عمل العناية بالرجل والأطفال فى البيت ويفسر ذلك جاك دونزلوت:

«كان هذا الحل يوفر ثلاث مزايا فهو أولاً يتيح إحلال كمية إضافية من العمل غير مدفوع الأجر محل إنفاق إجتماعى، كما أنه يتيح أيضاً إدخال قدر من الصحة العامة إلى حياة الطبقة العاملة فى مجال تربية الأطفال والتغذية، وسيمكّن من تصويب السلوكيات الأمر الذى يفسر غيابه الموت المبكر والمرض وعصيان الأولاد، وأخيراً، فإن هذا سيمكن من ضبط الرجل بالمرأة، حيث أنها ستقدم له منافع نشاطها المنزلى فقط بقدر مايستحقها.. المرأة، وربة البيت، والأم اليقظة، هى خلاص الرجل، الأداة المخصوصة لتحضر الطبقة العاملة (من وجهة نظر المهتمين بالأعمال الإنسانية)»(٢٨)

استخدمت الطبقة الرأسمالية تكتيكات متعددة لتشجيع العمال على تبنى هذا الحل، عبر المدارس والدين والترفيه وقنوات أخرى كثيرة. وعلى سبيل المثال، بدأ الإسكان الذى تموله الدولة يقيم بيوتاً صغيرة تتسع فقط لأسرة نووية من رجل وامرأة وأطفال، بغرف مستقلة للأبوين والأبناء من جنسين مختلفين. ومنذ ظهرت دولة الرخاء ابتكرت طرائق أخرى كثيرة كالضرائب ومزايا التأمين الإجتماعى، وتدخل الأخصائيين الإجتماعيين فى حياة البيت وشجع كل ذلك رجال ونساء الطبقة العاملة على تبنى نموذج الأسرة النووية باعتباره نموذجاً خاصاً بهم.

بذلك اجتمعت ضغوط مختلفة، من أعلى ومن أسفل، لتخلق أسرة الطبقة العاملة الحديثة، غير أن العمال تبنوا قيماً ومعايير مفروضة من الخارج على احتياجاتهم الخاصة، وفيما يتعلق بنساء الطبقة العاملة كانت الأمومة، مهما بلغت مشقتها، هى الجزء الأهم وذو المغزى فى حياتهن المقهورة، التى فضلنها على بديلها الوحيد الممكن.

تفترض كثير من عضوات الحركة النسوية اليوم أن نساء الطبقة العاملة فى الماضى كن متلهفات على العمل خارج بيوتهن ولكن معارضة أزواجهن منعتهن من ذلك، وقد فندت هذا الأفتراض تماماً حقيقة الدخول الجماعى للنساء بما فى ذلك المتزوجات- إلى مجال العمل منذ الحرب العالمية الثانية، على نطاق واسع

يمكن مقارنته بامتصاص الصناعة فى بداياتها للعمال الزراعيين.

إذا كان العامل الذى حكم النضال الطبقى للعمال على مدى قرن- منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين هو كفاح العمال والعاملات للدفاع عن الأسرة، الذى أسفر عن إبقاء كل المتزوجات فى البيت، فإن انزواء «أجر الأسرة» الآن بدخول نساء الطبقة العاملة مجال العمل خارج بيوتهن، هو العامل الفاصل فى نضالات النساء.

تخطىء عضوات الحركة النسوية فى تفسير ظهور «أجر الأسر» فى القرن التاسع عشر، ويخطئن بنفس القدر فى رؤية **كل** النساء اليوم كربات بيت أساساً، لا كعاملات بالأجر، وهو واقع الأمر أولاً وأخيراً فى حالة نساء الطبقة العاملة، إن العمل بالأجر هو مفتاح اكتساب نساء الطبقة العاملة القوة والثقة ومن ثم فى تحقيق تحرير المرأة.

هوامش الفصل الثالث عشر

١- ماركس وانجلز، الأعمال الكاملة، المجلد [٥]، ص ١٨٠-١٨١

٢- ماركس و إنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد [٦] ص ٥٠١-٥٠٢.

٣- إنجلز، «أصل الأسر والملكية الخاصة والدولة» (نيويورك ١٩٧٩) ص ٨٠.

٤- ى. بينشبك «العاملات والثورة الصناعية» (لندن ١٩٨١) ص ١٨٧-١٨٨.

٥- هتشينز وهاريسون، ص ١١٠.

٦- ج. ل. جيفريز، «قصة المهندسين» (لندن ١٩٤٥) ص ٢٠٧

٧- ل. م. تيللى وج. و. سكوت «النساء والعمل والأسرة» (نيويورك ١٩٧٨) ص ١٩٦.

٨- انظر على سبيل المثال، هـ. هارتمان «الزواج غير السعيد بين الماركسية والحركة النسوية» (لندن ١٩٨١).

٩- قامت جين همفريز بتوثيق هذا جيداً فى «أسرة الطبقة العاملة،

وتحرير النساء، والنضال الطبقى: من تاريخ بريطانيا فى القرن التاسع عشر»، فى «مجلة الإقتصاد السياسى الراديكالى»، (فبراير ١٩٧٧)
١٠- بينشبك، ص ٢٤٨-٢٤٩.
١١- ج. فوستر «النضال الطبقى والثورة الصناعية» (لندن ١٩٧٤) ص ٩١-٩٢.
١٢- ر. ديفيز، «النساء والعمل» (لندن ١٩٧٥) ص ١٢٦.
١٣- م. أندرسون: «بنية الأسرة فى لانكشاير القرن التاسع عشر»، (كامبردج ١٩٧١) ص ١٣٧-١٣٨.
١٤- ب. هوليس (إعداد)، «الطبقات والصراع فى إنجلترا القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٨٥٠» (لندن ١٩٧٣) ص ٢١٠.
١٥- ب. تيلور «حواء والقدس الجديدة» (لندن ١٩٨٣) ص ٢٠٥، ٢٧٣.
١٦- سارجنت، ص ٩٥، ٩٩.
١٧- أ- ديفيز «النساء والعنصر والطبقة» (لندن ١٩٨٢) ص ٧-٨.
١٨- ج. أ. لاندر ص ١٨٧، «العنصرية والتراث: النساء السود من منظور تاريخى»، فى كارول، ص ١٨٨.
١٩- لاندر، ص ١٨٧.
٢٠- ديفيز، ص ٤، ١٤-١٥ من الأدوار الهامة التى تؤديها قوانين التنقل فى جنوب أفريقيا اليوم، التدمير المتصدى للحياة الأسرية للعمال السود.
٢١- فوستر، ص ٨٧.
٢٢- مقتبس عند هوليس، ص١٩٣-١٩٤.
٢٣- تيللى وسكوت، ص ١٩٩.
٢٤- سارجنت، ص ٢١.
٢٥- همفريز.
٢٦-ل. جوردون «جسد المرأة، حق المرأة» (لندن ١٩٧٧) ص ١١٠.
٢٧- م فوستر «النظرية النقدية فى الأسرة» (لندن ١٩٧٨) ص ١٩٢-١٩٣.
٢٨- ج. دونزيلوت «العرجهة البوليسى للأسر» (لندن ١٩٨٠) ص ٣٩-٤٠.

الفصل الرابع عشر:

الأسرة: ملاذ فى عالم لاقلب له؟

فى ظل الرأسمالية يتخذ اضطهاد النساء طابعاً فريداً من حيث هو يجد جذوره فى الأسرة، التى تتم فيها تربية الأطفال وإعداد الطعام وإعادة إنتاج النوع * من عالم خاص مفصول عن الإنتاج الإجتماعى. وبما أن الأسرة تشكل جزءاً من البنية الفوقية للمجتمع، فتصوغ أفكار وعواطف الرجال والنساء، والأطفال والبالغين، ينبغى لنا أن نلقى نظرة على الأسرة المعاصرة، على الوجة العاطفى من حياة الناس.

رأينا فى الفصل السابق كيف التجأ رجال ونساء الطبقة العاملة إلى حماية

الأسرة التى مثلت عزاء وملاذاً من القطائع التى تَهدد بها النساء والأطفال والرجال، والتى كانت دار الفقراء رمزاً لها وتدعمت عودة الأسرة وسط الطبقة العاملة بالأفكار البرجوازية التى كانت ترسب إليها، فقد ولد كليشيه «بيت الإنجليزى هو قلعته»، وأصبح تعبير «بيتى،بيتى ماأحلاه» الذى تردد لأول مرة فى سبعينيات القرن الماضى، أشبه بنشيد وطنى ثان، وامتلأت حوائط بيوت الطبقة العاملة «بشعارات» على شرائط ملونة من الورق بعرض تسع بوصات وطول ثمانى عشرة بوصة، تشهد بمسرات الحياة العائلية: «فى الشرق، فى الغرب، لامثيل لبيتنا» و«بارك الرب بيتنا» و«الرب هو سيد هذا البيت» و«بيتنا عشّنا حيث كل شىء أحسن»(١)

وقد كتب جون رسكين «البيت هو مكان السلام، والملاذ ليس فقط من كل أذى، بل من كل ذعر وشك وانقسام.... وبقدر ماتتمكن مصادر القلق فى الحياة الخارجية من اختراقه... يكف عن أن يكون بيتا».

وقد لاحظ ماركس فى «المخطوطات الإقتصادية والفلسفية» (١٨٤٤) الفصام فى مشاعر العمال الذكور بين البيت والعمل خارجة:

«العامل... لايشعر بذاته إلا خارج عمله، وفى عمله يشعر بأنه خارج ذاته إنه يشعر بأنه على سجيته حيث لايعمل، وحين يعمل لايشعر بأنه على سجيته... لايشعر الإنسان (العامل) بأنه فاعل بحرية سوى خلال ممارسته لوظائفه الحيوانية، الأكل والشرب والتناسل، أو على أقصى تقدير فى المسكن والملبس، الخ». (٢)

أما فى حالة الزوجة، فحتى الإمكانية الأخيرة غير قائمة، لأن «البيت» هو بؤرة وضعها المغترب، حيث ينتظر منها أن تعنى بالآخرين، دون أن يكون لها حيز أو مجال للفعل خاص بها.

وسنحاول فى هذا الفصل الذى يركز على الأسرة العمالية، أن نبين أن الأسرة تلعب دوراً مزدوجاً يشتمل على القهر والحماية معاً، أنها ملاذ من عالم يدفع إلى الإغتراب وسجن فى آن واحد. سنبين أولاً، كيف أن الأسرة ذات طابع قهرى وثانياً، أن هذا القهر يقع على الرجال والنساء كليهما، وثالثاً، أنها أكثر قهرية فى صفوف العمال منها فى الطبقات الأخرى، ورابعاً، أنها برغم ذلك موضع قبول لأنها مازالت تقدم نوعاً من الملاذ فى عالم رأسمالى، وأخيراً، أن مؤسسة الأسرة

---

* تجديد النوع البشرى.المترجمة

تفرض أقسى ألوان الاضطهاد على أناس مثل الجاى والمساحقات لأنهم لايتلاءمون مع تركيبتها.

يؤدى التصور الشائع عن الأسرة كمؤسسة أبدية لاتتغير، بمعظم الكتاب إلى عزلها عن البنية الطبقية للمجتمع. وبالطبع فإن هناك أوجة شبه تتعلق بالشكل بين أسر الطبقة العاملة وأسر الطبقة المتوسطة، وتتمثل فى البيت النووى المكون من الأب والأم والأطفال، والذى تواجهه الأمور المتعلقة بالعمل وتربية الأطفال والعلاقات الشخصية وقضاء وقت الفراغ، ولكن وراء الشكل تكمن اختلافات حادة فى المحتوى تجد جذورها فى الوضع الطبقى لكل أسرة، فالعالم الخارجى يؤثر على الأسرة العمالية على نحو يختلف جذرياً عن تأثيره فى الأسرة من الطبقة المتوسطة.

ومعظم الدراسات المتعلقة بالأسرة اليوم، تستند إلى أسر البيض من الطبقة المتوسطة، والاستثناءان الوحيدان الجديران بالذكر هما كتاب «زواج ذوى الياقات الزرقاء» لميرا كوما روفسكى التى انتهت من بحثها المفصل عن الأسرة العمالية البيضاء فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٩، وكتاب ليليان روبين اللامع «عالم الألم: الحياة فى أسرة عمالية».(٣) ولم يصدر مثيل لهذين العملين فى بريطانيا، إلا أن النفاذ الذى يتصفان به له فائدة عامة فى فهم أحوال الأسر العمالية فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، بما فيها بريطانيا، والدراسات الموجودة فى بريطانيا تؤكد الملاحظات الأساسية للكاتبتين الأمريكيتين، رغم فوارق المكان والزمان، وقد رجعت إليهما بكثرة.

فى كلا الكتابين تتحدث نساء الطبقة العاملة اللاتى تحدثن إلى الكاتبتين، عن أنفسهن كزوجات وأمهات، كربات بيوت لاكعاملات بالأجر. وحقيقة أن مفهوم النساء ذاتهن عن أنفسهن يتناقض مع الوضع الفعلى الذى هن فيه ربات بيوت وعاملات بالأجر معاً، تنجم عن عاملين: أولهما أن الأفكار تتلكأ خلف الواقع، وثانياً، طالما بقيت الأسرة الخاصة، يفكر الرجال فى أنفسهم لا كآباء بل كمتكسبين للعيش، بينما تفكر النساء على عمومهن فى أنفسهن كأمهات، حتى لو كن يتكسبن وحتى أثناء العمل تفكر غالبية نساء الطبقة العاملة فى البيت ويقلقن عليه، خلافاً لحال النساء اللاتى يعملن فى وظائف تثير اهتمامهن أو تفتح فرصاً للنجاح وبالطبع هناك فترات فى حياة غالبية الزوجات العماليات- حين يكون لديهن أطفال بحاجة لعنايتهن- يعتمدن فيها

كلية على أزواجهن مالياً، وبالتالي ينظرن لأنفسهن «كمجرد ربات بيت». وحتى بين النساء اللاتي يعملن بالأجر، تعمل خمسان منهن وقت عمل غير كامل في بريطانيا حالياً، لذلك يسود دور ربة البيت في مفهومهن عن أنفسهن. ثم إن نظام التعليم، مرة أخرى، يربط الفتيات برؤية وظيفتهن مستقبلاً كربات بيوت- زوجات وأمهات- لاكعاملات.

تتقبل فتيات الطبقة العاملة الدور الأنثوي التقليدي، وتكتب سوشارب في «تماما كما ينبغي لفتاة: كيف تتعلم الفتيات أن يصبحن نساء» وهي دراسة عن فتيات المدارس في إيلينج بغرب لندن، ومعظمهن من بنات الطبقة العاملة:

«في كلية للتعليم التكميلي بلندن، لاحظت المدرسة أن الفتيات اللاتي يتلقين مقررات دراسية في العناية بشعر السيدات، والكتابة على الآلة الكاتبة والتجارة..... يلبسن بطريقة إعلانات، «جيرل»، و «ويتي كوت»، و« بوك ستريت بيرو»، وأنهن مستغرقات تماماً في رسم صورة لأنفسهن، بالعناية بالأظافر والأهداب وكعوب الأحذية العالية ولوازم كل ذلك. بينما لاحظت أن الفتيات اللاتي يحصلن على درجات ضعيفة.... الأمر الذي ربما ينتهي بهن إلى كلية المعلمين أو الجامعة... غالباً مايختلف موقفهن تماماً في مجملة.... وهو ماينعكس في زيهن الذي يكون بناء على ذلك مسترخياً أكثر، مكوناً من الجينز والبلوزات القطنية (تي شيرت)، ولامكياج فاقع».(٤)

وتقول سوشارب أن فتيات الطبقة المتوسطة «كونّ طموحات فردية يلوح فيها الزواج والأطفال حدثين مرغوبين ولكنهما أيضاً مفروضين على حياتهن، وهن لن يكرسن هذه الحياة لهما إلا على مضض».(٥) وفي المقابل تنظر فتيات الطبقة العاملة إلى الزواج كسبيل «للتحرر»، وفي فصل بهذا العنوان تكتب ميرا كوما روفسكي: «إن السيطرة التي تمارسها الأسرة على الإبنة المراهقة بقدر أكبر من الأبن، تفسر إلى حد كبير ولاشك كثرة عدد النساء اللاتي يعتبرن الهرب أحد مزايا الزواج».(٦) كذلك يمثل الزواج إغراء للنساء الشابات لأنه يقدم مهرباً من الوظائف المملة الكئيبة، وتكتب عن ذلك سوشارب:

«إنهن يرين الكثيرات من قريباتهن وصديقاتهن يعملن في أشغال يبدو أنها لاتقدم لهن متعة كبيرة، لذلك فمن المفهوم أن يرتبن أولوياتهن بادئات بالحب فالزواج والأزواج والأطفال ثم الشغل ثم المستقبل المهني الذي يعد بالصعود والنجاح، دونما تغيير كبير في هذا الترتيب... حينئذ لايبدو العمل جذاباً، بل

ضرورة مؤسفة من ضرورات الحياة، وعلى ذلك يبدو أن الفرصة الظاهرة للعيان لتجنبه تكمن فى إحدى مزايا أن يكون الإنسان امرأة.

«وفضلاً عن ذلك هناك مغريات أخرى، ومثلاً فإن الأطفال أولى بالوقت والطاقة من كثير من الأشغال المملة الباعثة على الإغتراب، طالما أنهم يستجيبون للجهد ويكبرون. ومايبدو أنه فرصة باقية لاختيار العمل أو رفضة بعد الزواج والأطفال، والقدرة على تنظيم الحياة فى البيت دون تدخل من أحد، يعطى وهماً بالحرية ويمزيد من حرية الإختيار فى الفعل»(٧)

ولكن الأحلام ويالللأسف سرعان ماتتبدد بعد الزفاف، وكذلك تكتب ليليان روبين:

«ارتدّت الحقائق الإقتصادية التى سرعان ما واجهت الأزواج العماليين الذين تناولتهم الدراسة إلى زواجهم، لتهيمن على كل مايمر به الزوجان من تجارب، وتصبغ كل وجوه ارتباطهما الحديث، وإذ تخيب آمال النساء فى أحلامهن، يشعرن على نحو ما بأن أزواجهن قد أخلفوا الوعد المتضمن فى الزواج، وقد وجدتهن يشعرن بالغضب والخوف معاً»

وتنقل عن أم شابة من الطبقة العاملة: «كان أول ما فاجأنا هو كل تلك المشاكل المالية، لقد كنا فقراء من الدرك الأسفل، وها أنا التى تزوجت بكل تلك الأحلام، موروطة فى العمل دون إمهال، أحاول أن أدبر أمرى بأجر ١.٥٠ جنية استرلينى فى الساعة، وفى أيام كثيرة لايعمل هو ساعات كثيرة لقد شعرت بأن الحياة ليس فيها سوى التدبير بأقل مما يكفى والادخار، ولكننا لاندخر، فقط ننقص مصاريفنا».

وعبرت امرأة أخرى فى السادسة والعشرين من العمر، وأم لطفلين متزوجه منذ سبعة أعوام، عن خوفها وغضبها من زوجها حين سُرحّ من العمل: «لم أستطع أن أغفر له أنه ترك نفسه يفصل من العمل ولم نكف عن الجدل حول هذا الموضوع، لقد شعرت بمنتهى الخوف، بل كدت اعجز عن احتمال الموقف، فقد خفت أن نتورط فى مزيد من المتاعب».

ويرد الرجال، المحبطين فى أنفسهم والخائفين بنفس القدر وهم يتطلعون لمستقبل غير آمن، بطريقة دفاعية وبعدم تفهم لقلق زوجاتهم الغاضب، قال عامل بريد في الثلاثين من العمر، أب لثلاثة أطفال، ومتزوج منذ تسع سنوات، للكاتبة التى أجرت معه الحديث:

«لم أستطع أن أفهم ماذا تريد منى بحق الجحيم، كنت أبذل جهدى فى المحاولة، ولم أكن أسعد منها حالاً بما يحدث لنا.

-وهل قلت لها ذلك؟

أقول لها ! ومن كان يستطيع أن يقول لها أى شىء؟ لقد كانت مشغولة بتفريغ شحنات لسانها، «تزن» يعنى ولامتسع عندها لسماع أى شىء فيستولى علىّ الغضب وأخرج، أذهب مع أصحابى ونشرب بيرة أو أى شىء. وحين أعود، تسوء الأمور أكثر، وأحياناً تستولى على الرغبة فى ضربها فقط لإسكاتها. لم أستطع أن أفهم أبداً لم تفعل ذلك بحق الجحيم. هل تظن أنى لا أعبأ بأنى لا أكسب مالاً يكفى لإعالة أسرتى؟»

وبدلاً من أن يصبح الزواج مهرباً إلى الحرية يتحول البيت إلى سجن، فلم يعد الزوجان حرين فى الخروج مع الشلة القديمة ولا فى التسكع فى أماكنهما المفضلة، أن يذهبا للسينما أو لحفلة كلما خطر لهما، ويتعرض كل من الزوجات والأزواج لهزة، بعدما يتضح سريعاً أن الحرية التى طلباها فى الزواج كانت وهماً، وأنهما استبدلا بمجموعة من القيود مجموعة أخرى ربما كانت أقوى. وتوجز هذه المشاعر موظفة صغيرة فى محل تنظيف تبلغ من العمر ٢٨ عاماً، أم لثلاثة أطفال ومتزوجة منذ أحد عشر عاماً: «استيقظت ذات يوم لأجد نفسى متزوجة وأما لطفل، وقلت لنفسى، كلا لا أستطيع احتمال ذلك. لا أستطيع أن أرى حياتى وقد انتهت وأنا بعد صغيرة جداً.» ويتذكر زوجها البالغ من العمر واحدا وثلاثين عاماً:

«كنت قد بلغت العشرين لتوى، وفجأة صارت لى زوجة وطفل. لم يعد بوسعك أن تخرج كلما رغبت فى ذلك... كنت أنفجر بالغضب عليها، وعلى حياتى كلها، حتى أننى كنت أنقطع عن العمل أحياناً كثيرة، ويزيد هذا الأمور سوءاً، لأنه كان يزيد مشاكلنا المالية. فحتى حين كنت أعمل بانتظام لم يكن أجرى كبيراً بما يكفى، لذلك حين كنت أغيب أياماً، كنا نقع فى متاعب حقيقية.

«ولكن أتدرى، يجب أن يكون للرجل شىء من الحرية، يجب أن يشعر بأنه ليس مضطراً للذهاب إلى نفس ذلك المكان المأفون فى كل يوم من ايام حياته،

مثل العبد».

ويتعرض اعتداد الرجل بذاته للتهديد فى كل مرة يعود فيها إلى البيت حاملاً معه لفة نقود لاتكفى للوفاء بالفواتير، أو ماهو أسوأ، أن يعود غير حامل شيئاً على الإطلاق. وفيما يخص المرأة التى تبقى فى البيت لتربى الأطفال، ومن ثم يرتبط احترامها لنفسها ومكانتها إرتباطاً وثيقاً بإنجازات الزوج، تصبح القضية متعلقة «باحترام الزوج» نفسه. فنجد امرأة فى الخامسة والثلاثين، أم لأربعة أطفال، ومتزوجة منذ ١٨ عاماً، تقول:

«إن الرجل الذى لايستطيع أن يعنى بأسرته ليس له الحق فى أن يأتى ويصدر الأوامر فيمن حوله، على الرجل أن يستحق طلبه أن يصغى الناس إليه حين يتكلم، وطالما لايعولنا على أحسن مايكون، فإنه لايستحق أن يجاب إلى ذلك» وتعلق ليليان روبين:

«سواء انتقلت هذه المشاعر إلى الرجل على نحو صريح أو مستور، فهى بطبيعة الحال تصعد من الصراع الزوجى، حينئذ يبدأ الرجال فى التنفيس عن غضبهم وإحباطهم، أحياناً بالشرب والسهر فى الخارج، وأحياناً بالغضب، ودائماً تقريباً بتقمص وضع مستبد للغاية فى الأسرة، وإلا فبأى طريقة أخرى يؤكدون رجولتهم؟ بأى طريقة أخرى يفرضون وضعهم كرأس للأسرة؟ وتقاوم النساء»(٨)

يجبر المجتمع الرأسمالى الرجال على ترجمة الوضع الإجتماعى إلى أمور تخص القيمة الشخصية فإنفاق المال والحصول على ملكية (منزل أو أثاث، الخ)، تعد أسلحة للدفاع عن كرامة العمال، والإحساس بقلة الحيلة فى العمل يؤدى إلى إحساس فردى بالذنب وإلى تآكل احترام العامل لذاته فى عالم يقوم على اللامساواة الإجتماعية. والهموم المالية تؤثر على الجزء الأكثر حميمية فى الزواج، فهى تغزو فراش الزوجية، وتكتب ميرا كوماروفسكى:

«... يشعر بعض من لايعولون على أحسن وجة بأنهم «مرهقون».... وقد تتبع الزوج نفسه أو الزوجة التراجع فى قدرة الزوج مع إحساسة بالفشل الإقتصادى. وفى حالات أخرى كانت الزوجة هى التى تتأثر استجابتها الجنسية بخيبة أملها فى زوجها كعائل، وبعض الزوجات يعتقدن هذه الصلة بوضوح»(٩)

اللامساواة في الأسرة

ليس فى الأسرة العمالية كثير من المساواة، حتى الشكلية، كما هو الحال فى أسر المهنيين من أبناء الطبقة المتوسطة، وتكتب عن ذلك ليليان روبين:

«... يتمتع الرجل المهنى من الطبقة المتوسطة بقدر أعلى من الأمان والمكانة الإجتماعية والبرستيج، من ذلك الذى يناله الرجل من الطبقة العاملة، وهى عوامل تمكنه من أن يلعب دورة كسلطة داخل الأسرة على نحو أقل سفوراً، فهناك مواقف أخرى على كل حال تختبر فيها قوته وسلطته ويحوزان شرعيتهما. وفى الوقت نفسه، تتطلب مقتضيات عمله دوراً لزوجة تدور فى فلكة، ومايترتب على ذلك من مجازفة بعواقب أيديولوجية أسرية أقرب للمساواة.

وعلى العكس منه، لايتاح لرجل الطبقة العاملة الإحساس باعتباره كثيراً فى العالم خارج جدران منزله، والأسرة هى عادة المكان الوحيد الذى يستطيع أن يمارس فيه سطوته ويطلب الطاعة لسلطته. وحيث أن عملة لايتطلب مشاركة من زوجته، فإنه لايواجه ضغوطاً خارجية مباشرة ولاكثيرة بما يكفى ليقبل بأيديولوجية تنادى بالمساواة».

عادة ماتبدى زوجة العامل تعاطفاً مع زوجها، إنها تفهم حاجاته النفسيه وتحاول إرضاءها، وتكتب ليليان روبين عن ذلك:

«... على السطح، يبدو أن نساء الطبقة العاملة عامة يقبلن بسلطة أزواجهن ويسلمن بشرعيتها، أساساً لأنهن يفهمن حاجتهم إليها. فأين، إن لم يكن فى البيت، يمارس الرجل الذى يعمل على خط الإنتاج أو فى مخزن أو مصفاة تكرير، يمارس ذاته كشخص لكلماته وزن، «جدير» بالإصغاء له؟ ولكن تحت السطح مباشرة، يستقر بئر من المشاعر المتناقضة، لأن إذعان المرأة يكلفها كثيراً. فهى حين تخرس احتياجاتها لصالح إرضاء احتياجاته، تبقى وحدها دونما إرضاء الأمر الذى يسبب لها ضيقاً بالغاً غالباً ماتجد صعوبة فى الإعتراف به حتى لنفسها.

«ومن المحزن أنهما يدركان ربما كما لايدرك أحد، أن الشخص الذى يصر

على احترام مكانتة، هو ذلك الذى فقد ها بالفعل».

هذا التفهم والتعاطف من جانب الزوجة لمحنة الزوج نادرا ما يقابل بتفهم من الزوج لمحنة الزوجة!

فغالباً ما يكون الضغط على العامل فى العالم الخارجى كبيراً حتى أنه يشعر بأسرته فخاً يرغمة على المزاحمة الضارية هناك فى الخارج.

«فى الواقع يستطيع أى طفل فى الخامسة أن يعرف متى (كان اليوم سيئاً لبابا فى العمل)... حين يكون كل يوم عمل سيئاً بل قد تشعر الأسرة أحياناً بأنها كالعدو له. فهو يقول لنفسه، على الأغلب،أنه لو لاهم لاستطاع أن يترك الوظيفة الكريهة، ويعمل شيئاً يشعر معه بإنسانيته مرة أخرى، بدلاً من ذلك الشعور بأنه إنسان آلى».(١٠)

تعيش أسر المهنيين من الطبقة المتوسطة حياة اجتماعية أنشط بكثير من تلك التى تعيشها الأسر العمالية، كتبت عن ذلك ميرا كوماروفسكى:

«فى جلنتون(١١) لاتمثل الحياة الإجتماعية المشتركة مع الأصدقاء الوسيلة المهمة فى قضاء وقت الفراغ كما هى الحال فى الطبقات الإقتصادية- الإجتماعية الأعلى، ويصدق هذا على تبادل الزيارات المنزلية كما على الزيارات المشتركة لأماكن الترفية العامة فخمس المتزوجين لايزورون مطلقاً سوى أقاربهم،و١٦ فى المائة اخرين لايفعلون هذا نفسه إلا نادراً، بضع مرات فى السنة وهذه المناسبات الإجتماعية قد تشمل تجمعات غير شخصية مثل رحلات الأحد التى تنظمها المدارس أو حفل تقيمة شركة بمناسبة الكريسماس.

«وحتى أولئك الذين يحتفظون بعلاقات إجتماعية مع أزواج آخرين، دائرة أصدقائهم صغيرة للغاية، فهى مكونة عند نصفهم من أسرة أو أسرتين. ١٧ فى المائة منهم فقط يلتقى بأربع أسر مختلفة على مدار العام (ويشمل الإحصاء الأسر التى يلتقونها بضع مرات فى السنة على الأقل».(١٢)

لماذا تلك الحياة الإجتماعية الهزيلة؟ أولاً، هناك قلة المال، وثانيا، قلة الإهتمامات المشتركة بين الرجال والنساء، كذلك يشعر بعض الأزواج بالحرج فى المناسبات الإجتماعية لذلك كثيراً مايقع الشجار بين الزوج والزوجة حين يكون عليهما أن يقررا كيف سيقضيان وقت فراغهما، فالرجال يريدون بعد ساعات العمل المضنية المملة فى المصنع، البقاء فى البيت والاسترخاء، أما النساء المجبرات على ملازمة المنزل فلهن احتياجات أخرى.

«إنهن ضجرات متململات معظم الوقت، يشعرن بأنهن حبيسات الجدران فى بيوتهن، مستعدات للخروج إلى أى مكان طالما أنه خارج البيت... هو، الذى يخرج إلى العمل... سعيد بالعودة إلى سلام وهدوء البيت، بينما هى تقتلها الرغبة فى مغادرته، البيت عنده ملاذ، وعندها سجن». (١٣)

وتكتب ليليان روبين:

«أسر المهنيين من الطبقة المتوسطة... تعيش حياة أنشط فى وقت الفراغ على كل المستويات، إنهم يفعلون أكثر، ويخرجون أكثر، ويقرأون أكثر، ولهم أصدقاء أكثر ويرون ناساً أكثر».

ويرجع هذا جزئياً إلى الفوارق المالية، التى تعنى فى حالة أسر الطبقة المتوسطة أن جليسة الأطفال، وحضور عرض سينمائى، والعشاء بالخارج، وقضاء إجازة أسرية، وتمضية يوم آخر الأسبوع بدون أطفال، لاتبدو مكلفة تضحيات مالية كبيرة. (١٤)

عند العمال، البيت والعمل عالمان منفصلان تماماً، ومن ثم ليس هناك الكثير ليتبادل الكلام عنه الزوج والزوجة وتكتب ميرا كوماروفسكى عن ذلك: «بصفة عامة، حيث يشعر كلا الطرفين بأن موضوع حديث الآخر ليس من اختصاصة ولايهمة، يشكوان كليهما من أن الآخ، يتحدث بلاتوقف عن أشياء مضجرة بتفصيل لا لزوم له..»(١٥) يقول ستيبل جاك ذو السنة وثلاثين عاما عن شغله: «لايحتاج شغلى شرحا مطولا، إننى أمزج الطلا، طوال اليوم أطلى به، إنه ممل»، وتعلق ميراكوماروفسكى «عند الزوج، يحمل الكلام عن عملة شبهة «الشكوى» الأمر الذى يعد غير رجولى»(١٦).

لاتحوى الحياة أكثر كثيرا من المهام اليومية المباشرة، إنها لاتدع مجالا يذكر لنشاط ثقافى مشترك بين الزوجين، قد يوسع التشابك الضيق فى المصالح، والفقر الروحى الساحق،

«وهكذا يجد كل من النساء والرجال أنفسهم ملتصقين برباط أليم، يلوم كلاهما الآخر على العجز عن إشباع فانتازيات ثقافية، لاعلاقة لها بحاجاتهم ولابتجاربهم أو بالحقائق الإقتصادية- الإجتماعية للعالم الذى يعيشون فيه... ويصعب إحتمال الأعباء خاصة فى نظام إقتصادى تحكمة المنافسة الضيقة،

لايعطى كل رجل وامرأة الحق فى العمل مقابل أجر يكفى لإعالته وصون احترامه لذاته، كحق بديهى».(١٧)

وعلاوة على ذلك لاتوجد علاقة إجتماعية تذكر بين الزوجة وزملاء زوجها: «الغالبية العظمى من الزوجات- ٨٠ فى المائة- ليست لهن علاقة إجتماعية بزملاء أزواجهن فى العمل. والصداقات التى قد يكونها الزوج فى العمل لاتشمل الزوجات». وتختلف هذه الأمور اختلافا جذريا بين أزواج الطبقة المتوسطة. تقول ليليان روبين:

«عند المهنى... لايوجد ذلك الانفصال بين العمل والحياة الذى غالبا مايميز تجربة الطبقة العاملة، فالعمل والحياة- التى تعنى أيضا اللعب- كلاهما جزء لايتجزأ من الآخر. إن إصدقاءهما غالبا مايكونون زملاء أومهنيين فى مجالات مماثلة أو مرتبطة بمجالهما، والأمسيات التى يقضيانها معهم تعنى أن الأفكار التى تشغلهم فى العمل تضمهم أيضا أثناء اللعب والحياة الاجتماعية تمارس دائما كتجربة مشتركة بين الزوج والزوجة»(١٨).

شغل البيت

شغل البيت يجعل حياة النساء ضيقة وقهرية للغاية، ولكن ليس لأن نساء الطبقة العاملة يبغضن شغل البيت كما تبغضه المهنيات من الطبقة المتوسطة. تقول ميراكوماروفكسى:
«خلافا لربات البيوت من خريجات الجامعات اللاتى يمقتن شغل البيت، لم تقل المجيبات على أسئلتنا أبدا أنهن أفضل من أن يقمن بشغل البيت، وأنه عمل يدوى لايستنفر القدرات...إنهن يقبلن بوضع ربة البيت. ولايكاد يوجد أثر فى حواراتنا معهن للإحساس بالحط من المكانة الذى تقرنه ربات البيوت المتعلمات بدورهن، كما ينعكس فى الجملة المألوفة «إننى مجرد ربة بيت»(١٩)
ولأن رجال ونساء الطبقة العاملة كليهما يقبلان بالفصل التقليدى بين المهام الذكرية والأنثوية، فإن الزوجات لايتوقعن عادة مساعدة من أزواجهن.

«حين طلبنا من الزوجات ترتيب الصفات التى تميز الزوج الجيد، تأخر ترتيب (استعداده لمساعدة الزوجة فى شغل البيت) فكان الثامن عشر من واحد وعشرين صفة معدة للترتيب. واعتبرته ٤ فى المائة مهما جدا. وحتى (المساعدة فى العناية بالأطفال) لم تعتبرها مهمة جدا سوى ١٢ فى المائة من النساء اللاتى شملتهن الأسئلة. وفى المقابل:

«يساعد الرجال الذين أكملوا الدراسة الثانوية زوجاتهم فى شراء الحاجيات والعناية بالأطفال أكثر مما يفعل الأقل ثقافة فيهم... فأربعون فى المائة من الأقل ثقافة (لايساعدون إطلاقا تقريبا فى العناية بالأطفال) مقابل ١٠ فى المائة من خريجى المدارس الثانوية».

وتقول ميراكوماروفسكى أن أحد الأسباب وراء حقيقة أن الأزواج المهنيين من الطبقة المتوسطة أكثر استعدادا للمساعدة هو أن: «زيجات خريجى المدارس الثانوية أميل لأن تكون زيجات سعيدة، وكلما كانت العلاقة أكثر دفئا كلما كانت مساعدة الزوج فى العناية بالأطفال أرجح. فالرجل السعيد فى زواجه يكون أقل ميلا لحساب ميزان الخدمات بينه وبين زوجته».

ولاتعنى حقيقة أن المرأة من الطبقة العاملة تقبل من حيث المبدأ- بوظيفة شغل البيت المربوطة بجنسها، أنها راضية عن حمل هذا العبء، ففى الواقع تشعر ربات البيت من الطبقة العاملة عموما بالإحباط والأكتئاب. وتكتب عن ذلك ميراكوما روفسكى:« ترجع ربة البيت نفسها مشاكلها الأساسية إلى قلة المال اللازم لضروريات الحياة، أو لظروف حياتية مريحة أكثر ، تتيح تدبير جليسة اطفال وقدر من اللهو،إلا أن الفصل الحاد فى الأدوار بين الجنسين، ورغم قبولها به، يضيف إلى إحساسها بالتقيد والعزلة... وتخلق المسئولية عن الأطفال دوئما فرصة فى الراحة والإحساس بأنها مغلولة إلى البيت، الشعور بالسخط».(٢٠)

الوالدين والأطفال

وكثيرا ما يؤدى الفقر وانعدام الأمان بالوالدين، وخاصة الآباء، إلى الانسحاب والانكماش على الذات تماما. كذلك يقول عامل صلب فى الحادية

والثلاثين من عمره لليليان روبين:

«كان أبى رجلا شديد الهدوء. لم يكن يتكلم أبدا تقريبا، الشئ الوحيد الذى أذكر أنه كان يمتعه هو العمل فى الحديقة. كان يأتى إلى البيت، ويتناول طعامه ثم يذهب إلى الفناء كل ليلة من ليالى السنة تقريبا، حتى حين تمطر، وعدا ذلك، فإنه يجلس فى مكانة هادئا وحسب لساعات، وكأنه لاوجود له».

وتعلق ليليان روبين:

«صحيح أن الآباء فى الأسر المهنية من الطبقة المتوسطة قد يتذكرهم أبناؤهم أيضا كأناس صموتين، كأنهم ليسوا جزءا من الأسرة. ولكن أحدا من البالغين الذين نشأوا فى تلك الأسر لايتذكر شيئا مثل ذلك الطابع الشارد المنسحب للداخل الذى كثيرا جدا ماتتصف به التجربة فى بيت عمالى. قد يتذكر ابن الوالد المهنى أنه كان يعمل دائما حتى فى البيت، وأنه كان مشغولا جداً، أو أنه كان يبدو دائما منشغل الذهن. ولكن هذا الشخص نفسه من الراجح أن يتذكر - أكثر كثيرا من نظيره ابن الطبقة العاملة - أشكالا من مشاركة الآباء فى الحياة الاسرية، ولو فقط ساعة العشاء كوقت كان أفراد الأسرة يتبادلون فيه الحديث. يبدو إذن أن الإنشغال هو الصفة التى يتذكرها أكثر من غيرها أبناء الطبقة المتوسطة المهنية عن آبائهم، بينما يمثل الانسحاب إلى الذات أقوى ذكرى حية فى أسر الطبقة العاملة».

يشعر كثير من الآباء فى الطبقة العاملة بقلة الشأن. إنهم يعلمون أنهم ليسوا من «الناجحين». ففى مجتمع يتخذ المال مصدرا للأعتداد بالذات والقوة، يفتقر العمال لكليهما. إنهم لايحظون بالإحترام ويشعرون بعدم الثقة فى أنفسهم، فى عملهم. ويفهم أطفالهم ذلك بوضوح:

«إنهم يعرفون حين يزدرى معلموهم الخلفية الإجتماعية لأسرهم، أو القيم التى تعلموها فى البيت. ويعلمون أن أبطال عروض التليفزيون التى يشاهدونها ليس فيها أبطال من عمال المصانع أو سائقى الشاحنات أو عمال البناء . إنهم يعرفون أن أبويهم ليسوا من أولئك الذين يؤخذون فى الاعتبار،....ثم، وهو ماقد يكون أكثر تدميرا من كل ذلك، إنهم يعرفون أن آباءهم أيضا يعلمون بكل ذلك. فلماذا، إن لم يكن لهذا السبب، يحثون أطفالهم على أن يكونوا «أحسن» وأكثر مما هم عليه؟ ولماذا، غير ذلك، يحملون الكثير من الغضب المعمم الذى لاهدف له، غضب ينفجر بشكل لاعقلانى فى البيت، وقد

انتزع من العالم الخارجي، حيث ينطوى التعبير عنه على احتمالات خطيرة؟ »(٢١)

هذان الأبوان المعيوبان ،قليلا الشأن من الطبقة العاملة ينزعان إلى فرض حكم استبدادى على أطفالهما، وتكتب عن ذلك ميراكوماروفسكى:

« .... أكد الآباء والأمهات من أسر الطبقة العاملة على ما أسموه بالقيم التقليدية، والطاعة والترتيب وإحترام الكبار، من جهة أخرى عبر الآباء والأمهات فى أسر الطبقة المتوسطة عن رغبتهم فى أن يسعد أبناؤهم، وأن يثقوا بهم، ويشغفوا بالتعلم... لايتحدث الآباء العماليون عن الأمان العاطفى أو القدرة على إقامة علاقة مع الآخرين، فمثل هذه المفاهيم لاتدخل فى إطارهم المرجعى »* (٢٢).

ويؤدى الحرمان الإقتصادى والثقافى، مع يد الأب الثقيلة إلى سحق تطور شخصية الأطفال وتحققها.

«الطفل- الصبى خاصة- الذى يولد فى أسرة مهنية من الطبقة المتوسطة، حدوده هى السماء، فأحلامه متحررة نسبيا من القيود. وهو يكتسب إدراكا، منذ يبدأ يعى، بمستقبلة وبالمشاريع التى تعد له، مشاريع ليست بخيالات وتمنيات، فهى تستند إلى الموارد اللازمة لتحويلها إلى حقيقة. وبينما يكبر، يرى حوله طوال الوقت رجالا يؤدون عملا مهما فى وظائف لامعة. وفى البيت والمدرسة والحى، يجد تشجيعا على إختبار قدراته وحدودها، على أن يطاول النجوم.

«أما تجربة أولاد الطبقة العاملة، فهى العكس بالضبط، يولد الطفل فى أسرة تواجه يوميا معضلة البقاء، ولايرى سوى العنت المجنون للوفاء باحتياجات اليوم، ودفع الأيجار غدا، أما مايتجاوز ذلك فتصعب على الوالدين رؤيته. فى ظروف كهذه، بأى شئ يمكن أن يحلم الأطفال؟»

وماذا عن الفتيات؟

«تتذكر قلة من النساء أحلاما فى المراهقة بأن يصبحن ممثلات أو بالعمل موديلات، ولكن الأغلبية تتذكر فقط الرغبة فى الزواج ثم العيش فى هناء لاينقطع بعد ذلك .. وليست القضية هى أن بنات أسر الطبقة المتوسطة يحلمن

---

* الإطار المرجعى ، مجموعة الأفكار والقيم والتصورات التى ترجع إليها جماعة إجتماعية فى تفسير خبراتها وفى أحكامها. الخ المترجمة

أحلاما تختلف كثيرا عن هذه، ولكنهن بجانب أوهام الزواج احتفظن بإحساس بضرورة الإجتهاد من أجل تطورهن الشخصى... عند هؤلاء النساء من الطبقة المتوسطة، يأتى الزواج فى فترة لاحقة متأخرة عن نساء الطبقة العاملة كثيرا، طالما أنه يؤجل إلى مابعد إنهاء الدراسة الجامعية. وفضلا عن ذلك، ماإن تغادر تلك الفتيات البيت إلى الكلية، حتى يحصلن على الأقل على قدر من الحرية والاستقلال اللذين يرغبهما الشبان بشدة ، بينما ينخرطن فى الوقت نفسه فى نشاط يجلب لهن مكانة واحتراما وسط كل من الأسرة والزملاء أو الأصدقاء».

وليست الطفولة عند أبناء الطبقة العاملة ذكرى وردية. وتكتب عن ذلك ليليان روبين:

«... قلة من البالغين من أبناء أسر الطبقة العاملة تتطلع إلى تلك السنوات المبكرة بذلك الخيال الحار«آه لو أعود للطفولة ثانية» كما تسمعه يتردد على لسان البالغين من أبناء الطبقة المتوسطة، ولاعجب أيضا أن صغار أبناء الطبقة العاملة يكبرون سريعا جدا، بينما يتضمن معدل النمو الطبيعى فى كثير من أوساط الطبقة المتوسطة المهنية فترة مراهقة طويلة غالبا ماتمتد حتى منتصف العشرينيات وبعدها أيضا. وهذا التأجيل لتحمل المسئوليات، ترف لايقدر عليه سوى القطاع الميسور من المجتمع.

«وإذا سئلت: ألم تجدى أى حكايات عن طفولة سعيدة، فالإجابة هى: قليل جدا. هناك دائما بضع ذكريات طيبة، بعض الأسر متاعبها أقل، ويربطها حب متبادل أكثر من غيرها، أما طفولة سعيدة، فلا... لقد تذكرت أصولى الفقيرة أنانفسى، نعم، كانت هناك لحظات سعيدة، قطعة آيس كريم، أولعبة صغيرة، نزهة غير متوقعة ونادرة الحدوث للأسرة، ملحوظة مشجعة نادرا ما تصدر من أم مجهدة وخائفة تنوء بأعبائها، بضعة سنتات بين الحين والآخر لأنفقها كما يحلولى والعذاب اللذيذ حتى أستقر على اختيار ولكنها كانت لحظات معزولة، لاتصلح وصفا لصلب حياتى. فالذكريات السائدة لدى عن طفولتى، كما هى حال الناس الذين قابلتهم، هى ذكريات ألم وحرمان، مادى وعاطفى أيضا، فكلاهما يعقب الآخر بنفس الحتم تقريبا الذى يعقب به الليل النهار»(٢٣)

العنف فى الأسرة

يتضح أن الصورة المثالية للأسرة كمنبع للحب والتفهم والدعم اللامحدود، بعيدة عن الواقع، حين نتطلع وراء مظرها الخارجى إلى الاعتداءات البدنية الشائعة جدا فيها.

وبطبيعة الحال، لاتوجد إحصاءات يعتمد عليها بشأن العنف فى الأسرة، ولكن أصبح من المسلم به الآن أنه يحدث على نطاق أكبر كثيرا مما كان يظن من قبل. وتكتب سوزان شتاينمتز وموراى شتراوس فى كتابهما «العنف فى الأسرة»:... يصعب أن تجد جماعة أو مؤسسة فى المجتمع الأمريكى يعد فيها العنف حدثا يوميا كما فى الأسرة»(٢٤) وفى الحالات المتطرفة يتحول العنف البدنى إلى قتل، وقد جاء فى تقرير رسمى عام ١٩٧٧ أن «أكثر من ثلاثمائة طفل يقتلون سنويا فى انجلترا ويلز وحدهما، ويصاب ثلاثة آلاف بإصابات خطيرة، وتؤدى اصابات أربعمائة إلى ضرر مزمن بالمخ، بينما يتعرض ٤٠ ألفا آخرين إلى أضرار غير عنيفة»(٢٥)

وكلما كان الناس مستغلون ومحرومون أكثر، كلما زاد العنف، ويكتب ريتشارد جيلز فى «البيت العنيف»:

«.......بينما يقع العنف فى الأسر من جميع المستويات الاقتصادية الاجتماعية، فهو يشيع بأكبر قدر فى الأسر التى يأتى موقعها فى قاع الهيكل الاجتماعى... معظم العنف الذى يقع بين الزوجين أو على الأطفال، يحدث فى الأسر ذات الدخل المنخفض، والثقافة المحدودة، والتى يشغل الزوج فيها مكانة وظيفية متواضعة»(٢٦)

كذلك تجد ميراكوماروفسكى صلة واضحة بين انخفاض مستوى التعليم وزيادة حجم العنف فى الأسرة فبينما أشارت ٣٣ فى المائة من الزوجات اللاتى يقل عدد سنوات تعلميهن عن ١٢ عاما إلى وقوع مشاجرات تتضمن العنف البدنى، كانت هذه النسبة ٤ فى المائة فقط فى حالة الزوجات الحاصلات على تعليم لإثنى عشر عاما فصاعدا(٢٧). ووجد باحث آخر أن آباء حوالى نصف الأطفال الذين تعرضوا لضرب عنيف، كانوا عاطلين عن العمل خلال السنة التى

سبقت هذا العنف، بينما كان ١٢ فى المائة عاطلون أثناء الفترة التى وقع فيها الضرب (٢٨)

وبينت دراسة عن صغار الأطفال الذين يتعرضون لمعاملة مفرطة السوء فى شمال وشرق ويلتشاير خلال الفترة ١٩٦٥-١٩٧١، أن ٤٨ فى المائة من الآباء (أو الرجال الذين يقومون بهذا الدور) كانوا عاطلين عن العمل، وأن ٧١ فى المائة منهم كانوا عمالا غير مهرة، وأن ٩٨ فى المائة منهم لايملكون المنزل الذى يعيشون فيه (٢٩) ويبين مشروع بحثى آخر أجرى فى منطقة ستارثكلايد عام ١٩٨٠ على الأطفال الذين يتعرضون للإيذاء بصفة غير عارضة أن ١٠ فى المائة فقط من أمهاتهم كن يعملن وقتا كاملا أو غير كامل، وأن ثلثى آبائهم كانوا عاطلين عن العمل.

وبينما تكون النساء الضحية الرئيسية لعنف الرجال فى الاسرة، فانهن يتحولن إلى مرتكب العنف الرئيسى ضد الأطفال. كذلك يكتب ريتشارجيلز: «أشد الوالدين عدوانية بدنية هو الأم.... فهى التى تنفجر عادة مستخدمة العنف حين ينفذ صبرها».(٣٠)

ويذكر باحثان أمريكيان أنه من أصل ٥٧ حالة ضرب أطفال تناولاها، كانت الأم هى المعتدية فى خمسين منها.

أحد أشكال الاساءة إلى الأطفال التى تتشابك فيها السلطة والقهر الجنسى هى علاقات المحارم. هذه العلاقات نادرة، ولكن ليس إلى الحد المتصور، فقد قدرت دراسة شاملة أجريت على مدى ثلاث سنوات عدد هذه الحالات فى نيويورك بثلاثة آلاف سنويا، ورأى باحثون آخرون أن هذا التقدير متحفظ «كان المعتدون الذين تكرروا فى شهادات المجيبين عن الأسئلة هم أساسا الأب، أو قريب ذكر، أو صديق الأم، الذين يسهل عليهم جميعا دخول البيت. وتراوحت أعمار المعتدى عليهم بين شهر أو شهرين وسبعة عشر أو ثمانية عشر عاما. وكما فى العنف البدنى تزيد احتمالات الاعتداء الجنسى على المحارم حينما يؤدى الفقر إلى انعدام الخصوصية الشخصية وغير ذلك من المعوقات(٣٢)

وتحديدا لأن الأسرة «قلب فى علم لاقلب له»، لأن الناس فى محيط مغترب يطلبون منها أكثر مما يسعها تقديمة، ولأن الزوج والزوجة يعتمدان على بعضهما

فقط فى إشباع احتياجاتهما الوجدانية وبصورة متزايدة، فإنها تتحول إلى مرجل للضغوط والإحباطات والكراهية. فكما يقول ريتشارد جيلز:

«...إن التفاعل والحميمية والقرب العاطفى على مدى طويل فى الحياة الأسرية، تكشف المناطق الحرجة عند كلا الطرفين وتسلبهما الواجهات التى قد يوجدانها لحماية نقاط الضغط الشخصية عند كل منهما. ونتيجة لذلك، يصبح الزوجان خبيرين فى مهاجمة نقاط ضعف كل منهما، قادرين على إيذاء بعضهما جيدا بالهجمات والهجمات المضادة... يصبح كلاهما خبيرا فيما يتعلق بالنقاط القابلة للضرب فيها عند الآخر. وسرعان مايتعلم كلاهما ماذا يضايق الآخر، وخلال المشاجرات الأسرية أو النقاشات أو المواجهات، يقدم أحد الزوجين أو كلاهما على «الذبح» فيهاجم نقاط الضعف»(٣٣)

لقد بقى نمط الأسرة القائم على زوج عائل، وزوجة معتمدة عليه تطهو وتربى، رغم حقيقة أنه فى بريطانيا ١٩٧٩ كان «العامل التقليدى»- أى المتزوج ولديه زوجة لاتعمل وأطفال- يمثل ٨ فى المائة فقط من قوة العمل الذكرية، و٥ فى المائة من إجمالى قوة العمل.

الأسرة كمعمل لتفريخ المرض العقلى

لايقل المرض العقلى أذى عن المرض البدنى، ويبين بحث هام أجراه جورج براون وتيريل هاريس عن الاكتئاب وسط النساء، أن هناك علاقة متبادلة بين الطبقة التى تنتمى اليها النساء وبين درجة تكرار الاضطرابات النفسية.

وتعيش النساء التى أجرى الاستطلاع بينهن فى كامبرويل بجنوب لندن، وقد اتضح أن الأحداث العنيفة فى الحياة مثل إصابة شخص عزيز بمرض خطير، أو فقدان الوظيفة، أو الحمل رغما عن الارادة، أو العجز عن الحصول على منزل أو الاخلاء منه، تسبب لنساء الطبقة العاملة تعبا نفسيا أكبر مما تسببه لنساء الطبقة المتوسطة، وكان هذا ملحوظا بصفة خاصة فى حالة النساء ممن لديهن أطفال فقد مرت ٣٩ فى المائة من الأمهات من الطبقة العاملة باضطرابات نفسية

عقب حدث عنيف، مقابل ٦ فى المائة من الأمهات فى الطبقة المتوسطة.

ويرتفع معدل الاضطرابات النفسية بصفة خاصة وسط نساء الطبقة العاملة اللاتى يقل عمر أصغر أطفالهن عن ستة أعوام- حوالى ٤٢ فى المائة (مقابل ٥ فى المائة عن نظيراتهن من الطبقة المتوسطة). كذلك:

«وجدنا أن المرأة التى ليس عندها علاقة حميمة، شخص تستطيع أن تثق به وتفضى إليه بأسرارها، وخاصة زوج أو حبيب، تكون أكثر عرضة بكثير للإنهيار إزاء حدث عنيف أو صعوبة كبيرة».

ووجد براون وهاريس، مثل روبين وكوماروفسكى، أن الطبقة تؤثر بشدة على هذا النوع من الدعم الحميم، ففى الأسر العمالية يقل الدعم النفسى الذى يقدمه الأزواج عن ذلك الذى يقدمه الأزواج من الطبقة المتوسطة، وقد أفاد البحث أن ٣٧ فى المائة فقط من نساء الطبقة العاملة الأمهات لطفل تحت السادسة يتمتعن بقدر كبير من الحميمية مع أزواجهن أو صديقهن الخاص، وهى نصف النسبة القائمة فى الجماعة المماثلة من الطبقة المتوسطة.

تمتلك المرأة من الطبقة المتوسطة احتياطيات مادية ونفسية لمواجهة الأحداث القاسية فى الحياة، أكبر من تلك التى تحوزها المرأة من الطبقة العاملة، فبوسعها الانتقال إلى مجالات نشاط جديدة، وعقد صلات جديدة يمكنها أن تعتمد عليها. يقول براون وهاريس:

«فى الغالب تستطيع المرأة من الطبقة المتوسطة أن تسافر، وتزور أصدقاء يعيشون فى منطقة بعيدة، أو أن تشترى فستانا جديدا، ولعلها على قدر أكبر من الثقة بالنفس والمهارة التى تمكنها من اقتناص التجارب الممتعة، وكذلك أيضا قناعة أقوى بأنها ستحقق فى نهاية الأمر أهدافا معينة على درجة من الأهمية. وفى أحوال كثيرة قد لايعنى التماسك فى وجه الأزمات سوى تدعيم الأمل فى تحقيق الأفضل».

والعامل الفاصل فى اثره على الحالة النفسية للمرأة من الطبقة العاملة، هو إحساسها بأنها محاصرة كما «فى قفص»، بالوضع المقيد الذى يخلقه عدم الذهاب للعمل. وتتضح أهمية العمل للصحة العقلية للنساء من الأرقام التالية: من النساء غير العاملات، والأمهات لطفل، ولكن اللاتى لاتربطهن صلة حميمة بأزواجهن، تعرضت ٧٩ فى المائة لاضطرابات نفسية حين وقع حدث قاس فى حياتهن، وانخفضت النسبة إلى ١٤ فى المائة عند من يعشن نفس الظروف

مع فارق اشتغالهن بوظيفة.

ينتهى براون وهاريس فى كتابهما إلى مايلى:

«باختصار، يرجع بعض الفارق بين الطبقات الاجتماعية فى التعرض للاكتئاب، لحقيقة أن نساء الطبقة العاملة تمر بهن أحداث حياتية أعنف ومصاعب أكبر، خاصة حين يكون لديهن أطفال، فهناك مشاكل السكن والنقود ومشاكل الزوج والأطفال (إذا نحينا جانبا المشاكل الصحية) التى تتسم بأهمية خاصة، والأحداث المتعلقة بهذه الأمور هى الوحيدة ذات التأثير العنيف فى حياة نساء الطبقة العاملة عادة، وهى المرشحة بوضوح لضغوط حياة «وسط المدينة» التى أصبحت محور كثير من التعليق الاجتماعى حاليا».

ومن أهم إسهامات البحث الذى أجراه براون وهاريس، مايلقيانه من ضوء على التقاء تأثير الطبقة والأسرة على الصحة العقلية للنساء . فالانتماء للطبقة العاملة وحدة لايزيد من قابلية المرأة للاضطرابات النفسية، إذا كانت غير متزوجة. ومن جهة أخرى، لاتزيد احتمالات تعرض المرأة المتزوجة للإضطرابات النفسية إذا كانت تنتمى للطبقة المتوسطة، والمزيج الخطر هو الانتماء للطبقة العاملة مع الزواج.

«... ينخفض معدل الإضطرابات النفسية على نحو ملحوظ وسط غير المتزوجات (حالة بين كل عشرين)، ويرتفع بصورة ملحوظة وسط الأرامل والمطلقات والمنفصلات (حالة بين كل ثلاثة)، ولكن لاتوجد علاقة فى أيهما بالطبقة، فتأثير الفوارق الطبقية قاصر على المتزوجات فى هذا الشأن»(٣٥).

والخلاصة، أن ارتفاع معدلات المرض النفسى بين نساء الطبقة العاملة المتزوجات المسئولات عن رعاية أطفال وغير العاملات، يعكس كلا من الاستغلال الرأسمالى والاضطهاد الجنسى المتضافر معه.

كيف تبدو المقارنة بين النساء والرجال فيما يتعلق بوقوع المرض النفسى؟ تناول العديد من الباحثين هذه المسألة، وهناك موجز هام للأبحاث الخاصة بها قدمه «و.ر.جروف» فى مقال بعنوان «العلاقة بين أدوار الجنسين، ووضع الزواج، والمرض العقلى»، يقول فيه أن الأبحاث فى جميع البلدان:

«بينت أن معدلات المرض العقلى وسط الزوجات أعلى بكثير منها وسط

الأزواج. وعلى العكس من ذلك، تبين من مقارنة النساء العازبات بالرجال العزاب، والمطلقات بالمطلقين والأرامل بالمترملين، أن معدلات المرض العقلى عند النساء لاتزيد على الرجال، وفى الواقع إذا كان هناك فارق بينهما فى فئة غير المتزوجين فهو يتمثل فى قلة معدل المرض العقلى عند النساء عنه عند الرجال».

ويستنتج جوف من الإحصاءات أن النساء تتعرض لضعف الضرر الذى يلحق بالرجال من الزواج، ويقول أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن «الرجال يلعبون دورين أساسيين، دور المشتغل بوظيفة، ودور رب العائلة، بينما تلعب النساء فى الغالب دورا واحدا، هو دور ربة البيت». (يتعارض مع هذا تشغيل النساء على نطاق واسع، غير أن النساء والرجال مايزالون يفهمون أدوارهما بهذه الطريقة، وتلك هى النقطة المهمة.)

وفى معرض تأييد وجهة نظرة القائلة بأن الفوارق فى الدور الوظيفى بين الرجال والنساء هى التى تفسر أساسا الفوارق بينهما فى معدلات المرض العقلى، يتتبع جوف ما يحدث للرجال حين يبلغون سن التقاعد والمعاش، ويجد أن «هناك أدلة تجريبية على الأقل تفيد أن معدلات المرض العقلى تتقارب أكثر بين الرجال والنساء المتزوجين فى مرحلة مابعد سن التقاعد». (٣٦)

الأسرة ليست ملجأ حصينا

ليست الأسرة ملاذا آمنا معزولا عن عالم العمل، فهو يخترق كل وجه من وجوه حياة العامل، ويكتب عن ذلك «لاشى»:

«إن التطورات التاريخية التى فرضت ضرورة إقامة حياة خاصة- الأسرة بصفة خاصة- كملجأ من عالم السياسة والعمل القاسى، وكملاذ وجدانى، هى ذاتها التى غزت هذا الملاذ وأخضعته لسيطرة خارجية، ولم يعد بوسع الهروب إلى «الانكفاء على الشخصى» أن يحمى قيما يتهددها الزوال خارجة» (٣٧)

ويصف عامل فى مصانع فورد وضعه كمايلى:

«لم أعتقد ابدا إننى سأقدر على مواصلة العيش، كنت أعود من العمل إلى

البيت ، وأسقط فى النوم على الفور. كانت قدماى وذراعاى تلتهب بالألم، وأنا أعرف ماهو العمل الشاق، فقد عملت فى البناء ولكن هذا المكان كان فظيعا حينئذ. لقد انقطعت علاقتى بزوجتى طوال شهور، وليس هذا عدلا ، أليس كذلك؟ لايجب أن يكون هناك عمل بهذه المشقة»(٣٨)

وتبين دراسة عن أثر العمل بنظام العمل بالتناوب الأوربى أن الرجال لاينامون جيدا ، وأن شهيتهم تأثرت، وهم متعبون دائما ويصابون بالإمساك وقرحة المعدة والتهاب المفاصل بالروماتويد، والصداع ومتاعب فى المستقيم، إضافة إلى:« تتعلق المتاعب التى تكثر الاشارة اليها فى علاقات الزوج والزوجة بغياب العامل عن البيت فى المساء. والعلاقات الجنسية، والمشاكل التى تواجه الزوجة فى قيامها بواجبات زوجها فى البيت... وهناك جزء آخر من الحياة الأسرية يتأثر سلبا ببعض أنواع نوبات العمل، وهو العلاقة بين الأب والأطفال... »(٣٩)

كذلك فقد حولت الرأسمالية الجنس نفسه الى سلعة رئيسية، تخدم سوقا ضخما يضم سلعا على الموضة، تزعم أنها تزيد جاذبية النساء الجنسية وقدرة الرجال، ويضم مختلف أشكال تجارة العرى. ويصبح الميل الجنسى مجموعة من الإحساسات المثيرة جسديا ، مغتربة عن الشخص. وهو مايصوغة جورج فرانكل فى كتابه «فشل الثورة الجنسية» كما يلى:« ...يركز أصحاب صناعة الأحلام بالجملة... كلية على الأداء الجنسى والمواقف الجنسية، ولايسمحون لشخصية أفراد موضوعهم بأن «تقحم» نفسها(٤٠) ومنذ زمن بعيد، فى عام ١٩٢١ شجبت الكسندرا كولونتاى هذا المفهوم للجنس: «يجب انتقاد الموقف البرجوازى من العلاقات الجنسية بوصفها موضوعا يتصل بالجنس وحسب، ليحل محله فهم لكل الأبعاد التى تنطوى عليها تجربة الحب المفرحة، التى تغنى الحياة وتفتح الطريق لسعادة أكبر. فكلما ازداد التطور الذهنى والعاطفى للفرد، كلما قل الحيز الذى يشغله الجانب الجسدى المحض من الحب فى علاقته أو علاقتها بالآخر، وازدادت تجربة الحب إشراقا »(٤١)

ويزيد التصور الميكانيكى عن الجنس مشاعر القلق عند كل من النساء والرجال ،فتسأل المرأة نفسها «أأنا جذابه، وناجحة جنسيا كالنساء المصورات فى المجلات والأفلام والتليفزيون؟« ويسأل الرجل نفسه هل أتمتع بالفحولة؟ »

تشوه الرأسمالية كل البشر فى المجتمع، إذ تحرم الرجال والنساء والأطفال من

القدرة على تطوير إمكانياتهم فى كل مجال من مجالات الحياة. والأسرة، ذلك الجزء من المجتمع الذى يتطلع إليه الناس طلبا للحب والعزاء، تنسخ العلاقات الخارجية، ومن ثم تتحول إلى مرجل للصراعات الشخصية، للغضب والغيره والخوف ومشاعر الذنب.ويعجز كل من الرجال والنساء عن التطابق مع المثال المنمط المستحيل الذى يقدمه لهما المجتمع عن كل منهما.

إذا كانت فعالية الأسرة فى توفير حاجات الناس الشخصية، قد أخذت تقل شيئا فشيئا، فلماذا مايزالون يتمسكون بها؟ لماذا، من بين جميع المؤسسات، تبدى هذه المؤسسة أكبر قدرة على البقاء؟

صحيح أنه كلما زاد العالم قساوة، كلما قلت قدرة الأسرة على حماية حاجات أعضائها الوجدانية والمادية، ولكنه صحيح أيضا أن الحاجة تزداد، للسبب نفسه، إلى مجرد وجود ملاذ من هذا النوع، فليس هناك مكان آخر يوفر إمكانية إشباع جميع الحاجات الشخصية تقريبا، فأن يكون المرء خارج الأسرة النووية، يتيما أو أرملة أو ارملا بلا أقارب وثيقى الصلة به، أو أن يكون رجلا أو امرأة فى أواسط العمر أو متقدما فى السن وأعزب، يعنى الوحدة، وماهو أسوأ. فالعون المتبادل يمثل احتياجا أساسيا لكل من الرجال والنساء، من هنا فإن الأسرة النووية تستمد قوة من الوحدة. وتقهر مؤسسة الأسرة المرأة، وهى من جهتها تساهم فى صنع الاغلال التى تقيدها، فتزينها بزهور الحب.

الأسرة جدار معتم يعيق الناس عن رؤية المجتمع التنافسى القاسى فى الخارج، والتساؤل عن مدى مشروعيته، إنها تجعل لاإنسانية شخص محتملة أكثر عند شخص آخر. إن فظائع العالم الخارجى تفسر التوترات الحادة فى الاسرة ولكنها أيضا تفسر استمرارها المثابر، الأسرة المعاصرة تابع للرأسمالية وأحد دعائمها الأساسية.

«المنحرفون» من ذوى الجنسية المثلية

يتم فرض توزيع الأدوار الجنسى على الجميع، وبسبب من الدور الحيوى الذى تلعبه الأسرة، فإن البالغ الذى لايتزوج وينشئ أسرة يدمغ كمنحرف.

ويتحدى ذوو الجنسية المثلية كلا من الأساس المادى للأسرة المعاصرة- أى تجديد النوع البشرى على نطاق خاص- والبناء الفوقى الأيدولوجى الخاص بها، أى الأنماط والأفكار التى تحدد الدور الجنسى للرجال والنساء. وذلك رغم حقيقة أن الجنسيه المثلية شائعة أكثر بكثير مما يفترض عادة، و قد وجد كينزى فى بحثه أن ٣٧ فى المائة من الذكور المجيبين على أسئلته و١٣ فى المائة من الاناث ، مروا بتجارب مثلية بلغوا فيها الذروة الجنسية وتغطى فترة عمرية تصل إلى الخامسة والأربعين.(٤٢)

يوضع ذوو الجنسية المثلية فى إطار نمط المنحرفين، رغم حقيقة أن الأسرة القائمة على الزواج الأحادى لم تكن القاعدة فى التاريخ، ففى قائمة جورج ميردوك التى ضمت ٥٥٤ مجتمعا كان الزواج الأحادى سائدا فى ١٣٥ منها فقط (٤٣) كذلك لم تكن الجنسيه المثلية تعد دائما إنحرافا، فقد وجد س.س. فورد وف. بيتش فى دراستهما لمائة وتسعين مجتمعا، أن بين ٧٦ منها حيث توافرت معلومات عن الجنسية المثلية اعتبرها ٤٩ مجتمعا أمرا عاديا(٤٤)

فى مجتمعنا يرغم ذوو الجنسية المثلية على العزلة، وحين يتمكنون من الخروج منها بمقابلة آخرين مثلهم،يرغمون على البقاء فى جيتو اجتماعى بعيدا عن العمل والأسرة والحياة الاجتماعية العادية، إن جيتو الجاى يكسر عزلتهم كأفراد، ولكنه يحافظ على عزلتهم عن باقى المجتمع.

وحتى العلاقة بين الجاى أنفسهم ليست متحررة من الأدوار التقليدية للرجل والمرأة، فمهما حاولوا لايستطيعون الافلات من ضغوط المجتمع الرأسمالى وشروطه، ولذا يفرض عالم الجنسية المخالفة الذى يقهر فيه الرجل المرأة تقسيماته على الجاى أيضا. ويفسر أحد الكتاب الدور الذكرى عند الجاى كمايلى:

«إزاء لعب الأدوار فى مجتمع يطالب بتعريفات جنسية، بلعب أدوار فى الجنس، الذكر مقابل الأنثى، ماذا بوسعنا أن نفعل، نحن الذين يدينهم المجتمع بوصفهم أنصاف رجال؟ غالبا ماترد بالمبالغة فى إظهار هويتنا. إننا نرى فى البارات المسوخ الغريبة من عالم الجنس العادى، الذكور المتباهين بفحولتهم، والعاهرات اللاتى فقدن جمالهن، باردون وهشون. وتفضح عيونهم الخوف والبغض بينما يتنافسون بضراوة شريرة لابعاد شبح الوحدة عنهم آخر الليل»(٤٥)

ويستخدم التقسيم بين «الذكر» و«الأنثى» في العلاقة بين المساحقات عادة. تقول سيدني آبوت وباربرا لاف في كتابهما المتأمل «سابفو* كانت امرأة على حق»:

«تستخدم بعض المساحقات تعبيرات مثل «الزواج، أو «الزوج و«الزوجة»، ولكن هناك سببا عميقا وراء ذلك، فتلك هي الكلمات الوحيدة في ثقافتنا التي تحمل معاني الحب والثقة والدوام والمسئولية في علاقة... ويمكن افتراض أن توزيع الأدوار يوجد بين المساحقات لأنهن نشأن في مجتمع يوزع الأدوار.. لقد أمضين كل وقتهن في حضارة تبيع قسرا طريقة في الحياة تقوم على توزيع السيادة والخضوع والاستقلال والتبعية والعدوان والسلبية، بين الذكر والأنثى على التوالي». (٤٦)

وفي الواقع ليست فكرة «الذكر» و«الأنثى» في علاقات الجنسية المثلية دقيقة تماما حيث ينقل أرنوكارلن في كتابة الضخم «الجنسية والجنسية المثلية» عن أخصائي نفسي أن: «نسبة صغيرة تلعب دور الأنثى بانتظام، ونسبة صغيرة أخرى من الجاي الفحول، الذين يلعبون دائما الدور الفاعل، ولكن غالبيتهم تتبادل الأدوار» (٤٧) ولكن مهما بلغت قوة رفض حركة الجاي المعاصرة وتجمعات

* سابفو: شاعرة يونانية في القرن السابع قبل الميلاد، موطنها جزيرة «ليسبوس» التي منها اشتق إسم المساحقات LESBIANS . المترجمة

المساحقات للأدوار المرتبطة بالتصنيف الجنسي، فليس بوسعهم أن يكسبوا هذه المعركة. فرغم أن «بيان جبهة تحرير الجاي» يدين الزواج ويتحدث عن موت الأسرة، يلجأ الجاي في بحثهم عن الأمان العاطفي في عالم قاس، إلى تقليد نفس المؤسسة التي تنكرها جنسيتهم. إلا أن العلاقات بينهم نادرا ماتدوم كما بين كينزي، رغم أن كثيرات من المساحقات يعشن معا لخمس سنوات أو عشرة أو خمس عشرة سنة. ويقول آرنو كارلن أن: «كثيرين من الجاي يقولون أنهم يتطلعون إلى علاقة طويلة الأمد كما أنهم يرتبطون سريعا، ولكن مايحدث في الواقع هو أنهم يدخلون في سلسلة من العلاقات العاصفة الهشة، قصيرة العمر». (٤٨)

يطلب الجاي التزاما عاطفيا من أصحابهم لايقل عما يطلب غيرهم، رغم الموقف الذي يبدو ليبراليا في الظاهر المتبني للجنس خارج الزواج. فهم إذ يعيشون في ظل ضغط فظيع من عالم معاد، يشعرون بجنسيتهم بحدة تزيد

كثيرا على غالبية ذوى الجنسية المستقيمة، ومن هنا انتشار النزوع للتملك وسطهم، لأن تملك الأشياء مثل تملك الناس، يمنح إحساسا يسيرا بالأمان. كذلك كتبت آبوت ولاف:«فى مجتمع المساحقات، حيث لازواج، ولاقيود إجتماعية أو قانونية تساعد فى دعم العلاقات بعد مرحلة الحب الرومانتيكى الأولى، ترتع الغيرة والإحساس بعدم الأمان»(٤٩)

كذلك فان عالم الجنسية المثلية، الذى يبدو وكأنه يقوض الأفكار الرأسمالية، تغزوه الرأسمالية تماما.

«الثقافة البديلة للجنسية المثلية نهب للمشاجرات والأوهام، فتنزع النساء إلى الانفصال عن الرجال، والجاى المذكرين عن الجاى المؤنثين، وهكذا وكثير من هذه المواقف ليس سوى إنعكاس لقيم الجنسية المخالفة، ويعكس بعضها الآخر غزو علاقات النقود. فى عالم الجاى هنا من أسهل الأمور أن يفقد الناس فرديتهم، حيث يصبح الجنس هدف الحياة، ويصبح الأفراد أشياء».(٥٠)

الخلاصة أن الرأسمالية حولت الجنسية المثلية إلى «مشكلة» فطالما بقيت الأسرة التقليدية وحدة إقتصادية لتربية الأطفال واشباع الحاجات الاستهلاكية للبالغين، محكوم على ذوى الجنسية المثلية بأن يعدوا منحرفين:

فالذكر الجاى لايلائم دور العائل لزوجة وأطفال، والمساحقة لاتلائم دور الأم والزوجة. إن الأسرة المعاصرة ليست فقط سجنا لمن هم بداخلها، ولكنها أيضا تحاصر أولئك الذين لايتلاءمون مع أنماط التوزيع الجنسى للأدوار المرتبطة بها.

هوامش الفصل الرابع عشر

١-ى.شورتر، «تكون الأسرة الحديثة»(لندن ١٩٧٥)ص ٢٣٠-٢٣١.

٢- ماركس وانجلز، الأعمال الكاملة المجلد (٣)، ص٢٧٤-٢٧٥.

٣- م. كوماروفكسى«زواج ذوى الياقات الزرقاء» (نيويورك ١٩٦٧)،ول. روبين «عالم الألم: الحياة فى أسرة الطبقة العاملة»(نيويورك ١٩٧٦).

٤- س.شارب «تماما كما ينبغى لفتاة : كيف تتعلم الفتيات أن يصرن نساء»لندن (١٩٧٦) ص٧١.
٥- شارب، ص٣٠٥
٦- كوماروفسكى، ص٢٥
٧- شارب:ص ٢١٠-٢١١
٨- روبين، ص٨٠-٨١, ٩٠-٩١.
٩- كوماروفسكى،ص٩٣.
١٠- روبين، ص٩٩, ١١٣, ١٦٠-١٦١، ١٧٩.
١١- «جلنتون» إسم إطلقته ميراكوماروفسكى على بلدتين صناعتين متجاورتين وثيقتى الصلة تكونان مقاطعة.
١٢- كوماروفسكى، ص ٣١١-٣١٢.
١٣- روبين، ص ١٨٨
١٤- روبين ص ١٨٩.
١٥- كوماروفسكى ص٥١.
١٦- كوما روفسكى ص١٥١-١٥٢.
١٧- روبين،ص١٧٨
١٨- روبين، ص١٩٠.
١٩- كوماروفسكى، ص٤٩, ٥٥, ٦٠.
٢٠- كوماروفسكى، ص٥٦, ٦٠
٢١- روبين، ص٣٦-٣٧, ٥٥
٢٢- كوماروفسكى ص ٧٦, ٧٨.
٢٣- روبين،ص ٣٠, ٣٨, ٤٠-٤١, ٤٦.
٢٤- س. شتاينمتز وم. شتراوس (محررين) «العنف فى الأسرة» (نيويورك ١٩٧٥) ص٤
٢٥- ج. رينفواز «شرك العنف: دراسة عن العنف فى الأسرة» نيويرك ١٩٧٥،ص٤
٢٦- ر.ج.جيلز «البيت العنيف» (لندن ١٩٧٢) ص١٢٥، ١٣٠, ١٩٢.
٢٧- كوماروفسكى، ص٣٦٦.

٢٨- د.س. جيل «العنف الموجه للأطفال» فى «جريدة الزواج والأسرة» (نوفمبر ١٩٧١).

٢٩- ج.ى.أوليفر وآخرون«الأطفال الذين يتعرضون لمعاملة بالغة السوء فى نورث إيست ويلتشاير»(أكسفورد ١٩٧٤).

٣٠- جيلز،ص٥٥، ٧٧

٣١- شتاينمتز وشتراوس،ص١٩٦

٣٢- رينفواز، ص ١٨٢. تؤدى سطوة الذكور على الأناث، خاصة الشابات الصغار، مضافا إليها الاستغلال الجنسى، بكثير من الضحايا إلى استخدام اضطهادهن كسلاح قوة. تقول جين رينفواز:«هناك فتيات كثيرات بلاشك يستمتعن بمثل هذه العلاقة مع والدهن ما إن يقبلن بها، حتى و إن شعرن فى الوقت نفسه بالذنب تجاهها، فهى تعطيهن إحساسا بالسطوة، بل إن بعضهن يأخذن فى الابتزاز، فيطالبن بهدايا ثمنا لصمتهن. وإذا كانت العلاقة بين الوالدين محدودة، فانهن يشعرن برضاء كبير من لعب دور «الأم الصغيرة»، وبينما يمارس الأب والإبنه الفانتازيا الخاصة بهما، تدفع الأم جانبا. ومن المحتم أن تحس الفتاة بمشاعر مختلطة إزاء الأم، فهناك الغضب منها لأنها لاتحميها من الأب، فهى تعلم أنها علاقة خاطئة حتى لو استمتعت بها، وهناك أيضا الإحساس بالذنب لأنها تحرم أمها مكانها المشروع» (رينفواز،ص١٨٤-١٨٥)

٣٣- جيلز، ص ١٦٤-١٦٥

٣٤- «أسر المستقبل» (لندن ١٩٨٣) ص ١٩.

٣٥- ج.و.براون، و. ت. هاريس «الأصول الاجتماعية للاكتئاب: دراسة فى الإضطرابات النفسية لدى النساء» (لندن ١٩٧٨) ص ١٥٤، ١٧٨-١٧٩، ٢٩١.

٣٦- و.ر.جوف «العلاقة بين التوزيع الجنسى للأدوار، ووضع الزواج والمرض العقلى» فى «القوى الاجتماعية»جامعة شمال كارولينا، سبتمبر ١٩٧٢).

٣٧- س. لاشى «صلاة فى عالم لاقلب له» (نيويورك ١٩٧٨) ص ١٧، ١٨ من المقدمة.

٣٨- هـ. بنيون «العمل عند فورد» (لندن ١٩٧٧) ص ٧٥

٣٩- ب. ى. موت وآخرون «العمل بنظام النوبات: العواقب الاجتماعية والنفسية والبدنية» (ان آربور ١٩٦٦) ص ١٨، مقتبس عند ت. كليف «هجوم أصحاب العمل» (لندن ١٩٧٠) ص ٧١
٤٠- ح. فرانكل «فشل الثورة الجنسية» (لندن ١٩٧٤) ص ١١٦-١١٧.
٤١- كولونتاى، كتابات مختارة، ص ٢٣١
٤٢- أ. س. كينزى وآخرين «السلوك الجنسى عند الذكر» (فيلادلفيا ١٩٤٨) و«السلوك الجنسى عند الأنثى» (فيلادلفيا ١٩٥٣).
٤٣- ج. ب. ميردوك «عينه إثنية من العالم» فى «أميركان أنثروبولوجيست، العدد ٥٩ (١٩٥٧)
٤٤- س.س فورد، وف .بيتش «أنماط من السلوك الجنسى «(نيويورك ١٩٥١) ص.١٣٠
٤٥- والعر، ص٨٦.
٤٦- س آبوت، ون. لاف «سابفو كانت إمرأة على حق :رأى تحررى فى المساحقة» (نيويرك ١٩٧٢)
٤٧- أ. كارلن «الجنسية والجنسية المثلية «(لندن ١٩٧١) ص ١٩٨.
٤٨- كارلن، ص ٥٢٧
٤٩- آبوت ولاف، ص ٨٠-٨١
٥٠- «جاى لفت» ربيع ١٩٧٦) مقتبس عند ديكس، ص ٢٢٣.

الفصل الخامس عشر

النضال من أجل الإشتراكية وتحرير المرأة

الجذور الطبقية لاضطهاد النساء

على امتداد هذا الكتاب، اتخذنا من علاقات الاستغلال الطبقى نقطة انطلاقنا فى تحليل مكانة النساء فى المجتمع، وفى ذلك اقتفينا أثر مؤلف فردريك إنجلز «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» (الذى نشر لأول مرة عام ١٨٨٤). فقد وضع هذا العمل الأساس لتحليل مادى لظروف النساء، إذ حدد

موقع الاضطهاد الجنسى والأسرة فى اطار البنية الإقتصادية للمجتمع. وقد دافع إنجلز عن فكرة أن التغيرات فى أسلوب الإنتاج- أى فى الطريقة التى ينظم بها المجتمع إنتاج الأشياء التى يحتاجها للحياة- تؤثر على أسلوب الوجود الإنسانى بأسرة بما فى ذلك شكل العلاقات بين الرجال والنساء. كتب إنجلز فى «أصل الأسرة...»:

«أن العامل الفاصل فى التاريخ هو، فى التحليل الأخير، إنتاج واعادة إنتاج الحياة المباشرة. ولكن هذه العملية نفسها تتسم بطابع مزدوج، فهى تتم من جهة بإنتاج وسائل العيش، الطعام والملبس والمأوى والأدوات التى تستلزمها، ومن جهة أخرى بتكاثر النوع». (١)

الإنتاج وتجديد النوع البشرى ليسا مستقلين أحدهما عن الآخر، فالأول حاسم فى تشكيل الثانى، وكلما تطور المجتمع كلما صدقت هذه القاعدة أكثر. وينتج عن ذلك «مجتمع يسيطر فيه نظام الملكية كلياً على نظام الأسرة».

أيد إنجلز فكرة عالم الأنثروبولوجى الأمريكى لويس مورجان القائلة بأن النساء كن يتمتعن بمكانة مساوية للرجال فى مجتمعات المشاعية البدائية التى سبقت ظهور الطبقات، وفى هذه المجتمعات كان تقسيم العمل يعكس اختلاف القوة الطبيعية لكل من الرجال والنساء، وكانت العلاقات الجنسية تقوم على الإختيار الحر من الطرفين، وفى ظل سيادة «حق الأم» كان الأبناء ينسبون إليها لا إلى الأب ولكن مع تزايد إنتاجية العمل، تغيرت العلاقات الإجتماعية، فقد أصبحت قطعان الحيوانات ثروة، وكان الرجال هم الذين يرعونها، وتدريجياً تآكل وضع النساء اللاتى كانت لهم اليد العليا فى البيت، ومع تزايد ثروة الماشية، أراد الرجال أن ينقلوا ملكيتها لأبنائهم الذكور، ووقف فى طريقهم «حق الأم»، فأطاحوا به، لتحل محله الأسرة الأحادية التى تربط امرأة واحدة برجل واحد مدى الحياة، وتخضعها لارادته.

«كانت الإطاحة بحق الأم هى **الهزيمة التاريخية العالمية لجنس النساء**. وأمسك الرجل بمقاليد الأمور فى البيت أيضاً، وامتهنت المرأة واستعبدت، لتصبح عبدة لشهوة الرجل، مجرد أداة لإنجاب الأطفال». (٢)

وكانت هذه الهزيمة، كما يقول إنجلز، جزءاً من نفس العملية التى انقسم المجتمع من خلالها إلى طبقات مستغلة وطبقات مستغلة، واحتكر المستغلون وسائل العنف عبر سيطرتهم على الدولة:

«يتواكب أول تعادٍ ظهر في التاريخ مع تطور التعادى بين الرجل والمرأة فى الزواج الأحادى، كما يتواكب أول اضطهاد طبقى مع اضطهاد جنس النساء على يد جنس الذكور». (٣)

وعلى ذلك استحال فصل تحرير النساء عن النضال ضد المجتمع الطبقى ذاته.

منذ نشرت كتابات مورجان وإنجلز فى أواخر القرن التاسع عشر، أنهمر الازدراء من علم الأنثروبولوجيا الإجتماعية الحديث على دعواهما بأنه كان هناك مجتمع مشاعى بدائى أمومى، وقد أهيل على هذه النظرية من الوحل ما استطاع أن يدفن أفكار مورجان تحت جبل من النقد. بينما بقيت أفكار ماركس وداروين الثورية حية.

ومن الواضح أن مورجان وماركس ارتكبا أخطاء بالفعل فى تفسيرهما للدلائل التى كانت تحت أيديهما، فلا توجد أدلة مستمدة من وقائع تشهد بوجود قبائل بدائية من الأخوة والأخوات الذين يتزاوجون كما زعم مورجان، وعلى العكس فكلما ازدادت القبيلة بدائية ازدادت صرامة في التحريم الجنسى بين الإخوة والأخوات. كما أنه ليس صحيحا ما قالة إنجلز من أن الزواج الأحادى نشأ عن رغبة النساء فى تحريرهن من الحقوق الجنسية عليهن من عدد من الرجال، وفى ضوء الأدلة المضادة لذلك التى أتيحت له عن أعمال مورجان وحدة، يبدو هذا تنازلاً غريباً لأخلاقيات العصر الفيكتورى.

ومن المرجح أن نظرة مورجان وإنجلز للمجتمع الأمومى باعتباره مماثلاً تماماً للمجتمع الأبوى لم تكن صحيحة فبسبب قلة المعلومات المتوافرة تصعب معرفة الوزن النسبى لكل من جمع الثمار (عمل النساء) مقابل الصيد (عمل الرجال) فى فترات وأماكن مختلفة، باعتباره الأساس المادى للنظام الأمومى. ولأسباب واضحة يتسم علم الأنثروبولوجى بأنه علم مثير للجدل، بالمقارنة مثلا بالتاريخ، ناهيك عن العلوم المضبوطة.

غير أن منتقدى مورجان وإنجلز لم يركزوا على أخطاء تتصل بالوقائع كهذة، وإنما على منهجهما التاريخى والمادى فى التفسير. فهم يقولون أنه طالما لاتوجد قبائل بدائية متبقية من الفترات المبكرة من المجتمع الإنسانى، لايمكن استخدام المنهج التاريخى، وعلى ذلك فإن استنتاجات مورجان وإنجلز ليست سوى تخمينات. وهكذا يقدم علم الأنثروبولوجى الحديث فيضاً من الوقائع

التفصيلية حول الحياة فى المجتمعات البدائية، ولكن دون ربطها بمؤسسات إجتماعية بدائية كالأسرة مثلاً ولكنهم حين يحاولون فعلاً تفسير أصل قوانين الزواج البدائية، لايتأخرون فى استخدام التخمينات هم أنفسهم، وهى تخمينات تستند إلى مبادىء نفسية وإقتصادية يزعمون أنها «عامة» ولكنها تفضح فى الواقع تحيزاتهم الطبقية لا أكثر.

ونفس علماء الأنثروبولوجى الذين يرفضون المنهج الذى استخدمه مورجان وإنجلز، فى جملتهم، ينكرون أن تكون قد وجدت فى أى وقت فترة من المساواة بين الجنسين، وبالمثل يؤكدون أن الملكية الخاصة ملمح ثابت فى كل المجتمعات، حتى أكثرها بدائية.

وقد استخدم بضع مؤلفين أدلة أحدث لتأكيد الفرضية التى طرحها إنجلز ومورجان، ففى دراسة لروبرت بريفولت.(٤) عام ١٩٢٧ عن الحياة الإجتماعية للحيوانات، رفض فكرة وجود «أسرة نووية» منذ الأزل وقال أن طول فترة العناية التى تبذلها الأم عند القردة العليا، جعلت الإناث يدفعن بتطور الحياة الإجتماعية إلى الأمام، ومن ثم يأخذن الخطوة الأولى نحو الإنسانية. وفى دراسة أحدث رأت إيفلين ريد(٥) أن العمل التعاونى بين الرجال والنساء استقر عبر تحريم أكل اللحم البشرى والعلاقات الجنسية بين الإخوة والأخوات من أم واحدة وقالت أن الحرية والمساواة بين الجنسين فى الإقتصاد القائم على الصيد وجمع الثمار، كانا شرطاً ضرورياً لتمكين النساء من لعب الدور القيادى فى التحول من الحيوانية إلى الإنسانية. ونشير إلى أن عمل إيفلين ريد يعتمد على معطيات علم الأنثربولوجى الخالص، وهى طريقة تحتمل الكثير من الجدل.

تحتاج أطروحات بريفولت وريد تقييما مفصلاً، ولكن من الواضح أنه أيا كانت الأخطاء التى ارتكبها الماركسيون فى دراستهم لبداياتنا الأولى، فإن هذه الأخطاء لاتشمل المنهج التطورى والمادى، ولامفهوم الشيوعية البدائية المنطوية على مساواة الرجال والنساء. ومن وجهة نظر الماركسيين، لايمكن فهم وضع النساء فى المجتمع وبنية الأسرة إلا فى إطار أسلوب الإنتاج السائد.

وعلى العكس من فكرة أن النساء ضحايا مجتمع «أبوى» (أو بطريركى) لايخضع للتغيير، فقد مر وضعهن فى المجتمع وكذلك بنية الأسرة بتغيرات ضخمة، حتى خلال المائتى عام الأخيرة فالبيت الفلاحى الذى عاش فيه معظم

الناس قبل الثورة الصناعية، يختلف كثيراً عن الأسرة النووية المعاصرة، فقد كان وحدة إنتاج مثلما هو وحدة استهلاك، حيث تعمل النساء والأطفال معاً تحت إشراف الرجل رأس العائلة، وينتجون مواداً لا لإستهلاكهم الشخصى وحسب، بل وكذلك للتبادل مع العالم الخارجي. لم تكن الأسرة الفلاحية وحدة خاصة مغلقة على نفسها إزاء المجتمع الخارجي. كما يقول مارك بوستر:

«لم تكن الأسرة الزوجية هى الوحدة الأساسية للحياة الفلاحية الحديثة على الإطلاق، بل القرية. كانت القرية هى أسرة الفلاح... كان عمل النساء حيوياً لبقاء الأسرة ومجتمع القرية، ولقد كان عملهن شاقاً وطويلاً، فقد كن يطبخن ويعنين بالأطفال ويرعين الحيوانات المنزلية وبحديقة البيت، كما كن ينزلن إلى الحقول حين تشتد الحاجة، كما فى وقت الحصاد. وكانت النساء تقوم بتنظيم النسل، وبمراقبة تبادل الغزل بين الشبان والشابات فى تجمعات المساء». (٦)

فقط مع تطور الرأسمالية الصناعية اتجة دور النساء إلى الإنعزال فى البيت، لقد كفت الأسرة عن أن تكون وحدة إنتاج، بينما أصبحت العناية بالأطفال والطهو والغسيل شغل بيت، مهمة ربة البيت، أسيرة بيتها ذاته. هكذا ظهرت الأسرة كوحدة خاصة، وهى التى يعتبرها أيدلوجيو المحافظين، مثل فرديناند ماونت كاتب خطب مارجريت تاتشر، ملمحاً «طبيعياً» فى كل المجتمعات. (٧)

غير أن شغل النساء فى البيت، وإن يكن مستبعداً من الإنتاج الإجتماعى، يتسم بأهمية أساسية للطريقة التى تنظم بها الرأسمالية هذا الإنتاج، لأسلوب الإنتاج الرأسمالى، لأن العمل الذى يتم داخل بيت الأسرة يمد الرأسمالية بقوة العمل اللازمة لها، فجيلاً بعد جيل يولد عمل النساء مجدداً قوة العمل ذاتها، بدنياً عبر إنجاب الأطفال وثقافياً عبر ترتيبهم، كما أنه على المستوى اليومى «يجدد» العمل فى الأسرة، حيث يجعلهم صالحين للعمل فى اليوم التالى. ويقول ماركس:

«هذا الإنتاج المتجدد الدائب للعمال، هذا التأبيد لوجود العامل، هو الشرط الذى لاغنى عنه للإنتاج الرأسمالى.. إن الحفاظ على الطبقة العاملة وتناسلها (إعادة إنتاجها) هو شرط ضرورى لإعادة الإنتاج الرأسمالى وسيظل كذلك دائماً»(٨)

إلا أن الوحدة الجدلية بين الإنتاج وتجديد النوع تخفيها حقيقة أن العمل المنزلى المتضمن فى تجديد النوع يتم على نطاق خاص، إنه عملية فردية تتم

خارج المجتمع. ولكن إذا لم تقم النساء بهذا العمل غير المدفوع الأجر داخل الأسرة العمالية، ستضطر الرأسمالية- من أجل تأمين التجدد البشرى لطبقتها العاملة- إما إلى دفع أجور أعلى أو تقديم خدمات إجتماعية أكبر بكثير لتحل محل الخدمات التى تقدمها الآن ربات البيوت.

ومؤسسة الأسرة ذاتها ليست فقط جزءاً من الأساس الإقتصادى للمجتمع، بل وكذلك جزء من بنائه الفوقى. وقد بينا من قبل كيف أن اضطهاد النساء، الذى يستقر موقعه فى الأسرة، يخترق كل وجوه الحياة، ويخلق مجدداً تشويهات التنميط الجنسى فى الجيل التالى. وكما يقول إنجلز، فإن الطريقة التى يخدم بها اضطهاد النساء أسلوب الإنتاج الرأسمالى تعنى أنه يؤثر على النساء فى مختلف الطبقات بطريقة مختلفة، فدور البرجوازيات فى المجتمع الرأسمالى هو أن يأتين بورثه شرعيين، يستطيعون نقل الثروة المتراكمه الخاصة بالطبقة الحاكمة إلى الجيل التالى. أما دور نساء الطبقة العاملة فهو تجديد الجيل الحالى وكذلك التالى من العمال. وتستفيد نساء الطبقة الحاكمة بالفعل من اضطهاد نساء الطبقة العاملة، فهن يستفدن من تشغيل النساء بأجور رخيصة.

وصحيح أن البرجوازيات يتعرضن للتمييز بالمقارنة بالرجال من نفس طبقتهن، ولكن الشق بين الأثنين لايعد شيئاً مقابل الهوة التى تفصلهن عن نساء الطبقة العاملة. والدلائل على ذلك فى مجالين هامين للمجتمع الرأسمالى، هما الملكية والتعليم تتحدث عن نفسها بوضوح صارخ. ففى عام ١٩٧٠ كانت النساء، اللاتى يشكلن نصف السكان فى بريطانيا، يمتلكن تقريباً ٤٠ فى المائة من الثروة الخاصة.(٩) بينما لاتمتلك نساء الطبقة العاملة شيئاً من ذلك أو يملكن شيئاً يسيراً وفى التعليم، يوجد تمييز قائم على الجنس، حيث تشكل النساء ثلث طلاب الجامعة فقط، ولكن التمييز القائم على الطبقة أكثر حدة بكثير، ففى عام ١٩٧٥-١٩٧٦ ذهبت إلى الجامعة ٢.٩ فى المائة فقط من فتيات المدارس العامة، مقابل ١٦.٩ من مدارس اللغة *، و٣٠.١ فى المائة من المدارس التى تدفع لها مصاريف خاصة مباشرة. إن أثر الطبقة على فرص الفتاة فى دخول الجامعة حاسم.

فى هذين المجالين الهامين يزيد المشترك بين البرجوزايات والرجال من طبقتهن كثيراً على مايجمعهن بنساء الطبقة العاملة، فهؤلاء المدعوات «أخوات» ينتمين لعالمين مختلفين.(١١)

من المستفيدون من اضطهاد النساء؟ تجيب عضوات الاتجاه النسوى الراديكالى، والنسوى الاشتراكى، وحتى الاتجاه النسوى الماركسى: هم الرجال: ونجيب نحن علية بلا قاطعة.

فأن يكون الإنسان امرأة من الطبقة العاملة، تعتمد مالياً على زوجها، وتحمل العبء المزدوج لشغل البيت والعمل فى وظيفة مملة ضعيفة الأجر، فذلك وضع يطفح بالقهر. غير أنه حين يكون عاملاً، يقوم بدور مورد الرزق فى عالم قاس مُهدد، والبطالة معلقة على رأسة كسيف ديموقليس، فليس ذلك امتيازاً. إن العاملَ مسلوب الإنسانية تماماً كالمرأة، وهو ماعبرت عنه ليندسى جرمان فى مقالها الممتاز، «نظريات البطريركية» كما يلى:

«.. لم يقدم أجر الأسرة فائدة مادية للرجال. فهو لم يغط أكثر من الحد الأدنى لتكلفة تجديد النوع (البشرى)، الكمية الكافية لإعاشة الأسرة كلها...

«فى ظل نظام أجر الأسرة تعانى المرأة المتزوجة من حيث هى مستبعدة من الإنتاج الرأسمالى المباشر، ومن ثم فهى، كالعاطل، محرومة حتى من مظهر المستهلك المستقل. يمثل ذلك جزءاً هاماً مما نعنية حين نقول أن الزوجات **مضطهدات** بينما العمال مستغلون، ولكنه لايعنى أن العمال الذكور يستفيدون من اضطهاد النساء....

«إن شغل البيت، بحكم التعريف، لايخضع للإيقاع الذى يفرضة الاستغلال الرأسمالى فى المصنع أو المكتب، إنه لايشتمل على عمل مكثف لعدد معين من الساعات، تتلوها فترة راحة لإتاحة إمكانية بذل الجهد المكثف لفترة محددة أخرى، وعلى ذلك لاتوجد طريقة لقياس كمية العمل المبذول فيه مقابل كمية العمل المبذولة فى عمل المصنع. الشىء الوحيد الذى يمكن قوله بيقين هو أن كلا العملين يضعف، حيث يؤدى أحدهما إلى أمراض العمل (وهو السبب فى أن أعراض مرض كالتهاب الشعب المزمن تزيد كثيراً عند العمال عنها عند زوجاتهم) والحوادث المروعة، والتعب الحاد، وفى أحيان كثيرة الموت المبكر، ويؤدى الثانى إلى الإنكسار النفسى والمعنوى والتفتت وعدم الأمان، وأمراض متنوعة أخرى يتجاهلها الأطباء عادة». (١٢)

وتجادل كثير من عضوات الحركة النسوية: ولكن الاضطهاد الفعلى للنساء يتم على يد الرجال، فهم يغتصبونهن ويتاجرون فى عريهن ويضربون زوجاتهم،

* مدارس تعد التلاميذ من وقت مبكر لدراسة أعلى. المترجمة

وخلافه. ولكن بينما هن على حق فى تحديد أفراد من الرجال كطرف يمارس هذه الأشكال من اضطهاد النساء، فإنهن يخطئن فى اعتبارها الأشكال الرئيسية فى اضطهاد النساء، فليس كل الرجال، ولاحتى معظمهم، مغتصبون وتجار أو مشترو عرى ومعتدون على زوجاتهم، فتلك تصرفات أفراد ومحدودة بالمقارنة بالطريقة التى ينظم بها النظام الرأسمالى اضطهاد النساء ويؤيدة من خلال مؤسساته- فخفض أجور النساء و،منعهن من دخول قطاعات معينة من الإقتصاد، وعدم وجود تدابير لرعاية الأطفال، ومؤسسة الأسرة ذاتها، هى الوسائل التى تبقى على عملية تجديد النوع البشرى كعملية خاصة، ومن ثم تبقى على العبء المزودج على عاتق النساء وتلك البنى هى أصل اضطهاد النساء، لقد بنيت فى المجتمع الطبقى الذى نعيش فيه، والسيطرة عليها- مثل السيطرة علية- ليست فى يد رجال منفردين، ويقيناً ليست فى يد رجال منفردين من الطبقة العاملة.

ولايعنى ذلك إنكار أن الرجال يتصرفون بطرق تنطوى على اضطهاد للنساء، فالتظاهر بغير ذلك يعنى الوقوع فى الخطأ المثالى المتمثل فى إنكار أن العلاقات الإجتماعية هى **دائماً** علاقات بين أناس واقعيين، ولكن اللوم يجب أن يقع كلية على المجتمع الطبقى، لا على أفراد فيه. إن اضطهاد النساء يضر بمصالح نساء ورجال الطبقة العاملة كليهما، وهو وضع لايفيد منه إلا الطبقة الحاكمة وحدها.

النساء والعمل المأجور

حين تكون نساء الطبقة العاملة ربات بيوت وحسب، يجعلهن الإضطهاد بلا حول ولاقوة فالمرأة كربة بيت، معزولة وضعيفة. وتقول مارجرى سبرينج رايس فى تسجيلها الفريد لظروف العمل المنزلى عند نساء الطبقة العاملة فى الثلاثينيات:

«إنها تأكل وتنام وتستريح فى مسرح عملها، وهى منفردة تماماً فى عملها... ومهما كان التعويض الوجدانى، ومهما كان حبها لأسرتها، فإن هذه الأسرة هى التى توجد عملها، وتحكم قبضة الأغلال التى تربطها إلى ذلك المجال

الضيق المفعم بالوحدة، الذى هو «البيت». (١٣)

وتؤدى العزلة برية البيت إلى الشعور بقلة الحيلة، ويجعلها ذلك ميالة إلى القدرية المتطرفة، التي عرفتها بوضوح بالغ إميلى دوركايم، بأنها: «الانضباط المفرط الذى نجده فى أشخاص مستقبلهم مسدود بصورة لافكاك منها. ويقمع عواطفهم ضبط قهرى للنفس، يمليه دور لامرونه فيه ويستحيل تفادية، ليس للمرء حيلة إزاءة».

وتدعم نساء الطبقة العاملة اللاتى لابديل أمامهن لشغل البيت، اعتدادهن بذاتهن من خلال دورهن النمطى. تقول سوشارب: «إن الإهتمام المفرط بشغل البيت منطقى حيثما لايلوح بديل آخر، وتستمد كثير من النساء اعتدادهن بالذات من عدم قدرة الأسرة على الاستغناء عنهن وإنكار هذا يسلبهن الغرض من وجودهن بأسرة». (١٤) بينما تؤكد ليندا (جوردون) فى كتابها اللامع «جسد النساء، حق النساء»، على مايتصل بالحفاظ على الذات هنا:

«... تستعمل النساء سر المرأة لصالحهن.... إنه أيدولوجية معقوله تمكنهن من الاستمرار وجعل الوجوة الخلاقة والممتعة فى حياتهن تبلغ أقصى مدى لها، إن الأمومة التى تستغرق الوقت كلة، حين تكون متاحة، أفضل عند معظم النساء من بدائل العمل المتاحة لهن». (١٥)

وفى نفس الإطار، تفسر أم أمريكية سوداء قيمة الحمل: «إن الوقت الذى أحمل فيه طفلاً بداخلى، هو الوقت الوحيد الذى أشعر فيه بأنى حية حقاً، ذلك أنى أعرف أنى أستطيع أن أعمل شيئاً، ولايهم حينئذ لون بشرتى ولا الشتائم التى يرمينى بها الناس». وتعلق ليندا جوردون: «إن العناية بالطفل، رغم كل صعوبتها، هى بطبيعتها أقل اغتراباً من معظم الأعمال الأخرى وخلاقة عنها، وهى تعطى الأم على الأقل مايشبه السيطرة على ظروف عملها وأهدافها». (١٦)

من الوارد تماماً أن تدعى المرأة أنها «سعيده» بأن تكون زوجة وأما «فقط»، بينما تكبت التفكير فى العواقب المترتبة على ذلك، الحصار فى شقة بأحد تلك المبانى الشاهقة، والقلق الضارى بشأن النقود، والعمل لساعات غير محدودة فى أشياء سقيمة. ولكنها تدعى ذلك لأنها وقعت فى شرك لاتدرى كيف تخرج منه، ولأنه ينتظر منها أن تكون سعيدة فإذا اعترفت لنفسها بأنها غير سعيدة فإن هذا سيعنى أنها شخص فاشل، الأمر الذى لن يفعل سوى أن يزيد الأمور سوءاً.

مايزال الملايين يتمسكون بقوة بالصورة التقليدية للمرأة كزوجة وأم، ويستحق واحد من التعبيرات الفظة عن هذا الانحياز الأقتباس، وقد جاء فى ملاحظة لباتريك جنكين وزير الدولة للخدمات الإجتماعية فى أول حكومة لثاتشر:

«إذا كان الرب قد أراد للنساء أن يخرجن للعمل، لما خلق جنسين» ويحدد جميع علماء الإجتماع البرجوازيون والحركة النسائية البرجوازية بلا استثناء، موقع المرأة داخل بنية الأسرة بوضوح قاطع، بينما يتجاهلون، أو يقللون بشدة من شأن دورها فى قوة العمل، بل إن كثيراً من «الماركسيات» فى الحركة النسائية يركزن انتباههن على شغل البيت. أما الدراسات التى تتناول النساء بالفعل كعاملات بالاجر، فهى تهتم فى جملتها بتأثير وضع النساء فى الأسرة على مشاركتهن فى سوق العمل.

وهذه الوجهة حتمية مالم يستخدم المنهج الماركسى لبيان المركّب- كل من الوحدة والتناقضات- بين هذين النطاقين لعمل النساء. فالمظاهر وحدها ترجح وزن العمل المنزلى على العمل المأجور، فالنساء فى النهاية ينفقن بالفعل وقتاً أكبر بكثير فى شغل البيت، وقد وجدت آن أوكلى فى حوار مع من الزوجات أنهن يعملن فيه بمعدل ٧٧ ساعة أسبوعياً.(١٧)

ثم أيضاً من ناحية مشاعرهن الخاصة، فإن شغل البيت له الأولوية عندهن على العمل بالأجر، وذلك منطقى فى وضعهن، فإذا سئلن أى العبئين المرهقين يفضلن، يجبن بطبيعة الحال بأنه شغل البيت، إذ ماهى البدائل التى يمكن أن يتصورنها؟ أن يهملن الأطفال، أو يستأجرن خادمة، أو يعشن فى فندق؟ لذلك فإن الأمومة التى تستغرق كل الوقت، حين تكون ممكنة، هى العمل المفضل عند نساء الطبقة العاملة على أى بدائل وظيفية أخرى.

ولكن الواقع يقول أن معظم النساء يشتغلن بالعمل المأجور ، القسم الأكبر من حياتهن. ويبين إحصاء فى ١٩٧١ أن ٨٧ فى المائه من النساء البريطانيات عملن لفترة من حياتهن، وحالياً تشكل النساء ٤١ فى المائة من القوة العاملة فى بريطانيا. وكما سبقت الإشارة، فى عام ١٩٧٩ كان «العامل التقليدى»- المتزوج وله زوجة لاتعمل وأطفال- لايمثل أكثر من ٨ فى المائة من قوة العمل بين الذكور و٥ فى المائة من أجمالى قوة العمل.(١٨)

وفى الولايات المتحدة عام ١٩٧٩، كان ٦ . ١٤ فى المائه من مجموع الأسر

تعوله نساء بمفردهن.(١٩) وهناك أيضاً لاتتفق مع النموذج التقليدى للأسرة النووية سوى واحدة من كل عشرة أسر.

منذ الحرب العالمية الثانية، دخلت النساء مجال العمل المأجور على نطاق واسع، فانتشار وسائل منع الحمل واستطالة الأعمار مكنا المتزوجات من الاتجاه للعمل بقدر أكبر، كما زادت الوظائف التى يمكن أن تعمل فيها المتزوجات،. ويبين الجدول التالى هذا التغير:

هكذا ازداد العاملون فى بريطانيا فى الفترة من ١٩٥١ إلى ١٩٧٦ بمقدار ٣.٣ مليوناً ثلاثة منها من النساء. فى

عام ١٩٥١ كن يمثلن ٣١ فى المائة من القوة العاملة واليوم يشكلن ٤٠ فى المائة منها، ومن الراجح أن هذه الأرقام أقل من الحقيقة بكثير، لأن كثيراً من الإحصاءات لاتسجل العمال الذين يعملون وقتاً غير كامل، أو بأجر منخفض لايدخل تحت فئة دافعى الضرائب.

العمالة فى بريطانيا العظمى (بالملايين) (٢٠)

	١٩٥١	١٩٦١	١٩٧١	١٩٧٦
الرجال	١٥.٦	١٦.١	١٥.٩	١٥.٩
المتزوجات	٢.٧	٣.٩	٥.٨	٦.٧
غير المتزوجات	٤.٣	٣.٩	٣.٤	٣.٢
إجمالى (النساء)	٧	٧.٧	٩.٢	١٠
إجمالى (الرجال)	٢٢.٦	٢٣.٨	٢٥.١	٢٥.٩

وقد تكرر هذا الاتجاه للعمل المأجور وسط نساء دول أوربية أخرى والولايات المتحدة، ففى الولايات المتحدة زاد عدد النساء فى قوة العمل من ١٣٫٨٤٠٫٠٠٠ فى عام ١٩٤٠ إلى ٤٣٫٦٩٣٫٠٠٠ فى عام ١٩٨٠، وهى زيادة بنسبة ٢١٥ فى المائة. وكانت الزيادة فى عدد المتزوجات مدهشة أكثر، فمن ٥٫٠٤٠٫٠٠٠ إلى ٢٦٫٣٤٧٫٠٠٠، أو مايعادل ٤٢٢٫٨ فى المائة.

استثار هذا التغير رد فعل على العبء المزدوج الواقع على نساء الطبقة العاملة، يختلف جذريا عن رد فعلهن منذ قرن، فقد غير العمل تطلعاتهن وطموحاتهن ورفعها، واكتسبن القدرة المالية على تحقيقها جزئيا على الأقل، وقل العبء الأسرى بفضل فعالية وسائل منع الحمل، لذلك تتمرد النساء اليوم على التوزيع الجنسى التقليدى للأدوار، سواء للزوجة أو الزوج.

ويبرز ذلك بوضوح حاد فى دراسة أجرتها فى النرويج متخصصة علم الإجتماع هارييت هولتر، (٢٢) حيث تبين الدراسة أن موقف النساء من التوزيع الجنسى التقليدى للأدوار يتوقف إلى حد كبير جدا على ماإذا كن يشتغلن بعمل مربح أم لا:

(بالنسبة المئوية)

	الأقل تقليدية	المتوسطات	الأكثر تقليدية
ربات بيوت لايشتغلن بعمل مربح	٨	٣٦	٥٢
ربات بيوت يشتغلن بعمل مربح بالقطعة	٢٠	٦٤	١٤
ربات بيوت يشتغلن بعمل مربح وقتا كاملا	٤٥	٤٣	٩

وتعلق هولتر: «إن الزوجات اللاتى يعملن خارج البيت يتخذن موقفا مبنيا على المساواة أكثر من الأخريات». وتبين فى جدول آخر أن «الرجال المتزوجين من سيدات يعملن، موقفهم أكثر ميلا للمساواة من الرجال الذين تلزم زوجاتهم البيت».

بالنسبة المئوية

	الأقل تقليدية	المتوسطون	الأكثر تقليدية
المتزوجون من سيدات لايشتغلن بعمل مربح	٤	٣١	٦٣
المتزوجون من سيدات يشتغلن بعمل مربح	٣٠	٦٠	١٠

وهكذا، فعلى العكس من العرف الجاهز الذى يقبل به علماء الاجتماع البرجوازيون والحركة النسوية البرجوازية، والذى يرى أن مواقف النساء تتشكل خارج مكان العمل ويأتين بها إليه، حيث يساعدون على تدعيم كل ماهو لاعقلانى فى عمل النساء المهين، نرى هنا كيف أن العادات والأفكار التى تنشأ فى مكان العمل، تغزو البيت فى واقع الأمر وبينما يرتبط الإنتاج وتجديد النوع البشرى بوحدة جدلية، فإن الأولوية للإنتاج، وعمل النساء المأجور هو الحاسم فى التأثير على شغل البيت والموقف منه وليس العكس.

كان ماركس على حق حين كتب عن الأثر الذى سيخلفه جر النساء (والأطفال) الى الانتاج الاجتماعى على العلاقات داخل الأسرة وبين الجنسين:

«مهما بدا تحلل الروابط الأسرية القديمة، فى ظل النظام الرأسمالى، مروعا ومثيرا للأشمئزاز، فإن الصناعة الحديثة مع ذلك، إذ تلقى بعبء الجزء المهم من عملية الأنتاج على عاتق النساء والشباب والأطفال من الجنسين، خارج النطاق العائلى، إنما تخلق أساسا إقتصاديا جديدا لشكل أعلى من الأسرة وللعلاقات بين الجنسين... وفضلا عن ذلك، فمن الواضح أن واقع تكون مجموعة العمل الجماعى من أفراد من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار، لابد أن يصبح بالضرورة- في ظل ظروف مناسبة- مصدرا للتقدم الأنسانى».(٢٣)

إن الطريق إلى تحرير نساء الطبقة العاملة من الاستغلال والاضطهاد لن يكون فى بيوتهن المعزولة، بل فى علاقتهن الجماعية كعاملات بالأجر، حيث يمكنهن الاتحاد مع زملائهن العمال، رجالا ونساء.

ويكون التغير كبيرا بصفة خاصة فى مواقف النساء فى البيت، حين ينخرطن فى نضالات عمالية بعيدة الأثر وعلى سبيل المثال، فقد تغيرت أفكار النساء اللاتى احتللن مصنع «لى جينز» باسكتلندا لسبعة أشهر فى عام ١٩٨٢ تغيرا كبيرا أثناء النضال وتحدين افتراضات الرجال بمافى ذلك زواجهن وأصدقائهن- فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين، وأصبح من الشائع أن تقول إحداهن «أننى مشغولة، اذهب أنت واصنع الشاى واعتن بالأطفال».

يتغير الناس فقط خلال النضال من أجل تغيير العلاقات الاجتماعية، ومكان العمل هو الذى يفتح أمام النساء أوسع الفرص للنضال وللتنظيم، ومن ثم لتغيير أنفسهن، ومن خلال الأنخراط فى الانتاج الاجتماعى يأخذن موقعهن، كالرجال، داخل علاقات الانتاج التى هى محور المجتمع الطبقى. إن

موضوع الماركسية هو السلطة الطبقية، ومكان العمل هو الذى تبرز فيه للعيان فى أنصع صورها.

تبذل طبقة أصحاب العمل جهودا بالغة من أجل شق صفوف الطبقة العاملة، ويؤدى التطور غير المتساوى بين مختلف الدول، ومختلف المناطق فى نفس البلد، ومختلف الفروع فى الإقتصاد، ومختلف المشاريع، إلى تفتيت الطبقة العاملة. وتضيف الشقاقات العنصرية والعرقية والجنسية عناصر أخرى تعرقل الوحدة، ويوسع من هذه الصدوع التفاوت فى المهارات، الذى كثيرا ماتستفحل مشاكله بسبب من النقابية الضيقة، تماما كما توسعها سياسة «فرق تسد» التى يستخدمها أصحاب العمل فيشغلون النساء كقوة عمل رخيصة تضعف الوضع التساومى للعمال، ويستخدمون النزعة الحرفية والتحيزات الجنسية عند الرجال لإضعاف وضع العاملات.

تعم أفكار الطبقة الحاكمة فى المجتمع، وبيت الأسرة هو من أهم المؤسسات فعالية فى خدمة هذا الوضع. فالبيت- حيث نكون معزولين فى أصغر جماعة- يقدم أرضا خصبة لوسائل الإعلام كى تنشر أفكار الطبقة الحاكمة عن المجتمع، ويتميز التلفزيون خاصة بنفوذ قوى فى صياغة أفكار جموع الناس المعزولين، بمافى ذلك النساء.

ويزيد تقسيم العمل فى الأسرة من اعتماد المرأة ماليا على زوجها، ويضعف هذا وضعها التساومى فى سوق العمل، ومن ثم تعتمد أكثر على زوجها، مما يجعلها تدور فى دائرة شريرة. كذلك يؤثر الدور الذى تلعبه المرأة فى الأسرة على دورها فى العمل المأجور بطريقة أخرى. فشغل البيت بمجموعة المهارات التى لاتتغير نسبيا المتصلة به يعد النساء للعمل غير الماهر فحسب، والأنقطاع عن العمل حين تضطر النساء لتركه لرعاية أطفالهن، ومعاملتهن لدى عودتهن للعمل كمستجدات، لايساعد فى تطوير مهاراتهن، وعلى ذلك يساهم الزواج والأمومة مساهمة فعالة فى حرمان النساء من المهارة.

كذلك يتصل ميل النساء للعمل فى وظائف لوقت غير كامل، اتصالا مباشرا بمسئولياتهن المنزلية، وقد كانت الزيادة الرئيسية فى عمل النساء فيما بعد الحرب العالمية الثانية،فى مجال العمل لوقت غير كامل. ففى عام ١٩٥١ كانت ١٢ فى المائة من النساء البريطانيات يعملن جزءا من الوقت، وفى عام ١٩٧٦ بلغت هذه النسبة ٤٠ فى المائة. وفى عام ١٩٧٥ كانت اثنتان من كل ثلاثة يعملن من

المتزوجات ولديهن أطفال، يشتغلن وقتا غير كامل. (٢٤) وترتبط معظم الأعمال من هذا النوع بوظائف لاتحتاج تدريبا طويلا، ولامستقبل لها، ومملة وضعيفة الأجر. والنساء اللاتي يعملن فيها مجبرات على القبول بأجور وظروف عمل لايقبلها من يعملون وقتا كاملا فهناك كثيرات لايحصلن على اجازات مدفوعة الأجر، ولامعاشات أو حماية- تبعا لمشروعات تأمين العمالة الزائدة.

ومايزال التقسيم الجنسي للعمل في محل العمل، المرتبط بتأثير وضع النساء في الأسرة، حيا إلى حد بعيد.

ولكن برغم هذه المصاعب، كان المسار العام الغالب للتاريخ- تتخلله توقفات وتراجعات- يتجه نحو تضييق رقعة الإنقسام بين قسمي الطبقة العاملة الصناعية من الرجال والنساء، ونحو المزيد من الانسجام الطبقي. فالتوسع الكبير في تشغيل النساء، مع تركز معظمهن في مواقع عمل كبيرة، مثل المكاتب والمستشفيات والمحال متعددة الطوابق، يؤدي إلى تضييق الفوارق في ظروف العمل لدى كل من العمال والعاملات، وكذلك تضيق الفجوة بين العمل اليدوي وعمل ذوي الياقات البيضاء.

ويقدم لنا تقريب الفجوة بين تنظيم العمال والعاملات في نقابات مقياسا واضحا لذلك، وقد تقدم انضمام العاملات للنقابات بعد الحرب العالمية الثانية بخطوات عملاقة:

عضوية النقابات في بريطانيا

السنة	النساء	الإجمالي	نسبة النساء لاجمالي العضوية
١٨٨٦	٣٧٫٠٠٠	٦٣٦٫٠٠٠	٥٫٨
١٨٩٦	١١٨٫٠٠٠	١٫٦٠٨٫٠٠٠	٧٫٣
١٩٠٦	١٦٧٫٠٠٠	٢٫١٢٠٫٠٠٠	٧٫٦
١٩٣٩	٥٥٣٫٠٠٠	٤٫٦٦٩٫٠٠٠	١١٫٤
١٩٥٨	١٫٣٨٧٫٠٠٠	٨٫٣٣٧٫٠٠٠	١٦٫٦
١٩٦٨	١٫٧٦٧٫٠٠٠	٨٫٧٢٦٫٠٠٠	٢٠٫٢
١٩٧٨	٣٫٤١١٫٠٠٠	١١٫٨٦٥٫٠٠٠	٢٨٫٧

وماتزال عضوية النساء فى النقابات أقل من الرجال، ففى عام ١٩٧٤ كانت ٣٦٫٧ فى المائة من العاملات منظمات فى نقابات، مقابل ٥٦٫٩ من العمال. وتزيد الفجوة قليلا بين العمال اليدويين- ٤٢٫١ فى المائة من العاملات و٦٤٫٧ فى المائة من العمال- وتضيق بين العمال ذوى الياقات البيضاء حيث تبلغ ٣٢٫٦ فى المائة للعاملات و٤٤٫٥ فى المائة للعمال.(٢٦)

سبق ورأينا كيف تتأثر مواقف النساء من الأدوار النمطية فى الأسرة، بما إذا كن يخرجن للعمل أم لا، فمكان العمل، والمعارك التى تخوضها النساء العاملات من أجل تحسين ظروفهن فيه، هو مفتاح تغيير الأفكار و«رفع الوعى»، لأن العمل الجماعى يزيد ثقتك بنفسك وفى زملائك فى العمل وفى طبقتك، إنه فى الواقع السبيل الوحيد لتحطيم أيدولوجية الاضطهاد التى تحيلها النساء إلى جزء من دخيلتهن. إن نساء الطبقة العاملة اللاتى يشكل الكدح من أجل البقاء شاغلهن الرئيسى، ليس لديهن ترف«رفع الوعى» بطريقة ذهنية محضة.

ولايعنى ذلك أن على العاملات أن ينتظمن فقط فى مكان العمل، أو فقط حول القضايا المتعلقة به، وإنما يعنى أن جميع أبعاد النضال الأخرى ترجع جذورها إليه. ترفض الماركسية فكرة أن النقطة التى تنبعث منها المشاكل ، هى النقطة التى توجد عندها الحلول، ولايمكن التغلب على اضطهاد النساء فقط بكفاح النساء ضد الاضطهاد تماما كما لايستطيع المحالون إلى المعاش من كبار السن تحرير أنفسهم من الفقر بجهودهم وحدها. والعامل الفاصل فى النضال، ليس هو مدى بؤس المشاركين فيه، بل قوتهم، وعلى ذلك لاتتحدد نقطة الانطلاق فى النضال ضد اضطهاد النساء بذلك الاضطهاد ذاته، بل فى النقطة التى تكون فيها نساء الطبقة العاملة قويات، حيث يمكنهن النضال، مع رجال طبقتهن، من أجل تغيير المجتمع.

الحاجة إلى حزب عمالى

قال ماركس وانجلز أن «الطبقة العاملة لاتزيد عدديا وحسب مع تطور

الصناعة، بل وتتركز فى تجمعات أكبر، وتنمو قوتها، ويزداد شعورها بهذه القوة» يختفى الحرفى المستقل والصانع المستقل والفلاحون بسبب تطور الرأسمالية، ولكن الطبقة العاملة تكسب قوة بفضل ذلك.

«بنفس النسبة التى تتطور بها البرجوازية، أى الرأسمال، تتطور البروليتاريا، الطبقة العاملة الحديثة... ومن بين جميع الطبقات التى تقف فى مواجهة البرجوازية اليوم، البروليتاريا وحدها هى الطبقة الثورية حقا. الطبقات الأخرى تضمحل ثم تختفى فى النهاية وسط سباق الصناعة الحديثة، أما البروليتاريا فهى نتاجها الخاص والجوهرى»(٢٧)

إن قدرة الطبقة العاملة على تغيير المجتمع تكمن فى طبيعتها الجماعية، فالعمال لايمتلكون الثروة الصناعية للمجتمع، ولايستطيعون الحصول عليها كافراد، حيث لايمكن تقسيم الصناعة إلى أجزاء صغيرة. إن الصناعة الرأسمالية تنظمهم على نحو جماعى، وهم ملزمون بالتحرك الجماعى للدفاع عن أنفسهم وعن ظروف عملهم، وهذه القوة الجماعية هى التى تعطى الطبقة العاملة القدرة فى النهاية على تحرير المجتمع الأنسانى بأسرة.

غير أن ماركس أوضح أن الطبقة العاملة بينما تنطوى على إمكانية العمل المتحد، فإنها فى الواقع كثيرا ماتكون عرضة للإنقسام، كما رأينا. وذلك لأن غالبية العمال لايدركون قوتهم الجماعية وإمكانياتها، ولأن الأفكار السائدة فى المجتمع هى أفكار الطبقة الحاكمة، فالطبقة الحاكمة هى التى تسيطر على وسائل نشر الأفكار ووسائل الإعلام والتعليم -وفى مجتمعات كثيرة -على الكنيسة.

وهكذا تحمل الغالبية العظمى من الناس حشدا من الأفكار المتناقضة فى رؤوسها، يرجع بعضها الى ماعلمنا المجتمع الرأسمالى المحيط بنا أن نعتقد به، بينما تنشأ أفكار أخرى مناقضة عن النضالات التى لعب فيها العمال، وربما نحن أيضا، دورا فعالا. فكما أوضح الماركسى الإيطالى أنطونيو جرامشى:

«يقوم الأنسان الذى ينشط وسط حركة جماهيرية بنشاط عملى، ولكنه لايملك وعيا نظريا بنشاطه العملى، الذى ينطوى مع ذلك على فهم للعالم بقدر مايغيره. بل أنه من الوارد تماما أن يكون وعيه النظرى متعارضا مع نشاطه من الناحية التاريخية. ويكاد يمكن القول بأن له وعيين (أووعى واحد متناقض) واحد متضمن فى نشاطه ويوحدة فى الواقع مع زملائة العمال اثناء التغيير

العملى للعالم الواقعى، وواحد واضح وضوحا مزيفا، أو ظاهريا، هو ذلك الذى ورثه عن الماضى واستوعبه بصورة غير نقدية.

«إن الشخصية مركب غريب: فهى تحتوى عناصر من العصر الحجرى، ومبادئ علوم متقدمة، وتحيزات من كل أحقاب التاريخ الماضية وقد اتخذت طابعا محليا، ومؤسسات فلسفة للمستقبل، ستصبح مؤسسات الجنس البشرى الذى وحد العالم». (٢٨)

حين يكون الأفراد معزولون، يكونون أكثر عرضه لغزو أفكار الطبقة الحاكمة، ولكنهم يستطيعون مقاومتها فى مكان العمل، حيث يستطيع العمال أن ينتظموا ويعملوا بصورة جماعية.

بسبب من افتقار الطبقة العاملة للانسجام، والتناقضات فى أفكار العمال، هناك حاجة ملحة لحزب اشتراكى ثورى. فبوسع الحزب أن يساعد العمال على تغيير أفكارهم خلال النضال، ليحرروا أنفسهم من تأثير الأفكار البرجوازية، ويتمثل الدور الحاسم للحزب فى توفير قيادة، ومنظمة، وبؤرة لرفع نشاطهم ووعيهم، بحيث يتمكنون فى يوم ما من الحصول على السلطة.

كذلك يتسم حزب العمال الثورى بأهمية فاصلة فى تحقيق الوحدة بين جميع المضطهدين، فى الكفاح من أجل التحرر، ذلك أن الرأسمالية بنفس الطريقة التى تفرق بها بين العامل والعامل، تفرق قسما من المضطهدين عن الآخر. فالسود والنساء مضطهدون، ولكن السود لايناصرون النساء بصورة أتوماتيكية، والعكس صحيح (كما بين تاريخ الحركة النسائية بوضوح).

وفى الواقع كثيرا ماتكون النتيجة عكس ذلك، فحين لايرى الناس مفرا من اضطهادهم، قد يلجأون لاضطهاد طرف آخر حتى يتغلبوا على إحساسهم هم بقلة الحيلة. وعلى سبيل المثال، فقد أرسل النازى الافا من الجاى إلى معسكرات الاعتقال، ولكن هذا لم يجعل الجاى مناهضين للنازية آليا، فقد أيد هتلر عشرات الآلاف منهم أثناء صعودة للسلطة، فالجاى المضطهد حين يلبس السترة الجلدية والحذاء البوت النازيين، يعطية ذلك إحساسا بالقوة، وبوسعة حينئذ أن يضطهد اليهود والنساء وأى آحد آخر.

فلكى ترد أى جماعة مضطهدة على اضطهادها بالنضال، تحتاج إلى الأمل، وهذا لايمكن العثور عليه فى عزلة الاضطهاد- الزوجة الواقعة فى مصيدة البيت، والجاى واليهودى فى الجيتو الخاص بهما- بل فى القوة الجماعية للطبقة

العاملة. وتتسم فكرة أن الطبقة العاملة، بتحريرها نفسها ستحرر الانسانية بأسرها، بأهمية مركزية عند الماركسيين، وذلك هو السبب فى أن الحزب الاشتراكى الثورى مطالب بمساندة النضال ضد كافة أشكال الاضطهاد، لا الموجهة ضد الطبقة العاملة فحسب، بل ضد أى قسم مسحوق فى المجتمع، وبتوحيد هذه النضالات مع نضال الطبقة العاملة. كذلك كتب لينين:

«لايمكن أن يصبح وعى الطبقة العاملة وعيا سياسيا حقيقيا مالم يتدرب العمال على اتخاذ موقف من جميع حالات الطغيان والاضطهاد والعنف والإساءة، بغض النظر عن الطبقة التى يقع عليها أى منها، ومالم يتدربوا- علاوة على ذلك- على اتخاذ هذا الموقف من وجهة نظر (اشتراكية ثورية) تحديدا دون غيرها....»

ويكمل، أنه مع فضح أشكال الطغيان هذه، «سيفهم أكثر العمال تأخرا، أو سيشعر، أن الطلاب أو الطوائف الدينية، الفلاحين أو المؤلفين، يتعرضون للإساءة والاعتداء من نفس القوى المظلمة التى تضطهده وتسحقه فى كل خطوة من خطوات حياته. وحين يشعر بذلك، سيمتلئ هو نفسه برغبة لاتقاوم فى الرد، وسيعرف ذات يوم كيف يصيح مستهجنا فى وجه المسئولين عن الرقابة، وفى يوم آخر سيتظاهر أمام بيت حاكم (إقليمى) قمع انتفاضة فلاحية بوحشية، وفى يوم ثالث سيلقن درسا للشرطى الملفع بثياب الكهنوت الذى يقوم بعمل محكمة التفتيش المقدسة.» (٢٩)

بينما تنقسم الطبقة العاملة بفعل التعالى الجنسى أو العنصرى، فإن الحزب الاشتراكى الثورى الذى يستطيع أن ينفذ إلى ماوراء الانقسام من إمكانيات تملكها الطبقة العاملة لتحرير نفسها، مطالب بألا يتنازل أمام أى ضغط من العمال المتخلفين الخاضعين لتأثير التحيزات البرجوازية فى المجتمع المحيط بهم. على الحزب أن يناضل بلا كلل ضد جميع الانقسامات فى صفوف الطبقة العاملة- بين الأجناس والقوميات والرجال والنساء والعمال المهرة وغير المهرة وبين من يعملون والعاطلين عن العمل- وهى الانقسامات التى تسعرها الطبقة الحاكمة بطريقة منهجية. لذلك رأى لينين أن النضال ضد معاداة السامية مهمة تخص الحزب الاشتراكى الثورى ككل، وليس أعضاءه اليهود وحدهم، وبالمثل، فإن النضال ضد اضطهاد النساء اليوم، هو مهمة تقع على عاتق الحزب كله، وليس النساء وحدهن.

وحيث تحيط بالنساء العاملات أوضاع خاصة، يوجد الكثير من المطالب الخاصة التى تقتضى النضال من أجلها، مثل مساواة الأجر، والإجهاض المجانى عند الطلب، وتوفير موانع الحمل والتسهيلات الخاصة بذلك مجانا، وتحسين التدريب المهنى الذى تحصل عليه النساء ووضعهن الوظيفى، وإجازة وضع بأجر أفضل دون فقدان الحق فى الأقدمية، ومنح حقوق مساوية للعاملات وقتا غير كامل، والحضانات المجانية، الخ، وهذه جميعا قضايا طبقية ستفيد منها الطبقة العاملة ككل، نساء ورجالا وأطفال.

إن أهمية النضالات من أجل اصلاحات خاصة بحاجات العاملات، مثل النضالات من أجل الإصلاح عموما، لاتكمن فى قيمتها الفعلية بحد ذاتها، ففى ظل الرأسمالية تكون كل الإصلاحات المتحققة محدودة وعرضة للهجوم، خاصة أثناء الأزمة الاقتصادية للنظام، وإنما تكمن قيمتها الأساسية فى أنها ترفع من ثقة العمال المناضلين من أجلها بأنفسهم، كما ترفع وعيهم ومستوى تنظيمهم. ثم إنها كلها قضايا طبقية أيضا بمعنى: أن النضال من أجلها والنجاح فى تحقيقها يتوقفان على مجمل ميزان القوى الطبقية. أثناء نضال العاملات والعمال من أجل إصلاحات كهذه، ينبغى كسبهم لسياسات الإشتراكية الثورية الأشمل، فاضطهاد النساء لن ينتهى تماما إلا مع تحرير الطبقة العاملة لنفسها ككل، والقضاء النهائى على المجتمع الطبقى الذى يفيد من هذا الاضطهاد.

الشيوعية وتحرير النساء

رأى ماركس وانجلز أن تحرير المرأة يتطلب ليس فقط دخولها إلى مجال الانتاج الاجتماعى، وإنما كذلك إحالة الخدمات من أمثال العناية بالأطفال والمسنين والعجزة، إلى المجتمع. والتقسيم الجنسى الحالى للعمل مراتبى، يضع الرجال فى مكانة أعلى والنساء فى مكانة تابعة، وتمثل إزالة كل من المبدأ المراتبى وتقسيم العمل بين الجنسين شرطا مسبقا لبلوغ النساء المساواة الاجتماعية.

وسوف يكون إلغاء التقسيم الجنسى للعمل فى ظل الشيوعية، جزءا

لايتجزأ من إنهاء كل تقسيم للعمل، كتب ماركس وانجلز فى «الأيدولوجية الألمانية»:

«فى المجتمع الشيوعى، حيث لايختص أحد بمجال نشاط منفرد دون غيره، بل يستطيع كل فرد أن يكتسب الكفاءة فى أى فرع يريده، ينظم المجتمع الانتاج العام، وبذلك يمكنتى من أن أعمل شيئا اليوم، وآخر غدا، أن أصيد حيوانات فى الصباح وأصيد سمكا بعد الظهر، وأربى ماشية فى المساء، وأشتغل بالنقد بعد العشاء، كيفما حلا لى، دون أن أصبح بأى حال صيادا أو راعيا أو ناقدا.»(٣٠)

فقط بعد إلغاء تقسيم العمل سيتمكن النساء والرجال من بلوغ أكمل تطور لشخصيتهم الانسانية، ولذلك تحمل الشيوعية الإمكانية الحقيقية لتحرير الفرد، حيث سيكون المجتمع الشيوعى «اتحادا يمثل فيه التطور الحر لكل فرد شرطا للتطور الحر للجميع»(٣١)، كما يعلن «البيان الشيوعى».

ماذا سيكون أثر الشيوعية على العلاقات الشخصية؟ لم يحاول ماركس وانجلز أبدا تخمين طبيعة الأسرة فى مجتمع المستقبل الشيوعى، قبل أن توجد الظروف المادية لظهورها، وتناولا فقط التطورات المحتملة فى خطوطها العريضة وحسب وقد رأيا أن الحب الجنسى الفردى سيكون أكثر غنى بكثير فى ظل الشيوعية، حيث ستختفى الضغوط القديمة من حاجة اقتصادية، واغتراب فى جميع العلاقات الاجتماعية. وقد كتب انجلز فى مسودته الخاصة للبيان الشيوعى، أن المجتمع الشيوعى:

«سيجعل العلاقة بين الجنسين علاقة شخصية خالصة، ليس فيها سوى مايتعلق بالشخصين المعنيين، وليس للمجتمع عليها حق التدخل... إنه قادر على ذلك لأنه يلغى الملكية الخاصة ويعلم الأطفال على مسئولية المجتمع وبذلك يدمر الأساس المزدوج للزواج القائم حتى الآن- أى اعتماد الزوجة على الزوج، واعتماد الأطفال على الوالدين، عبر الملكية الخاصة»(٣٢)

واعتبر كل من انجلز وماركس أمرا مفروغا منه، أن المساواة بين الجنسين فى ظل الشيوعية ستعنى الحرية الكاملة فى ترك علاقة ميته، لتكوين علاقة جديدة، أنه ستكون هناك «أحادية تشتمل على أمكانية التعاقب». وفى «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة» كتب إنجلز أن الشيوعية ستأتى بأحادية حقيقية:

«وبما أن الحب الجنسى بطبيعته ذاتها منفرد- رغم أن هذا يتحقق كاملا اليوم فقط من جانب المرأة- فإن الزواج القائم على الحب الجنسي بطبيعته ذاتها أحادي... وبدلا من أن يتلاشى الزواج الأحادى، سيصبح أخيرا حقيقة، ولدى الرجل أيضا». (٣٣)

وقد توصل تروتسكى إلى استنتاجات مماثلة بشأن العلاقات بين الجنسين فى ظل الشيوعية، حين كتب عام ١٩٣٣:

«الزواج الطويل المستديم، القائم على الحب والتعاون المتبادلين، ذلك هو النموذج المثالى... وإذ يتحرر الرجال والنساء من أغلال الشرطة ورجال الدين، ثم بعد ذلك من الحاجة الإقتصادية، ستجد الرابطة بينهم طريقها الخاص الذى ستقرره شروط جسدية ونفسية والاهتمام بخير الجنس البشرى». (٣٤)

كذلك عبر كل من لينين وروزا لوكسمبورج عن آراء مماثلة.

وقد طرحت وجهة نظر مختلفة تماما، تقول بتلاشى كل أشكال الأحادية، من قبل الماركسى الفرنسى جيل جيسد (١٨٤٥-١٩٢٢)، الذى كتب عن الأسرة:

«....سيأتى يوم تفقد فيه كل (سبب للوجود)... فلعل... دفء جو الود والنزوع للخير الذى ينمو فى صدر الجماعة والجماعية بفضل مساواة كل أعضائها فى الرخاء، سيجعل ذلك الرحم الخاص الثانى الذى تمثله الأسرة زائدا عن الحاجة، ويتيح تضييق المساحة التى تشغلها الأسرة عند كل من الأم والطفل، والوقت الذى يستمر فيه تلاصقهما، ومن جهة أخرى، يمكن للعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، القائمة على الحب والاهتمام المتبادل، أن تصبح أكثر حرية، وأن تتنوع وتتعدد تماما كالعلاقات الذهنية وأمثالها بين الأفراد من نفس الجنس أو من الجنسين» (٣٥)

سيكون من الحمق أن نحاول البرهنة على أن أيا من ماركس وانجلز أو جيسد، هو الذى ستبيثت صحة نظرته، فلاتوجد كرة بللورية تطلعنا على ماسيشعربه الناس أو كيف سيتصرفون فى علاقاتهم الشخصية فى ظل الشيوعية.

غير أننا نستطيع أن نكون على ثقة فيما يتعلق ببعض النقاط الخاصة بالعلاقات الشخصية، ففى المجتمع الحالى تعد علاقات الزواج بين الرجال والنساء، العلاقات الأكثر حميمية فى العلاقات الانسانية، ولكن هذه الحميمية

تسممها الرأسمالية فى صلبها: فالنساء غير مساويات للرجال، والمساواة الحقيقية مستحيلة إلا بين أنداد. إن الحميمة الحقيقية، والإشباع العاطفى والجنسى، ستكون ممكنة لأول مرة فى ظل الشيوعية.

فى الوقت الحالى ينظر للأسرة كملاذ فى عالم معاد، ويطلب منها الكثير. وفى ظل الشيوعية ستكون الرعاية والحب أكثر انتشارا، ولن يكون بوسع الأسرة أن تزعم أنهما يخصانها وحدها وأن تحصرهما فى إطارها الضيق. وسيكون الأطفال أكثر حرية بكثير. فحاليا، كثيرا ما يراهن الأب أو الأم عاطفيا على أبنائهما، فلأن حياتيهما كانت محبطة ومخيبة لآمالهما، يسعيان إلى تحقيق منجزات أكبر من خلال الأبناء، وهو ماينطوى على استخدام للطفل، وعادة ماتتحطم تطلعات الأبوين بقسوة، فيدفع الجميع الثمن، الأطفال والأبوين. إن علاقة التملك بين الآباء والأبناء- التى هى جزء من روح الفردية التنافسية التى يولدها المجتمع الرأسمالى، سيحل محلها التضامن الاجتماعى فى ظل الشيوعية.

حينئذ سيعيش البشر فى ظروف جديدة تماما، سيكون لها أثر على حياتهم، بما فى ذلك مايتصل بالعلاقات بين الرجال والنساء، وفيما بين الرجال، وفيما بين النساء. والنقطة الأكثر أهمية هنا، هى أن الاستقطاب النمطى فى توزيع الأدوارين الجنسين سيختفى، فسوف تقع مهام تربية الأطفال والطهو والتنظيف على عاتق الرجال والنساء معا من خلال أشكال جماعية، ولن يتحملها جنس واحد دون الأخر. وسوف تكون الجنسية المثلية مقبولة مثل العلاقة بين الجنسين، باعتبارها امرا عاديا ومشروعا، تماما كما لاتعتبر اليوم الشخص الأشول أو أحمر الشعر، شخصا غير طبيعى. فقط فى ظل الشيوعية سيتحقق الاحترام لهوية الفرد، ويزول استخدام الشخص من أى الجنسين كموضوع للذة آخر وحسب وحين تنتهى التحيزات الجنسية سيتسنى الاعتراف بإنسانية كل فرد كأمر أساس وجوهرى.

إن موضوع الشيوعية فى النهاية، هو الحرية، ومن المؤكد أن كثيرا من انماط الحياة ستتعايش،وسوف يرجع الأمر للأفراد فى أن يختاروا، مرة ومرات.

هوامش الفصل الخامس عشر

١- ف. انجلز، «أصل الأسرة...» ص ٢٥-٢٦

٢- ف. انجلز،«أصل الاسرة..» ص ٦٨

٣- ف. انجلز «أصل الاسرة....» ص٧٤

٤- ر.بريفولت «الأمهات» (١٩٢٧)

٥- ى. ريد «تطور النساء» (١٩٧٥)

٦- م. بوستر «النظرية النقدية فى الأسرة»(لندن ١٩٧٨) ص١٨٥.

٧- انظر ف. ماونت «الأسرة المدمرة» (لندن ١٩٨٢).

٨- ماركس، رأس المال المجلد (١)، ص ٥٣٦-٥٣٧.

٩- «اتجاهات اجتماعية عام ١٩٧٢».

١٠- م. باريت، «اضطهاد النساء اليوم» (لندن ١٩٨٠) ص١٤٧.

١١- قارن الحقائق المقدمة هنا بأفكار الحركة النسوية، كما فى كلمات جيل تويدى:«إن أى امرأة غنية زوجة وأم يجمعها بأى امرأة فقيرة زوجة وأم أيضا أكثر بكثير مما يجمع الرجل الغنى بالرجل الفقير، حيث أن الرجال يحركون بدخولهم». (ذا جارديان ١٩ يناير ١٩٨١).

١٢- ل. جيرمان «نظريات البطريركية» فى «الاشتراكية الدولية» ١٢:٢ (ربيع ١٩٨١).

١٣- م. س. رايس، «الزوجات فى الطبقة العاملة» (لندن ١٩٨١) ص ١٠٥-١٠٦.

١٤- شارب، ص ٥٤.

١٥- جوردون، ص ٤٠٦. إن امرأة ناجحة جدا فى المهنة، مثل سيمون دى بوفوار، الشخصية النسائية البارزة، هى وحدها التى يمكنها أن تقول مايلى:«أعتقد أن المرأة يجب ألا تقع فى فخ الأطفال والزواج، وحتى اذا أرادت أن تنجب أطفالا، عليها أن تفكر كثيرا فى الظروف التى ستربيهم فيها، لأن إنجاب الأطفال حاليا يمثل عبودية حقيقية فالمجتمع والآباء يتركون للنساء، وللنساء وحدهن، مسئولية تربية الأطفال، فالنساء هن

الملزمات بترك العمل لتربية الأطفال، وهن اللاتي يجب أن يبقين في البيت حين يرض الأطفال، وهن اللاتي يوجه إليهن اللوم حين يفشل الأطفال.

«وإذا بقيت المرأة مصرة على انجاب أطفال، فمن الأفضل أن تنجبهم دون زواج، لأن الزواج هو الفخ الأكبر» (حديث مع سيمون دي بوفوار» الضلع الزائد» ، مارس ١٩٧٧) وبالمناسبة فإن سيمون دي بوفوار لم تنجب أطفالا، فإنجاب الأطفال لم يكن ليبدو لها أقل إغراءا أو أكثر ابداعا من عملها ككاتبة ناجحة.

١٦- ل. جوردون،«النضال من أجل حرية مثمرة:ثلاث مراتب في صفوف الحركة النسوية» في س.ر. ايزنشتاين (إعداد) «البطريركية الرأسمالية وحالة الاتجاه النسائي الاشتراكي» (نيويورك ١٩٧٩) ص ١٢٥.

١٧- أ. أوكلي، «سوسيولوجية شغل البيت» (لندن ١٩٧٤) ص٩٤.

١٨- «أسر المستقبل» ص١٩

١٩- وزارة العمل الأمريكية «نظرة على النساء العاملات» (١٩٨٠) ص ٥٣.٣٠.

٢٠- ج. هنت وس. آدآمز «النساء والعمل والتنظيم النقابي» (لندن ١٩٨٠) ص٨،

٢١- مكتب الاحصاء العمالي الأمريكي «تقارير عن قوة العمل المتميزة» ١٣. ١٣٠، ١٨٣. وكذلك وزارة العمل الأمريكية «نظرة على النساء العاملات». ص٣

٢٢- هـ. هالتر، «الأدوار الجنسية والبنية الاجتماعية» (أوسلو ١٩٧٠) ص ٧٣-٧٤.

٢٣- ماركس، رأس المال، المجلد (١)، ص ٤٦٠.

٢٤- وزارة العمل، «النساء والعمل: عرض» (لندن ١٩٧٥) ص ٤٦.

٢٥- كليج، وفوكس، وتومبسون ص ٤٨٩، وهنت وآدامز ص١٤، وب.س.روبرتس «المؤتمرات النقابية ١٨٦٨-١٩٢١» (لندن ١٩٥٨) ص ٣٧٩.

٢٦- ر. برايس وس.س. بن «عودة لبحث نمو النقابات: ١٩٤٨-١٩٧٤ على التوالي» من «الجريدة البريطانية للعلاقات الصناعية» (نوفمبر

رقم الإيداع

١٩٩١ /٩٢٩٨

977—00-- 2401 1

طبعت بمطابع شركة "الأمل" والنشر
احوال مورهيد
تليفون ٠٩٦-

نقد الحركة النسوانية

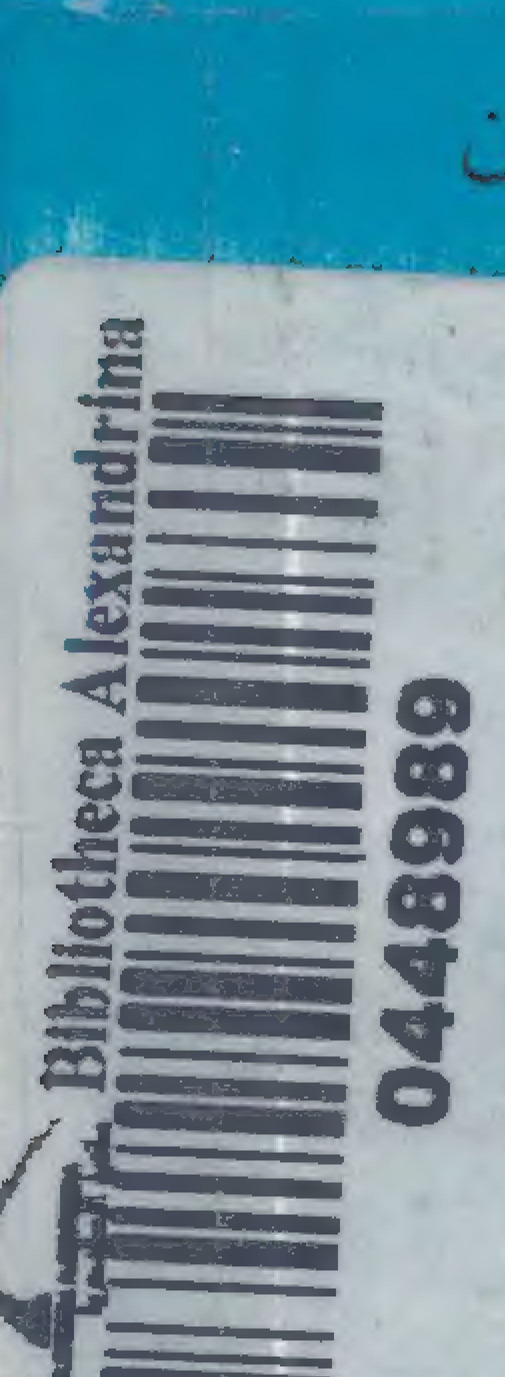
النسوانية « **Feminsm** » هى إتجاه فى الحركة النسائية ترى العالم من منظور انثوى ليس فيه سوى اضطهاد الذكر للانثى ، ومفهومها عن تحرر المرأة هو التخلص من سيطرة الرجل ..

وهذا الكتاب يتصدى لتلك الفكرة ويعتمد مؤلفه تونى كليف فى دحضه لمفهوم النسوانية على التأريخ أكثر مما يعتمد على المناظرة ويثبت من خلال متابعة خبرات الحركات الثورية منذ عام ١٦٤٠ حتى الان أن الحركة النسوانية بالرغم من انتشارها غير قادرة على تحرير المرأة بل انها أصبحت رصيد لدى القوى الرجعية لإبقاء أوضاع الاضطهاد كما هى سواء الواقعة على المرأة أو الرجل .

ويكتسب الكتاب أهمية فائقة خاصة فى المنطقة العربية حيث تتمتع الحركة النسوانية ببريق وسلطان لا بأس به فى الوقت الذى لم تتعرض فيه لنقد جذرى حتى الآن .

ويقدم الكتاب نظرة أخرى لقضية تحرر المرأة تنطلق من أهمية عمل المرأة كخطوة فى طريق تحررها .. وأن التح[illegible] الكامل للمرأة لن يكون إلا بتحرير المجتمع كله بن[illegible] ورجاله من الاضطهاد الواقع على المنتجين وهو طر[illegible] طويل تشترك فى تحقيقه المرأة والرجل معا .

الكتاب بذلك يقدم رؤية جديدة تهم كل المعنيين بحر[illegible] تحرير المرأة المصرية والعربية من كل الاتجاهات سواء ت[illegible] التى ينقدها جذريا أو تلك التى يساندها كصاحبة رسالة [illegible]



★ العنوان الأصلى للكتاب : النضال الطبقى وتحرر المرأة وتم تغييره بمعرفة هيئة التحرير .